BANTAM BOOKS

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

پول سوسمان

مؤلف رواية «السر الأخير للمعبد»

جيش قمبيز المفقود

«مغامرة هائلة...
قصة رائعة كُتبت بعناية فائقة»
فاليريو ماسيمو مانفريدي

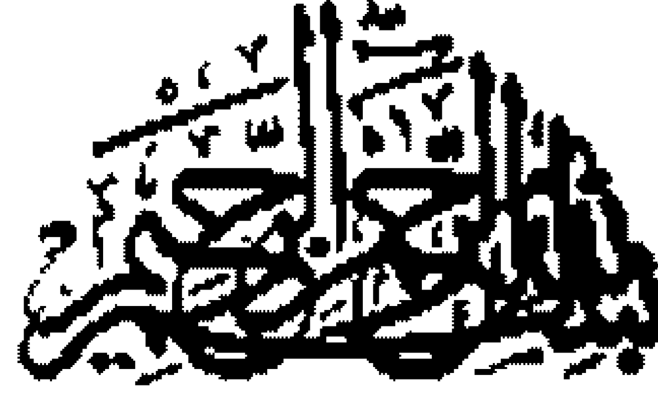
مكتبة مدبولي
Madbouli Bookshop



تليجرام

مكتبة سور الأزبكية

جيش قمبيز
المفقود



يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

THE LOST ARMY OF CAMBYSES

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر

BANTAM BOOKS

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم - ناشرون ش.م.ل.

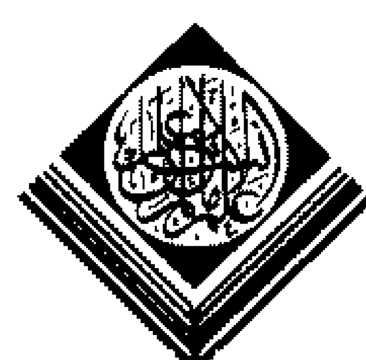
جيش قمبيز المفقود

رواية

تأليف
بول سوسمان
مؤلف السر الأخير للمعبد

ترجمة
حسان ثابت

مراجعة وتحرير
مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى

1428 هـ - 2007 م

ردمك 978-9953-87-349-7



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (961-1)

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (961-1) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611)

إلى الجميلة أليكي، التي تحملتني كثيرا

وإلى أمي وأبي

اللذين لم يدخرا جهدا في دعمي

ولم ينفد صبرهما معي.

كانت طيبة هي نقطة انطلاق الجيش الذي أرسله قمبيز ضد أتباع آمون بصحبة المرشدين، ويمكن العثور على آثار له حتى مدينة الواحات، التي تبعد عن طيبة مسيرة سبعة أيام سيرا في الرمال.

ويشير التقرير العام أن هذا الجيش قد وصل إلى تلك المدينة، ولكن لا توجد أنباء عما حدث له بعد ذلك. من المؤكد أنه لم يصل إلى مقر أتباع آمون، ولم يعد إلى مصر أيضا. ولكن هناك قصة أوردها أتباع آمون وآخرون توضح أنه عندما غادر الجيش مدينة الواحات، وفي أثناء سيره في الصحراء ووصوله إلى منتصف الطريق تقريبا، هبت رياح جنوبية شديدة أثارت أكواما من الرمال على الجيش أثناء تناول وجبة الغداء، وأدت إلى اختفائه للأبد.

هيرودوس – التاريخ – الكتاب الثالث

ترجمة أوبري دو سيلنكو

مقدمة

الصحراء الغربية، 523 قبل الميلاد

كانت الحشرة الطائرة تضايق الرجل اليوناني طوال الصباح، وكأن شدة الحرارة في الصحراء، والمسير على مضض، والطعام السيئ المذاق لم تكن أمورا كافية لتعذيب الرجل اليوناني، فأتت هذه الحشرة لتزيد من عذابه، فما كان منه إلا أن أخذ يصب جام غضبه على كل من حوله، ولطم خده لطمة شديدة، جعلت قطرات العرق تتساقط وكأنها سيل من الماء، ولكن لم تصب الحشرة بسوء.

فبصق قائلا "اللعنة على الحشرات".

فأجابه صديقه "تجاهلها".

"لا يمكنني تجاهلها، فهي تثير جنوني! ولو لم أكن على دراية كافية بالأمور، لقلت إن أعداءنا قد أرسلوا هذه الحشرات علينا".

فهز الصديق كتفه قائلا "لعلهم قاموا بذلك بالفعل. لقد سمعت أن أتباع أمون لديهم قدرات خارقة، فيمكنهم التحول إلى وحوش برية مثل الأسود وأشباهها".

فتمتم اليوناني قائلا "نعم يمكنهم تحويل أنفسهم إلى أي شيء، ولكن عندما أمسك بهم سأذيقهم مرارة هذه الرحلة الشاقة التي استغرقت أربعة أسابيع هنا في هذه الصحراء، أربعة أسابيع كاملة".

وقام بسحب قربة الماء من فوق كتفه، وشرب منها متألما من سخونة الماء ومحتوياته الزيتية. لنتخيل ما الذي قد يدفعه هذا اليوناني مقابل كوب ماء بارد ونقي من ينابيع تلال ناكسوس بدلاً من هذه المياه التي لا تطاق.

"سأكف عن عمل المرتزقة هذا، وهذه ستكون آخر الحملات التي سأشارك فيها".

أجاب صديقه "تردد ذلك دائما".

"ولكنني أعني ما أقوله هذه المرة، سأرجع إلى ناكسوس، وأبحث عن زوجة، وقطعة أرض جيدة، وأعيش وسط أشجار الزيتون فهي ستحقق لي دخلا جيدا".

"لن تطيق ذلك".

"بلى، سأفعل، فالوضع مختلف هذه المرة".

لقد كان الوضع مختلفا بالفعل هذه المرة، حيث أخذ على مدار عشرين عاما يقاتل في معارك تخص آخرين، ويالها من مدة طويلة! إضافة إلى ذلك، لم يعد اليوناني قادرا على تحمل هذه الحملات أكثر من ذلك. كان الألم الناجم عن جرح السهم القديم يزداد سوءا هذا العام، بحيث بالكاد يستطيع حمل درعه فوق مستوى صدره. لهذا كانت هذه هي رحلته الأخيرة، وسيرجع بعدها لزراعة أشجار الزيتون في الجزيرة التي وُلد بها.

تساءل اليوناني وهو يتجرع جرعة أخرى من الماء "هم أتباع آمون على أي حال".

أجاب صديقه "ليست لدي فكرة، إلا أنهم يملكون معبدا يريد قمبيز تدميره، ويوجد هناك كاهن في هذا المعبد، هذا كل ما أعرفه".

تمتم اليوناني بشيء، غير أنه لم يكمل المحادثة. في الحقيقة، لم يكن مهتما بمن يحاربهم سواء كانوا ليبيين أو مصريين أو قاريين أو يهودا أو حتى من بني جنسه من اليونانيين، فالأمر سيان بالنسبة له. لقد كان يقتل من يتعين عليه قتله، ثم ينضم إلى حملة أخرى غالبا ما تكون ضد من قاموا بالدفع له مقابل مشاركته معهم في حملته الأخيرة. اليوم كان سيده هو قمبيز ملك فارس. ولم يكن قد مضى وقت طويل على مشاركته في جيش المصريين ضد قمبيز، فتلك هي طبيعة عمل المرتزقة.

شرب اليوناني جرعة أخرى من الماء شاردا بذهنه في طيبة خلال يومه الأخير فيها قبل الخروج في هذه الرحلة إلى الصحراء، حيث اصطحب صديقه فايديس وأخذ معه قربة من شرابه المفضل، وعبرا نهر إيترو العظيم إلى ما أسموه وادي الملوك؛ الذي دُفن فيه الكثير من الملوك العظماء، وأمضيا فترة ما بعد الظهر في الشرب والاستكشاف، حيث عثرا على مدخل ضيق من الحجارة على سفح منحدر شديد الارتفاع، وقاما بتجميع شجاعتهما والدخول إليه. كانت الجدران والسقف مكسوة بأشكال مرسومة. أخرج اليوناني سكينا، وأخذ يحفر اسمه في الجزء الأملس من الجدار (أنا، ديماكوس، ابن منديز من ناكسوس قد رأيت هذه العجائب، وغدا سأمضي في طريقي إلى أتباع آمون...).

ولكن قبل أن ينتهي، أطلق صديقه صرخة عارمة عندما لسعه عقرب في قدمه، وخـــرج مـــسرعا مـــن المدخل كقطة مذعورة. ولكن، وعلى الرغم من ذلك أخذ في الضحك!

لكن هذا الضحك عاد عليه بالسوء، حيث تورمت قدمه، ولم يتمكن من السير مع الجيش في اليوم التالي، ونجا من أربعة أسابيع من العذاب الشديد في الصحراء. وقال اليوناني مسترجعا هذه الذكرى "يا لصديقي المسكين، ياله من محظوظ!"

ولم يفق من حلم اليقظة هذا إلا على صوت صديقه.

"ديماكوس، ديماكوس!"

"انظر هناك، أيها الغبي، انظر أبعد!"

رفـــع اليوناني عينيه، وبدأ في تتبع صف الحشود، حيث كانوا يمرون عبر واد بين كثبان مرتفعة لم يوارها سوى أشعة الشمس الحارقة في وضح النهار، آخذة شكل صـــخرة هرمية كبيرة متماثلة الجوانب كما لو أنها حُفرت بهذا الشكل عن عمد. لكن ثمـــة شـــيء مريب في هذه الصخرة، فقد كانت صامدة وحدها في الجانب الآخر من المنظر. لم يتمالك اليوناني نفسه، ووضع يده على تميمة إيزيس عند عنقه مرددا دعاء سريعا لصد الأرواح الشريرة.

استمرا في المشي لمدة نصف ساعة أخرى قبل التوقف لتناول وجبة الغداء. في هـــذا الـــوقت، وقـــف صديقه اليوناني بجوار الصخرة، واتكأ عليها، جالسا في طرف ظلها.

"ما هي المسافة المتبقية؟ بحق السماء ما هي المسافة المتبقية؟"

حـــضر الخـــدم بالخبـــز والتين، وأكل الرجال وشربوا، وفكّر بعضهم في حفر أســـمائهم علـــى الصخرة. أراح اليوناني ظهره، وأغلق عينيه مستمتعا بنسمة الهواء المفاجئة، لكن ما لبث أن شعر بالحشرة نفسها على وجنته، ولكن هذه المرة لم يحاول قـــتلها، بـــل ســـمح لها بالتجول على وجهه جيئة وذهابا على شفتيه وعينيه، وأخذت الحـــشرة فـــي الطيران والعودة مرة أخرى، وكأنها تختبر صبره، غير أنه لم يحرك ساكنا مما جعلها تشعر بالأمان. ولكنه أمان زائف، إذ ما إن استقرت على جبهته، حتى رفـــع يده بحرص شديد، وجعلها في وضع استعداد على بعد خمسة عشر سنتمتراً عن وجهه، ثم هوى بها على الحشرة.

صـــرخ قائلاً وهو ينظر إلى ما تبقى منها على راحة يده "قضيت عليك أيتها اللعينة".

غير أن انتصاره لم يدم طويلا، حيث انطلق بوق الإنذار من مؤخرة الصف.

وتساءل اليوناني، وهو يزيل بقايا الحشرة "ماذا هناك؟" وقام ممسكا بسيفه، "هل هناك هجوم علينا؟"

أجاب الرجل الذي يجلس بجواره "لست أدري، ولكن هناك شيء ما يحدث خلفنا".

تزايد الاضطراب، وظهرت أربعة جمال تجرجر أحمالها، والرغوة تسيل من أفواهها. كانت هناك صرخات وأصوات مرتفعة في المكان، وكان الهواء يشتد أكثر وأكثر باتجاه وجه اليوناني، وكانت خصلات شعره تتراقص.

نظر اليوناني إلى جنوب الوادي، وبدا وكأن هناك ظلمة تأتي من ورائهم، واعتقد أنها مجموعة من الفرسان، وفجأة هبت ريح عاصفة مخلفة صرخة عارمة.

فهمس اليوناني "إيزيس".

وقال صديقه "ما هذا؟"

استدار إليه اليوناني والخوف في عينيه، إنها عاصفة رملية.

ولم يتحرك أو يتحدث أي شخص، فكلهم قد سمعوا عن العواصف الرملية في الصحراء الغربية، التي تأتي من المجهول، وتحصد كل ما بطريقها، حتى أنّ مُدنا بأكملها قد اختفت، بل وقيل إنها قضت على حضارات بأكملها.

أخبرهم أحد المرشدين الليبيين الذي كان معهم أنه إذا هبت عاصفة رملية، فإن هناك شيئا واحدا لتفعله!

"ما هو؟"

"الموت"

استنجد أحدهم قائلا "أنقذنا يا إلهي".

فجأة، أخذ الجميع في الجري والصراخ.

"الرحمة، أنقذونا!"

ألقى بعضهم بحمولته، وأخذ يجري في الوادي بجنون، في حين احتمى آخرون بالكثبان الرملية، أو ركعوا، أو انبطحوا محتمين بصخرة الهرم. سقط أحد الرجال ووجهه قبالة الرمال وأخذ في البكاء، بينما سحق الحصان رجلاً آخر وهو يحاول أن يمتطيه.

ولم يثبت منهم سوى اليوناني، فلم يتحرك، ولم يتحدث منتظرا هذه الظلمة المتجهة إليه، وكأنه يستجمع أقصى سرعة لديه. في الوقت ذاته، أخذ الرجال

والحيوانات في التخبط، وشرع الرجال في إلقاء أسلحتهم والفزع يغطي وجوههم.

أخذ الرجال يصرخون "اهربوا، لقد قضت العاصفة على نصف الجيش، اهربوا وإلا فتكت بكم أيضا".

كانت العاصفة في أوجها في هذه اللحظة، تثير الرمال حيث تغطي الرجال حتى خصورهم، إضافة إلى الزئير الصادر عنها، مما تسبب في انسداد العيون. وفي خضم هذا كله، أخذت الشمس في الغروب.

"هيا يا ديماكوس، دعنا نهرب من هنا، فسندفن أحياء لو بقينا هنا".

ظلّ اليوناني لا يحرك ساكنا، ارتسمت على فمه ابتسامة باهتة، فقد شهد حالات مـــوت كثيرة، ولكنه لم يتخيل قطّ هذه الميتة. كان الأمر صعبا عليه، لأن هذه الحملة كانت الأخيرة له. اتسعت ابتسامته، وأخذ في الضحك بصوت خافت.

نادى عليه صديقه "ديماكوس يالك من غبي! ماذا بك؟"

فقـــال له اليوناني بأعلى صوته "اذهب، اهرب إن كنت تريد ذلك! أما أنا فالأمر سيان بالنسبة لي، فأنا سأموت في مكاني هنا".

فاســـتل ســـيفه، ووضـــعه أمامه، ناظرا إلى رسم الأفعى الملتوية المنقوش على شـــفرته البراقة، وفمها مفتوح تجاه النصل. كان اليوناني قد ربح هذا السيف منذ أكثر من عشرين عاما أثناء حملته الأولى ضد اللوذيين، ولم يتخلَ عنه منذ ذلك الوقت، فقد كـــان بمـــثابة تمـــيمة الحـــظ لليوناني. مرر اليوناني إبهامه على شفرة السيف وكأنه يختبرها. أما صديقه فأخذ في الهرب.

بينما كان يهرب، ردد صديقه "يالك من مجنون لعين!"

لكـــن اليونانـــي لـــم يلتفت له، بل أمسك بسيفه بإحكام، وأخذ ينظر إلى الظلام المحدق به والذي سرعان ما سيحل عليه.

كشف عن عضلاته، قائلا "هلمي إليّ، دعنا نرى ما هي حقيقتك".

فجأة، شعر بالدوار الذي غالبا ما ينتابه عند بدء أي معركة نتيجة الخوف الأولي قـــبل الدخول في وطيس المعركة. يبدو الأمر وكأن اليوناني لم يُخلق لزراعة أشجار الزيتون، فقد كان القتال يجري في دمه، ولعل هذا كان الأفضل له. شرع اليوناني في ترديد التعويذة المصرية القديمة التالية لصد الأرواح الشريرة

فليصوب سخمت سهمه ضدك!

فليعمل سحر توت في جسدك!

عليك لعنة إيزيس!

فليعاقبك نيبثث!

فليرمِ حورس رمحه في رأسك!

بعـد فتـرة وجيزة تعرّض اليوناني لصدمة من العاصفة تعادل قوة مائة عربة تجـرها الأحـصنة، ولم يستطع الصمود أمامها، فضلا عن أن عينيه قد امتلأتا ترابا، وتمـزقت ملابسه وظهر جسده. أخذت أشكال مبهجة تظهر في هذه الظلمة، وترنحت الأذرع، واخـتفت الـصرخات وسط الزئير المروع. سقط أحد ألوية الجيش على قدم اليوناني لبعض الوقت قبل أن يتوارى وسط هذا الاضطراب الهائل.

لوّح اليوناني بسيفه بوجه العاصفة، ولكنه لم يقوَ عليها، حيث طرحته على ظهره وجنـبه. وأخيرا جثا على ركبتيه، حيث امتلأ فمه بحفنة من الرمال أدت إلى اختناقه. رغـم ذلك كله حاول اليوناني الوقوف على قدميه مرة أخرى، إلا أنه سرعان ما سقط مرة أخرى، ولكن هذه المرة سقط للأبد، حيث دفنته موجة من الرمال.

ظلّ اليوناني يجاهد ويناضل، ولكن فجأة شعر بشيء من الوهن والهدوء كما لو أنـه يسبح تحت الماء. أخذت الأشكال تدور في مخيلته، وخاصة مدينة ناكسوس حيث وُلـد وتربى، والمقبرة في طيبة، وصديقه فايديس والعقرب، وأولى حملاته، والأعوام الطـويلة التي قضاها في محاربة اللوذيين حيث ربح سيفه. بجهد مضنٍ نجح في رفع سـيفه فـوقه بحيث ظهرت شفرته الغليظة فوق الرمال، وظهر رسم الأفعى الملتوية ليوضح المكان الذي دُفن فيه اليوناني.

1

القاهرة، سبتمبر 2000

خرجت سيارة الليموزين بهدوء عبر بوابة السفارة، سيارة طويلة سوداء كالحوت، وأخذت السيارة في التوقف بين الحين والآخر قبل أن تدخل في ازدحام المرور. كان هناك سائقا دراجات نارية يسيران أمام السيارة وآخران خلفها.

استمر الموكب في طريقه لمائة متر، والأشجار والمباني تحيطان به عن اليمين وعن اليسار، ثم توجه إلى اليمين، وإلى اليمين مرة أخرى إلى كورنيش النيل. كان السائقون الآخرون ينظرون إلى السيارة لمعرفة من بداخلها، غير أن نوافذها السوداء الداكنة لم تظهر سوى خيالين لشخصين بالداخل. في مقدمة السيارة كان هناك علم صغير مشكل من نجوم وخطوط يرفرف على الجهة اليسرى منها.

بعد كيلومتر واحد، وصل الموكب إلى مفترق طرق وجسور علوية، فقام سائقا الدراجتين الناريتين في الأمام بإطلاق آلة التنبيه، وسارا إلى الأمام والسيارة خلفهما عبر طريق معبّدة ومنها إلى ممر مرتفع ليس به كثافة مرورية عالية. في هذه اللحظة زاد الموكب من سرعته متبعا العلامات المؤدية إلى المطار، ومال سائقا الدراجتين الناريتين في الخلف أحدهما تجاه الآخر، وتجاذبا أطراف الحديث.

فجأة حدث انفجار، ولكنه ضعيف الصوت بحيث لم يتضح وجود انفجار أصلا. كان هناك صوت مكتوم، طارت بعده السيارة في الهواء، وسقطت في منتصف الممر مصطدمة بجدار خرساني، تبعه دوي انفجار آخر ولكنه مرتفع الصوت هذه المرة أدى إلى اشتعال النيران من أسفل السيارة، وحينها تبيّن للجميع أن الأمر ليس مجرد حادث سير.

توقف سائقو الدراجات النارية على الفور، وانفتح الباب الأمامي للسيارة، وخرج منه السائق صارخا والنيران مشتعلة في سترته. وحاول اثنان من سائقي الدراجات إطفاءها بوضع سترتيهما على هذا السائق، بينما حاول الآخران الوصول إلى البابين الخلفيين للسيارة حيث كانت الأيدي تستنجد بجنون، وتطرق على الأبواب. تصاعد غطاء من الدخان الأسود معكرا الجو بسبب البنزين والكاوتشوك المحترقين، وأخذت السيارات المارة في الإبطاء والتوقف، وسائقوها ينظرون بذهول إلى هذا الموقف. أخيرا احترق العلم الموجود في مقدمة السيارة وتحول إلى رماد.

2

الصحراء الغربية بعد أسبوع

"اللعنة!"

قالهـا سـائق سيارة التويوتا ذات الدفع الرباعي عندما قفزت السيارة فوق أحد الكثـبان الـرملية وكأنها طائر أبيض قبل أن ترتطم بالأرض مرة أخرى في الجانب الآخر. ظهر وكأن السائق يفقد السيطرة على عجلة القيادة، حيث كانت السيارة تجتاز مـنعطفا خطيرا، إلا أنه تمكّن من السيطرة عليها، ووضعها في مسارها الصحيح مرة أخرى، ووصل إلى أسفل الكثيب. بعدها ضغط على دواسة البنزين قافزا بالسيارة فوق الكثيب الرملي التالي.

ردد السائق "اللعنة، اللعنة، اللعنة".

استمر بالقيادة لمدة عشرين دقيقة أخرى، وصوت الموسيقى ينبعث من سيارة الجـيب، وشعره الأشقر يتراقص في الهواء. فجأة توقف أعلى كثيب رملي عالٍ، وأطفـأ محـرك الـسيارة، وأخذ منظارا، وخرج من السيارة وحذاؤه يغوص في الرمال.

كـان الصمت الرهيب يخيم على الصحراء، والهواء حاراً للغاية، وبدت السماء وكأنهـا ستتهاوى على رأسه. وقف السائق لوهلة ينظر إلى الكثبان الرملية والأحجار الصغيرة المتبعثرة في جميع الأنحاء، وياله من منظر مخيف، يشعرك أنك لست على الأرض، وأنه لا توجد حياة أو حراك على الإطلاق. قام السائق برفع المنظار، ونظر إلى الشمال الغربي.

ظهـر لـه حجـر جيري يشبه الهلال، تتخلله واحة خضراء منتشرة في الجزء الأسـفل منه. كان هناك العديد من القرى البيضاء الصغيرة منتشرة بين بساتين النخيل

والسبخات المالحة، في حين ظهرت بقعة بيضاء كبيرة في أقصى الغرب، تشير إلى إحدى المدن الصغيرة.

قال الرجل مبتسما "سيوة". وهو ينفث دخان السيجارة من أنفه، "حمدا لله".

ظلّ في هذا المكان لبضع دقائق يحرك منظاره في هذا الإتجاه وذاك، ثم عاد إلى السيارة، وشغّل المحرك، فارتفع صوت المسجل مرة أخرى، واستأنف مسيره عبر الرمال.

في غضون ساعة، كان الرجل قد وصل إلى حافة الواحة، حيث ترك الطريق الصحراوية، وبدأ السير في طريق طينية، وقد ظهر عن يمينه ثلاث صوارٍ لمحطة إذاعة، وبرج خرساني لخزان مياه، والتفّ قطيع من الكلاب الضالة النابحة حول السيارة.

قال الرجل ضاحكا "أنا سعيد لرؤيتكِ". وأطلق آلة التنبيه، وانعطف بالسيارة يميناً ويسارا مثيرا سحابة من التراب حتى يتفرق قطيع الكلاب.

استمر في طريقه، حيث مرّ على مكان به ثلاثة أطباق لاستقبال الأقمار الاصطناعية، ومخيم مؤقت للجيش، قبل أن يسير في طريق معبّدة قادته إلى وسط المدينة الكبيرة التي رآها من أعلى الكثيب الرملي؛ مدينة سيوة.

كان المكان شبه مهجور، باستثناء عربتين تجرهما الحمير، وفي الساحة الرئيسية كانت تقف مجموعة من النساء حول كشك لبيع الخضار، والشيلان القطنية الرمادية تتدلى على وجوههن، في حين أن بقية سكان المدينة كانوا في منازلهم هربا من قيظ الظهيرة.

انعطف إلى جانب الساحة، وسار أسفل صخرة مغطاة بمبانٍ منهارة، وأخرج مغلفا من تحت المقعد الخلفي للسيارة، وخرج منها، وسار عبر الساحة غير مكترث بإغلاق أبواب السيارة. توقف عند متجر كبير، وتحدث بإيجاز إلى صاحب المتجر، وأعطاه قطعة من الورق ومقدارا كبيرا من المال، وأشار إلى السيارة، ثم تحرك إلى شارع جانبي، ودخل مبنى مكتوبا على جانبه فندق ويلكم. وبمجرد دخوله، قفز الرجل الجالس خلف المكتب، وهلل من الفرح، وأسرع للترحيب به.

"دكتور جون لقد عدت، تسعدني رؤيتك مرة أخرى".

تحدث باللغة البربرية وأجاب الشاب بنفس اللغة.

"أنا أيضا سعيد برؤيتك يعقوب، كيف حالك؟"

"بخير، وأنت؟"

أجاب الشاب وهو ينفض التراب عن قميصه الذي كتب عليه: أنا أحب مصر

"أريد الاستحمام".

"بالطبع، بالطبع أنت تعرف مكان الحمام".

"للأسف ليست هناك مياه ساخنة، ولكن يمكنك أخذ ما شئت من المياه الباردة".

"محمد، محمد".

ظهر صبي صغير من غرفة جانبية.

"لقد عاد الدكتور جون، أحضر له منشفة وصابونا حتى يأخذ حماما".

أسرع الصبي لتنفيذ الأوامر، ونعله يرتطم بالأرضية الملساء محدثا صوتا عاليا.

"هل تريد أن تأكل يا سيدي؟"

"بالطبع يا يعقوب، لقد كنت أعيش على البقول والأطعمة المحفوظة على مدار الأسابيع الماضية. وفي كل ليلة كنت أحلم بدجاج الكاري الذي يُعده يعقوب".

ضحك يعقوب، وقال "هل تريد رقائق البطاطا معه؟"

"نعم، أريد رقائق البطاطا، وخبزا طازجا، وزجاجة كوكا مثلجة، أريد كل شيء عندك".

ضحك يعقوب مرة أخرى قائلا "لم تتغير يا دكتور جون".

ظهر الصبي، وبيده المنشفة وقطعة صغيرة من الصابون أعطاهما للدكتور جون.

قال الدكتور جون "أريد أن أجري مكالمة هاتفية أولا".

"لا مشكلة، تفضل معي".

أرشده يعقوب إلى حجرة صغيرة مزودة بسماعة معلّقة على حائط إحدى الكبائن.

قام جون بوضع الظرف على الكرسي، ورفع سماعة الهاتف، وطلب الرقم، وظل الهاتف يرن لعدة دقائق قبل أن يرد الطرف الآخر.

حيّاه باللغة العربية، وطلب تحويله إلى...

هنا لوّح يعقوب بيده، وترك جون بمفرده. بعد عدة دقائق عاد يعقوب، وأعطى جون زجاجة كوكا مثلجة، ولكنه كان لا يزال يتحدث على الهاتف، فترك يعقوب الزجاجة أمام الكابينة، وذهب ليحضّر الطعام.

بعد نصف ساعة، كان قد استحم، وحلق ذقنه وشاربه، وسرّح شعره، وظهرت جبهته المحترقة من أشعة الشمس، وجلس في حديقة الفندق في ظل شجرة نخيل وارفة يتناول الطعام بنهم شديد.

سأله "كيف سارت أمورك يعقوب؟" وهو يمسك بكسرة من الخبز ويدور بها في طبق الطعام أمامه.

أجاب يعقوب وهو يرشف من زجاجة الكوكا.

"هل سمعت بما حدث للسفير الأمريكي؟"

"لم أسمع أي شيء، فالأمر بدا وكأنني كنت في كوكب المريخ على مدار الشهرين الماضيين".

"لقد فجروا سيارته".

فأطلق الشاب صفيراً منخفضاً.

تابع يعقوب "حدث ذلك في الأسبوع الماضي في القاهرة في عملية سميت سيف الانتقام".

"هل لقي حتفه؟"

"لا، لقد نجا".

أصدر الشاب صوتا بشعا وقال "للأسف، لو تطهر العالم من كل هؤلاء البيروقراطيين، فسيصبح العالم أفضل. إن دجاج الكاري هذا رائع المذاق يا يعقوب".

في هذا الوقت تحركت فتاتان أوروبيتان من الطاولة الموجودة في أقصى الحديقة ومرتا بيعقوب وجون، وبعد مرورهما، التفتت إحداهما إلى جون، وابتسمت له.

فأومأ برأسه، ردا للتحية.

قال يعقوب "أعتقد أنها معجبة بك".

هزّ جون كتفيه قائلا "ربما، ولكن لو أتت، وحاولت التعرف عليّ، فسأخبرها أنني عالم آثار. إن أول قاعدة في الآثار يا يعقوب هي ألا تخبر أي امرأة عن ماهية عملك، لأنها ستكون بمثابة قبلة الموت بالنسبة لها".

التهم جون كل الطعام الذي أمامه أي الكاري ورقائق البطاطا، وأراح ظهره إلى الوراء، فيما كانت الطيور تزقزق فوق شجرة النخيل التي يجلس تحتها، والهواء الحار يعبق برائحة دخان الفحم واللحوم المشوية.

"إلى متى ستمكث؟"

"سأمكث ساعة أخرى هنا في سيوة!"

"ستعود مرة أخرى إلى الصحراء؟"

"نعم".

هزّ يعقوب رأسه.

"لقـــد مكثت هناك لمدة عام حتى الآن، تعود فقط لتتزود بالمؤن، ثم تختفي مرة أخرى، فماذا تفعل هناك؟"

"أجــري بعض القياسات، وبعض الحفريات، وأرسم خططا، وقد التقطت بعض الصور في الأيام المشرقة".

"وعمّ تبحث هناك؟ أتبحث عن مقبرة؟"

هزّ الشاب كتفه، وقال "نعم يمكنك قول ذلك".

"هل عثرت عليها؟"

"لا أعرف يا يعقوب، ربما نعم وربما لا، فالصحراء تنصب المكائد، بحيث تعتقد أنك حصلت على ما تريد، وفجأة تجد أنك لم تصل إلى شيء، وعلى النقيض قد تعتقد أنك عثرت على شيء ما، ويظهر بالفعل أنك وصلت إليه. فالصحراء دوما ما ندعوها في بلادنا بالمكان اللعين".

حـــاول يعقوب تكرار العبارة باللغة الإنجليزية على نحو أثار ضحك جون، وقام بـــسحب ورقـــة سيجارة، وعلبة من التبغ من جيبه، وقال "نعم إنها كما دعوتها أنت يا يعقوب، وهذا ينطبق عليها وهي في أحسن حالاتها".

قام بلف السيجارة بسرعة، وأشعلها، وأخذ نفسا عميقا، وأرجع رأسه إلى شجرة النخيل، ونفث الدخان بهدوء شديد.

قال يعقوب "أنت تدخن كثيرا من هذا التبغ يا دكتور جون، وهو ما سيقودك إلى الجنون".

"علـــى العكس يا صديقي، فهناك في الصحراء يكون هذا التبغ هو الأمر الوحيد الذي يرجعني لعقلي مرة أخرى".

بعـــد نـــصف ساعة، غادر جون الفندق، والمغلف لا يزال بيده، وكانت الشمس على وشك الغروب عندما توجه ناحية الغرب والشمس تبدو كبرتقالة صفراء. واجتاز طـــريقه عبر الساحة وصولا إلى سيارة الجيب، التي أصبحت مملوءة بصناديق المؤن الآن. فاستقل السيارة، وشغّل المحرك، وسار بها حوالى خمسين مترا حتى وصل إلى مقدمة محطة الوقود الوحيدة في سيوه.

طلـــب من العامل ملأها بالوقود، وكذلك ملأ الحاويات البلاستيكية أيضا، ووضع بعض المياه من الصنبور في الحاويات البلاستيكية المخصصة للمياه.

ألقى للعامل بالمفاتيح، وسار حوالى مائة متر حتى وصل إلى مكتب البريد، وفي الـــداخل قام بفتح المغلف، وأخرج بعض الصور، وتفحصها ثم أعادها مرة أخرى إلى المغلف، وألصقه.

طلب من العامل أن يرسل هذا البريد المسجل.

أخذ العامل المغلف، ووزنه، وأخرج استمارة من الدرج، وبدأ بملئها.

قرأ العامل الاسم المكتوب على المغلف للتأكد من أنه صحيح، البروفيسور إبراهيم الزهير – جامعة القاهرة. أخذ جون نسخة من الاستمارة، ودفع الرسوم، وترك المغلف، وعاد مرة أخرى إلى محطة الوقود، فوجد كل شيء جاهزا، السيارة وحاويات الوقود والمياه، ونظر نظرة أخيرة إلى ساحة السوق، ثم صعد إلى السيارة، وشغّل المحرك، وسار ببطء مغادرا المدينة.

توقف لفترة قصيرة عند طرف الصحراء، ونظر بحزن إلى المدينة مرة أخرى، ثم شغّل المسجل، وانطلق بسيارته عبر الرمال.

بعد شهرين، تم العثور على جثة جون، أو بقايا جثته المحترقة داخل سيارة الجيب المتفحمة. حيث عثر عليها مجموعة من السائحين على بعد خمسين كيلومترا جنوب – شرق سيوة، مقلوبة على سفح أحد الكثبان الرملية، في شكل جسم معدني مهشم وبداخله بقايا إنسان. يبدو أن سيارته انقلبت عند عبوره هذا الكثيب الرملي، على الرغم من أنه لم يكن مرتفعا. والمثير أن هناك بعض الآثار التي تعود لإطارات سيارات أخرى في نفس المكان، وهو ما يوضح أنه لم يكن وحده في مكان الحادث. كانت الجثة في حالة سيئة للغاية بحيث لم يتم التعرف عليها إلا بعد إرسال عينات الأسنان من الولايات المتحدة الأمريكية.

3

لندن، بعد أربعة عشر شهرا

قامـــت الدكـــتور تـــارا مولراي بإزاحة خصلة من شعرها الأصفر عن عينيها، واســـتمرت فـــي الـــسير عبـــر المسند الخشبي. كان الجو حارا، وكانت جالسة تحت المصباح مباشرة وشيء من العرق يكسو جبينها الباهت الأملس. ألقت نظرات خاطفة على الثعابين الموجودة في الحاويات أسفل ثقوب التهوئة، غير أنها لم تعرْها اهتماما، وهـــذا مـــا فعلـــته الثعابين أيضا. كانت الدكتور تارا قد أمضت بالفعل أكثر من أربع ســـنوات تعمل في بيت الزواحف هذا، وبالتالي فقد خف اندهاشها منها على عكس ما كانت عليه في الماضي.

أخـــذت تـــارا تمـــر بحاوية تلو الأخرى تنظر إلى الأصلة الصخرية، والأفعى النافخة، وأفعى السجاد، وأفعى الجابون وأخيرا توقفت أمام كوبرا سوداء الرأس كانت منكمـــشة فـــي ركـــن من الحاوية، ولكن ما إن وصلت تارا إليها حتى رفعت رأسها، وحركت لسانها، وأخذ جسدها الغليظ البني في التحرك يمينا ويسارا كالبندول.

قالـــت الدكتور تارا وهي تضع صندوق وخطاف الثعابين على المسند الحديدي "أهلا جوي"، واستأنفت "كيف حالك اليوم؟" تحسست الأفعى الجانب الأسفل من غطاء الحاوية بشكل فضولي. بينما ارتدت تارا قفازين من الجلد الغليظ ونظارة واقية تحسبا لنفث الأفعى للسم، وهو ما حصل بالفعل.

أمسكت بخطاف الثعابين قائلة "حسنا يا عزيزتي، حان الوقت لتناول الدواء".

مالـــت إلى الأمام، ورفعت الجزء العلوي من الحاوية بشكل جزئي، ثم تراجعت قليلا للوراء، لأن الأفعى رفعت رأسها، وازدادت انتفاخا، وبحركة خاطفة، قامت تارا برفع غطاء الصندوق، ورفعت الأفعى، ووضعتها فيه، وأغلقت الغطاء بإحكام. حصل

كل ذلك دون أن ترفع عينيها عن الأفعى. وما إن دخلت الأفعى إلى الصندوق، حتى أصدرت صوتا يوحي بشعورها بالمكان الجديد الذي وُضعت فيه.

قالت الدكتور تارا "إن هذا لصالحك يا جوي، فلا تغضبي الآن".

من بين كل الثعابين الأخرى، كانت تارا قلقة للغاية من هذه الكوبرا سوداء الرأس، على الرغم من أنها كانت تشعر بهدوء شديد عند التعامل مع أفعى التيابان. لكن مع هذه الكوبرا، كانت تارا تشعر دوما بشيء من الاضطراب، فقد كانت الكوبرا ماهرة وعدوانية وسيئة المزاج. وكانت قد عضت تارا منذ عام، عندما نقلتها من مكانها لتنظيف الحاوية، حيث حملتها بالخطاف ولكن نزلت بها إلى الأسفل، وتمكنت الكوبرا من الالتفاف، وعضتها في يدها العارية من الخلف. لحسن الحظ لم تنفث فيها السم، ولكن على الرغم من ذلك أثارت هذه العضة خوف تارا، لأنه على مدار قرابة العشر سنوات من عملها مع الزواحف، كانت هذه هي العضة الأولى التي تتعرض لها. منذ تلك اللحظة، وهي تعاملها بحرص شديد، ودوما ما ترتدي قفازين عند التعامل معها، وهو ما لم تكن تفعله مع الثعابين الأخرى. بعد نقلها إلى الصندوق، تأكدت تارا من أن الغطاء محكم الإغلاق، ثم رفعت الصندوق بعيدا عن المسند الخشبي، وتحسست طريقها بحرص شديد وهي تمضي في خطواتها عبر الممر وصولا إلى مكتبها. أثناء سيرها، شعرت بالكوبرا تتحرك في الصندوق، فأبطأت خطواتها حتى لا تثيرها أكثر من ذلك، وتابعت سيرها دون إحداث أي حركة غير ضرورية.

كانت مساعدتها ألكسندرا تنتظرها داخل المكتب، وقامتا معا بإخراج الكوبرا من الصندوق، ووضعها على منضدة طويلة، وأمسكت بها ألكسندرا في وضعية مستقيمة، بينما انحنت تارا قليلا لفحصها.

قالت تارا "من المفترض أنها شُفيت الآن". وأخذت تنظر إلى موضع في وسط ظهر الكوبرا حيث كانت إحدى قشور ظهرها متورمة ومتقرحة. وأضافت قائلة "مازالت تقوم بحك هذا الجزء بالحجر الموجود في الحاوية، أعتقد أن علينا تفريغ الحاوية تماما حتى يلتئم هذا الجزء".

قامت تارا بأخذ قليل من المطهر من الخزانة، وبدأت بتنظيف الجرح بلطف، فيما أخذت الكوبرا تحرك لسانها، وعيناها السوداوان تحملقان إلى أعلى بشكل يبعث على الريبة.

سألت ألكسندرا "ما هو موعد طائرتك يا تارا؟"

أجابت تارا وهي تنظر إلى ساعة الحائط "عند الساعة السادسة، أعتقد أنني سأغادر فور انتهائي من هذه الكوبرا".

قالت ألكسندرا "أتمنى لو كان أبي يعيش بالخارج، لا شك أن العلاقة بيني وبينه كانت لتأخذ شكلا أكثر غرابة".

ابتسمت تارا قائلة "هناك أوصاف عديدة للعلاقة بيني وبين أبي، ولكن الغرابة ليست إحدى هذه الصفات. توخي الحذر عند رأس الكوبرا".

في هذه اللحظة، كانت تارا قد انتهت من تطهير الجرح، ووضعت بعضا من المرهم على إصبعها، وحركته على طول جانب الكوبرا.

"يتعين تطهير الجرح كل يومين أثناء فترة تواجدي بالخارج، وعليك استعمال المضاد الحيوي حتى يوم الجمعة، فأنا لا أريد أن ينتشر التقرح في جسدها، أتفهمين يا ألكسندرا؟"

"نعم. رجاء حاولي الاستمتاع بوقتك".

"سأتصل في نهاية الأسبوع للتأكد من عدم وجود أي مشاكل".

"هلاّ توقفت عن القلق يا تارا؟ كل شيء سيكون على ما يرام. فالحديقة يمكنها البقاء بدونك فترة الأسبوعين اللذين ستمضينهما بالخارج".

ابتسمت تارا. فقد كانت ألكسندرا محقة، حيث إن تارا كانت قلقة للغاية حيال عملها، وهي صفة ورثتها عن والدها. كانت هذه الإجازة هي الأولى من نوعها على مدار عامين كاملين، وكانت تدرك أن عليها الاستمتاع بها قدر المستطاع. أمسكت تارا ذراع ألكسندرا بقوة، قائلة "أعرف أن ردود أفعالي مبالغ فيها".

أجابت ألكسندرا "لقد قصدت أن الثعابين لن تفتقدك، فهي تفتقر إلى المشاعر".

فنظرت إليها تارا بسخرية قائلة "كيف تقولين ذلك عن صغاري؟ فهم سيبكون كل ليلة سأقضيها بعيدا عنهم".

ضحكتا معا، وأمسكت تارا بخطاف الثعابين، ووضعت الكوبرا في الصندوق مرة أخرى.

"هل ستكونين بخير إذا أرجعتها وحدك إلى الحاوية؟"

أجابت ألكسندرا "نعم، هيا فلترحلي أنت".

التقطت تارا معطفها والقبعة، واتجهت نحو الباب.

"تذكري يا ألكسندرا، المضاد الحيوي حتى يوم الجمعة".

أجابت ألكسندرا "بالله عليك اذهبي".

"ولا تنسي رفع الحجر من الحاوية الخاصة بالكوبرا".

"يا الله تارا!"

قامت ألكسندرا بجذب قطعة قماش، وألقت بها بوجه تارا، فضحكت تارا، وهرولت نحو الممر.

قالت تارا "تأكدي من وضع النظارة الواقية عند وضع الكوبرا في الحاوية، فأنت تعرفين إلى أي مدى تصير الكوبرا عصبية بعد أخذ الدواء!"

كانت زحمة السير في أوجها عند الظهيرة، إلا أنها شقت طريقها وسطها بسهولة ويسر، وعبرت منطقة التايمز وصولا إلى جسر فوكس هول، ثم سارت بأقصى سرعة على طول الميلين الأخيرين في طريقها إلى بركستون. كانت بين الحين والآخر تنظر إلى ساعتها، فلم يتبقَ سوى أكثر من ثلاث ساعات بقليل على موعد الطائرة، ولم تكن قد حزمت أغراضها بعد.

تمتمت وهي تعتمر القبعة "اللعنة".

لقد كانت تارا تعيش وحدها بشقة خلف حديقة بروك ويل، اشترتها منذ خمس سنوات بأموال تركتها لها أمها، وكانت أعز صديقاتها جيني تقطن معها كمستأجرة للغرفة الخاوية.

لمدة عامين متواصلين كانتا تعيشان الحياة كما تحلو لهما دون الدخول في أي ارتباطات جادة. ثم قابلت جيني شخصا يُدعى نيك، ولم يمضِ وقت طويل حتى استقرا، وعاشا معا تاركين تارا تتولى أمر الشقة وحدها. كانت أقساط الرهن عبئا ثقيلا عليها، إلا أنها لم تعمد إلى تأجير غرفة جيني لشخص آخر، لأنها كانت مستمتعة بكل هذا الفراغ وحدها، ودوما ما كانت تسأل نفسها، هل يمكنها العثور على رجل تستقر معه كما فعلت جيني. لقد كان هناك شخص في الماضي تهتم بأمره كثيرا، ولكن انتهى الأمر على أي حال، وأصبحت مستمتعة بالعيش بمفردها.

كانت الشقة في فوضى عارمة عند دخول تارا. سكبت لنفسها كوبا من شرابها المفضل، وهي تستمع إلى مطربها المفضل، وتوجهت إلى الهاتف حيث ضغطت على زر التشغيل، وسمعت صوتاً آلياً لسيدة تقول "لديك ست رسائل".

كانت اثنتان منها من نايجل، وهو صديق قديم من الجامعة. الأولى يدعوها فيها لتناول العشاء مساء السبت، والثانية ليلغي هذه الدعوة لأنه تذكر أن عليها السفر في هذا التوقيت. بالإضافة إلى رسالة من جيني تحذرها من ركوب الجمال لأن أصحابها لا يحسنون التعامل معها، ورسالة أخرى من المدرسة تؤكد على المحادثة التي تمت

في وقت سابق حول الكفّ عن التعامل مع الثعابين، ورابعة من هاري سمسار بالبورصة ظل يلاحقها لأكثر من شهرين دون ردٍّ منها. والرسالة الأخيرة كانت من والدها.

في هذه الرسالة طلب منها والدها أن تحضر له شرابه المفضل وجريدة التايمز، وأن تتصل به إذا حدثت لها أي مشكلة. وإذا سارت الأمور على ما يرام، فسيلتقيها في المطار، وأخبرها أنه يتطلع للقائها.

ضحكت تارا قائلة "لطالما كان غريبا عندما يريد قول شيء عاطفي". وكغيره من الأكاديميين، كان البروفيسور مايكل مولراي يسبح في عالم الأفكار، وكانت المشاعر عائقا أمام هذه الأفكار، ولهذا السبب انفصل هو ووالدة تارا لأنه لم يكن قادرا على احتوائها عاطفيا. حتى أنه عند موتها منذ ستة أعوام لم يتمكن من إظهار مشاعره إلا بصعوبة. في جنازتها، جلس في الخلف بلا أي تعابير على وجهه، غارقا في أفكاره، وغادر بعد الجنازة مباشرة لإلقاء محاضرة في جامعة اكسفورد.

ما إن انتهت تارا من شرابها المفضل، حتى توجهت إلى المطبخ، لتملأ الكوب مرة أخرى، وشعرت بأن عليها ترتيب الشقة، ولكن الوقت ضيق للغاية، فاكتفت بإزالة القمامة، وغسل الأطباق قبل الذهاب إلى غرفة النوم، لحزم أمتعتها.

يجدر بالذكر أنها لم ترَ والدها منذ عام تقريبا، أي منذ آخر زيارة له لإنجلترا. فقد انحصرت العلاقة بينهما على التحدث عبر الهاتف، وهي المحادثات التي كانت تأخذ شكلا تقليديا أكثر منه ألفة ومودة. فقد كان يخبرها ببعض الأشياء التي اكتشفها أثناء التنقيب أو عن دورة كان يُدرِّس بها. أما هي فقد كانت تتحدث عمّا حدث لبعض أصدقائها، وعن بعض الأشياء في العمل، ولم تستمر أي من هذه المحادثات أكثر من دقائق قليلة. وكان والدها يرسل لها بطاقة معايدة كل عام، وفي كل عام تصل متأخرة عن موعدها أسبوعا كاملا.

لهذا كانت مندهشة عندما اتصل بها والدها في الشهر الماضي ودعاها للإقامة معه لبعض الوقت. كان قد أمضى بالخارج أكثر من خمسة أعوام، وتلك كانت المرة الأولى التي يدعوها فيها للبقاء لبعض الوقت.

قال لها والدها في تلك المكالمة "لم يعد هناك مزيد من الوقت، لماذا لا تأتين إليّ؟ حيث يمكنني أن أريك بعض المناظر الجميلة".

كان انطباعها الأول هو القلق، فهو رجل مسن في السبعين من عمره، ولديه قلب ضعيف، ولهذا يعيش على الدواء بشكل مستمر. لعل هذا العرض هو الطريقة المثلى

لإخبارها بأن صحته تتدهور، وأنه يريد بعض السكينة قبل الموت. عندما سألت عن صحته، أكد لها مرارا وتكرارا أنه في أتم الصحة، وأن الأمر لا يتعدى رغبته في قضاء بعض الوقت معها كوالد وابنته.

لقد كان تصرفه غريباً هذه المرة، وهذا ما أثار شكوكها، إلا أنه لم يكن هناك شيء تخسره، فاشترت تذكرة طيران، وأخبرته أنها ستأتي إليه، مما أثلج صدره كثيرا.

علّق قائلا "رائع، سنحظى بوقت جميل كالأيام الخوالي".

نظرت تارا نظرة خاطفة إلى ملابسها الملقاة على السرير، وحزمت منها ما تريده، ووضعته في حقيبة سفر كبيرة، وشعرت بأنها تريد تدخين سيجارة، إلا أنها قاومت هذه الرغبة، لأنها كانت قد أقلعت عن التدخين منذ عام تقريبا، ولم تكن ترغب في العودة إليه مرة أخرى، إن لم يكن لأجلها هي فلأجل الحصول على المائة جنيه الإسترليني التي وعدتها جيني بها إن أقلعت عن التدخين لمدة عام. بدلا من تدخين السيجارة، فعلت ما اعتادت عليه دوما عند رغبتها في التدخين، وهو أن ذهبت إلى الثلاجة، وأحضرت مكعب ثلج، وامتصته بدلا من التدخين.

سألت نفسها، أكان ينبغي عليها شراء هدية لوالدها أم لا؟ ولكن على أي حال كان الوقت ضيّقاً للغاية، وبالتالي حتى لو اشترت له هدية، فلم تكن لتعجبه. لقد تذكرت خيبة الأمل الشديدة التي منيت بها بعدما أمضت أسابيع طويلة تفكر في الهدية التي ستحضرها له في العيد، والتي ردّد عندما فتحها: آه، يا لها من هدية رائعة يا عزيزتي! إنها هدية لطالما أردت الحصول عليها، ثم غاص في أوراقه مرة أخرى. كانت قد أحضرت له شرابه المفضل وعددا من صحيفة التايمز بالإضافة إلى كريم مرطب لما بعد الحلاقة.

قامت بإضافة بعض الأغراض الأخرى إلى الحقيبة، ثم ذهبت لتستحم. كان جزء منها يخشى هذه الرحلة، فهي كانت تعلم أن الأمر سينتهي بينهما بجدال، مهما حاولا تجنب ذلك. في نفس الوقت لم تتمالك نفسها من السعادة، لأنه قد مضى عليها وقت طويل دون أن تسافر، وحتى إن ساءت الأمور، فسيمكنها الاعتناء بنفسها لبضعة أيام، فهي لم تعد طفلة تعتمد على والدها، وإنما هي فتاة راشدة يمكنها فعل ما تريد، ومن ثم زادت سخونة المياه، وعندما انتهت من الاستحمام استرخت قليلا.

بعد ذلك، أغلقت كل نوافذ الشقة، وخرجت، وأوصدت الباب وراءها. كان الظلام قد حل بالفعل، وبدأت الأضواء في السطوع مما أضاء الأرصفة تحت أعمدة الإضاءة

فـــي الــشوارع. في الغالب كان هذا الطقس يصيبها بالكآبة، ولكن الأمر لم يكن كذلك هذه الليلة.

تفحـــصت تارا جواز سفرها وتذكرة السفر، وتوجهت إلى المطار ووجهها تعلوه البسمة. وكان من الواضح أن درجة الحرارة في القاهرة مرتفعة في هذا الوقت.

4

القاهرة

إكبار العجوز "لقد حان وقت الإغلاق الليلة يا صغيرتي، هيا فلتذهبي إلى بيتك، أينما كان".

وقفت الفتاة الصغيرة بلا حراك تعبث في شعرها، ووجهها تملؤه القذارة، والمخاط يسيل من أنفها.

"هيا اذهبي، ويمكنك المجيء غدا لمساعدتي إن أردت".

لم ترد الفتاة، وظلت تحملق به، فما كان منه إلا أن تقدم خطوة نحوها، وكان يعرج عرجا شديدا، ويتنفس بصعوبة.

"لا يساورنك الشك يا صغيرتي، فأنا رجل عجوز ومتعب".

في هذا الوقت كانت أضواء المتجر على وشك الانطفاء، باستثناء مصباح صغير يشع ضوءا خافتا، ولكن الظلال كانت واضحة. وكانت التحف الأثرية تغوص في الظلام وكأنها تغوص في الماء. في هذه الأثناء، وصل إلى مسمعه صوت آلة تنبيه لدراجة بخارية صغيرة من خارج المتجر، وصوت شخص يطرق الباب.

تقدم إكبار خطوة أخرى، وبطنه المنتفخ يتدلى أمامه من تحت الجلباب. كان هناك شيء مخيف في أسنانه البنية المسوسة والضمادة السوداء التي تكسو عينه. وعلى الرغم من ذلك كان صوته عطوفا، ولم تخف الفتاة الصغيرة منه.

"هل ستذهبين إلى البيت أم لا؟"

فهزت الفتاة رأسها.

فقـــال لهـــا وهو يتوجّه إلى مقدمة المتجر "حسنا، في هذه الحالة، سأغلق عليك المتجر لتقضي الليلة هنا، وبالتأكيد الليل هو الوقت الذي تظهر فيه الأشباح".

وقف عند الباب، وأخرج كومة من المفاتيح من جيبه.

ســـأل الفتاة "هل أخبرتك عن الأشباح؟ أنا متأكد أنني أخبرتك، فهي موجودة في كـــل متاجـــر التحف، فعلى سبيل المثال يوجد جنّي يسمى الغول"، وأشار إلى مصباح نحاســـي أصـــفر على الرف، "يبلغ عمره عشرة آلاف عام، ويمكن أن يتحول إلى أي شكل يريده".

حملقت الفتاة في المصباح.

"هل ترين هذا الصندوق الخشبي القديم في الركن هناك، هذا الصندوق ذو القفل الكبير والسلاسل الحديدية الملتفة حوله؟ يوجد بداخله تمساح أخضر كبير، ينام بالنهار، ويستيقظ ليلا للبحث عن الأطفال لكي يأكلهم، حيث يمسك بهم بفمه، ويبتلعهم بأكملهم".

عضت الفتاة على شفتيها، وعيناها تجولان بين الصندوق والمصباح.

"وهـــذه الـــسكين المعقوفة المعلقة على الحائط هناك، إنها ترجع إلى أحد الملوك الأشـــقياء، حـــيث يعـــود كل ليلة، ويأخذها، ويقطع رقبة من يقابله. يا للهول! إن هذا المتجر مليء بالأشباح.

إذا كنت تريدين البقاء هنا الليلة يا عزيزتي، فعلى الرحب والسعة".

ضـــحك الرجل ضحكة خافتة، وفتح الباب محدثا صوتا نتيجة الجرس الموجود علـــيه، فـــتقدمت الفـــتاة بضع خطوات معتقدة أنه سيغلق عليها المتجر. وما إن سمع حركتها حتى استدار، ورفع يده وكأنها مخالب، وأصدر صوتا مخيفا، فصرخت الفتاة، ثم ضحكت، وهرولت إلى مؤخرة المتجر حيث اختبأت خلف سلتين قديمتين.

فهل كانت تريد لعب الغميضة؟

أسرع الرجل العجوز يجري وراءها وهو يعرج ويبتسم، ويالها من مهمة صعبة أن تختبـــئ الفـــتاة مـــن إكـــبار، فعلى الرغم من أن له عينا واحدة، إلا أنه يرى بها بوضوح، بحيث لا يستطيع أحد الاختباء منه.

كـــان الـــرجل يـــرى الفتاة وهي مختبئة خلف السلتين، تنظر من فتحة موجودة بيـــنهما، غيـــر أنه لم يرد إفساد فرحتها سريعا، فتعمد المرور بجوارها، وفتح أبواب خزانة خشبية قديمة.

"هل أنتِ هنا؟"

وتظاهر أنه يبحث عنها في الخزانة.

"لا، ليست هنا، إنها أمهر مما أعتقد".

أغلق الخزانة، وذهب إلى حجرة في مؤخرة المتجر، وأصدر أصواتا عالية وهو يفتح الأدراج ويغلق الكبائن بعنف.

"هل أنت هنا يا صغيرتي، هل تختبئين في مكتبي السري؟ يا لها من فتاة ماهرة!" بقي بالداخل لبعض الوقت قبل أن يخرج ثانية ويقف مباشرة أمام السلتين، وكان يسمع صوت الضحك الخافت للفتاة.

"فلأفكـــر الآن، إنهـــا ليست في الخزانة، أو المكتب، وأنا متأكد أنها ليست غبية للاختباء في الصندوق الخشبي، فلم يتبقَ سوى مكان واحد للاختباء وهو خلف السلتين، فلنر ما إذا كان إكبار العجوز محقا أم لا".

فمـــال ناحية السلتين، وفي نفس اللحظة صدر صوت الجرس المعلق على الباب مـــشيرا إلـــى دخـــول شخص ما، فاستقام إكبار مرة أخرى، واستدار ناحية الباب فإذ برجلين يدخلان فقال لهما "لقد كنا على وشك الإغلاق، ولكن إذا كنتما تريدان مشاهدة التحف فخذا وقتكما".

اللافـــت أن الـــرجلين تجاهلاه تماما. وكان الرجلان في العقد الثاني من العمر وملتحين ويرتدي كل منهما جلبابا أسود، وغطاء رأس أسود يتدلى حول جبهة الرأس. نظرا إلى المتجر لبعض الوقت، ثم خرج أحدهما، وأشار إلى رجل آخر أبيض البشرة أتى في عقبهما.

سأله إكبار "هل يمكنني مساعدتكم؟ هل تبحثون عن شيء محدد؟"

كان الرجل الثالث ضخم الجثة، وطويل القامة، وعريض المنكبين، حتى أن حلة الكـــتان التـــي يـــرتديها بدت صغيرة عليه، حيث بالكاد تتسع لكتفيه القويتين، وفخذيه العريضين. كان يمسك ببقايا سيجار مشتعل في يد، وحقيبة جلدية بنية صغيرة في اليد الأخـــرى مكـــتوب علـــيها الحرفين C D. كان نصف وجهه الأيسر بداية من جبهته ووصـــولا إلـــى فمه تقريبا مكسوا بعلامة زرقاء خلقية. وعند هذه اللحظة، بدأ إكبار يشعر بالخوف.

كرر سؤاله مرة أخرى "هل يمكنني مساعدتكم؟"

فقام الرجل الضخم بإغلاق باب المتجر برفق، ووضع المفاتيح في القفل، وأومأ إلى صاحبيه اللذين توجها ناحية إكبار بلا أدنى تعبير على وجهيهما.

تراجع إكبار حتى وصل إلى المنضدة.

"ماذا تريدون؟ وأخذ يسعل، ويقول أرجوكم ماذا تريدون؟"

تقدم الرجل الضخم، ووقف أمام إكبار بحيث كان على وشك الالتصاق به، ونظر إليه لدقيقة وهو يبتسم، وأخرج السيجار من فمه، ووضعه في عين إكبار المكسوة بالضمادة. فصرخ إكبار، ووضع يده أمام وجهه.

قال وهو يسعل "أرجوك، أرجوك، ليس معي نقود، فأنا رجل فقير!"

فأجابه الرجل الضخم "لديك شيء يخصنا، قطعة أثرية أتت إليك بالأمس، أين هي؟"

وضع إكبار ذراعيه على رأسه قائلا "لا أدري عما تتحدث، أنا لا أملك أي قطع أثرية، إن الاتجار بها غير قانوني".

أشار الرجل الضخم إلى صاحبيه اللذين أمسكا بالرجل العجوز، ورفعاه ورأسه ملفوفاً بحيث يلامس خده كتفه، وكأنه يحاول الاختباء. تدلى غطاء وجه أحد الرجلين مظهرا ندبة كبيرة في وسط جبهته الملساء والشاحبة وكأن هناك دودة ماصة للدماء ممسكة بهذا الجلد. وكان منظر هذه الندبة وحده كافيا لإثارة خوف إكبار.

ردد إكبار "أرجوك، أرجوك!"

فسأله الرجل "أين قطعة الآثار؟"

فرد إكبار "أرجوك، أرجوك!"

فتمتم الرجل الضخم ببعض الكلمات، ثم وضع الحقيبة الجلدية على الأرض، وأخرج منها شيئا يشبه المالج، وكانت شفرته غير ماضية باستثناء الأطراف اللامعة التي تشير إلى أنها مشحوذة للتو.

وسأله "هل تعرف ما هذا؟"

كان إكبار يحملق في الشفرة، والرعب يكتم صوته.

أجاب الرجل الضخم "إنه مالج للتنقيب عن الآثار، نستخدمه لإزالة التربة السوداء على هذا النحو". وأخذ يحرك المالج جيئة وذهابا، أمام خد إكبار المرعوب، "وله العديد من الاستخدامات الأخرى أيضا".

قام بحركة سريعة لا تتناسب مع رجل بضخامته، ورفع المالج، وهوى به على خد إكبار، ففتحه وكأنه شفتان والدم يتساقط بغزارة على جلباب الرجل العجوز. أخذ إكبار في الصراخ محاولا الإفلات.

قال الرجل الضخم "الآن سأسألك مرة أخرى، أين قطعة الآثار؟"

هناك خلف السلتين، كانت الفتاة الصغيرة تدعو أن يخرج الغول والجني لمساعدة الرجل العجوز.

هبطت الطائرة بعد منتصف الليل.

قالـــت المضيفة لتارا وهي تخرج من الطائرة وتلفحها موجة هواء حارة "مرحبا بك في القاهرة، نتمنى لك إقامة ممتعة".

كانـــت الـــرحلة هادئـــة، حيث جلست تارا على المقعد قرب الممر بجانب اثنين ارتـــسم علـــى وجهـــيهما القلـــق أخذا يحذرانها طوال النصف الأول من الرحلة من اضـــطرابات المعـــدة التـــي ستعاني منها جراء الطعام المصري، ولكن لحسن الحظ غالبهما النعاس في النصف الثاني من الرحلة. من جانبها طلبت تارا كوبين من شرابها المفضل، وشاهدت نصف الفيلم المعروض في الطائرة، ثم اشترت زجاجة أخرى من شرابها، وأرجعت مقعدها للخلف، وأخذت تنظر إلى السقف. أرادت أن تدخن سيجارة كمـــا كانـــت عادتهـــا عـــندما تسافر، ولكنها طلبت مكعبات الثلج، وتناولتها بدلا من السيجارة.

كـــان والـــدها يعمل في مصر منذ أن كانت طفلة صغيرة، حيث كان من أشهر علماء الآثار المصرية في هذا الوقت كما قال عنه أقرانه. وكان يقيم في مصر بصحبة بيتـــري وكارتـــر، كمـــا أخبرها أحد أصدقائه من قبل، وأضاف أن والدها هو أفضل شخص على الأرض يعرف أخبار المملكة القديمة.

من المفترض أن تفخر تارا بذلك، ولكنها كعادتها استقبلت الثناء ببرود شديد، كما كانت تفعل عند سماعها بإنجازات أبيها الأكاديمية. فكل ما تتذكره منذ نعومة أظافرها أن أباها كان غارقا في التفكير في عالم اختفى منذ 4000 عام حتى أكثر من استغراقه فـــي التفكير في أسرته. حتى أن اسمها تارا مشتق في الأصل من اسم ابن إله الشمس المصري رع.

فـــي كل عام كان والدها يسافر إلى مصر للقيام ببعض الحفريات لمدة شهر في الـــبداية، وكان هذا الشهر هو شهر نوفمبر على أن يعود قبل الأعياد. ولكن مع مضي الوقت وفتور العلاقة الزوجية، أخذ والدها يقضي وقتا أطول في مصر.

كانت والدتها تقول "إن والدك يرغب في الزواج من سيدة أخرى اسمها مصر". من المفترض أنها مزحة، إلا أنها ووالدتها لم تضحكا عليها قطّ.

بعد ذلك أصيبت والدتها بالسرطان، وتدهورت صحتها بشكل سريع، وكانت هذه الفتـــرة هـــي الفترة التي بدأت فيها تارا بكره والدها، فعلى الرغم من اشتداد المرض على والدتها، إلا أن أباها ظل بعيدا، ولم يكلف نفسه عناء قول بعض كلمات المواساة، وكأنـــه رجل يفضل المقابر والقطع الأثرية على من هم من لحمه ودمه. قبل أيام قليلة

مـــن وفاة والدتها، اتصلت تارا بوالدها، وصبت جام غضبها عليه، وحتى في الجنازة التقـــيا مـــع بعـــضهما علـــى مضض، وغادر بعدها إلى مصر بشكل دائم حيث يقوم بالـــتدريس فـــي الجامعـــة الأمريكية بالقاهرة لثمانية شهور، ويقضي الشهور الأربعة الأخرى في أعمال التنقيب. ولم يتحدثا مع بعضهما لمدة تزيد عن العامين.

لكـــن علـــى الـــرغم من ذلك كله، كانت هناك ذكريات جميلة تتذكرها تارا عن والـــدها. فعلـــى ســـبيل المثال، عندما كانت طفلة كانت تبكي كثيرا للحصول على ما تريده، وكان أبوها يقوم بحركة سحرية مضحكة لإسكاتها حيث يقوم بإخفاء إبهامه من يده، وكانت تارا تضحك كثيرا، وتطلب منه أن يعيد القيام بذلك مرارا وتكرارا، وهي تحملـــق بدهـــشة كلما فعل ذلك، وتضحك بلا توقف عندما يرفع يده في الهواء، وكأنه يتخلص من هذا الإصبع.

كانت أفضل ذكرياتها على الإطلاق تلك الخاصة بصباح ذكرى مولدها الخامس عشر حيث استيقظت وبجوارها مغلف على رف الموقد، وعندما فتحته، وجدت بداخله مفـــتاح لغز لصندوق من صناديق الكنوز، جعلها تدور في كل أرجاء المنزل والحديقة قـــبل أن تـــصعد إلـــى علية المنزل وتكتشف وجود عقد ذهبي مخفي داخل صندوق صغير. كان كل مفتاح لغز موضوعا على شكل مقطع شعري مكتوب على مخطوطة ورقـــية تحـــتوي علـــى رسوم ورموز لتزيد من الغموض. لا شك أن والدها استغرق ســـاعات لإعـــداد هذا الأمر. في وقت لاحق من نفس اليوم اصطحبها والدها لتناول العشاء بالخارج، وأخذ يسرد لها قصصا رائعة عن الحفريات والاكتشافات والإنجازات الأكاديمية التي حققها.

ومال عليها قائلا "أنت جميلة يا تارا، وعدّل لها وضعية العقد الجديد، الذي كانت قد ارتدته خصيصا لهذه المناسبة، أنت أجمل فتاة في العالم، أنا فخور بك".

لقـــد كانت مثل هذه اللحظات الجميلة رغم قلتها وتباعدها، هي التي وازنت بين بـــرود والدها العاطفي وانطوائه على نفسه من ناحية، وارتباطها وتعلقها به من ناحية أخرى. كانت هذه اللحظات أيضا، السبب في اتصالها به منذ عامين بعد جنازة والدتها لكسر حدة الجمود بينهما، وهو ما كان بالفعل، حيث انكسر هذا الجمود، والآن هي في طريقها لرؤيته.

فلقـــد كانـــت تعرف أنه يوجد داخل هذا الرجل المليء بالعيوب شخص رقيق، يحـــبها ويحتاج إليها أيضا، وكانت تأمل أن يتغير الوضع هذه المرة كعادتها دائما في كـــل مرة تلتقيه فيها. فالأمر لن يصل إلى شجار أو عراك أو امتعاض، وإنما سيكون

سعادة وطمأنينة وهما بصحبة بعضهما، كما هو الحال بين أي والد وابنته. وربما يتمكن هذه المرة من إنجاح الأمور بينهما.

عند هبوط الطائرة، فكّرت تارا أنها فرصة لكل منهما، ولكنني أعرف أنني سأكون سعيدة لرؤيته، غير أن الحال سيتغير بعد خمس دقائق، ويتحول إلى جدال مرة أخرى.

قال لها من يجلس بجوارها في الطائرة مازحا "أعتقد أنك تعرفين أن معظم الطائرات تسقط عند الهبوط أكثر مما يحصل عندما تكون في حالة طيران!"

بالتأكيد، أسرعت تارا، وطنبت مزيدا من مكعبات الثلج لتهدئ نفسها.

بعد ساعة من الهبوط، ظهرت تارا في صالة الوصول بالمطار، حيث كانت قد انتظرت طويلا عند مكتب فحص جوازات السفر، وأعقب ذلك تأخير آخر عند نقطة تفتيش الحقائب، حيث كان رجال الجمارك يقومون بأعمال تفتيش عشوائية للحقائب.

قال لها أحد الركاب "إن هذا يحصل بسبب رجل يدعى سيف الثأر. إن هذا الرجل يسبب الكثير من المشاكل، إنه قد يجعل بلدا بأكمله ينتظر هنا!"

قبل أن تسأله عما يقصد، كان قد طلب حمّال حقائب، وتوجه نحو الحشد. وبعد دقائق قليلة وصلت أمتعتها، وذهب عنها كل الضيق الذي شعرت به من قبل، وأنهت الأمور الخاصة بالجمارك، وسارت قدما وقلبها يخفق.

فقد أخبرها والدها أنه سيلاقيها في المطار، ومن ثم تخيلت أنها ستجده فور ظهورها في قاعة الوصول ينتظرها بشوق، ويسرعان تجاه بعضهما، ويتعانقان. لكن الشخص الوحيد الذي رحب بها هو سائق سيارة أجرة وعرض عليها خدماته. أخذت تنظر إلى الأشخاص المنتظرين عند حاجز الوصول، ولكن والدها لم يكن بينهم.

على الرغم من أن الوقت كان متأخرا، إلا أن المكان كان مزدحما، حيث هناك العديد من العائلات ترحب وتودع بعضها البعض، والأطفال يلعبون حول الكراسي البلاستيكية، بالإضافة إلى حشود من السائحين يجتمعون حول المرشدين السياحيين. كان هناك العديد من رجال الشرطة يرتدون زيا أسود موحّدا، والبنادق معلقة على أكتافهم.

انتظرت تارا عند حاجز الوصول قليلا، ثم أخذت تتجول في القاعة. ثم غادرت القاعة، حيث أخطأ أحد المرشدين السياحيين، واعتقد أنها من بين المجموعة المسؤول عنها، ولكن تبيّن الخطأ بعد ذلك، ورجعت مرة أخرى إلى القاعة حيث تجولت لفترة

أطــول، واستبدلت بعض النقود، واشترت قهوة، وجلست على كرسي في موقع متميز بحيث يمكنها رؤية المدخل والحاجز في نفس الوقت.

بعد ساعة اتصلت بوالدها من إحدى الكبائن، ولكن دون رد؛ سواء من محفره أو مــن شـــقته التي يقيم فيها وسط القاهرة. بدأت تفكّر، فقد يكون هناك ازدحام مروري أخّــر ســيارة الأجرة التي يركبها، افترضت ذلك لأنه لم يكن يركب سيارة خاصة به لأنه لم يتعلم القيادة، أو لعله مرض فجأة، أو لعله نسي أنها ستحضر أصلا.

لا، لـــم يكن لينسى هذه المرة، ليس بعد كل هذه السعادة التي ظهرت عليه عندما علم بقدومها. فالأمر لا يعدو عن كونه تأخر قليلا فقط. اشترت تارا كوب قهوة آخر، وجلست على نفس الكرسي تقرأ في أحد الكتب.

فجأة قالت "اللعنة، لقد نسيت إحضار نسخة من صحيفة التايمز".

5

الأقصر - الصباح التالي

استيقظ المحقق يوسف عز الدين خليفة قبل الفجر، واغتسل، وارتدى ثيابه، وذهب إلى غرفة المعيشة ليصلي صلاة الفجر، وكان كعادته يشعر بالإرهاق كل صباح، ولكن ما إن صلى حتى أصبح صافي الذهن. وما إن انتهى من الصلاة حتى ازداد نشاطا وهدوءا وقوة، كحاله كل صباح.

همس قائلا "ولله الشكر". وتوجَّه إلى المطبخ لإعداد القهوة.

وضع بعض الماء، وتركه يغلي، وأشعل سيجارة، وأخذ ينظر إلى امرأة تنشر الغسيل على سطح المنزل المقابل لمنزله، والذي كان ينخفض عن مستوى شباك مطبخه ثلاثة أمتار، وتمنى لو أنه يستطيع القفز من منزله إلى المنزل الآخر عبر الفسحة الضيقة التي تفصل المنزلين؛ وهي محاولة كان ليقوم بها على الأرجح عندما كان أصغر سنا، وكان شقيقه علي ليفعل ذلك دون تردد، إلا أن عليا قد مات الآن، وأصبح خليفة مثقلا بالمسؤوليات، فالمسافة من السطح للأرض عشرون مترا، والآن أصبح لديه زوجة وثلاثة أولاد، وبالتالي لا يمكنه خوض غمار هذه المخاطر، أو لنقل إن ذلك مجرد عذر اختلقه لنفسه، لأنه دوما كان يخشى المرتفعات.

أضاف خليفة البن والسكر إلى الماء المغلي حتى وصل إلى حافة الغلاية، ثم صبه في كوب، وتوجه إلى القاعة الأمامية المكوّنة من ردهة كبيرة تطل على كل غرف الشقة. كانت الأرضية مملوءة بأكياس الأسمنت والحجارة والمواسير البلاستيكية، لأنه كان يعكف على مدار ستة أشهر على بناء نافورة في هذه الردهة. من المفترض أنها نافورة صغيرة وبالتالي لم يكن العمل ليستغرق أكثر من أسبوعين، ولكن دوما، كانت تحدث أشياء تصرف انتباهه عنها، ومن ثم امتدت الأسابيع إلى

شهور ولم يتم الانتهاء إلا من نصف العمل فقط. في الحقيقة، لم يكن هناك متسع لهذه الـــنافورة، ولطالمـــا اشتكت زوجته من الفوضى والتكلفة الناجمة عن ذلك، ولكنه كان مـــصرا علـــى بنائها، فضلا عن أنها كانت لتضفي مسحة من البريق على هذه الشقة الكئيـــبة. فما كان منه إلا أن أخذ يعبث في كومة من الرمال، معتقدا أن الوقت سيمهله لإضافة جزء قليل إلى هذا العمل قبل الذهاب إلى المكتب، ولكن جرس الهاتف داهمه.

أجابـــت زوجـــته وصوتها يملؤه النعاس "إنه لك". وما إن دخل غرفة النوم حتى أخبرته أنه محمد سارية.

أعطـــته ســـماعة الهاتف، ثم غادرت السرير بعد أن حملت رضيعها من سريره الـــصغير، وتوجهت إلى المطبخ. وأتى طفله الأكبر، وصعد إلى السرير خلف والده، وأخذ يقفز.

قـــال لطفلـــه "توقف يا علي، هيا اذهب بعيدا". ثم ردّ على الهاتف "أهلا محمد، الوقت مازال مبكرا، ماذا هناك؟"

فـــرد علـــيه مـــساعده بينما خليفة يمسك السماعة بيده اليمنى ويبعد الطفل بيده اليسرى.

"أين؟"

فأجاب مساعده، وصوته مملوء بالإثارة.

فرد خليفة "هل أنت هناك الآن؟"

كان الطفل يضحك، ويحاول ضرب والده بالوسادة.

"قلت لك توقف يا علي". ورد على مساعده "معذرة ماذا قلت؟ حسنا، فلتبقَ هناك، ولا تدع أحدا يقترب من المكان وسأحضر في الحال".

وضـــع السماعة، وأمسك بالطفل، وحركه رأسا على عقب، وقبّل قدميه، والطفل لا يتمالك نفسه من الضحك.

قال الطفل "فلتؤرجحني يا أبي، أرجحني من فضلك".

فـــرد خلـــيفة "نعـــم سأفعل، وألقي بك من النافذة لتطير بعيدا حتى أشعر ببعض الهدوء هنا".

ثـــم وضع الطفل على السرير، وتوجَّه إلى المطبخ حيث كانت زوجته زينب تعد مزيدا من القهوة وطفلها يرضع. في نفس الوقت كانت ابنته تغني في غرفة المعيشة.

تـــساءل خلـــيفة "كيف حاله هذا الصباح؟" وهو يقبل زوجته ويداعب أصابع طفله الصغير.

فأجابت زوجته مبتسمة "جائع كوالده تماما، هل تريد طعام الفطور؟"

فرد خليفة "ليس لدي وقت، يتعين عليّ الذهاب إلى الضفة الغربية للنهر".

فأجابت زوجته "دون أن تتناول الفطور؟"

"لقد حدث شيء ما".

"ماذا حدث؟"

فأجاب "لقد عثروا على جثة، وعلى الأرجح لن أتمكن من تناول الغداء معكم".

ثم نزل، وعبر النيل في أحد اللنشات الجميلة. في العادة، كان خليفة ينتظر العبارة، ولكن نظرا لضيق الوقت اضطر إلى ركوب اللنش، ودفع مزيداً من المال. قبل مغادرة اللنش مباشرة، قفز رجل عجوز يضع تحت إبطه صندوقا خشبيا صغيرا، وقال "صباح الخير أيها المحقق". ووضع الصندوق أسفل قدم خليفة وقال "أريد تلميع الحذاء اليوم؟"

أجابه خليفة "أنت لا تفوّت فرصة يا إبراهيم، أليس كذلك؟"

فابتسم الرجل مظهرا صفين من الأسنان الذهبية غير المستوية، وقال "لابد للرجل من أن يأكل، ولابد له كذلك من حذاء لامع، ومن ثم فنحن نكمل بعضنا البعض".

فرد خليفة "حسنا، ولكن بسرعة فلدي عمل في الضفة الأخرى، ولا أريد التأخر".

"أنت تعرفني يا سيادة المحقق، فأنا أسرع ملمّع أحذية في الأقصر".

ثم قام بسحب قطعتين من القماش وفرشاة وطلاء، وأبرز مقدمة الصندوق حتى يضع خليفة قدمه. كان هناك شاب هادئ يجلس في مؤخرة اللنش لتشغيل المحرك.

ما هي إلا لحظات، وانطلق اللنش يشق المياه، بينما التلال تلوح في الأفق، ويتغير لونها من الرمادي إلى البني فالأصفر مع بريق ضوء النهار. كانت هناك لنشات أخرى تمر في كلا الاتجاهين، ففي الاتجاه المقابل كان هناك لنش يحمل مجموعة من السائحين اليابانيين، الذين كانوا على الأرجح ذاهبين لجولة بالمنطاد فوق وادي الملوك لرؤية شروق الشمس. وهو شيء لطالما أراد خليفة القيام به، ولكن دوما كانت الثلاثمائة دولار، ثمن هذه الجولة، تقف عائقا أمامه. وعلى الأرجح أنه لن يتمكن من ذلك مطلقا طالما بقيت رواتب رجال الشرطة على هذا النحو.

أخيرا، وصل اللنش إلى الضفة الغربية للنهر، واستقر بين لنشين آخرين، وصعد خليفة فوق طرف من اليابسة. حينها وضع الرجل العجوز لمسته الأخيرة على مقدمة حذاء خليفة، ثم صفق بيديه الملوثتين بالطلاء إشارة إلى أنه قد انتهى. فأعطاه المحقق جنيهين مصريين، ومثلهما للشاب المسؤول عن اللنش، ثم قفز إلى اليابسة.

فقال الشاب "سأنتظرك".

فأجابه المحقق "لا تشغل بالك، أراك قريبا يا إبراهيم".

ثـم توجَّه المحقق إلى أعلى الضفة حيث كان هناك جمع غفير منتظراً العبارة. فـشق طـريقه وسـط الجمع، ثم دخل فتحة بين جدار وسور قديم متهالك، وسار في طريق طينية موازية للنهر. كان الفلاحون في حقولهم، يحصدون الذرة وقصب السكر، وكـان هـناك رجلان يقفان في قناة للري والمياه تصل إلى خصريهما، حيث يقومان بإزالـة الأعشاب الضارة. وبينما هو سائر، إلتقى بمجموعة من الأطفال الصغار في ملابس بيضاء يهرعون إلى مدرستهم. والحرارة آخذة في الازدياد، قام خليفة بإشعال سيجارة أخرى.

لقـد استغرقه الأمر عشرين دقيقة حتى يصل إلى مكان الجثة، وأدى سيره وسط المباني المتهالكة جنوبي الأقصر إلى تلطيخ حذائه الذي صار أبيض الآن بعد أن كان أسـود لامعا. شق المحقق طريقه عبر غابة من الخيزران، ووقف أمام الرقيب سارية الذي كان جالسا بجانب الشاطئ أمام ما يشبه كومة بالية من القماش.

مـا إن رأى سـارية المحقـق قادما، حتى نهض وقال "لقد اتصلت بالمستشفى، وسيرسلون شخصا ما إلى هنا".

فأومأ خليفة برأسه ثم نظر إلى حافة المياه، حيث كانت الجثة ممددة، ووجهها فـي الطـين والذراعان مبسوطتان، والثياب ممزقة، والدماء واضحة نتيجة طعنة. كـان الجزء من أسفل الخصر إلى أصابع القدمين لا يزال ممددا في المياه، تدفعه الأمـواج جيئة وذهابا وكأنه شخص يتقلب في نومه. كانت رائحة العفن تصل إلى أنف المحقق.

"متى عثرتم على الجثة؟"

أجـاب الرقيب "قبيل الفجر، وعلى الأرجح أنها أتت من أعلى النهر حيث كانت عالقة في مروحة إحدى البواخر، وهو ما يفسر تقطع اليدين تماما".

"يبدو أنك لم تلمس أي شيء منذ قدمت إلى هنا".

فهزّ الرقيب رأسه مؤكدا.

أخـذ خليفة يدور حول الجثة متفحصا الأرض المحيطة بها، ورفع معصم اليد، ورأى وشما في وسط الساعد.

ابتسم بهدوء قائلا "الجعل يا للعجب!"

ورد النقيب "لماذا تتعجب؟"

فرد خليفة "إن الجعل بالنسبة للمصريين القدماء يرمز إلى عودة الحياة والتجدد، وهو ما لم يحدث لصديقنا هنا". ثم وضع معصم الجثة على الأرض مرة أخرى.

"أتدري من أبلغ عن الجثة؟"

فهـزّ سارية رأسه قائلا "لم يفصح عن اسمه، فقد اتصل بقسم الشرطة من كابينة وقال إنه أتى ليصطاد هنا ووجد هذه الجثة".

فرد خليفة "هل أنت متأكد أنه اتصل من كابينة؟"

"بالتأكيد، فقد انقطع الصوت في وسط الجملة وكأن الرصيد قد نفد فجأة".

التـزم خليفة الصمت لدقيقة، وأخذ يفكر، ثم رفع رأسه، وأومأ إلى مجموعة من الأشجار على بعد خمسين مترا يظهر من ورائها أحد المنازل، ويمكن بسهولة أن ترى سـلكا أسـود رفـيعا لكابل هاتف تحت حافة السطح، فرفع سارية حاجبه قائلا "ماذا تقصد؟"

فأجاب خليفة "إن أقرب كابينة هاتف تبعد على الأقل كيلومترين، فلماذا لم يتصل المُبَلِغ من هنا؟"

"أعـتقد أنـه كان مصدوما، فليس من العادة رؤية جثث تسبح على الشاطئ كل يوم".

"بالـضبط، أنـت تعتقد أنه كان ليبلغ عن الحادث بأسرع وسيلة ممكنة، فلماذا لم يترك اسمه؟ على الرغم من أن حشرية الأشخاص هنا تدفعهم بشكل كبير حتى يكونوا في قلب كل الأحداث".

"هل تعتقد أنه يعرف شيئا؟"

فهـز خلـيفة كتفه قائلا " يبدو الأمر غريبا فحسب. وكأنه لا يريد أن يعرف أي شخص أنه هو من وجد الجثة، وكأنه كان مرعوبا".

فجـأة ظهر صوت مرتفع وسط الخيزران، وخرج طائر مالك الحزين محلقا في الهـواء ثـم هبط مرة أخرى. نظر خليفة إلى الطائر لوهلة، ثم ركّز مرة أخرى على الجثة، ووضع يده في جيب البنطال، وأخرج مطواة صغيرة، وقداحة رخيصة، وقطعة ورق مبللة ومطوية. فوضع الورقة على ظهر الجثة، وفتحها بحرص.

قال "تذكرة قطار". وانحنى قليلا لتفحص الكتابة الباهتة عودة إلى القاهرة – منذ أربعة أيام.

في هذه اللحظة، أعطاه سارية كيسا بلاستيكيا ليضع فيه هذه الأشياء.

قال له خليفة "تعال إلى هنا وساعدني".

قاما معا بوضع أيديهما تحت الجثة لقلبها على ظهرها، فغاصت أقدامهما في الطين. ما إن رأى الوجه، حتى ارتد سارية على عقبيه مسرعا، وأخذ يتقيأ.

قال "الله أكبر".

عضّ خليفة على شفته مجبرا نفسه على النظر إلى الجثة. لقد رأى جثثا عديدة قبل ذلك، ولكن لم يرَ مثل هذا التشويه من قبل. فحتى في ظل هذا الوجه المغطى بالطين، كان واضحا أن الوجه لم يتبقَ منه الكثير، فكانت مقلة العين اليسرى فارغة، والأنف متهتكا تماما. فنظر إلى الوجه لوهلة محاولا ربط هذه الصورة بصورة أي كائن حي على وجه الأرض، ثم رجع إلى الوراء، ووقف إلى جانب سارية واضعا رأسه على كتفه.

قال له "هل أنت بخير؟"

فبصق سارية على الأرض، قائلا "ماذا حدث؟"

"لست أدري، ربما تكون مروحة إحدى البواخر كما قلت أنت، ولكنني لا أتخيل كيف للمروحة أن تقتلع مقلة عينه أو تحدث به مثل هذه الجروح".

فأجابه سارية "هل تقصد أن شخصا فعل به ذلك عن عمد؟"

"أنا لا أقول شيئا، وإنما لو كانت المروحة هي السبب لكان اللحم قد تهالك تماما، أما ما نراه فهو شرائح من اللحم".

"انظر إلى الجلد". ولكنه رأى أن سارية على وشك التقيؤ مرة أخرى، فقطع الجملة في منتصفها حتى لا يزيد من معاناته وقال بعد وهلة "سننتظر رجال المشرحة".

ثم أشعل سيجارتين، وأعطى واحدة لسارية الذي أخذ نفسا عميقا، ثم ألقى السيجارة، وأسرع إلى الجانب الآخر ليتقيأ مرة أخرى. نظر خليفة نحو النهر مرة أخرى، وحدّق بالشاطيء البعيد حيث رأى مجموعة من البواخر النيلية مصطفة وراء بعضها البعض بطول الضفة، وتظهر من خلفها أولى بوابات معبد الكرنك، ولكن مرّ من أمامه مركب فقطع حبل الرؤية لديه بشراعه المثلث المرتفع نحو السماء كالشفرة، ثم ألقى السيجارة في المياه وتنهد، وحدّث نفسه قائلا: يبدو أنني لن أستأنف العمل في النافورة إلا بعد فترة طويلة.

بينما كان المحقق خليفة واقفا بجوار النهر، إذا بمجموعة من السائحين يركبون الحمير في طريقهم إلى التل القريب. كان عددهم نحو عشرين – معظمهم أمريكيون – ويمشون في صف واحد، وفي أول الصف شاب مصري يرشدهم إلى الطريق، وآخر

في نهاية الصف للتأكد من عدم تخلف أحدهم عن الركب. كان بعض السياح يمسكون بالسرج بقوة غير مرتاحين لهذه الطريق الوعرة، ومرعوبين من كل هزة أو ارتجاج، وكانــت هناك سائحة يظهر عليها الخوف أكثر من الآخرين وكانت تكشف عن كتفها نظرا لحرارة الشمس، ولم تكن مستمتعة بهذه التجربة على الإطلاق.

كانت تردد "لم يقولوا إنها ستكون بهذا الانحدار، وإنما قالوا سيكون الأمر بسيطا، يا الله!"

أمـــا الآخرون فكانوا أكثر هدوءا، وينظرون هنا وهناك من فوق السرج. كانت الــشمس فـــي أوجهـــا حينذاك، والسهل في الأسفل يلمع ويتأجج من الحرارة. بتركيز النظـــر قليلا، يمكن رؤية الشريط الفضي الذي يمثل نهر النيل، وخلفه منطقة الأقصر الشرقية، وخلفها الصحراء والجبال التي توشك أن تعانقها السماء ذات السحب البيضاء والزرقاء. كان المرشد السياحي يتوقف بين الحين والآخر ليخبرهم عن بعض المواقع الأثـــرية هـــناك في أسفل السهل حيث يوجد التمثال العملاق لممنون، ولكنه يظهر من هذه المسافة البعيدة وكأنه دمية صغيرة، بالإضافة إلى بقايا آثار الملك رمسيس، ثم بعد ذلـــك مجمع معبد رمسيس الثالث. لقد قام السياح الذين يشعرون بارتياح أكبر بالتقاط بعـــض الـــصور، منبهرين بالمناظر الأثرية المحيطة بهم، وباستثناء أصوات حوافر الحمير، كان الهدوء يخيّم على المكان.

تمـــتم أحـــد الـــسياح لزوجته "يا لروعة هذا المكان، إن مينسوتا لا تساوي شيئا مقارنة به".

أخيـــرا، وصلوا إلى قمة التل، واتسع الممر، واستوت الأرض لبعض الوقت قبل أن يسيروا ثانية في وادٍ صخري واسع.

قـــال المرشد السياحي "هذا هو وادي الملوك، تمسكوا جيدا لأن الأرض منحدرة للغاية".

أتى الصوت من وراء المرشد السياحي "يا الله".

دخلـــوا بالفعـــل فـــي هذا الممر، وانتقلت الحمير في خط متعرج بين الأحجار المتناثرة هنا وهناك، حيث ظهر رجل كان نائما في ظل صخرة كبيرة، وجلبابه ممزق ومتسخ، وشعره المتلبد يتدلى أسفل كتفيه، مما يجعله يبدو همجيا وأشعث. كان يمسك في يده شيئا ما ملفوفا في ورقة بنية، وهرع إلى السياح.

قال "أهلا، أهلا، – صباح الخير – مساء الخير". وكلماته تخرج تباعا دون تمييز، "انظروا هنا يا أصدقائي، لدي شيء جيد أعتقد أنه سيعجبكم".

صرخ فيه المرشد السياحي متحدثا بالعربية، إلا أن الرجل تجاهله، وتوجَّه إلى إحدى السائحات، وكانت شابة تعتمر قبعة كبيرة تقيها من الشمس. وسحب الرجل الورقة البنية التي كشفت عن تمثال حجري محفور على شكل قطة.

"هل ترين يا سيدتي، إنها تحفة رائعة، هل تشترينها؟ أنا فقير جدا، وأريد أن آكل. هل تشترين يا سيدتي الجميلة؟"

رفع التمثال بيده نحو السيدة، ووضع الأخرى أمام فمه مشيرا إلى حاجته إلى الطعام.

"هل تشترين؟ أنا لم آكل منذ ثلاثة أيام، أرجوك اشتري- أنا جائع- جائع".

لكن السيدة نظرت أمامها بثبات ولم تعره اهتماما، وبعد أن تأخر عنها بعدة أمتار، كفَّ الرجل عن المحاولة معها وتوجَّه إلى السائح التالي.

"انظر، انظر يا سيدي، تحفة رائعة ذات جودة عالية، كم تدفع فيها؟"

خاطب المرشد السائح قائلا "تجاهله إنه مجنون".

فأجاب الرجل "نعم نعم أنا مجنون". وقفز قفزتين، وأخذ يدب بقدميه على الأرض وكأنه يرقص، قائلا "أرجوك اشترِ مني، أنا مجنون وجائع، وهذه التحفة رائعة وذات جودة عالية، كم تدفع فيها يا سيدي؟"

لكن السائح تجاهله أيضا، فأخذ الرجل يعرض التحفة على سائح تلو الآخر، وصوته ينزوي في يأس.

قال "إذا لم تكونوا تحبون القطط فلدي تحف أخرى، أرجوكم، أرجوكم، اشتروا مني، ألا تحبون التحف الأثرية؟

لدي تحف أثرية أصلية بنسبة ثلاثة آلاف بالمائة! وإذا ما كنتم تريدون مرشدا فأنا مرشد جيد، أعرف كل هذه التلال عن ظهر قلب، سأرشدكم إلى ملوك الوادي! وملكات الوادي بثمن بخس، سأريكم مقبرة جميلة، مقبرة جديدة لم يرَها أحد من قبل. أرجوكم أريد طعاما، أنا لم آكل منذ ثلاثة أيام".

في هذا الوقت، كان الرجل قد وصل إلى نهاية الصف، حيث قام الشاب الذي يسير في آخر الركب بركله، فسقط على الأرض وسط التراب، واستمر السياح في طريقهم.

"أشكركم- أشكركم"، ردَّد الرجل هذه الكلمة وهو يتحرك كحيوان مجروح، وشعره يتطاير من جانب إلى آخر. "ألا تريدون مساعدتي أيها السياح اللطفاء؟ ألا تريدون قططا؟ ألا تريدون رؤية المقابر؟ ألا تريدون مرشدا؟ إذاً، سأموت سأموت!"

قام بتلطيخ وجهه في الأرض باكيا وضاربا بقبضته على الرمال.

لكــن السياح لم يروه، لأنهم كانوا قد غادروا المكان بالفعل، وانعطفوا حول كتلة بــارزة مــن الصخور، وبدؤوا في النزول إلى وادي الملوك. كان الوادي منحدرا كما حذرهم المرشد السياحي، حيث يوجد منزلق شبه أفقي في الجانب الأيمن. فجأة أمسكت الــسيدة ذات الكتفــين اللتــين أحرقتهما أشعة الشمس برقبة الحمار، وأخذت ترتعش، وخوفها يمنعها من الشكوى. وسط هذا كله، بدأت صرخات الرجل المجنون تذوي إلى أن اختفت تماما.

6

القاهرة

انتظـــرت تـــارا فـــي المطار إلى ما بعد العاشرة صباحا، وفي هذا الوقت كانت عيناها حمراوين من قلة النوم، كما أنها شعرت بالدوار والإرهاق، وكانت تتصل بأبيها كـــل نـــصف ســـاعة متنقلة في جنبات صالة الوصول، حتى أنها ركبت سيارة أجرة، وتوجّهت إلى آخر صالات الوصول معتقدة أنه قد أخطأ وتوجّه إلى هناك، غير أن كل ذلـــك لم يكن ذا فائدة، فأبوها لم يكن موجودا بالمطار أو المحفر أو شقته بالقاهرة. من هـــنا، كـــان صـــفو إجازتها قد تعكر بالفعل حتى قبل أن تبدأ. اعتدلت بصعوبة على كرســـيها في وقت الذروة بالمطار، وأخذت تنظر إلى المارة. كان هناك أعداد غفيرة مـــن الـــناس لدرجـــة يتعذر معها رؤية أبيها إن كان بينهم، ثم ذهبت مرة أخرى إلى الكابيـــنة، واتصلت بأبيها مرة أخيرة، ولكن دون رد أيضا. فما كان منها إلا أن أخذت أمتعتها، ووضعت النظارة الواقية من الشمس على وجهها، ونادت على سيارة أجرة.

فأجابها سائق ضخم الجثة ذو شارب كبير وهو يمسك بيده سيجارة "القاهرة؟"

فأجابت تارا وهي تعتدل في المقعد الخلفي، "سقارة".

كـــان أبـــوها كثيـــرا مـــا يقوم بأعمال تنقيب هناك في سقارة في مدينة الموتى بالعاصمة المصرية القديمة ممفيس لأوقات طويلة على مدار الخمسين عاما الماضية.

بالإضافة إلى أعمال التنقيب الكثيرة التي قام بها في أجزاء مختلفة في مصر مثل المنزلة، وصان الحجر إلى الشمال ناحية جبل فراس ونوري في جنوب السودان، غير أن سقارة كانت دوما عشقه الأول. ففي كل موسم كان يذهب إلى المحفر، ويقيم هناك ثلاثـــة أو أربعة أشهر متواصلة حيث يعمل بجد ومثابرة في التنقيب في قطعة صغيرة مـــن الأرض يـــزيل عنها البقايا ويكتشف بضعة أمتار أخرى من التاريخ. في بعض

المواسم كان لا يحفر على الإطلاق، وإنما يقضي وقته في أعمال الترميم أو تسجيل ما اكتشفه في العام السابق.

كان يعيش هناك على الكفاف أو يحيا حياة الرهبان، بصحبة الطباخ ومجموعة صغيرة من المتطوعين، ولكن طبقا لما تعتقده تارا، فهذا هو المكان الوحيد في العالم الذي كان يشعر فيه بالسعادة. لقد انعكس ذلك في رسائله القليلة التي كان يتحدث فيها عن التقدم في عمله، وشعوره بالرضا الذي كان غائبا عنه في كل جوانب الحياة الأخرى. لهذا كانت تارا مندهشة للغاية عندما دعاها لتمضية بعض الوقت معه في هذا المكان، عالمه الخاص، ولابد أن هذا المكان كان له مكانة خاصة في قلبه حتى يدعوها إليه.

لم تكن الرحلة من المطار إلى سقارة مريحة، حيث بدا السائق جاهلا بكل ما تحمله كلمة سلامة من معانٍ، وانحصر تفكيره في كيفية تجاوز السيارات عند المنعطفات الخطيرة بمواجهة السيارات القادمة من الاتجاه المعاكس. ففي إحدى المرات، وحال تجاوزه لإحدى القنوات ذات الرائحة الكريهة، حاول تجاوز شاحنة صغيرة أمامه، فداهمته سيارة نقل كبيرة في الاتجاه المعاكس، وبدلا من التوقف، زاد من سرعته، وأطلق آلة التنبيه وكأنه في سباق. واقتربت المسافة بين السيارتين، وشعرت تارا باضطراب في معدتها معتقدة أنه سيصطدم بالسيارة الأخرى لا محالة، ولكن في آخر لحظة انعطف السائق إلى اليمين حيث تجاوز السيارة التي أمامه، وتفادى مقدمة سيارة النقل بسنتمترات قليلة.

وما إن تجاوز الموقف حتى ابتسم وقال لتارا "هل شعرت بالخوف؟"

فأجابت تارا بصوت فظ، "نعم".

أخيرا، تنفست تارا الصعداء فور الوصول إلى الطريق الرئيسية، حيث سار السائق في طريق مشجّرة لبضعة كيلومترات، وتوقف أسفل أحد المنحدرات الرملية التي تظهر من فوقها قمم هرم مدرج.

فتحدث إلى تارا قائلا "عليك أخذ تذكرة من هناك، وأشار إلى منفذ تذاكر في أحد المباني الموجودة على الجانب الأيمن من الطريق".

فأجابت تارا "هل يتعين عليّ ذلك؟ فوالدي يعمل هنا وأنا هنا لزيارته".

فأخرج السائق رأسه من النافذة، ونادى على الرجل الجالس في منفذ التذاكر، وتحدث معه باللغة العربية قبل أن يظهر شاب ثالث وينحني ناحية سيارة الأجرة ناظرا إلى تارا.

تحدث بلغة إنجليزية ركيكة "هل والدك يعمل هنا؟"

فأجابت "نعم إنه البروفيسور مايكل مولراي".

فــرد الشاب مبتسما ابتسامة عريضة "رائع، كلنا هنا نعرف الدكتور، إنه أشهر عــالم آثــار مــصرية فــي العالم. وهو صديق مقرب لي، وعلمني اللغة الإنجليزية. انتظري، سأصطحبك إلى المحفر".

ذهب الشاب إلى الجانب الآخر من السيارة، وجلس بجوار السائق، وأخذ يعطيه الارشادات.

عــندما تحركت السيارة، تحدث الشاب قائلا "أدعى حسن، وأعمل هنا في مكتب التفتــيش الرئيــسي، ومن دواعي سروري أن ألتقيك". ومد يده مصافحا تارا، التي لم تتردد في مصافحته.

قالــت تــارا "كان من المفترض أن ألتقي والدي في المطار، وأعتقد أننا لم نعثر على بعضنا البعض هناك، هل تعرف إذا ما كان هنا أم لا؟"

فــرد الــشاب "لقد حضرت للتو، وعلى الأرجح سيكون في المحفر. هل تعرفين أنك تشبهينه له كثيرا؟"

فابتسمت تارا قائلة "تشبهينه فقط؟ لست بحاجة إلى إضافة كلمة له".

فابتسم الشاب قائلا "أنت تشبهينه بدون له. وأنت معلمة جيدة مثله أيضا".

ثــم اتجهــوا بالــسيارة حتى وصلوا إلى قمة المنحدر، وانعطفوا إلى اليمين في طــريق وعرة على حافة الصحراء الممتدة. في هذا المكان، كان الهرم المدرج خلفهم وبجانــبه هــرمان صغيران آخران لم يتبقَ منهما سوى أجزاء بسيطة، مما جعل تارا تعتقد أنهما كانا على نفس نسق الهرم المدرج، ولكنهما تآكلا بمضي الوقت. إلى اليمين كــان سهل نهر النيل المتنوع يتلألأ في حرارة الصباح، وإلى اليسار كانت الصحراء تتسع وتطول وكأنها تعانق الأفق، قاحلة وفارغة ومهجورة.

بعد مائة متر تقريبا من هذه الطريق الوعرة، مروا بمجمع صغير، وأشار حسن للسائق.

قــال حسن "إن هذا هو مكتب التفتيش". مشيرا إلى أحد المباني الصفراء الكبيرة "هــو مكــتب التفتيش الرئيسي في سقارة، وسأنزل أنا هنا، أما أنت فستكملين الطريق لأن بــيت والــدك إلــى الأمام قليلا، وسأخبر السائق كيف يذهب إلى هناك، وإذا ما واجهتك أي مشاكل، يمكنك الرجوع إلى هنا مرة أخرى".

نــزل حسن من السيارة وقال شيئا ما للسائق قبل أن يتحرك بالسيارة إلى الأمام لمسافة كيلومترين ويتوقف عند منزل يتكون من طابق واحد على حافة المنحدر.

قال السائق "هذا هو بيت مولراي".

كان المبنى طويلا وآيلا للسقوط، وعليه دهان وردي يكسوه التراب، وفي وسطه غـربال خشبي كبير خاص بأعمال الحفر. كذلك يوجد برج خشبي واهن وحاوية مياه فـي نهايـة المبنى، بالإضافة إلى مجموعة من الأقفاص الخشبية مكومة فوق بعضها الـبعض، وكلـب أجرب يغفو في ظلها. كانت كل النوافذ مغلقة، والمكان يوحي بعدم وجود أي شخص.

قال السائق لتارا إنه سينتظرها حتى يرجع بها مرة أخرى إلى القاهرة إن لم تجد أحدا في المكان، حيث يعرف عددا كبيرا من الفنادق الرائعة. ولكنها رفضت العرض، وأخـذت أمتعتها، ودفعت الأجرة، وتوجهت إلى المنزل، ورحل السائق بالسيارة مخلفا ورائه سحابة من التراب.

عبرت تارا الفناء، ورأت ما يشبه صفا من الكتل الحجرية المرسومة تحت قماش مشمع في الجانب، ثم طرقت على الباب، فلم يرد أحد، وحاولت فتح الباب، ولكنه كان مغلقا.

فنادت تارا "أبي".

فلم يرد أحد.

ثم مشت حول المنزل حتى وصلت إلى الفناء الخلفي حيث وجدت سُطَيحة دائرية بهـا أحـواض مـن الغرنوقي والصبار يكسوها التراب، بالإضافة إلى بعض أشجار الليمون الكثيفة ومقعدين حجريين، كانت هناك مناظر رائعة ناحية الشرق بطول السهل الأخـضر للنـيل، ولكن عقل تارا كان مشغولا عن كل هذه الأشياء. قامت تارا بنزع النظارة عن عينيها، ونظرت عبر مصراع إحدى النوافذ المغلقة، غير أن المكان كان مظلمـا فـي الـداخل حيث لم ترَ سوى حافة طاولة عليها كتاب، فنظرت من خلال مصراع آخر حيث رأت سريرا أسفله حذاء طويل العنق، ثم عادت إلى حيث كانت في الجهة الأمامية من المنزل، وطرقت الباب مرة أخرى، ولكنها لم تسمع شيئا. فرجعت إلى الطريق تتلفت يمينا ويسارا لدقائق قليلة، وعادت إلى السطيحة، وجلست على أحد المقعدين الحجريين هناك.

بحلـول هذا الوقت، بدأ القلق يتسرب إليها، فعلى الرغم من أن والدها خذلها في مناسـبات عديدة يصعب تذكرها لكثرتها، إلا أنها شعرت أن الأمر مختلف هذه المرة. فـربما مـرض أو حصل له مكروه؟ وأخذت هذه السيناريوهات تدور برأسها والأمر يزداد سوءا. فوقفت مرة أخرى، وطرقت النوافذ والإحباط يملؤها أكثر من الأمل.

وتمتمت قائلة "أين أنت يا أبي؟ أين أنت؟"

انتظرت تارا قرب المنزل لساعتين تقريبا تدور هنا وهناك، وتنظر عبر النوافذ بين الحين والآخر، وتطرق على الباب، حتى كسا جبينها العرق، وتثاقلت عيناها من الإرهاق. كان هناك مجموعة من الأطفال يلعبون في القرية المطلة على المنزل، فرأوها، وأسرعوا إليها عبر المنحدر الترابي خلف المنزل يصرخون "أقلام، أقلام!" فأخذت بعض الأقلام من حقيبتها، وأعطتها لهم، وسألتهم عما إذا كانوا قد رأوا رجلا طويلا ذا شعر أبيض. بدا الأمر وكأنهم لا يفهمون ما تقوله، وما إن حصلوا على الأقلام حتى عادوا من حيث أتوا، وتركوها وحدها بصحبة الحشرات، والحرارة، والصمت، والمنزل المغلق.

أخيرا، عندما وصلت حرارة الشمس إلى ذروتها، وكان الإرهاق قد بلغ من تارا مبلغه حيث لم تعد تقوى على الاستيقاظ إلا بالكاد، قررت أن تذهب للبحث عن حسن؛ الرجل الذي قابلته منذ فترة. كانت تارا تعلم أن والدها سيصب جام غضبه عليها إذا ما أثارت جلبة حول غيابه بينما هو متأخر في مكان ما، ولكن في هذا الوقت لم يكن يعنيها ذلك، فكل اهتمامها كان منصبا على العثور عليه. أمسكت تارا بالقلم الأخير المتبقي معها، وكتبت ملاحظة توضِّح فيها ما قامت به، ووضعتها على الباب، ثم سارت على الطريق الترابية المؤدية إلى الهرم المدرج، وسط حرارة الشمس الشديدة والصمت الرهيب حولها باستثناء صوت وقع قدميها وطنين الحشرة التي تطوف حولها بين الحين والآخر.

سارت لخمس دقائق ورأسها منكس قبل أن يجذب انتباهها وميض إلى جهة اليمين، فخلعت نظارتها واتضح أن هناك شخصا على بعد حوالى مائتي متر في الصحراء يقف على تل رملي مرتفع. في الحقيقة كان هناك مجموعة من الأشخاص غير أن بريق الشمس حال دون تمييز أي شيء فيهم باستثناء أنهم طوال القامة، ويرتدون ثيابا بيضاء. ظهر وميض آخر يوضح أنهم يستخدمون مناظير، حيث كانت الشمس تعكس وميض عدساتها.

لكن تارا مضت في طريقها معتقدة أنه مجرد سائح يستكشف بعض بقايا الآثار. لكن خطر ببالها أنه قد يكون عالم آثار يعرف والدها، ومن ثم رجعت مرة أخرى تنوي مناداته، ولكنه كان قد اختفى. أخذت تتلفت في كل الأنحاء دون فائدة، ولهذا استكملت سيرها متشككة فيما إذا كان ذلك مجرد هلوسة منها نتيجة الإرهاق والتعب اللذين حلا بها، وبدأت تشعر بالدوار، وأخذت وجنتاها تؤلمانها، وتمنت لو كان بحوزتها بعض المياه.

استغرقت عشرين دقيقة أُخرى حتى وصلت إلى مكتب التفتيش، حيث كانت تتصبب عرقا وقدماها تؤلمانها. وجدت حسن، وروت له كل ما حدث.

فرد حسن "أؤكد لك أن كلْ شيء على ما يرام". وأشار لها بالجلوس على كرسي في مكتبه وقال" لعل والدك قد ذهب ليتمشى أو يقوم ببعض الحفريات".

فتساءلت "دون أن يترك ملاحظة بذلك؟"

فرد حسن "لعله ينتظرك في القاهرة".

فقالت "لقد اتصلت بشقته ولم يرد أحد".

فسألها "هل يعرف أنك قادمة اليوم؟"

فأجابت بشكل جازم "بالتأكيد". ثم خيّم الصمت لدقيقة، وقالت تارا "متأسفة أنا متعبة وقلقة".

فرد حسن "أنا متفهم سيدة مولراي، أرجوك اهدئي وسنجده لك".

ثم رفع حسن جهاز اللاسلكي الموضوع على مكتبه، وضغط على زر في الجانب وتحدث قائلا "دكتور مولراي". صدر صوت طقطقة قبل أن تصدر بعض الأصوات تلو بعضها البعض. أعاد حسن اللاسلكي إلى المكتب مرة أخرى. وقال لتارا "إنه ليس في عملية تنقيب، ولم يرَه أحد، انتظري هنا من فضلك".

ذهب إلى غرفة أخرى في القاعة حيث كانت هناك بعض الأصوات الخافتة وعاد بعد دقيقة، وأخبرها أن والدها ذهب للقاهرة صباح الأمس ثم عاد بعد الظهر إلى سقارة مرة أخرى، ولم يرَه أحد منذ ذلك الوقت.

التقط الهاتف، وأجرى محادثة قصيرة مكررا كلمة دكتور مولراي، ووضع السماعة وهو متجهم.

أخبر تارا أنه كان يتحدث مع أحمد سائق والدها، وقال لها "إن والدها طلب من أحمد بالأمس أن يأتي إلى منزله حتى يصطحبه إلى المطار، ولكن عندما جاء أحمد لم يجده. والآن أنا قلق أيضا، فهذه ليست طبيعة الدكتور".

التزم حسن الصمت لدقيقة وهو يطرق بأصابعه على المكتب، ثم فتح درجاً، وأخرج مجموعة مفاتيح، وأخبرها أنها المفاتيح الاحتياطية للمحفر، وقال "سنذهب إلى هناك".

ثم غادرا المكتب، وأشار إلى سيارة فيات بيضاء وقال "سنركبها حتى نسرع".

قاد السيارة بسرعة وهي تقفز في هذه الطريق الوعرة، وتوقف أمام المنزل، وتوجها إلى الباب الأمامي، حيث لاحظت تارا أن الملاحظة التي تركتها للتو قد

اختفت. أخذ قلبها يخفق، وأسرعت نحو الباب محاولة فتحه، ولكنه كان لا يزال مغلقا، ولــم يكــن مــن مجيب على طرقها المستمر. اختار حسن مفتاحا ووضعه في الباب، وأداره مرتين، وفتح الباب، ودخل إلى المنزل، ودخلت تارا خلفه.

فــور دخــولهما وجــدا غرفة بيضاء بها منضدة طعام مستطيلة بالقرب منهما بالإضافة إلى أريكتين متهالكتين وموقد. كانت بقية الغرف مفتوحة على اليمين واليسار حيث دخلت تارا إلى غرفة كانت قد رأت فيها السرير الخشبي عندما نظرت من النافذة قــبل ذلــك، وكانــت هذه الغرفة مظلمة وباردة ورائحتها جميلة، اتضح بعد ذلك أنها رائحة دخان سيجار.

دخــل حــسن إلى الغرفة، وفتح النافذة، فدخلت أشعة الشمس، ورأت تارا الجثة على الفور ملقاة على الأرض قبالة الجدار البعيد.

فصرخت "يا الله، لا".

ثــم هــرولت إلــيها، وجــثت على ركبتيها ممسكة بيد والدها، ووجدتها باردة ومتصلبة، ولكنها لم تهتم، وحاولت إيقاظه.

همــست قائلــة "أبــي". وهي تمرر يدها على شعره الرمادي الأشعث، "والدي المسكين".

7

الأقصر

بيـــنما كان خليفة ينظر إلى الجثة، تذكر اليوم الذي أحضروا فيه جثة والده إلى المنزل.

كـــان فـــي السادسة من عمره. في ذلك الوقت ولم يستوعب ما حدث عندما أتوا بجـــثة والـــده، ووضعوها على الطاولة في حجرة المعيشة، وأخذت والدته في البكاء، وشقت جلبابها الأسود، وجثت على ركبتيها، بينما وقف هو وأخوه إلى جوار بعضهما عـــند رأس والـــدهما ممـــسكين بـــيدي بعضهما ومحملقين في وجهه الباهت المكسو بالتراب.

قال علي "لا تقلقي يا أمي، سأعتني بك وبيوسف، أقسم بذلك".

كانـــت الحادثـــة التي ألمت بأبيه قد وقعت على بعد عدة مبانٍ من منزلهم، حيث كانـــت هناك حافلة سياح مسرعة في الشوارع الضيقة، وخرجت عن نطاق السيطرة، واصطدمت بالصقالة الخشبية المتهالكة التي كان والده يعمل عليها مما أدى إلى انهيار المبنى بأكمله. لقي ثلاثة رجال حتفهم في هذه الحادثة، وكان والده واحدا منهم، وكان راقـــدا تحـــت أنقـــاض من الخشب والحجارة. رفضت شركة السياحة تحمل مسؤولية الحادث ولم تدفع أي تعويض، ولم يصب أحد من ركاب الحافلة بسوء.

كانـــت عائلته تعيش في منطقة نزلة السمان بالجيزة، وعندما وقع الحادث كانت العائلـــة تقـــيم في كوخ من الطوب الطيني حيث يمكنك رؤية أبي الهول والأهرامات مباشرة من فوق السطح.

كـــان علي يكبر يوسف بست سنوات، وكان قويا وماهرا وشجاعا، وكان بمثابة القدوة لخليفة الذي كان يتبعه في كل مكان، ويقلده في كل ما يفعله أو يقوله. حتى أنه

لا يزال يكرر كلمة اللعنة بالإنجليزية التي تعلمها من علي حتى يومنا هذا، والتي كان قد تعلمها علي من سائح بريطاني.

بعد موت والده، وفى علي بوعده، فترك المدرسة، وأخذ يعمل حتى يتكفل بالأسرة فعثر على وظيفة في إسطبلات الخيل المحلية، حيث كان يزيل المخلفات من أسفلها، ويُصلح السرج، ويصعد بها إلى المنطقة السياحية ليمتطيها السائحون، كان يسمح لخليفة بمساعدته في أيام العطلات فقط، وكان خليفة يتوسل للعمل مع أخيه بدوام كلي، ولكن علي أصر على أن يركز خليفة على دراسته.

كان يقول له دائما: أريدك أن تتعلم يا يوسف، املأ عقلك بالعلم، وافعل ما لم أستطع فعله، أريد أن أفتخر بك.

بعد سنوات، اكتشف خليفة أن أخاه كان يدخر بعض المال إلى جانب تكفله بالعائلة والإيجار والمأكل والملابس، حتى يتمكن خليفة من دخول الجامعة عندما يحين الوقت.

وبالتالي كان خليفة يدين لأخيه بالكثير، بل على الأحرى يدين له بكل شيء تحقق له. وهذا هو سبب تسميته لابنه الأول علي اعترافا منه بالجميل.

ولم يُكتب لابنه رؤية عمه، ولن يراه، إذ إنه قد مات. ومهما حدث فلن نتخيل مدى افتقاد خليفة لأخيه، وكم تمنى لو أن الأمور سارت بخلاف ذلك.

هزّ خليفة رأسه، وركّز مرة أخرى على العمل الذي بين يديه. تحول المشهد الآن إلى غرفة ذات طلاء أبيض في الطابق السفلي بمستشفى الأقصر العام، وأمامه الجثة التي عثروا عليها هذا الصباح، وهي الآن ممددة عارية على منضدة معدنية. وكانت ثمة مروحة تدور فوق رأسه، ومصباح فردي يضيف إلى الطقس البارد والقاحل كآبة الغرفة. كان الطبيب أنور اختصاصي التشريح منحنيا فوق الجثة يتفحصها بيديه وهو مرتدٍ قفازا جلديا.

أخذ الطبيب يتمتم وهو في قمة الاندهاش "لم أرَ جثة كهذه من قبل".

بعد أن قاموا بتصوير الجثة في المكان الذي طفت فيه بجانب النهر، وضعوها في كيس، ورجعوا بها إلى الأقصر في قارب. كان هناك الكثير من الأوراق التي يتعين عليهم ملؤها قبل أن يتمكنوا من فحصها على الرغم من أن الوقت قد تعدى فترة الظهيرة. فقام خليفة بإرسال سارية للاستفسار عن أي شخص قد أبلغ عن شخص مفقود في الثلاثين كيلومترا المحيطة بهم. وبهذه الطريقة جنّب مساعده هذه التجربة المريرة أثناء تشريح الجثة. فهو نفسه لم يتمالك نفسه من التقيؤ، وكان يتوق إلى تدخين سيجارة ولذا كان بين

الحـين والآخـر يعبث في علبة السجائر ماركة الكليوباترا غير أنه لم يخرج أي سيجارة منها، وذلك لأن الطبيب كان حازما للغاية بشأن عدم التدخين في المشرحة.

هنا سأل خليفة الطبيب وهو متكئ على الجدار البارد للمشرحة عابثا بأحد أزرار قميصه "ما الذي يمكنك أن تخبرني به الآن؟"

ففكـر الطبيب ثم قال ضاحكا "إنه بالتأكيد ميت". وهو يطرق بطن الجثة، كانت نكات الطبيب حازمة تماما كحزمه بشأن عدم التدخين. وقال ممتعضا "أعتذر عن هذه الدعابة السمجة".

ثـم ضحك الطبيب ضحكة خافتة أخرى قبل أن يلتزم بالجدّية مرة أخرى ويقول لخليفة "ماذا تريد أن تعرف؟"

"العمر؟"

"يـصعب تحديده بدقة، ولكن دعني أقول إنه في أواخر العشرينيات أو أكبر من ذلك بقليل".

"ما هو وقت الوفاة؟"

"مـنذ ثماني عشرة أو عشرين ساعة تقريبا، أو فلنقل أربعا وعشرين ساعة كحد أقصى".

"هل كان في المياه كل هذا الوقت؟"

"نعم، حسبما أعتقد".

"ما هي المسافة التي قد يقطعها طافيا خلال أربع وعشرين ساعة؟"

"ليست لدي فكرة، فأنا اختصاصي تشريح ولست اختصاصي تيارات مائية!"

فابتسم خليفة قائلا "حسنا، وما هو سبب الوفاة؟"

فأجـاب الطبيب وهو ينظر إلى وجه الجثة المشوه "كنت أعتقد أن ذلك واضح". كان الوجه حينها نظيفا من الطين، وظهر وكأنه قطعة لحم ممزقة، تماما كما رآه خليفة أول مـرة. وكانت هناك تمزقات في أجزاء أخرى من الجسد على الذراعين والكتفين والبطن وأعلى الفخذين. وكانت هناك علامة ثقب صغير في الصفن كان قد أشار إليه الطبـيب بسرور شديد. في بعض الأحيان كان خليفة يعتقد أن الطبيب متحمس لمهنته إلى حدٍّ ما.

"ما أقصده هو..."

فقاطعه الطبيب قائلا "نعم، نعم، أعرف كنت أمازحك، وأنت تريد معرفة أسباب هذه الإصابات".

فانحنى الطبيب تجاه المنضدة مرة أخرى، وخلع القفاز المطاطي محدثا صوت طقطقة وهو ينزعه عن يده.

"حسنا فلنبدأ بالأهم فالمهم، لقد مات نتيجة الاختناق والنزيف جراء هذه الإصابات التي تراها. كانت هناك كمية مياه بسيطة في رئتيه، وهذا يعني أنه لم يغرق أولا ثم تعرض للإصابات، وإنما تعرض لهذه الإصابات على الأرض ثم أُلقي في النهر في منطقة ليست بعيدة عن المنطقة التي وجدتموه فيها على الأرجح".

قال خليفة "إذا، هذه الإصابات ليست ناتجة عن مروحة قارب".

"بالطبع لا، فلو كان الأمر كذلك لاختلفت الإصابات تماما عن هذه، وكانت ستصبح أكثر اتساخا، وكان اللحم سيصبح أكثر تمزقا".

سأل خليفة "هل هاجمه تمساح؟"

"لا تكن غبيا يا خليفة، فهذا الرجل قد تعرض للتشويه عن عمد، ولمعلوماتك لا توجد تماسيح في شمال أسوان، وحتى إن وجدت فهي بالطبع لا تُدخن". وأشار إلى حروق سيجار على ذراعي الرجل وصدره ووجهه، "ثلاث علامات لحروق هنا وهنا وهنا. على الأرجح هي لسيجار، فهذه الحروق أكبر كثيرا من حجم السيجارة العادية".

وضع الطبيب يده في جيبه، وأخرج كيسا من الحلوى، وعرض على خليفة بعضا منها، ولكنه رفض.

فقال الطبيب "كما تريد". وأخذ بعضا منها ووضعها في فمه، فنظر إليه خليفة بدهشة متسائلا كيف يستطيع الأكل وأمامه وجه ممزق على بعد عدة أمتار قليلة.

سأل خليفة "ماذا عن الجروح؟ ما هو سببها؟"

فرد الطبيب وهو يمضغ الحلوى "ليست لدي فكرة، يبدو أنها آلة معدنية حادة، قد تكون سكينا، وذلك على الرغم من مشاهدتي لجروح ناتجة عن سكاكين مختلفة، وهي لا تشبه هذه الجروح على الإطلاق".

"ماذا تقصد؟"

ردّ الطبيب "الجروح ليست ضيقة بما يكفي لتشير إلى استعمال سكين، وهو ما يصعب تفسيره. وحدسي، بعيدا عن الناحية العلمية، يقول لي إنها شفرة حادة لآلة ما، ولكنها آلة أجهلها تماما". وتابع قائلا "انظر على سبيل المثال". وأشار إلى جرح أفقي في الصدر، "لو أنه ناتج عن سكين لكان أضيق. ولا أدري... ما هي الكلمة الصحيحة، أعتقد أنه أقصر! فضلا عن أنه أعمق من ناحية، وأقل عمقا في الناحية

الأخرى. ولا تطلب مني معلومات أكثر دقة يا خليفة لأنه لا تتوفر لدي هذه المعلومات. عليك قبول حقيقة أننا نتعامل مع سلاح غير تقليدي في هذه الحالة".

أخرج خليفة مفكرة صغيرة من جيبه، وكتب عليها بعض الملاحظات، وكان صدى صوت مضغ الحلوى مسموعا في الغرفة.

"هل لديك أي معلومات أخرى تخبرني بها؟"

"أعتقد أنه كان يحب الشرب، فهناك نسبة كحول مرتفعة في دمه. ويبدو أنه كان مهتما بالآثار المصرية القديمة".

فرد خليفة "هل تقصد وشم الجُعل؟"

"بالضبط، فهو ليس من الوشوم المشهورة، انظر هنا".

فاقترب خليفة أكثر.

"هل ترى هذه المنطقة الزرقاء أعلى الذراعين؟ هنا وهنا عند المنطقة التي يتغير فيها لون اللحم. لقد كان هذا الرجل مقيدا، على هذا النحو".

استدار الطبيب خلف خليفة، وجذب ذراعيه وأصابعه مغروسة في لحمه. كان اللون الأزرق في الذراع اليسرى للجثة أكثر مما هو عليه في ذراع خليفة مما يرجح أن شخصين قاما بتقييده؛ واحد من كل ذراع. وقال الطبيب "يمكنك أن تدرك بالنظر إلى المنطقة الزرقاء في ذراع الجثة أنه قاوم بشدة".

هزّ خليفة رأسه، وانحنى نحو مفكرته ليكتب بعض الملاحظات قائلا "على الأرجح أنهم كانوا ثلاثة رجال، اثنان يمسكان به والثالث يقوم بتسخين السكين أو أيا كان ما يفعله".

فهز الطبيب رأسه، وتوجَّه ناحية الباب، وأطل برأسه، ونادى على شخص ما في الجهة الأخرى من الرواق، وبعد دقيقة ظهر رجلان يدفعان نقالة وضعا عليها الجثة وغطياها بقماش، وتوجها بها خارج الغرفة. عندما انتهى الطبيب من الحلوى، توجَّه إلى حوض صغير، وغسل يديه، والصمت يخيّم على الغرفة باستثناء صوت المروحة.

قال الطبيب "في الحقيقة، أنا مندهش". وكانت نبرة صوته قد تغيرت حينها ولم تعد بها روح الفكاهة. "أنا أمارس هذه المهنة منذ ثلاثين عاماً، ولغاية اليوم لم أرَ جثة كهذه...".

فرد خليفة "لم ألحظ عليك علامات التدين".

"نعم لست متدينا، ولكن لا أجد شيئا آخر أصف به هذه الجثة غير ذلك، أقصد أنهم لم يقتلوا هذا الرجل فحسب، لقد ذبحوه كالماشية".

ثم أغلق الصنبور، وجفف يده.

"اعثر على من فعلوا ذلك يا خليفة بأسرع ما يمكنك، واحبسهم في مكان بعيد".

كانت نبرة صوته الجادة تثير دهشة خليفة.

"سأبذل قصارى جهدي. وأنت من ناحيتك، أطلعني على أي معلومات تتوصل إليها".

وضع المفكرة في جيبه، وتوجَّه ناحية الباب. وفي هذه اللحظة، نادى عليه الطبيب!

"هناك شيء آخر".

فاستدار خليفة.

"إنه مجرد تخمين، ولكن أعتقد أنه نحات، ينحت التحف الأثرية للسائحين، أو شيء من هذا القبيل. فهناك الكثير من غبار المرمر تحت أظافره، إضافة إلى أن عضلات الذراعين كانت قوية، مما يدل على أنه كان كثيرا ما يستخدم مطرقة وإزميلا. قد أكون مخطئا، ولكن لو كنت مكانك فسأبدأ تحقيقاتي من هذه النقطة، أي من محلات بيع التحف".

فشكره خليفة، وغادر، ثم أخرج سيجارة من العلبة.

فلاحقه صوت الطبيب،

"لا تدخن حتى تغادر المستشفى!"

8

القاهرة

قالت تارا "إنه يكره السيجار".

فنظر إليها مسؤول السفارة وقال لها "معذرة".

"السيجار، والدي يكره السيجار، ويكره أي نوع من التدخين، ودوما ما كان يقول إنها عادة سيئة، تماما كقراءة جريدة الجارديان".

فقال "آه، فهمت".

أجابت تارا "عندما دخلنا المحفر، كانت هناك رائحة لم أتعرف عليها في البداية، ولكن بعد ذلك اكتشفت أنها رائحة دخان سيجار".

نظـــر مسؤول السفارة، وهو ملحق دبلوماسي صغير اسمه كريسبن أوتيس إلى الطريق مرة أخرى، وأطلق آلة التنبيه في إشارة للسيارة التي تسير أمامهم.

سألها "هل أمر التدخين هذا مهم بشكل أو بآخر؟"

فأجابت تارا "لقد قلت لك إنه يكره التدخين".

فهز المسؤول كتفه وقال "ربما كان هناك شخص آخر في المحفر".

فقالـــت تـــارا "بالضبط هذا هو بيت القصيد، فالتدخين كان ممنوعا في المحفر، وهي قاعدة لا تقبل الخرق. وأنا أعرف ذلك لأنه أرسل لي خطابا، وأخبرني أنه طرد أحد المتطوعين معه لخرقه هذه القاعدة".

فـــي هـــذه اللحظة أتى سائق دراجة نارية من الجانب، وتخطّى السيارة مما دفع المسؤول إلى الضغط على الكوابح قائلا "عليك اللعنة أيها الأحمق!"

خيّم الصمت لدقيقة.

قال المسؤول "لست متأكدا إذا ما كنت أفهم ما ترمين إليه".

فتنهدت تارا قائلة "وأنا أيضا، ولكن كل ما في الأمر أنه من الغريب وجود رائحة سيجار في المحفر، وهو أمر لا أتوقف عن التفكير فيه".

فرد المسؤول "أعتقد أن الأمر ليس سوى أنك تشعرين بالصدمة".

فتنهدت تارا قائلة "أعتقد أنه كذلك".

دار هذا الحوار وهما على الطريق متوجهين إلى وسط القاهرة، كانت الطريق تقريبا مظلمة، وأضواء المدينة متناثرة حول الطريق وأسفلها. وكان الجو لا يزال حارا، لهذا تركت تارا النافذة مفتوحة والهواء يعبث بشعرها وهو يتطاير إلى الخلف كالعلم الخفاق. شعرت كما لو أن كل الأحداث التي وقعت على مدار الساعات القليلة الماضية ليست سوى حلم.

عندما عثروا على جثة والدها، انتظروا بجانبها قرابة الساعة إلى أن وصل الطبيب حيث فحص الجثة سريعا قبل أن يخبرهم بما قد عرفوه بالفعل وهو أن الرجل ميت، ومن المحتمل أن يكون ذلك ناتجا عن انسداد في الشريان التاجي، ولكن لا تزال هناك فحوصات كثيرة يتعين إجراؤها. في هذا الوقت، وصلت سيارة إسعاف. وبعدها بقليل، طرح رجلا شرطة نظاميان على تارا بعض الأسئلة الروتينية عن عمر والدها وصحته وجنسيته وماذا كان يفعل هنا، وأجابت ممتعضة، لقد كان عالم آثار ماذا سيفعل هنا غير ذلك؟ وأخبرتهما أيضا عن رائحة السيجار مؤكدة ما قد أخبرت المسؤول عنه سابقا وهو أن التدخين كان ممنوعا في المحفر. سجّل رجل الشرطة هذه الملاحظات، ولكن بدا وكأن الأمر غير ذي أهمية. يجدر بالذكر أن تارا لم تتذمر أو تصرخ، حتى أنها لم تصدر رد فعل عندما أيقنت موت أبيها، ورأت جثته وهم يحملونها إلى سيارة الإسعاف ولم تشعر بأي عاطفة بداخلها وكأنه شخص لم تكن تعرفه.

"لقد مات والدي". تمتمت تارا، وكأنها تحاول استجداء رد من داخلها، لقد مات، مات.

غير أن هذه الكلمات لم تحرك ساكنا بداخلها، وحاولت استرجاع بعض الذكريات الجميلة لهما معا، كالكتب التي استمتعا بها، والأيام التي قضياها في حديقة الحيوانات، وصندوق الهدية التي أعدها لها في ذكرى ميلادها الخامسة عشرة، ولكنها فشلت في إنعاش أي إحساس بداخلها. الشيء الوحيد الذي شعرت به، وللأسف، كان شعورا بالخجل، هو شعورها بالخذلان التام لفشل رحلتها.

تحدثت مع نفسها قائلة "سأقضي الأسبوعين التاليين في ملء استمارات وإعداد إجراءات الجنازة، يا لها من إجازة لعينة!"

في الوقت الذي غادرت فيه سيارة الإسعاف، وصل أوتيس. حيث عرفت السفارة بنبأ وفاة والدها فور اكتشاف الجثة. وهو شاب أشقر حليق الذقن في أواخر العشرينيات يتحدث بلغة إنجليزية خالصة، اقترب من تارا، وقدّم تعازيه بأدب ولكن ببرودة عاطفية مما أوضح أنه معتاد على مثل هذه الأشياء.

تحدث المسؤول مع الطبيب بلغة عربية متلعثمة، وسأل تارا "أين ستقيمين؟"

فأجابت "هنا أو على الأقل كان من المفترض أن أُقيم هنا، ولكن أعتقد أن هذا غير مناسب الآن".

وافقها أوتيس الرأي، وقال "إن أفضل شيء هو العودة إلى القاهرة، والحجز في مكان ما هناك. اسمحي لي بإجراء بعض المكالمات".

أخرج هاتفا محمولا من جيبه، وتحدثت تارا مع نفسها قائلة "كيف يستطيع ارتداء حلة في هذه الحرارة؟" ثم تجولت بالخارج، ورجعت بعد عدة دقائق، حيث وجدته يخاطبها قائلا "حسنا لقد حجزنا لك في فندق هيلتون رمسيس ولا أرى أن هناك المزيد لنفعله هنا، سنغادر متى تجهزين".

فتجولت تارا في المحفر لدقيقة تنظر إلى حقائب الكتب والأرائك المتهالكة متخيلة والدها وهو يجلس مستريحا فوقها بعد يوم من العناء في أعمال التنقيب، ثم لحقت بأوتيس إلى سيارته.

فقال وهو يشغل المحرك "حسنا أنا مقيم في القاهرة منذ ثلاث سنوات، وهذه هي المرة الأولى التي آتي بها إلى سقارة. فبصراحة، لم أكن مهتما بالآثار".

فأجابت تارا بنبرة حزينة "وأنا كذلك".

عندما وصلا إلى الفندق كان الظلام قد حل بالفعل، وكان الفندق على شكل ناطحة سحاب قبيحة المنظر تطل على النيل على جانب مفترق طرق مزدحم. كان المدخل مضاء بشكل لافت للنظر، ومبهرجا بردهة رخامية تعقبها مجموعة من الأرائك والمحلات المفتوحة، وتعج بمجموعة كبيرة من حملة الحقائب ذوي الزي الأحمر وأيديهم مشغولة بالأمتعة. كان الجو لطيفا ويميل إلى البرودة داخل الفندق مما جعل تارا تشعر بارتياح بعد معاناتها من الحرارة خارجه. كانت غرفتها في الطابق الرابع عشر واسعة وأنيقة وقليلة الأثاث ولا تطل على النيل. وما إن دخلت الغرفة حتى ألقت حقيبتها على السرير، وخلعت حذاءها.

قال أوتيس "حسنا، سأتركك لتستريحي". وتوجه ناحية الباب، وأخبرها أن المطعم يقدم وجبات جيدة أو يمكنها الاستعانة بخدمة الغرف.

فشكرته "لست جائعة الآن".

"بالطبع، أنا أتفهم الوضع". ووضع يده على مقبض الباب وقال "إن هناك العديد من الأمور الرسمية يتعين القيام بها غدا، فإذا كان مناسبا لك، فسأمر عليك في الحادية عشرة صباحا وسأصطحبك إلى السفارة".

فأومأت تارا برأسها إيجابا.

أضاف أوتيس شيئا أخيرا "من الأفضل ألا تخرجي بالليل. لا أود إخافتك، ولكن الخروج ليلا يعتريه شيء من المخاطرة بالنسبة للسائحين حاليا، فهناك كما تعرفين بعض الهجمات ضدهم، والوقاية خير من العلاج".

فكّرت تارا في الرجل الذي قابلته في المطار بجانب آلة استلام الأمتعة، وذكرت الاسم الذي أخبرها به: سيف التامر.

فرد أوتيس مصححا الاسم "سيف الثأر". فقالت "نعم". وعلّق "إنهم مجانين دمويون. كلما حاولت القوات القبض عليهم، زادت المشاكل التي يسببونها. حتى أن بعض الأماكن لا يمكن السير فيها الآن". وقام بإعطائها بطاقته التعريفية، وطلب منها الاتصال به إذا احتاجت أي شيء، وتمنى لها نوما هنيئا.

صافحها، وفتح الباب، وتوجّه نحو الرواق.

فور مغادرته، أحضرت تارا شرابها المفضل، وألقت بنفسها على السرير، واتصلت بجيني في إنجلترا، وتركت لها رسالة على المجيب الآلي تخبرها بمكانها، وتطلب منها الاتصال بها في أقرب فرصة. كان من المفترض أن تجري بعض المكالمات الأخرى. واحدة لعمها، وأخرى للجامعة الأمريكية حيث كان يزور أستاذ في آثار الشرق الأدنى، ولكنها قررت تأجيل هاتين المكالمتين حتى الغد. قامت ونظرت من الشرفة إلى الشارع في الأسفل.

في هذا الوقت ظهرت سيارة مرسيدس سوداء بجانب الفندق وسدت الطريق جزئيا بحيث اضطرت السيارات الآتية خلفها إلى الاستدارة حولها أو المرور بجوارها، وهو ما أثار سخط ركاب هذه السيارات وفهمت تارا ذلك من أصوات الاستهجان الصادرة عنهم.

في البداية لم تلحظ تارا السيارة، ثم نزل شخص منها وتوجّه إلى الرصيف. وفجأة شعرت تارا بالتوتر. ولم تكن متأكدة ما إذا كان هو الرجل الذي رأته في

سقارة عندما كان يراقبها أثناء سيرها على المنحدر؛ ولكنّ شيئا ما بداخلها كان يخبرها أنه هو. كان الرجل يرتدي حلة باهتة اللون، وظهر الرجل ضخم الجثة حتى من هذا الارتفاع الكبير، حتى أن المارة من حوله ظهروا وكأنهم أقزام مقارنة به.

ثم انحنى تجاه السائق، وأخبره بشيء، وبعد ذلك توجَّه السائق إلى الطريق العام. وظل الرجل يشاهده وهو يتحرك بالسيارة، ثم فجأة نظر إلى الأعلى إلى تارا، على الرغم من هذه المسافة البعيدة التي يصعب معها التأكد مما إذا كان ينظر إليها على وجه الخصوص أم لا. ولم يدم الأمر طويلا حتى أنزل الرجل رأسه، وتوجَّه إلى المدخل الجانبي للفندق، رافعا يده ناحية فمه، ونفخ ما يبدو وكأنه دخان سيجار كبير الحجم. فارتعدت تارا خوفاً، وتراجعت إلى الداخل، وأغلقت الأبواب المنزلقة للشرفة.

نهر النيل، بين الأقصر وأسوان

كانت الرغوة في المياه تزداد عند مقدمة الباخرة حورس وهي تشق مياه النيل وأضواؤها تثير بريقا عجيبا على المياه. كانت غابات الخيزران تلقي بظلالها على ضفتي النيل، والأكواخ والمنازل الصغيرة متناثرة هنا وهناك. وعلى الرغم من أن الوقت قد تعدى منتصف الليل، إلا أن بعض الأشخاص كانوا لا يزالون على ظهر الباخرة يتطلعون إلى هذه المناظر. كان هناك شابان يقفان عند مقدمة الباخرة ومجموعة من السيدات الكبار في السن اللواتي كن يلعبن بالورق في مؤخرة الباخرة تحت مظلة. وباستثناء صوت من يلعبن بالورق، كان الصمت يخيّم على المكان، فكان بقية الركاب إما نائمين أو يجلسون في البهو يستمعون إلى بعض الموسيقى، حيث كان هناك رجل مصري ضخم البطن يغني بعض الأغاني الشعبية.

فجأة وقع انفجاران في نفس الوقت تقريبا. أولهما بالقرب من مقدمة الباخرة حيث أطاح بالشابين، وأعقبه الانفجار الثاني في البهو الرئيسي حيث دمّر الطاولات والكراسي فتطايرت شظايا الزجاج في كل الاتجاهات، واندفع المطرب إلى الخلف ووجهه متفحم، كما أن مجموعة من السيدات في الخلف اختفين تحت كومة من الأخشاب والقطع المعدنية. انتشر البكاء والتأوهات والصرخات من رجل انفصل الجزء الأسفل من ساقه عن سائر جسده. أما السيدات اللواتي كن يلعبن الورق، فلم يصبن بسوء، وظللن بلا حراك تحت المظلة، باستثناء واحدة شرعت بالبكاء. بعيدا

عــن النهــر، وخلــف غابات الخيزران، كان هناك ثلاثة رجال يجلسون على تل صــخري صغير ينظرون إلى الباخرة المشتعلة التي أضاء وهج انفجارها وجوههم وظهــر أنهــم ملــتحون، فضلا عن وجود ندبة رأسية في جبهة كل منهم، وتعلو وجوههم البسمة.

وهمس أحدهم قائلا "سيف الثأر".

فردد رفاقه نفس الكلمة.

أومأ بعضهم لبعض، ثم وقفوا، واختفوا في جنح الظلام.

9

القاهرة

في تمام الحادية عشرة صباحا، التقى أوتيس وتارا في بهو الفندق حسب اتفاقهما، وذهبا إلى السفارة التي تبعد عشر دقائق عن الفندق.

على الرغم من إرهاقها الشديد، إلا أن تارا لم تتمكن من النوم جيدا، حيث لم يفارقها شكل الرجل ضخم الجثة، وظلت تشعر بالتوتر. ولكن أخيرا تمكنت من النوم لفترة قصيرة قبل أن يرن جرس الهاتف، فاستيقظت مرة أخرى، وكان الاتصال من جيني.

تحدثـتا معـا لمـا يقارب الساعة، وعرضت عليها جيني أن تحجز في الرحلة التالـية، وتأتـي إلى تارا التي كانت تتوق إلى ذلك، ولكنها قالت لها ألا تقلق وإن كل شـيء على ما يرام وإنها سترجع إلى إنجلترا في غضون عدة أيام على الأرجح فور الانتهاء من بعض الأعمال الرسمية. واتفقتا على التحدث مرة أخرى في اليوم التالي، وانـتهت المحادثـة على ذلك. بعد ذلك شاهدت تارا التلفاز لفترة، وتنقلت بين بعض القـنوات مـثل السي. أن. أن، والأم. تي. في آسيا، والبي. بي. سي العالمية، قبل أن يغلبها نعاس خفيف.

ظلـت نائمـة إلـى أن استيقظت فجأة في ساعة متأخرة من الليل للمرة الثانية لشعورها بحركة غريبة. كان الظلام يخيّم على الغرفة المليئة بالظلال على الرغم من عدم مرور ضوء القمر إلا من فتحة صغيرة في الستائر عكست بريقا يشبه الشبح عبر المرآة في الجدار المقابل.

اعـتدلت في سريرها محاولة معرفة ما هذا، ثم رقدت مرة أخرى لتنام، وما إن فعلت ذلك حتى شعرت بصوت خافت من ناحية الباب، فأنصتت لعدة لحظات قبل أن تدرك أن هذا الصوت هو صوت تحريك مقبض الباب.

فقالت بصوت مرتعش "من هناك؟" فتوقف الصوت لدقيقة ثم عاد مرة أخرى. تــوجهت تــارا ناحــية الباب وقلبها يخفق، ثم توقفت محدقة بمقبض الباب يرتفع وينخفض ببطء. فكّرت في الصراخ، ولكنها فضلت إمساك المقبض بإحكام، وكانت هناك حركة مقاومة على الجانب الآخر وصوت وقع أقدام خفيف. فعدّت حتى الرقم خمــسة ثم فتحت الباب، غير أنها وجدت الرواق خاليا، أو شبه خالٍ، لأنها شمت رائحة سيجار.

بعــد حــدوث ذلــك، لم تطفئ تارا النور طيلة الليل، ولم تنم مرة أخرى إلا مع بــزوغ الفجر. عندما سألها أوتيس عما إذا كانت ليلة هادئة، فأجابت بشكل قاطع، "لا، لم تكن كذلك على الإطلاق".

بعــد ذلك دخل أوتيس بالسيارة من إحدى بوابات السفارة ذات الحائط الأبيض، وأبرز بطاقته للحارس، ودخل إلى مرآب صغير للسيارات، واصطحب تارا إلى داخل المبنــى عبــر باب جانبي حيث اتجها في رواق طويل، وارتقيا بعض السلالم وصولا إلــى مجمــوعة من المكاتب في الدور الأول، حيث استقبلها رجل رفيع أبيض الشعر وأشعث إلى حدٍّ ما ذو حاجبين كثين، وكانت تتدلى من رقبته نظارة.

كــان الرجل هو تشارلز سكويرز الملحق الثقافي بالسفارة وبادرها بقوله "صباح الخيــر آنــسة مولــراي". ثم صافحها، وكانت نبرة صوته ناعمة وودودة على عكس قبضته القوية. وقال "هلاّ تحضر لنا بعض القهوة يا كريسبن سنكون في مكتبي".

اصــطحب تارا عبر مجموعة من الأبواب المزدوجة إلى غرفة كبيرة هادئة بها أربع كراسٍ ذات أذرع حول منضدة. كان هناك شخص آخر يقف إلى جانب النافذة.

قال الملحق الثقافي "إنه الدكتور شريف جمال من المجلس الأعلى للآثار". الذي استفسر بدوره عما إذا كان من المناسب تواجده في هذا التوقيت.

كان الرجل قصيرا وسمينا، وكان وجهه مليئا بآثار الحبوب. تقدّم خطوة للأمام، وقدّم لتارا التعازي بوفاة والدها "لقد كان عالما حقا وصديقا لهذا البلد، سنفتقده كثيرا".

فشكرته تارا، وجلسوا هم الثلاثة.

قــال سكويرز "إن السفير يعرب عن أسفه العميق لأنه كان يود الحضور بنفسه نظــرا لمكانة والدك، ولكن كما تعرفين فإن هناك هجوما إرهابيا جديدا وقع ليلة أمس بالقرب من أسوان، وكان من بين الضحايا اثنان بريطانيان، ولذا فهو مشغول إلى حدٍّ ما حاليا".

كان الرجل يتحدث بهدوء، ويداه الرفيعتان ممسكتان بطرف سترته.

"بالتأكيد أنا أتحدث بالنيابة عن السفير، وباسم السفارة بأكملها، وأعرب عن مدى حزننا لوفاة والدك الذي تشرفت بمقابلته في مناسبات عديدة، ويالها من خسارة فاجعة لنا!"

في هذه اللحظة، عاد أوتيس يحمل صينية، وصب القهوة، وقدّمها لهم. وخيّم الصمت على المكان لبعض الوقت.

قال شريف جمال "لقد كنت محظوظا عندما كنت طالبا بأن قضيت بعض الوقت مع والدك في سقارة في العام 1972. وهو العام الذي اكتشفنا فيه مقبرة بتاح - حوتب، ولن أنسى أبدا الشعور الذي انتابني عندما دخلت غرفة الدفن للمرة الأولى حيث لم يمسها أحد منذ اليوم الذي أغلقت فيه. كان هناك تمثال خشبي رائع عند المدخل طويل جدا". وتحدث شريف واصفا دهشته من شكل التمثال، فذكر أن التمثال بدا كأنه طبيعي وكانت عيناه بلا رتوش وفي حالة رائعة، "إنه معروض الآن في متحف القاهرة، لا بد أن نذهب معا لرؤيته يوما ما".

قالت تارا وهي تحاول أن تبدو متحمسة "أتمنى ذلك".

استكمل شريف حديثه "لقد علمني والدك الكثير، وأنا أدين له بكل الفضل". وأخرج منديلا من جيبه وأخذ يمسح عينيه وهو متأثر بشدة.

ثم صمت الأربعة مرة أخرى وهم يحتسون القهوة، ومضى بعض الوقت قبل أن يتحدث سكويرز مرة أخرى.

قال سكويرز "لقد أكد لي الطبيب أن وفاة والدك كانت سريعة وبلا ألم، ومن الواضح أنه انسداد في الشريان التاجي، ومن ثم على الأرجح أن الموت حدث فجأة".

أومأت تارا قائلة "لقد كان يتناول أدوية للقلب".

قال شريف "أرجو ألا تفهمي كلامي على غير مراده. ولكن، لو أن والدك تمنى أن يموت في مكان ما. فهو لم يكن ليختار غير سقارة، فقد كان سعيدا جدا هناك".

فأجابت تارا "بالفعل، لقد كانت بمثابة بيته الحقيقي".

في هذه اللحظة شرع أوتيس في إعادة ملء أكواب القهوة.

قال سكويرز معتذرا "أعتقد أن هناك الكثير من الأمور الرسمية التي يتعين علينا الانتهاء منها، ولكن أوتيس سيساعدك فيها جميعا". ووضع يده على الكوب قائلا "شكرا، لا أريد المزيد من القهوة، ولاحقا سيتعين عليك تقرير ما ستفعلينه برفات والدك، هل سيظل هنا في مصر أم ستعودين به إلى بريطانيا؟ بالنسبة للوقت الراهن أرجو منك إخباري بأي شيء تحتاجينه في هذا الوقت العصيب".

شكرته تارا، وصمتت للحظة تنظر إلى كوب القهوة، ثم قالت "هناك شيء...". ثم قطعت حديثها.

"لست أدري كيف أعبر عنه، فالأمر يبدو سخيفا بالفعل... إنه..." فأجاب الرجل "تحدثي من فضلك".

فقالت "حسنا". ثم سكتت مرة أخرى، واستأنفت قائلة "عندما ذهبت إلى المحفر لاحظت رائحة سيجار وهو ما يبدو غريبا لأن والدي لم يكن ليسمح لأحد بالتدخين في المحفر، وقد ذكرت ذلك للشرطة ولكريسبن".

فأومأ كريسبن إيجابا، وأخرج جمال مسبحة من جيبه، ووضع إبهامه على خرزاتها واحدة تلو الأخرى وهو يتمتم بشيء ما. كانت تارا تشعر بأن الثلاثة يحدقون بها.

تابعت قائلة "لقد رأيت هذا الرجل ضخم الجثة من قبل..."

فرد سكويرز "ضخم الجثة؟" وانحنى تجاهها قليلا.

فأجابت "نعم رجل طويل القامة كبير الحجم. متأسفة فالأمر يبدو غبيا جدا عندما أرويه على هذا النحو...".

فنظر الملحق الثقافي إلى جمال، وأشار إلى تارا بمتابعة الحديث. هنا زاد صوت طقطقة خرز المسبحة بعد أن زاد جمال من سرعته في التسبيح، وبدا الصوت إيقاعيا.

تابعت تارا حديثها قائلة "يبدو وكأنه كان يراقبني باستخدام منظار". فاستفسر جمال "أتقصدين الرجل ضخم الجثة؟"

"نعم، وقد رأيته مرة أخرى ليلة أمس، أو ربما رأيت شخصاً يشبهه قد أتى إلى الفندق. وأنا متأكدة أنه كان يدخن سيجارا، ثم سمعت في ساعة متأخرة من الليل صوت شخص يحاول الدخول إلى غرفتي، وعندما فتحت الباب، لم أجد أحدا غير أنني شممت رائحة سيجار في الرواق".

ثم نظرت بوهن موضحة أن الأمر كله يبدو غريبا، حيث تحولت كل هذه الشكوك والتهديدات التي تجول بخاطرها إلى أمور يصعب الربط بينها.

"لقد أخبرتكم أن الأمر برمته سخيف".

فرد سكويرز "لا، على الإطلاق، واقترب منها ووضع يده على ذراعها لطمأنتها، أنا أقدّر مدى صعوبة هذا الوقت عليك، ففي ظل كل هذه الأحداث ليس من الغريب أن تشعري بشيء من عدم الأمان. فأنت في بلد أجنبي، ومات والدك، ومن السهل أن يضطرب الشخص في مثل هذه المواقف".

كانت تارا تشعر أن الرجل يحاول أن يساندها فحسب، وأضاف الرجل "لقد مررت بنفس هذا الإحساس من قبل، وكأن شيئا ما يحدث لي".

فردت تارا "شيء ما؟"

"أتقصد شيئا سيئا؟"

"نعم".

فابتسم سكويرز ابتسامة خافتة، وقال لها "لا تقلقي آنسة مولراي، مصر هي أحد هذه البلدان التي تشعرين فيها وكأن شيئا ما يدور خلف ظهرك، ولكن في الحقيقة لا يوجد شيء على الإطلاق. أليس كذلك يا دكتور جمال؟"

أجاب الدكتور "بالتأكيد فلا يمر يوم واحد دون أن أشعر أن هناك شخصا ما يحيك لي المكائد، وهو أمر سائد لدى من يعملون في الآثار".

فضحك الرجال الثلاثة.

قال سكويرز "أنا متأكد أن هناك تفسيرا بسيطا لكل ما رويته لنا". وأضاف مازحا "هذا ما لم تكوني قد أخفيت شيئا عنا". كان هناك نبرة تهديد غامضة في صوته، وكأنه يتهمها أنها تخفي شيئا عنهم.

وسألها "هل قلت كل شيء".

فردت تارا "أعتقد ذلك".

حدّق بها سكويرز للحظة، ثم جلس، وضحك قائلا "يمكنك النوم بسلام يا آنسة مولراي، هل نحضر لك بسكويتا؟"

استمر الحديث اللطيف لعشر دقائق أخرى قبل أن يقف سكويرز ومعه الرجلان الآخران.

قال سكويرز "أعتقد أننا أخذنا كثيرا من وقتك. حسنا، سيصطحبك كريسبن إلى مكتبه حيث سيساعدك على الانتهاء من الإجراءات اللازمة".

توجه سكويرز والدكتور جمال إلى الباب. وبعد أن أعطى تارا بطاقته التعريفية قال لها "اتصلي بي في أي وقت تشائين إذا ما أردت مناقشة أي شيء آخر. معك رقم هاتفي المباشر، وسنبذل قصارى جهدنا لمساعدتك".

ثم صافحها، وأشار لها بالتوجّه إلى الغرفة السابقة، ورفع جمال يده مودعا إياها.

قال كريسبن "هيا بنا لنحضر لك الغداء".

جلس سكويرز وجمال في صمت لبعض الوقت. الأول ينظر من النافذة والثاني ينظر إلى مسبحته، وأخيرا تكلم جمال.

"هل تعتقد أنها تقول الحقيقة؟"

فأجـــاب سكويرز مبتسما "أعتقد ذلك، فهي لا تعرف أي شيء أو فلتقل إنها على الأقل لا تدرك أنها عرفت شيئا".

وضع يده في جيبه، وأخرج قطعة حلوى، وأخذ يزيل غلافها ببطء.

فتساءل جمال "ماذا هناك إذاً!"

فرفع سكويرز حاجبيه قائلا "هذا هو السؤال، فالأمر واضح بالنسبة لدرافيتش أما مولـــراي فالأمر غامض جدا حياله. أعتقد أننا نفكر بنفس الطريقة". وقام بإزالة آخر قطعـــة مـــن غلاف الحلوى، ووضعها في فمه وهو يمصها بعمق. خيّم الصمت على المكان باستثناء صوت طقطقة المسبحة.

تساءل جمال "هل أخبرت ماسي؟ فأعتقد أن الأمريكيين سيعلمون بالأمر".

"لقد انتهى الأمر أيها الرجل العجوز، وهم ليسوا سعداء بالطبع، لأنهم لم يتوقعوا ذلك".

"حسنا ماذا سنفعل الآن؟"

"ليس هناك الكثير لنفعله، كل ما هنالك أن نتجنب وصول أي معلومة إليهم بأننا نعـــرف بأمـــر المقبرة، لأن هذا سيكون خطأ قاتلا. يتعين علينا الهدوء الآن، ولننتظر حتى تتضح الأمور".

"ماذا لو لم تتضح؟"

أومأ سكويرز برأسه دون أن ينبس ببنت شفة.

أخـــذ جمـــال يحرك مسبحته بإبهامه قائلا "لا يعجبني ذلك. لعله من الأفضل أن نتخلى عن الأمر برمته".

فرد سكويرز "اهدأ يا عزيزي، إنها فرصة العمر، فكّر في ما سنحصل عليه".

"لست أدري، المشكلة أن الأمور تخرج عن نطاق السيطرة". ووقف جمال وأخذ يجول في الغرفة، وقال "ماذا عن الفتاة؟"

فطـــرق سكويرز بأصابعه طرقا خفيفا على ذراع الأريكة، وهو يحرك الحلوى بلسانه.

تحـــدث بعـــد صمت طويل "أعتقد أنها ستكون مفيدة لنا على عكس ما نرى، أي ستـــساعدنا في توضيح الموقف. فالأمر جيد طالما أنها لم تفصح عما يدور في عقلها لأحد. وأنا واثق أنك قادر على التعامل مع الأمور التي تخصك، أليس كذلك؟"

فقال جمال "رجال الشرطة يفعلون ما أمليه عليهم، ولا يكثرون من الأسئلة".

"رائـــع جـــدا، وأنـــا مـــن ناحيتي سأتولى أمر الآنسة مولراي، سأجعل كريسبن يـــراقبها، وســـأعمل على الاستعانة بأشخاص آخرين أيضا. وأهم شيء هو ألا يفطنوا إلـــى أننا نستغلها، فهذا سيكون خطأ قاتلا". قام سكويرز، وأخذ ينظر عبر النافذة إلى الممـــرات المشجرة المنمقة في فناء السفارة، قائلا "يتعين أن نتوخى الحرص، وطالما أننا نفعل ذلك، فأنا متأكد من تحقيق هدفنا".

فقال جمال "أتمنى ذلك لأجلنا جميعا، لأننا سنهلك لو سارت الأمور عكس ذلك".

فرد سكويرز "لديك طريقة رائعة في اختيار الكلمات أيها الرجل العجوز".

انتهى الحديث بصوت مرتفع وهو يطحن الحلوى بأسنانه.

10

الأقصر

كـــان خليفة يعرف أن هناك ورش مرمر كثيرة في الأقصر، ولكن لم يتخيل قطّ أن تكون بهذا العدد، فكلما انتقل من ورشة إلى أخرى، أدرك مدى صعوبة مهمته في الوصول إلى الورشة المقصودة.

كـــان خلـــيفة وســـارية قد بدأا في عملية البحث بعد ظهر أمس بعد الانتهاء من عملية التشريح، حيث توجَّه خليفة إلى الضفة الغربية للنهر، وتوجَّه سارية إلى الضفة الـــشرقية. وأخـــذا يتـــنقلان من ورشة إلى أخرى ومعهما صورة لوشم الجعُل، وهما يـــسألان عن أي شخص لديه معلومات. واستمر البحث حتى وقت متأخر من المساء، واستأنفا لبحث في السادسة من صباح اليوم التالي. مضى الوقت حتى منتصف النهار، وأدرك خلـــيفة أنـــه زار أكثر من خمسين ورشة دون نتيجة، وبدأ الشك يساوره، هل أرسلهما الطبيب إلى البحث عن إبرة في كومة قش؟

توقـــف خليفة أمام ورشة أخرى اسمها (ورشة الملكة تاي المرمر)؛ الأفضل في الأقـــصر، وعلـــى بابها كان هناك رسم لطائرة وجمل والكعبة، وهي علامة على أن صاحبها قد حج بيت الله. جلست هناك مجموعة من الرجال، يضع كل منهم قدمه على الأخـــرى فـــي ظـــل مصابيح مصنوعة من المرمر، والتراب الأبيض يكسو وجوههم وأذرعهـــم. فنظر خليفة إليهم ثم أشعل سيجارة، وتوجَّه إلى الداخل، حيث قام رجل ما من الغرفة الخلفية، ورحب به مبتسما.

رد خليفة التحية بقوله "شرطة". مظهرا شارته، فتلاشت ابتسامة الرجل.

أجاب الرجل لدينا ترخيص.

فقال خليفة "أود أن أسأل بعض الأسئلة عن العاملين لديك".

"هل يتعلق الأمر بالتأمين؟"

"لا، الأمــر لا يــتعلق بالتأمــين أو التراخيص. نحن نبحث عن شخص مفقود".

وأخرج صورة من جيبه وسأل "هل تعرف صاحب هذا الوشم؟"

فأخذ الرجل الصورة وحملق بها.

"قال ربما أعرفه".

"ما الذي تقصده بربما؟ أتعرفه أم لا؟"

"نعم أعرفه".

فقال خليفة أخيرا "هل هو أحد العاملين لديك؟"

"نعم، ولكنني طردته الأسبوع الماضي، هل يواجه مشاكل؟"

"نعم يمكنك قول ذلك، لقد مات".

فنظر الرجل إلى الصورة.

قال خليفة "لقد قُتل، وعثرنا على جثته في النهر بالأمس".

خيّم الصمت للحظة قبل أن يعطي الرجل الصورة لخليفة، "يُفضل أن تأتي معي".

ذهــب الاثــنان عبر ستارة قديمة إلى غرفة كبيرة في مؤخرة الورشة. كان بها ســرير مــنخفض إلى جوار أحد الجدران، وتلفاز على أحد المساند، ومنضدة للغداء علــيها خبز وبصل وجبن، وفوق السرير كانت هناك صورة بنية لرجل عجوز ملتح يرتدي طربوشا وجلبابا – أحد أجداد صاحب الورشة – وإلى جوار الصورة، صورة أخــرى مكتوب عليها سورة الفاتحة. وكان هناك باب مفتوح يقود إلى فناء يعمل فيه كثير من الرجال. فأغلق صاحب الورشة هذا الباب وتحدث إلى خليفة.

"اســمه أبو نابر، وعمل معنا هنا لمدة عام، وكان ماهرا في صنعته، إلا أنه كان مدمن شراب. ودوما ما يأتي متأخرا، ولا يركز في عمله، ويثير المشاكل".

"هل تعرف أين كان يعيش؟"

"في القرنة القديمة بجوار مقبرة رخمير".

"هل لديه عائلة؟"

"زوجة وبنتان، وكان يعامل زوجته معاملة سيئة ويضربها".

أخرج خليفة سيجارة وهو ينظر إلى تمثال نصفي من الجير موجود في الجانب، وهو تقليد لرأس نفرتيتي الشهير الموجود في متحف برلين. ولطالما أراد رؤية الرأس الحقيقــي مــنذ أن كــان طفلا، فلطالما نظر إلى القطع المقلدة منه في محلات الجيزة والقاهرة. والآن أصبح متشككا في إمكانية رؤية التمثال الحقيقي، فهو لا يستطيع تحمل

تكاليف الرحلة إلى برلين، كما كان الحال في عجزه عن ركوب المنطاد والتجول فوق وادي الملـــوك. ثم استدار إلى صاحب الورشة ثانية وسأله "هل كان له أي أعداء، أو أي شخص يحمل له ضغينة؟"

فأجاب الرجل "من أين تريدني أن أبدأ، إنه يدين بالمال للبعض، ويسب الجميع، ويتـــشاجر هـــنا وهناك، ويمكن القول إن هناك خمسين بين كل مائة شخص يريدونه ميتا".

"هل هناك شخص محدد؟ هل هناك أي خصومات ثأرية؟"

"لا، على حدّ علمي".

"هل شارك في أي أنشطة غير قانونية، مخدرات أو آثار؟"

"كيف لي أعرف ذلك؟"

"لأنكم جميعا تعرفون كل شيء عن بعضكم، هيا صارحني".

فأخـــذ الرجل يعبث بذقنه، ثم جلس على حافة السرير. كان العاملون بالخارج قد بدؤوا ينشدون أغنية شعبية، حيث يغني أحدهم ويردد الباقون خلفه.

بعد صمت طويل، قال الرجل "لم يكن يتاجر بالمخدرات".

فقال خليفة "وماذا عن الآثار؟ هل كان يتاجر فيها؟"

"نعم كان يتاجر ببعض بقايا الآثار".

"أي نوع من البقايا؟"

"ليس بالكثير، فقط القليل من تماثيل الخدم والجُعلان".

"بالله عليك! أنت تعرف أن الجميع يتاجر بهذه الأشياء".

"إنها غير قانونية".

"ولكنها السبيل الوحيد للتغلب على ظروف الحياة الصعبة".

وهـــنا أطفـــأ خليفة السيجارة في منفضة السجائر، وقال له "هل تاجر في أشياء ثمينة؟"

هزّ الرجل كتفيه، ونظر إلى التلفاز، وقال "ليس بالشيء الكثير الذي يستحق القتل مـــن أجله". كانت هناك مسابقة تبث عبر شاشة التلفاز الأبيض والأسود، جلس الرجل يتابعها. وبعد فترة من الصمت قال "كان هناك بعض الشائعات".

فسأل خليفة "شائعات؟"

"نعم شائعات بأنه عثر على شيء ما".

"وما هو؟"

"الله أعلــم، قــد تكون مقبرة أو شيئا أكبر من ذلك". وانحنى الرجل إلى الأمام قليلا وضبط الصوت، وقال "أنت تعلم أن الشائعات تتردد كثيرا، أليس كذلك؟ فكل أسبوع تظهر إشاعة أن شخصا ما اكتشف مقبرة جديدة لتوت عنخ آمون. ولكن من يدري أين الحقيقة".

"هل هناك حقيقة في ذلك؟"

هــزّ صاحب الورشة كتفه، وقال "ربما نعم وربما لا، ولكنني لست مشتركا في ذلك، بالإضافة إلى أن لديّ عملا جيدا وهذا ما أهتم به".

ثم صمت الرجل، وركّز على المسابقة في التلفاز. كان الرجال لا يزالون يغنون بالخارج وسط صدى صوت آلاتهم في هواء الظهيرة الساكن. وتحدث الرجل بصوت خافت وكأنه يهمس قائلا

"مــنذ ثلاثة أشهر، اشترى أبو ناير جهاز تلفاز لوالدته وثلاجة جديدين، ولا شك أن ذلــك مكلف بالنسبة لرجل عاطل عن العمل، وعليك أن تستنتج الباقي بنفسك". ثم انفجر الرجل في الضحك قائلا "انظر إليه". وأشار إلى أحد المتسابقين في التلفاز كان قد أجاب إجابة خاطئة، "يا له من أحمق".

لكن كان هناك شيء غريب في ضحكة الرجل، فقد كانت يداه ترتعشان.

كــان خليفة مغرما بتاريخ مصر، ولطالما تذكر وقفته فوق سطح منزله وهو صغير يــشاهد شروق الشمس فوق الأهرامات على عكس ما كان يفعله أقرانه. فقد كان يرى في هــذه الأهرامات شيئا ساحرا، مثلثات رائعة تحلق في ضباب الصباح، وتمثل بوابات لعالم وزمن مختلفين. وكانت نشأته بجوارها سببا في رغبته في الاطلاع على التاريخ القديم.

كانت هذه الرغبة رغبة مشتركة بينه وبين أخيه علي الذي كان مغرما أكثر منه بالــتاريخ، وكان يعتبره ملاذا له من الصعوبات التي تواجهه في حياته اليومية. فكان يعــود إلى المنزل كل يوم بعد العمل متعبا ومرهقا فيستحم ويأكل، ثم يجلس في جانب مــن الغــرفة، ويستغرق في قراءة أحد كتب الآثار. كان لديه مجموعة كبيرة من هذه الكتب. كان قد استعار بعضها من مكتبة المسجد، والبقية كانت مسروقة على الأرجح، وكــان الأخ الأصغر خليفة لا يحب شيئا في الدنيا أكثر من الجلوس بجوار أخيه وهو يقرأ بصوت مرتفع على ضوء الشموع.

كان خليفة يركن إلى كتف أخيه ويصرخ "أخبرني عن رسيس".

يضحك علي، ويصحح الكلمة لأخيه، ويقول له رمسيس، ويحكي له أنه ذات مرة كــان هــناك ملك يُدعى رمسيس الثاني، وكان هذا الملك أقوى رجل في العالم، ولديه مركبة خفيفة مصنوعة من الذهب، وتاج مصنوع من الألماس.

دائمـــا كان خليفة يقول: لقد كانوا محظوظين بكونهم مصريين، فلم تكن دولة في العـــالم تتمتع بمثل هذا التاريخ الرائع الذي توارثته الأجيال جيلا تلو الآخر، أشكرك يا الله لأنك جعلت مولدي في هذا البلد الرائع!

قـــام الأخـــوان بحفريات صغيرة في منطقة الجيزة، وعثرا على بعض الأحجار وقطـــع قديمة من الفخار. بعد فترة صغيرة من وفاة والدهما، عثرا على رأس جيري لأحـــد الفراعنة بالقرب من قاعدة أبو الهول، ولم ينطق خليفة من هول الدهشة معتقدا أنه كان هناك شيء أثري لا يقدر بثمن في هذا المكان. ولكن بعد عدة سنوات اكتشف أن علـــي هو من وضع الرأس في هذا المكان حتى يكون اكتشافه بمثابة تلهية لخليفة عن موت والده.

ذات مرة انطلقا جنوبا إلى سقارة ودهشور وأبو صير، ثم إلى وسط القاهرة حيث كانـــا يـــدخلان إلى متحف الآثار مدعين أنهما ضمن الفرق الدراسية الزائرة للمتحف. وحتـــى هـــذه اللحظـــة لا يـــزال المتحف محفورا في ذهن خليفة منذ أن رآه في هذه الـــرحلات القـــصيرة في طفولته. في إحدى هذه الرحلات القصيرة تعرفا على أستاذ أكاديمـــي يُـــسمى الحبيب، جذبته حماستهما فاصطحبهما في جولة لمشاهدة مجموعة الآثـــار الموجودة في المتحف، موضحا لهما بعض الأشياء الغامضة، ومشجعا إياهما على المضي قدما في ذلك. بعد سنوات عديدة، وعندما حصل خليفة على مكان له في الجامعة لدراسة التاريخ القديم، كان الأستاذ الحبيب هو المُدرّس.

نعم كان خليفة يحب التاريخ القديم الذي يكتنفه شيء من الغموض، شيء جذاب فـــي شكل سلسلة من الذهب تمتد إلى فجر هذا الزمن الجميل. كان يعشق هذا التاريخ لذاته، وتنوعه، وإثرائه للحاضر.

إنّ الـــسبب الأساســـي وراء حبه لهذا التاريخ القديم كان حب علي له، فقد كان عـــاملا مشتركا بينهما، وقلبا مشتركا استمدا منه القوة والحياة. مازال خليفة يشعر في بعـــض الأحيان بتلامس أيديهما على الرغم من موت علي. علاوة على ذلك، كان هذا العالم القديم العشق الأول لخليفة لأنه تأكيد على حبه لأخيه الفقيد.

كثيرا ما كان علي يسأل خليفة مختبرا إياه: من هم ملوك الأسرة الثامنة عشرة؟

كـــان خلـــيفة يجيب بهدوء: أحمس، وأمنحتب الأول، وتحتمس الأول، والثاني، وحتشبـــسوت، وتحـــتمس الثالث، وأمنحتب الثاني، وتحتمس الرابع، وأمنحتب الثالث، وأخناتون و... و... يا الله! دوما ما أنسى هذا الاسم!

فيخبره علي "سمنخ كارع".

"اللعنة، أنا أعرف هذا الاسم، وأعرف أيضا توت عنخ آمون وحور محب".

فيقول له علي، "تعلم يا خليفة تعلم، وتقدم في السن".

لقد كانت أياما رائعة.

لقد استغرقه البحث بعض الوقت للعثور على منزل أبو ناير حيث كان مختفيا خلف مجموعة أخرى من المنازل في وسط الطريق أعلى إحدى التلال، وملاصقا لصف من بعض المحاجر التي كانت مدافن أثرية في الماضي، ولكنها أصبحت مليئة بالنفايات الآن. كانت هناك عنزة هزيلة مربوطة أمام المنزل تظهر أضلاعها من تحت الجلد وكأنها قضبان خشبية لآلة إكسيليفون.

طرق على الباب، ففتحت له سيدة صغيرة عيناها خضراوان لامعتان لا يزيد عمرها عن الخامسة والعشرين، ولابد أنها كانت فائقة الجمال في الماضي كغيرها من النساء الفلاحات. ولكن الإفراط في الإنجاب، وصعوبات الحياة اليومية جعلاها تبدو أكبر من عمرها الحقيقي، ولاحظ خليفة وجود علامات زرقاء على وجنتها اليسرى.

استهل خليفة الحديث بقوله "آسف على الإزعاج". وأظهر لها شارته، وقال "لقد كنت..." ثم توقف باحثا عن الكلمات المناسبة على الرغم من قيامه بهذه الإجراءات مرات عديدة قبل ذلك، ولكنه أبدا لم يعتد عليها. في هذه اللحظة تذكر كيف تلقت والدته خبر وفاة والده، وكيف أنها انهارت، وأخذت في جذب شعرها والنواح وكأنها طائر مذبوح. ولهذا كره خليفة أن يكون سببا في مثل هذا النوع من الألم.

فبادرته السيدة "ماذا هناك؟ هل هو مخمور مرة أخرى؟"

فقال خليفة "هل تأذنين لي بالدخول؟"

فتراجعت إلى الداخل، وأفسحت له الطريق، فدخل إلى الغرفة الرئيسية حيث كانت هناك فتاتان صغيرتان تلعبان داخلها. وكانت الغرفة عارية الأرضية، وكان الجو باردا ومظلما في الداخل، وكأنك في كهف. كانت الغرفة خالية من أي أثاث باستثناء أريكة ملاصقة لأحد الجدران وجهاز تلفاز على منضدة في جانب الغرفة، ولاحظ أن التلفاز جديد.

قال خليفة "أخشى أن لدي أخبارا سيئة لك، إن زوجك قد..."

فردت السيدة "قُبض عليه؟"

فعض خليفة على شفتيه وقال "بل مات".

ظلــت المــرأة بـــلا حراك لدقيقة وهي محدقة به، ثم ألقت بنفسها جالسة على الأريكـــة ويـــداها على وجهها. توقع خليفة أنها تبكي، فتقدم خطوة لمواساتها. وما إن اقترب منها حتى لاحظ أن هذه الأصوات الخافتة الخارجة من بين أصابعها ليست بكاء وإنما ضحك.

نادت السيدة على ابنتيها فاطمة، وإيمان. وقالت لهما "لقد حدث شيء رائع".

11

القاهرة

بعد أن انتهت من الأمور المتعلقة بالسفارة، أرادت تارا التوجه إلى شقة والدها للنظر في حاجياته.

كان والدها دوما يحتفظ بمتعلقات قليلة خلال الفترة التي يقضيها في سقارة، مثل بعض الملابس والمذكرات وكاميرا، بينما كان يُبقي على معظم حاجياته في شقته بالقاهرة.

فهناك كان يحتفظ بيومياته، وشرائحه، وملابسه، وبعض التحف المقلدة التي سمحت له السلطات المصرية بالإبقاء عليها. بالطبع كان يحتفظ بمجموعات الكتب الخاصة به والتي تصل إلى آلاف المجلدات، في حزم جلدية لكل كتاب على حدة، وهي محصلة حياته التي قضاها في تجميع هذه الكتب. كان والدها دوما ما يقول: مع الكتب يتحول الكوخ إلى قصر، وتعطيك قوة أكثر على تحمل كل شيء.

عرض أوتيس أن يصطحبها معه في السيارة، ولكن الشقة كانت على بُعد عدة دقائق مشيا على الأقدام، فضلا عن أنها شعرت بالحاجة إلى الاختلاء بنفسها لبعض الوقت. ثم اتصل بعد ذلك للتأكد من أن البواب معه نسخة احتياطية من المفاتيح، ورسم لها خارطة للوصول إلى هناك واصطحبها إلى البوابات الأمامية.

قال أوتيس "اتصلي بي عند وصولك إلى الفندق، وكما أخبرتك سابقا لا تتأخري بعد حلول الظلام، وخاصة بعد وقوع حادث الباخرة".

ثم ابتسم، وعاد مرة أخرى إلى داخل السفارة.

بعد الظهر كانت الشمس آخذة في المغيب وتعكس أشعتها على الرصيف غير المستوي. نظرت تارا حولها في الأماكن المخصصة للشرطة بجوار جدران السفارة،

وكان هناك شحاذ على جانب الطريق، ورجل آخر في الجهة المقابلة يسحب عربة عليها بطيخ، ثم نظرت إلى الخريطة مرة أخرى، واستكملت السير.

أوضح أوتيس أن هذا الجزء من القاهرة يسمى جاردن سيتي، وسارت تارا في طريقها وسط الأشجار الوارفة، وأدركت سر هذه التسمية. كان هذا الجزء عكس غيره من أجزاء العاصمة فهو أكثر هدوءا وسكونا. فهو منطقة باقية من الحقبة الاستعمارية، ويحتوي على فيلات قديمة تكسوها الأتربة والأشجار الكبيرة، وأشجار الورود متناثرة في كل مكان؛ الدفلي والياسمين والجكرندة الأرجوانية. ووسط ذلك كله، كانت زقزقة الطيور تملأ المكان مصحوبة برائحة البرتقال والخضرة. لم يكن هناك كثير من الأشخاص باستثناء سيدتين تدفعان عربتين لجمع القمامة ومعهما ملاحظ يرتدي ثيابا غريبة. أمام معظم هذه الفيلات، توجد سيارات ليموزين ورجال شرطة على الأبواب الأمامية.

مشت تارا لما يقارب العشر دقائق قبل أن تصل إلى شارع أحمد باشا حيث يوجد المبنى الذي يضم شقة والدها، كان المبنى قديما، وذا نوافذ كبيرة وشرفات مزينة بزخارف حديدية جميلة. ولابد أن لون هذا المبنى كان أصفر جميلا، ولكنه الآن رمادي بسبب التراب.

صعدت تارا بضع درجات، ودفعت الباب، ودخلت إلى بهو بارد من الرخام، وفي أحد الجوانب كان هناك رجل عجوز يجلس خلف مكتب، وهو على ما يبدو بواب العقار، فاقتربت منه، ودخلت في محادثة متعثرة، اضطرت على أثرها إلى استخدام لغة الإشارة موضحة من هي وماذا تريد. فتمتم الرجل، ثم وقف، وأخرج بضعة مفاتيح من الجارور، ثم توجَّه إلى المصعد، وفتح الباب، وأشار لها بالدخول.

كانت الشقة في الطابق الثالث في نهاية ممر هادئ ومظلم، وقفت أمام الباب، بينما يعبث البواب بالمفاتيح الواحد تلو الآخر إلى أن وصل إلى المفتاح الصحيح بعد أن جرّب ثلاثة مفاتيح.

بعد ذلك، شكرته تارا، ولكنه ظل في مكانه بلا حراك.

فكررت تارا الشكر له.

لكنه لم يتحرك أيضا. ثم خيّم الصمت والخجل للحظة قبل أن تدرك تارا ما هو المطلوب، ففتحت محفظة أموالها، وأعطته جنيهين. فنظر الرجل إلى المال، وأظهر امتعاضه، ثم سار في الممر تاركا المفاتيح في الباب، وانتظرت تارا حتى غادر الرجل، ثم فتحت الباب، ودخلت الشقة، وأغلقت الباب خلفها بعد أن أخذت المفاتيح.

ما إن دخلت الشقة حتى وجدت نفسها في ظلام، وشعرت بأن الأرضية مكسوة بالخشب، ورأت أن هناك خمس غرف مفتوحة: غرفة نوم، وحمام، ومطبخ، وغرفتان أخريان مملوءتان بالكتب. كانت كل النوافذ مغلقة وموصدة بإحكام مما جعلها تشعر بأن المكان عتيق ومهجور. للوهلة الأولى، شعرت وكأن هناك رائحة دخان سيجار في المكان، ولكن كان من الصعب عليها التأكد من الرائحة، وخاصة أنها قد تلاشت بعد أن اعتادت تارا على جو المكان لدقيقتين فقط. فمن المحتمل أنها كانت رائحة طلاء أو شيء كهذا.

توجهت تارا إلى الغرفة الرئيسية، وأضاءت المكان لترى أوراقا وكتبا مبعثرة في كل مكان وكأنها أكوام من أوراق الأشجار. كانت الجدران مليئة بصور الاكتشافات والآثار. وفي الجانب البعيد من الغرفة كانت هناك خزانة مملوءة ببقايا اكتشافات، وتماثيل مزخرفة، ولم تكن هناك أي نباتات.

بدا المكان وكأنه محمية للأجيال التالية، توضح كيف كان الناس يعيشون في أزمنة مختلفة.

أخذت تارا تتجول في الشقة، تبحث في الأشياء الموجودة، وتنظر في الجوارير حيث عثرت على يوميات والدها منذ بداية عام 1960 عندما شرع في عملية الاستكشاف في السودان، وكانت كتاباته تتخللها بعض الرسومات بقلم الرصاص توضح الأشياء التي اكتشفها. في إحدى الغرف، اكتشفت تارا بعض الكتب التي ألفها- حياة مدينة الموتى اكتشافات سقارة، 1955-1985، من سنفرو إلى شيبسكاف- مقالات عن الأسرة الرابعة، مقبرة منتونفر، الأسرة المالكة والاضطرابات في الفترة المتوسطة الأولى. كذلك عثرت على ألبوم للصور يوضح خندقا رمليا كبيرا يزداد عمقا مع توالي الصور، حتى ظهر في الصورة الأخيرة ما يبدو وكأنه جزء علوي لجدار حجري. بدا الأمر وكأن الشقة خالية من كل شيء باستثناء أعماله فقط، فلا يوجد بها أي شيء يبعث على الحب أو الدفء أو الإحساس بالوقت الراهن.

ما إن بدأت تشعر بالاكتئاب من هذا المكان، حتى ظهرت مفاجأتان. فبجوار سرير والدها الصلب وكأنه سرير في سجن، وجدت صورة لوالدها ووالدتها في يوم زواجهما، وكان والدها مبتسما، ويضع وردة بيضاء في عروة الحلة.

وفي الخزانة التي يكسوها التراب في غرفة المعيشة، وجدت رسما لملاك وكأن طفلا صغيرا قد رسمه، وكانت أطراف جناحي الملاك ملونة باللون الفضي. في الحقيقة، كانت تارا هي من رسمت هذه الصورة وهي في الروضة. بالتأكيد احتفظ بها والدها طوال هذه المدة وعندما أخرجتها وجدت تعليقا على ظهرها: إهداء لوالدي.

ظلـــت تـــارا تنظر إلى الصورة لوهلة، ثم انهمرت دموعها فجأة، وجلست على كرسي قريب منها وجسدها يهتز.

أخذت تقول "أنا آسفة، أنا آسفة يا والدي".

بعـــد أن هـــدأت دموعها قليلا، قامت بوضع الصورة والرسم في حقيبة الظهر الخاصة بها. وأخذت كذلك صورة لوالدها وهو يقف إلى جوار تابوت حجري بصحبة عاملين مصريين (تذكرت تارا في هذه اللحظة ما أخبرها به والدها وهي طفلة من أن كلمـــة تابوت حجري باللغة الإنجليزية مشتقة في الأصل من اللغة اليونانية وتعني آكل لحوم البشر، وهي صورة لطالما أزعجتها وحرمتها من النوم في الليل).

أخـــذت تارا تفكر: هل تأخذ بعض الكتب الخاصة بوالدها أم لا؟ وقاطعها جرس الهاتـــف، ووقفـــت للحظـــة تفكر هل تجيب على الهاتف أم لا؟ ثم أسرعت إلى غرفة المعيـــشة للرد على الهاتف الموجود على المكتب فوق كومة من المخطوطات. ما إن وصـــلت إلى الهاتف حتى ظهر صوت والدها عبر جهاز الرد الآلي، أهلا، هذا مايكل مولـــراي، لن أتواجد بالمنزل حتى الأسبوع الأول من ديسمبر، رجاء لا تترك رسالة، ويمكـــنك الاتصال بي عند عودتي، أو إذا كان الأمر متعلقا بالجامعة يرجى الاتصال بالرقم المباشر 7943967، شكرا لك، وإلى اللقاء.

وقفت تارا للحظة وكأن روح والدها لا تزال تحلق في هذا المكان. وما إن أفاقت من شرود الذهن، حتى أطلق جهاز الرد الآلي صفارة، وبدأ في التسجيل.

في البداية، اعتقدت تارا أن المتحدث قد أغلق الهاتف، وذلك لأنه لم ينبس بكلمة. ولكن فجأة سمعت صوت أنفاسه، واكتشفت أن المتحدث لا يزال على الخط غير أنه لا ينبس بكلمة. هنا تقدمت للأمام، وقررت رفع السماعة، ولكن سرعان ما تراجعت مرة أخرى، وكان المتحدث لا يزال على الخط، وشعرت بشكل فطري أن المتحدث رجل، ينتظـــر ويـــسمع ويتنفس وكأنه يعرف أنها في الشقة ويريدها أن تعرف أنه على علم بذلك. شعرت تارا وكأن الوقت لا يمضي. في هذه اللحظة، وضع المتحدث السماعة، وأغلـــق الخط، وأصدر جهاز الرد الآلي صوت العودة إلى النمط العادي مرة أخرى. وقفـــت تـــارا بـــلا حراك لوهلة، ثم شرعت في جمع أغراضها، وخرجت من الشقة، وأغلقت الباب وراءها. ما إن خرجت حتى شعرت بالرعب من هذا المكان حيث الممر المظلـــم والمصعد المتهالك والصمت الرهيب، وتوجهت أسفل الممر محاولة الخروج مـــن المبنـــى بسرعة، في منتصف الطريق لفت انتباهها وجود خنفساء على الأرضية الـــرخامية النظيفة، فأبطأت تارا، ونظرت إليها، واتضح لها أنها ليست خنفساء، وإنما

هــي بقايـــا رمـــاد سيجار غليظ، وكأنه لوحة للعبة الدومينو، وهنا أخذت تارا تجري للخروج من المكان.

عــندما وصـــلت إلى المصعد، لم يكن متاحا، وبدلا من انتظاره، استخدمت درجات الـــسلم، وكانـــت تقفز درجتين درجتين لا ترجو سوى الخروج من هذا المبنى واستنشاق الهـــواء العلـــيل. وصلت تارا إلى الطابق الأرضي، واتجهت إلى البهو، ولكن كان هناك عائـــق فـــي طريقها، فصرخت وأخذت ترتعش، ولكنه لم يكن سوى البواب، فتأسفت له، وقالت "لقد أفزعتني". وأعطته المفاتيح، فأخذها وقال شيئا بصوت خافت. "قالت تارا ماذا؟"

فكرر الرجل ما قاله.

فقالت "أنا لا أفهم ما تقول". وأخذ صوتها يرتفع، ومازالت رغبة الخروج من هذا المبنى مسيطرة عليها.

فـــتحدث الرجل مرة أخرى، ووضع يده في جيبه. وهنا ارتعشت تارا معتقدة أنه ســـيخرج ســـلاحا، وعـــندما أخرج يده، ورفعها تجاه وجهها، تراجعت تارا للوراء، وأزاحت يده في حركة دفاعية عن نفسها. لم يكن بيد الرجل شيء سوى ظرف، ظرف أبيض صغير.

قال "بروفيسور مولراي". ورفع الظرف ليريها إياه، وقال "فلتأتي معي بروفيسور مولراي".

ظلت تارا تنظر إليه قليلا، وهي تتنفس بصعوبة، ثم ابتسمت، وقالت له "أشكرك".

اســـتدار الـــبواب، وعاد مرة أخرى إلى مكتبه، وتساءلت تارا هل ينبغي عليها إعطـــاؤه بعـــض المـــال، ولكـــنه لم يبدِ أي علامة توحي بأنه كان ينتظر ذلك، ولهذا أســـرعت إلـــى الـــباب الأمامـــي، واستدارت ناحية اليسار، وسارت قدما في الشارع مـــستمتعة بالفراغ المحيط بها ودفء الهواء العليل. أثناء سيرها، مرت تارا بتلميذتين تـــرتديان قميصين بيضاوين وبصحبتهما رجل يرتدي زيا مميزا وعلى صدره ميدالية بها ألوان مختلفة، وعلى الجانب الآخر من الطريق كان هناك بستاني في زيه الواقي، يمسك بالخرطوم، ويروي به مجموعة من أشجار الورود المكسوة بالتراب.

بعـــد عـــشرين مترا، نظرت إلى الظرف، وعلى الفور تغير لون وجهها، وقالت "لا، لا يمكن". وكانت مندهشة من خط اليد الذي طالما اعتادت عليه، "لا، ليس بعد كل هذا الوقت، ليس الآن".

ظلّ البستاني ينظر إليها، ثم أدار وجهه إلى الناحية الأخرى، وأخذ يتمتم ببعض الكلمات.

12

شمال السودان بالقرب من الحدود المصرية

خـــرج الفتـــى فجأة من الخيمة، وأخذ يعدو والرمال تتطاير أسفل قدميه، وأمامه قطيع من الماعز. مرّ الفتى بجوار نيران مخيم خامدة، ومروحية مغطاة بشبكة، وأكوام مــن الأقفــاص، قــبل أن يصل أخيرا أمام خيمة أخرى بمعزل عن المخيم الأساسي، وأخرج ورقة من طيات ثيابه، وفتح الظرف، ودخل الخيمة.

داخـــل الخيمة، كان هناك رجل واقف. عيناه مغمضتان وشفتاه تتحركان، وكأنه يتلو شيئا بصوت خافت، كان وجهه رفيعاً وطويلاً ذا أنف معقوف ولحية، وبين عينيه ندبـــة رأســـية عميقة وملساء لامعة، وكأن الجلد قد تم تلميعه بشدة. كان الرجل يبتسم ابتسامة بسيطة وكأنه في حالة ابتهاج.

بعـــد ذلك، جثا الرجل على ركبتيه، ووضع أنفه وجبهته على السجادة، والفتى لا يـــزال واقفا يشاهده في دهشة. مرت دقيقة واثنتان وثلاث والرجل في صلاته، يقوم، ويركع، ويسجد، ويتلو والابتسامة البسيطة لا تغادر وجهه. بدا الأمر وكأن الرجل لن يـــتوقف، وبدا الفتى وكأنه على وشك المغادرة. عندها، أنهى الرجل صلاته، واستدار نحو الفتى الذي تقدم نحوه وأعطاه الورقة.

قال الفتى "هذه الورقة أرسلها الدكتور درافيتش".

أخـــذ الـــرجل الـــورقة وقـــرأها، وعيـــناه الخـــضراوان تلمعان في الجو شبه المظلم.

كـــان هـــناك شيء يبعث على الريبة في هذا الرجل، وكأنه يكظم غيظه، ولكن بغـــرابة شـــديدة، وضع يده المنبسطة على رأس الفتى برفق وكأنه يطمئنه. أخذ الفتى ينظر إلى قدميه في خوف ووقار في نفس الوقت.

بعـد أن انتهى الرجل من قراءة الورقة، أعطاها للفتى مرة أخرى، وقال "لله ما أعطى ولله ما أخذ".

ظلّ الفتى ينظر إلى الأرض، وقال "أنا لا أفهم يا سيدي".

رد الرجل "ليس المطلوب منك أن تفهم يا محمد". وهو يرفع رأس الفتى، وينظر في عينيه، وكان الفتى أيضا يحمل نفس الندبة وسط جبينه.

اسـتطرد الـرجل قائلا "ينبغي أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى له حكمة في كل شيء، ونحن لا نجادل في قدرته، وإنما ننفذ أوامره دون أسئلة أو تردد".

همس الفتى باقتناع "أنت محق يا سيدي".

"لقـد وضـعنا الله فـي اختـبار، إذا نجحنا فيه ستكون الجائزة عظيمة، أما إذا أخفقنا..."

فرد الفتى وهو مرعوب "ماذا سيحدث يا سيدي إن أخفقنا؟"

فوضـع الرجل يده على شعر الصبي ليطمئنه، وقال "لن نخفق". وابتسم مضيفا "ربما تكون الطريق وعرة، ولكننا سنسير للنهاية. ألم أخبرك من قبل أننا قوم اختارنا الله عز وجل؟"

ابتسم الفتى، ووضع ذراعيه حول خصر الرجل محتضنا إياه، فدفعه الرجل وقال "لديـنا عمـل نؤديه. اتصل بالدكتور درافيتش، وأخبره أنه لا بد أن يعثر على القطعة المفقودة، هل تفهم؟ لا بد أن يعثر على القطعة المفقودة".

فكرر الفتى "لابد أن يعثر على القطعة المفقودة".

أضـاف الرجل "في الوقت الحالي، كل شيء يسير كما هو مخطط له، لم يتغير شيء، هل يمكنك تذكر ذلك؟"

أجاب الفتى "نعم يا سيدي".

قال الرجل "سنغادر المخيم في غضون ساعة، اذهب".

خرج الفتى مسرعا من الخيمة، وأخذ سيف الثأر ينظر إليه وهو يرحل.

كانـوا قـد عثروا على هذا الفتى منذ أربع سنوات في القاهرة، فتى يتيم يجوب الـشوارع بحـثا عـن الطعام كحيوان وسط القمامة. فتى جاهل ويتيم ومتبلد، قاموا بإطعامه وتنظيفه، وأصبح واحدا منهم، وحصل على علامة الإيمان على جبهته، وتعهد بارتداء الثياب السوداء فقط، لأنها رمز القوة والإخلاص.

لقـد كـان الفتـى طيبا وبريئا ومخلصا، وهناك المئات بل قل الآلاف مثله في الشوارع. فعندما يملأ الأغنياء بطونهم، يتضور أطفال مثل محمد جوعا. فالعالم أصبح

مكانـــا لا يطـــاق، ومليـــئا بالكفار، ولكنه كان يناضل لإصلاح الأمور، وإظهار كلمة الحق، ودحر المشركين حتى يعود الحكم ليد المؤمنين.

الآن وفجأة ظهر الشيء الذي سيكمل به مهمته، ظهر فحسب دون أي إيضاحات فلّله الأمر من قبل ومن بعد، وعلى الرغم من أن الأمر محبط، إلا أن لله حكمة في كل شيء، ولكن ما الحكمة من ذلك؟ ليختبر عباده بالطبع ويقف على مدى ثباتهم. فالحياة السهلة لا تظهر مدى عمق الإيمان، وإنما كلما زادت المصاعب، أدرك الشخص مدى عمق إيمانه. فالله يختبر إخلاص العبد، وبمشيئة الله لن يخذله عبده، وسنعثر على هذا الـــشيء ولـــو على رقابنا. فالعبد لن يخذل ربه، والله لن يتخلى عن عبده مادام على الدرب الصحيح، ولم يضعف. ظل سيف الثأر يشاهد الولد لدقيقة أخرى قبل أن يرجع إلى الخيمة ثانية، ويركع، ويسجد مستكملا صلاته.

13

القاهرة

فتحت تارا الظرف فور عودتها إلى الفندق، على الرغم من إدراكها لمغبة ما قد تجـده بداخلـه، وأن عليها تجاهله فحسب، ولكنها لم تتمالك نفسها وفتحته. حتى بعد مُضي ست سنوات كان جزء بداخلها لا يزال يشتاق إليه.

قالت تارا وهي تفتح الظرف "عليك اللعنة، لماذا عدت مرة أخرى".

كانت الرسالة على النحو التالي:

"أهلا مايكل.

أنـا في المدينة هنا لبضعة أسابيع، هل عدت من سقارة؟ إذا كنت قد عدت فدعنا نتقابل، وعلى أي حال أنا مقيم في فندق صلاح الدين (7533127)، ولكنك ستجدني في معظم الليالي جالسا في غرفة تناول الشاي في ركن أحمد ماهر وبورسعيد. وأعتقد أن اسم المكان هو قهوة ودود.

آمل أن تكون بصحة جيدة، وأن أراك قريبا.

دانيل لاكاج

ملاحظـة. هل سمعت عن سكينكر؟ إنه يعتقد أنه عثر على مقبرة امحتب! ياله من أخرق!"

وعلـى مـضض منها، ابتسمت تارا قائلة، هذه هي عادة دانيل دوما ما يستخدم كثيـرا من الحشو في كلامه مما يؤثر في جدية ما يقوله. ولأول مرة منذ فترة طويلة شعرت تارا بالاختناق والاضطراب في معدتها. فلقد جرحها هذا الرجل في الماضي.

قرأت تارا الملاحظة مرة أخرى، ثم قبضت على الورقة بعنف حتى جعلتها أشبه بالكـرة، وألقت بها في الغرفة. بعد ذلك توجهت إلى الثلاجة الصغيرة، وأخرجت منها

مشروبها المفضل، ثم ذهبت إلى الشرفة، لكن سرعان ما عادت على الفور، وألقت بنفسها على السرير محدقة بالسقف لخمس دقائق، عشر دقائق بل عشرين دقيقة، ثم نهضت، وأخذت حقيبة الظهر الخاصة بها، وغادرت الغرفة.

استوقفت أول سائق صادفها، وقالت له "قهوة ودود- ركن أحمد ماهر و...!"

فقاطعها السائق "بورسعيد" واستدار، وفتح باب السيارة لها، فركبت تارا، وانطلق الرجل بالسيارة.

أخذت الأفكار تتوالى على رأسها يالك من حمقاء يا تارا وهي تنظر من نافذة السيارة إلى واجهات المحلات المضيئة، يالك من ضعيفة وحزينة وحمقاء!

أثناء سير السيارة في الشارع، خرجت سيارة مرسيدس يكسوها التراب، وتبعت السيارة التي تركبها تارا، كما يتتبع القنّاص فريسته.

في هذا الوقت تذكرت تارا المرة الأولى التي التقيا فيها، والتي مر عليها زمن طويل، يا الله! إنها قرابة الثماني سنوات.

لقد كانت في السنة الثانية من الجامعة في لندن، تقرأ في علم الحيوان، وكانت تعيش في شقة مستأجرة مع أصدقائها. كان والداها يعيشان في إكسفورد، وكان زواجهما على وشك الانهيار، ولذلك ذهبت تارا لتناول العشاء معهما.

كان من المفترض أن تلك المشكلة كانت عائلية، وتقتصر عليها وعلى والديها فقط، ويكفي سوءا أن والديها كانا يتحدثان بالكاد خلال الأيام القليلة الماضية. ولكن ما إن وصلت تارا إلى المنزل، حتى أخبرها والدها أن صديقا له سيأتي، "وهو شاب رائع من أصول إنجليزية وفرنسية يريد الحصول على درجة الدكتوراه في علم الدفن في الحقبة الأخيرة من حكم طيبة، وقد عاد لتوه من رحلة استكشافية استمرت ثلاثة أشهر في وادي الملوك، وهو عبقري لا مثيل له، يعرف عن أيقونات المقابر وكتب الحياة الأخرى أكثر من أي شخص آخر عرفته طوال حياتي".

قالت تارا "ياله من شخص رائع".

ردّ والدها مبتسما "نعم. أعتقد أنك ستعجبين به، فهو شخص غريب ومتهور، بالطبع كلنا متهورون إلى حدٍّ ما، ولكنه يفوقنا في هذا. فالانطباع الأول الذي ستأخذينه عنه هو أنه قد يقطع يده أو يد شخص آخر إذا اعتقد أنها ستزيد من معرفته بموضوع ما، ياله من شخص مجنون".

فأجابت تارا "ليس حالك بأفضل من حاله".

"صـــحيح، ولكـــن على الأقل أنا أعيش معك أنت ووالدتك، أما دانيل فليس لديه أحد، ولهذا تسيطر عليه الهواجس، وإذا لم يتوخَ الحذر، فسيلقى حتفه سريعا".

تــناولت تارا شرابها المفضل قبل العشاء، والضيف لم يأتِ بعد، وكان قد تأخر ســاعة بالفعل، وبدؤوا يتجادلون هل يبدؤون بدونه أم ينتظرونه، في هذه اللحظة دق جرس الباب، فذهبت تارا لتفتح، وهي مجهدة، وتحاول أن تبدو طبيعية.

اعــتقدت تـــارا أن الظـــروف ستكون في صالحها، وسيغادر بعد تناول العشاء مباشرة، وتمنت حدوث ذلك.

توقفت للحظة لتصلح هندامها، ثم ذهبت، وفتحت الباب الأمامي.

ما إن فتحت الباب ورأته حتى أسرّت في نفسها: يا لشدة وسامتك!

لحسن الحظ كتمت تارا الكلمات، ولكن لا شك أن وجهها فضحها، لأن دانيل كان على عكس ما توقعته تماما، فهو طويل ذو بشرة داكنة وعظمتا وجنتيه بارزتان وعيناه بنّيــتا اللون لدرجة السواد، وكأنهما مستنقع مياه سوداء. لم تتمالك تارا نفسها، وظلت تحدق بالرجل.

قال الرجل "آسف على التأخير". وكانت لكنته الإنجليزية تميل إلى الفرنسية عند نطق الحروف المتحركة، واستأنف قائلا "لقد تعيّن عليّ الانتهاء من بعض الأعمال".

ردّت تـــارا وهـــي تتورد خجلا، "هل هذه الأعمال متعلقة بعلم الدفن في الحقبة الأخيرة من حكم طيبة؟"

فرد الرجل مبتسما "في الحقيقة، كنت أملأ طلب منحة، وهو شيء أكثر متعة من علم الدفن، ومدّ يده قائلا دانيل لاكاج".

صافحته تارا، وقالت "تارا مولراي".

ووقفـــا معـــا في هذا الوضع لمدة تزيد عن الوقت الطبيعي، ثم توجها إلى داخل المنزل.

كان العشاء لذيذاً، وظل الرجلان يتجادلان طوال الوقت على نقطة متعلقة بتاريخ المملكـــة الجديـــدة، ألا وهـــي هل كان هناك حكم مشترك بين أمنحتب الثالث وولده أخناتون؟ وكانت تارا قد سمعت مثل هذه الحوارات مئات المرات من قبل حتى أصابها الملـــل. لكـــن في وجود دانيل كان الأمر جذابا ومثيرا للفضول، ولم يبدُ الأمر وكأنه مناقشة أكاديمية جوفاء عن فترة قديمة سقطت من التاريخ.

نظر دانيل إلى تارا وأمها تقدم له حلوى البودينج، وقال لها "لابد أن هذا الحوار كان مملا للغاية بالنسبة لك".

ردت تـــارا، "لا على الإطلاق، فهذه هي المرة الأولى في حياتي التي أشعر فيها أن مصر مشوقة إلى هذا الحد".

رد والدها بشغف "أشكرك كثيرا يا تارا على هذا التعليق".

بعـــد العشاء، توجهت تارا ودانيل إلى الحديقة الخلفية للمنزل لتدخين سيجارتين، وكانـــت الليلة دافئة والنجوم متناثرة في السماء، وأخذا يتجولان، ثم جلسا على كرسي هزاز.

بادرهـــا دانـــيل بالحـــديث، "أعتقد أنك كنت تجامليننى في ما قلته". وقام بوضع سيجارتين في فمه، وأشعلهما معا، ثم أعطاها واحدة وقال "لم تكن هناك حاجة إلى هذه المجاملة".

ردّت تارا "أنا لا أجامل أحدا على الإطلاق". وأخذت السيجارة منه وقالت "على الأقل لم أجامل أحدا الليلة".

خيّم الصمت لوهلة وهما يتأرجحان جيئة وذهابا، وجسداهما قريبان من بعضهما دون التـــصاق، وكان تفوح منه رائحة مميزة، ليست عطر ما بعد الحلاقة، وإنما شيء أغلى قيمة وأقل تصنعا.

قالت تارا "قال لي أبي إنك قمت ببعض الحفريات في وادي الملوك!"

ردّ دانيل "في منطقة أعلى من وادي الملوك بقليل؛ في منطقة التلال".

تساءلت تارا "هل كنت تبحث عن شيء معين".

"نعم، بعض المقابر التي تعود إلى عصر متأخر في الأسرة السادسة والعشرين، وأعتقد أن هذا الأمر ليس مشوقا بالنسبة لك".

"بالنسبة لي أرى أنك مولع بهذا الموضوع".

"نعم أنا كذلك، ولكن اهتمامي الليلة لا ينصب عليه".

ابتـــسما، وتلاقت أعينهما لوهلة قبل أن تنصرف مرة أخرى للنظر إلى السماء، وفـــوقهما أغـــصان شجرة صنوبر عتيقة متشابكة كأنها أذرع متعانقة، وخيّم الصمت لفترة أخرى.

أخيـــرا، نطـــق دانيل، وقال "يا له من مكان جميل". وتحدث بصوت منخفض "هل تعـــرفين وادي الملوك؟" وهمس وكأنه يحدث نفسه "إنه يجعل القشعريرة تسري في بدنك وأنـــت تفكـــرين في الكنوز المدفونة فيه. انظري إلى ما عثروا عليه في مقبرة توت عنخ آمـــون، الـــذي كان من صغار الفراعنة، أي ليس له قيمة مقارنة بغيره. ما الذي قد نعثر عليه في مقبرة أحد الملوك العظماء مثل أمنحتب الثالث أو حور محب أو سيتي الأول؟"

أرجع دانيل رأسه للخلف، وابتسم، وغاص في أفكاره.

تمتم دانيل "دوما ما أتساءل، ما هو الشعور الذي قد ينتاب الشخص إن عثر على شـــيء كهذا. بالتأكيد لن يتكرر هذا الأمر، فقد كانت مقبرة توت عنخ آمون فريدة من نوعها، ففرصة بقائها كانت مليارا إلى واحد. لا أتخيل كيف حدث هذا الأمر، كل هذه الإثارة والدهشة، بالتأكيد لا يعادلها شيء على وجه الأرض...".

تنهد دانيل!

سألته تارا "ماذا؟"

"حـــسنا، أقـــصد أن هـــذه الإثارة من المحتمل ألا تدوم، وهذا هو الحال في علم الآثـــار، أي أن اكتـــشافا واحدا لا يكفي، وإنما يتعين دوما أن يحُسن المرء من نفسه. فبعد أن انتهى كارتر من تنظيف مقبرة توت عنخ آمون، ظل طيلة عشرة أعوام يخبر الجمـــيع أنه يعرف أين دُفن الإسكندر الأكبر. فالمرء يعتقد أنه وقع على أكبر اكتشاف فـــي التاريخ، وأنه قد بلغ أقصى أمانيه، ولكن الأمر ليس كذلك، فهو كالحلقة المفرغة تقضين حياتك كلها تنقبين في خبايا الماضي، وفي نفس الوقت قلقة من عدم وجود أي أسرار لتكشفي عنها".

صـــمت دانيل لوهلة مقطبا حاجبيه، ثم أطفأ سيجارته على ذراع الكرسي، وأخذ في الضحك، وقال لها "يمكنني الجزم أنك كنت تفضلين المكوث بالداخل والمساعدة في غسل الأطباق".

الـــتقت أعيـــنهما مـــرة أخرى، وكأنهما لا سبيل لهما للسيطرة عليها، ثم زحفت أصابعهما تجاه بعضها البعض وتلامست. لقد كانت حركة بريئة وغير ملحوظة، ولكن فـــي نفـــس الـــوقت تحدوهما رغبة لا مناص منها. صرف دانيل وتارا نظرهما عن بعـــضهما، ولكـــن أصـــابعهما كانـــت لا تزال متعانقة، وكأن بينهما شيئا يحول دون فراقهما.

بعد ثلاثة أيام تقابلا في لندن وفي خلال هذا الأسبوع صارا حبيبين.

لقـــد كان وقتا ساحرا، أسعد أيام حياتها على الإطلاق، حيث زارا معا العديد من الأماكن الأثرية ومتحف جون سواني وحديقة لندن.

بحلـــول هـــذا الوقت كان والداها قد انفصلا بالفعل، ولكنها كانت منشغلة عنهما بحـــياتها مـــع دانـــيل، وبالكاد أثّر انفصالهما على حياتها. تخرجت تارا من جامعتها، وســـجلت لتحـــضير رسالة الدكتوراه، غير مدركة لما يحدث وكأنها تعيش في كوكب آخر تحلق بخيالها في حبها لدانيل، فقد كانت سعيدة للغاية وتشعر أنه لا ينقصها شيء.

ذات مرة وهي بصحبة دانيل سألته ما الذي يرجوه المرء من دنياه بعد ذلك؟

فسألها دانيل "ماذا تريدين أنت؟"

"لا شيء، لا شيء سواك".

عندما ذهبت تارا إلى والدها، وأخبرته بحبها لدانيل قال لها "إنه شاب رائع وموهوب، وهو أحد أفضل علماء الآثار الذين سعدت بالتدريس لهم، وأنتما معا تمثلان زوجين رائعين".

توقف والدها لفترة، ثم قال "عليك الحذر يا تارا، فدانيل مثله مثل كل الموهوبين. به جانب مظلم، احذري أن يؤذيك".

ردّت تارا "لن يؤذيني يا أبي، أعرف أنه لن يفعل".

مما يثير الدهشة أنها ظلت دوما تلقي باللوم على والدها منذ أن حذرها من دانيل وكأن هذا التحذير هو الأمر الذي أدى إلى انهيار هذه العلاقة، وذلك بدلا من إلقاء اللوم على دانيل.

وصلت تارا إلى قهوة ودود حيث وجدتها مكانا متواضعا ونشارة الخشب تملأ الأرضية، والمناضد مليئة بكبار السن الذين يحتسون الشاي ويلعبون طاولة الزهر. بمجرد دخولها القهوة، وقعت عيناها على دانيل مباشرة، حيث كان يجلس في الركن البعيد محدقا بطاولة الزهر أمامه، وينفث دخان الشيشة. لم يتغير شكل دانيل كثيرا عما كان عليه منذ ستة أعوام، غير أن شعره صار أطول ولونه أكثر سمرة بسبب أشعة الشمس. ظلت تارا تحدق به لوهلة، وترغم نفسها على المضي للأمام، حيث وقفت أمامه قبل أن يلحظ وجودها.

ما إن رآها حتى قال "تارا!"

اتسعت عيناه ذات اللون البني الداكن، وظلا ينظران إلى بعضهما لفترة دون كلمة واحدة، وفجأة انحنت تارا تجاه المنضدة، وصفعته على وجهه.

وهمست، أيها اللعين.

الأقصر، تلال طيبة

جلس الرجل المجنون بجوار النار، يعبث في جمرها بعصا طويلة، وتحيط به مناطق شاهقة الارتفاع وكبيرة وساكنة، ولم تكن هناك أي علامة أخرى على وجود حياة في هذا المكان غير هذا الرجل المجنون وكلب ضال ينبح ويجول هنا وهناك. فوق كتف الرجل يظهر منحنى من ضوء القمر الأبيض ينير هذه الليلة الظلماء.

أخذ الرجل المجنون يحدق بألسنة اللهب المتصاعدة بوجهه الأجوف المتسخ وضفائر شعره الأشعث متدلية على كتفيه فوق جلبابه الممزق. كان يتخيل وهو ينظر إلى النار وجود آلهة، وأشكالاً غريبة بأجساد بشر، ورؤوس وحوش، فأحدها يبدو كحيوان وآخر يبدو كطائر وثالث يرتدي غطاء طويلا للرأس ووجهه كوجه تمساح طويل، كل هذه الأشياء تثير الخوف والبهجة لديه في نفس الوقت. أخذ الرجل يضرب فخذيه، وشفتاه ترتعشان وكأنه مسحور بهذه الأشكال التي يراها في النار.

الآن، بدأت النار تظهر له أسرارا أخرى. غرفة مظلمة، وكفن، ومجوهرات، وأشياء معلقة في الحائط، وسيوف، ودروع، وسكاكين، مما جعله يحدق بها في هول.

فجأة انطفأت النيران للحظة وعند عودتها مرة أخرى كانت الغرفة قد اختفت، وحل محلها شيء آخر. ظهرت مكانها صحراء برمال مشتعلة وفي وسطها جيش يسير، وكان الرجل المجنون يسمع صوت وقع حوافر الخيل، وقعقعة الدروع، وموسيقى إحدى الأغنيات.

من بعيد يأتي صوت آخر، وكأنه زئير أسد، يأتي من أسفل الرمال، ويزداد علوا حتى يطغى على كل الأصوات الأخرى. في هذه اللحظة حدّق الرجل، وزادت أنفاسه، ورفع يديه النحيفتين، ووضعهما على أذنيه لأن صوت الزئير بدأ يؤذيه. تصاعدت ألسنة اللهب، وهبت الرياح، وأخذت رمال الصحراء تتدفق، وتحدث رغوة وكأنها مياه، ثم تمايلت، وتدفقت، وارتفعت موجة كموجة مد وجزر ترتفع وترتفع وترتفع حتى غمرت الجيش بأكمله. صرخ الرجل، وتراجع للخلف خوفا من أن يغرق تحت الرمال إن لم يسرع بالهرب، ومن ثم هرول الرجل وأخذ يعدو بجنون في التلال وهو يصرخ.

"كلا" كان صدى هذه *الكلا* يدوّي في الليل، وأخذ يقول "اللهم احفظني، اللهم ارحمني والطف بي!" ثم يردد مرة أخرى "كلا، كلا!".

14

القاهرة

وصـــفته جينـــي بأنـــه الأســـبوع الأسود لتارا، حيث تعرضت فيه لضربتين قاسيتين، أولاهما انفصالها عن دانيل، وثانيهما اكتشافها أن أمها تعاني من سرطان خبيث.

بالفعل كانت جيني محقة، حيث كان ذلك الأسبوع عصيبا بالنسبة لتارا.

على مدار ست سنوات لم تفعل تارا شيئا سوى التفكير في الماضي برمته، وكأنه شريط فيديو يدور مرة بعد الأخرى، وكانت تارا تلاحظ أن علامات هذا الوضع كانت واضحة منذ البداية.

علـــى الـــرغم مـــن التصاقهما ببعضهما، إلا أن جزءا من دانيل كان دوما بعيدا عـــنها، فدوما كان يستغرق في قراءته فور انتهاء لحظات الحب بينهما، وكأنه مستاء من هذه المشاعر العميقة التي أظهرها لها. وكثيرا ما كانا يتحدثان مرارا وتكرارا دون أن يكشف شيئا عن نفسه. على مدار عام كامل مع بعضهما، لم تكتشف تارا شيئا عن خلفيته وكأنها عامل حفر يظل يحفر حتى يصطدم بصخرة صلبة تحت سطح الأرض مباشـــرة. وُلد دانيل في باريس وفقد والديه في حادث سيارة في سن العاشرة، وبعدها ذهـــب للإقامة مع عمة له في إنجلترا في مدينة إكسفورد. وبدا أن استغراقه في تاريخ مصر بمثابة تعويض عما افتقده من تاريخه في صغره.

نعم، كانت العلامات على انهيار هذه العلاقة واضحة، ولكن تارا غالباً ما كانت تكذّب هذه العلامات لأنها تحبه حبا جما.

حـــدث الانهيار بلا سابق إنذار، فبعد شهور من علاقتهما معا، بدأ دانيل ينسحب شيئا فشيئا.

جاءها ذات يوم، ونظر إليها دون أن تلتقي أعينهما، وقال "لقد سمعت اليوم أن المجلس الأعلى للآثار قد منحني حق التنقيب عن الآثار في وادي الملوك، وسأقود حملة التنقيب الخاصة بي هناك".

ردت تارا "هذا رائع يا دانيل، أنا فخورة بك".

ولكن بدا وكأن لديه المزيد من الأخبار.

"ماذا هناك؟"

ازدادت عيناه سوادا عما كانتا عليه من قبل، وقال "هذا يعني أنني سأتوجه إلى مصر لبعض الوقت".

ضحكت تارا وقالت "إنه أمر بديهي يا دانيل بالتأكيد سيتعين عليك الإقامة في مصر لبعض الوقت. هل كنت تتوقع أن تسافر جيئة وذهابا؟"

ابتسم دانيل، ولكن أيضا كان هناك شعور غريب يسيطر عليه. أضاف "إنها مسؤولية كبيرة أن يسمحوا لي بالتنقيب في أحد أعظم الأماكن الأثرية قاطبة، إنها مسؤولية جسيمة، وسأحتاج إلى تركيز انتباهي بالكامل على هذا الأمر. كل اهتمامي".

وما إن سمعت تارا كلمة *كل* حتى أصابتها رعشة بسيطة، وكأنها تمهيد لخبر سيهز كيانها، وتراجعت إلى الوراء قليلا محاولة النظر في عينيه مباشرة، غير أنه تجنب ذلك.

"ما الذي تريد إخباري به يا دانيل؟"

خيّم الصمت عليهما، فتقدمت للأمام، وأمسكت بيديه، وقالت "أستطيع العيش بدونك لبضعة شهور، سأكون بخير".

سحب دانيل يديه من يدي تارا، وقام بسكب كوب من شرابه المفضل، وقال "الأمر أكثر من ذلك يا تارا".

أصابتها رعشة أخرى، ولكنها أقوى هذه المرة وقالت "لا أفهم ما تقوله".

شرب دانيل شرابه المفضل، دفعة واحدة، وقال "لقد انتهى الأمر يا تارا!"

ردت تارا "انتهى؟"

"آسف على فظاظتي في قول ذلك بهذا الوضوح، ولكن هذه هي الطريقة الوحيدة. لقد أمضيت حياتي لنيل فرصة كهذه، ولن أسمح لشيء بالحيلولة بيني وبينها، حتى وإن كنت أنت يا تارا".

ظلت تارا تنظر إليه لدقيقة، ثم تراجعت للوراء ممسكة بحافة الباب حتى لا تسقط، وشعرت وكأن الغرفة تدور من حولها.

"كيف سأقف في طريقك يا دانيل؟"

"لا يمكنني توضيح الأمر يا تارا، كل ما أعرفه أن عليّ التركيز في عملي، ولا يمكن أن أسمح لأي عوائق بالحيلولة بيني وبين عملي".

"عوائــق، هــل هذا ما أعنيه لك يا دانيل؟" قالتها تارا وهي تناضل للعثور على الكلمات المناسبة، "هل أنا عائق بالنسبة لك؟"

"لــيس هذا ما قصدته، كل ما أريده أن أكون متفرغا لعملي، لا يمكنني الارتباط بــشيء، أنا آسف، آسف للغاية. لقد كان العام الأخير أفضل أيام حياتي على الإطلاق، ولكن الأمر أنني..."

"وجدت شيئا أفضل يا دانيل".

خيّم الصمت لوهلة.

أخيرا ردّ دانيل قائلا "نعم".

جثت تارا على ركبتيها، خجولة من دموعها التي لا تتوقف.

"يا الله! لا يا دانيل لا تفعل هذا بي".

بعد مغادرتها بعشرين دقيقة، شعرت تارا وكأنها خاوية من الداخل. وبعد مرور يومــين لم تسمع فيهما شيئا من دانيل، لم تتمالك نفسها، وذهبت إليه في مسكنه، ولكن أحدا لم يرد عليها.

أخبرها أحد الطلبة القاطنين في الطابق السفلي أنه غادر، ذهب إلى مصر أو ما شابه ذلك، وهناك مستأجر جديد سيأتي في الأسبوع المقبل.

لم يترك لها أي ملاحظة.

تمــنت تــارا أن تمــوت، حتى أنها اشترت خمس عبوات أسبرين وزجاجة من شرابها المفضل.

في نفس الأسبوع علمت تارا بخبر إصابة والدتها بسرطان خبيث، وقد قلل ذلك من حدة الألم الذي تشعر به جراء فراق دانيل، فمصيبة والدتها طغت على آلام فراق الحبيب.

قامــت تارا بتمريض والدتها على مدار الأربعة أشهر التالية، واعتادت على أن تعــيش حــياتها. ووســط هذه المحنة التي تمر بها، نجحت في التأقلم مع هذا الوضع الجديد ونهاية هذه العلاقة إلى حدٍّ ما. بعد موت والدتها، نظمت تارا جنازتها، ثم سافرت للخـــارج لمدة عام، حيث ذهبت إلى أستراليا ثم إلى أمريكا الجنوبية. وبعد عودتها اشترت شقة، وحصلت على وظيفة في حديقة الحيوانات، وأحدثت شيئا من التوازن في حياتها.

في ظل كل ما تقدم لم تتخلص من آلامها بالكامل، وعلى الرغم من تعرفها إلى أشخاص آخرين إلا أنها كانت تحجم عن الدخول في علاقة حب حتى لا تتعرض ثانية للآلام التي تعرضت لها بعد انهيار علاقتها مع دانيل.

قبل هذه الليلة، لم ترَ أو تسمع شيئا من دانيل.

بعد أن صفعته على وجهه، كان رد فعل دانيل أن قال "أعتقد أنني أستحق ذلك".

"نعم أنت تستحق ذلك".

بعد برهة، غادرا المقهى معا وهما يحدقان ببعضهما. ويتهامسان في طريقهما بشارع أحمد ماهر متوجهين إلى الحي الإسلامي بقلب المدينة حيث توجد محلات صغيرة تبيع المصابيح وأنابيب (نباريج) الشيشة والملابس والخضار. كان الهواء مفعما برائحة التوابل والسماد والقمامة، فضلا عن مئات الأصوات المحيطة بهما، صوت طرق وموسيقى وآلات تنبيه وصوت طحن بطيء من أحد المحلات التي توجد بها آلة صنع الشعيرية.

في طريقهما سارا بمفترق طرق، ثم دخلا عبر بوابة حجرية مزخرفة وسط منارتين مرتفعتين، ثم دخلا في شارع ضيق، ولكنه أكثر ازدحاما من الذي غادراه للتو. وبعد خمسين مترا، دخلا إلى حارة ضيقة، وتوقفا أمام باب خشبي ثقيل، وهناك علامة على الباب تشير إلى اسم الفندق: فندق صلاح الدين. دفع دانيل الباب، وتوجها إلى بهو صغير يكسوه التراب به نافورة خاوية من المياه، وفوق رأسيهما شرفة خشبية.

قال دانيل "ما أحلى الرجوع إلى المنزل".

كانت غرفته في الطابق العلوي، وتطل مباشرة على الشرفة الخشبية، غرفة صغيرة، ولكنها نظيفة. أضاء دانيل الأنوار، وفتح النافذة، وسكب كوبين من شرابهما المفضل. سمعا صوت عربة صغيرة بعجلات في الأسفل وأصواتا بشرية، ثم خيّم الصمت لفترة طويلة.

أخيرا نطق دانيل "لا أعرف ماذا أقول. ربما يتعين عليّ التأسف. هل سيحسن ذلك من الموقف؟"

"ربما يكون بداية طيبة".

"حسنا أنا آسف يا تارا، أعتذر من أعماق قلبي".

بجوار المنضدة كان هناك صندوق من السيجار، أخذ واحد، وأشعله، وأخذ نفسا عميقا، ثم نفث دخانا كثيفا. بدا دانيل غير مستقر وعصبياً، ينظر إليها تارة ثم يحوّل

نظره تارة أخرى. في ضوء الغرفة الساطع، لاحظت تارا أنه صار أكبر مما بدا عليه عــندما رأته في المقهى، حيث ظهرت بعض الشعيرات الرمادية وسط شعره الأسود، وبعض التجاعيد في جبهته، ولكنه لا يزال فاتنا، يا الله بالفعل لا يزال كذلك!

سألت تارا "متى بدأت تدخن السيجار؟"

هزّ كتفه، وقال "منذ سنوات قليلة، لقد كان كارتر معتادا على تدخين هذا النوع، وقد اعتقدت أن جزءا من الحظ الذي صادفه سيصادفني أنا الآخر".

"وهل حدث ذلك؟"

"ليس بالضبط".

ســكب دانــيل كأسين آخرين من شرابهما المفضل، وكان هناك صوت آلة تنبيه مــرتفع يتــصاعد من الأسفل، حيث كانت إحدى السيارات تحاول المرور وسط هذا الإزدحام الكثيف.

"كيف عثرت عليّ؟ فبالتأكيد لم تمري بالمقهى بمحض المصادفة".

ردت تارا "لقد رأيت الورقة التي تركتها لوالدي".

"نعم، بالتأكيد، كيف حاله؟"

أخبرته تارا بما حدث لوالدها.

قال دانيل "يا الله! أنا آسف لذلك، لم تكن لدي أدنى فكرة عما حل به".

حاول دانيل مواساتها، ولكنها رفضت.

"أنا آسف يا تارا، هل يمكنني تقديم أي مساعدة؟"

"لا، لقد سار كل شيء على ما يرام".

"حسنا، إذا كنت محتاجة إلى..."

"أشكرك، لقد سار كل شيء على ما يرام".

خــيّم الصمت لفترة أخرى، وعندها تساءلت تارا في نفسها عما تفعله في غرفة دانيل، ما الذي تحاول إثباته لنفسها.

سألته تارا "ماذا كنت تفعل على مدار السنوات الست الماضية؟" وكانت تعلم مدى سطحية السؤال.

أجــاب دانيل "كالعادة، بعض أعمال التنقيب عن الآثار، وإلقاء بضع محاضرات بالإضافة إلى تأليف كتابين".

"هل تعيش هنا الآن؟"

"لا، أنا أعيش في الأقصر، ولكنني في القاهرة لعدة أيام لإنجاز بعض الأعمال".

"لم أكن أعلم أنك ما زلت على اتصال بوالدي!"

"أنا لست على اتصال به، فلم نتحدث منذ...". تراجع دانيل فجأة عما كان سيقوله ثم احتسى مشروبه المفضل، وقال "اعتقدت أنه من اللطيف أن ألتقيه، لست أدري لماذا، ولكن ربما لأجل الأيام الخوالي. لقد كنت متشككا فيما إذا كان سيرد عليّ أم لا، فأنا أعرف أنه يكرهني لما فعلته".

ردت تارا "هذا أمر مشترك بيني وبين والدي".

"أعتقد أنك محقة".

ظلّ الاثنان يحتسيان شرابهما المفضل، ويتطرقان إلى أخبار بعضهما دون خوض في التفاصيل، وبدأت أصوات الضوضاء في الشارع تتصاعد، ثم أخذت في الاختفاء بعد أن شرعت المحلات في الإغلاق، وأخذت الحشود تغادر المكان.

قالت تارا "لم تفكر في مراسلتي طوال الفترة الماضية". لقد تأخر الوقت وبدأت تارا تبوح بما يدور في عقلها، وكان الصوت في الخارج خافتا باستثناء أصوات الورقات المتطايرة في الشارع وكأن المدينة نامت عن بكرة أبيها.

أجابها دانيل "هل كنت ترغبين بأن أراسلك؟"

قالت تارا "لا". وهي جالسة على حافة السرير، بينما يجلس دانيل على أريكة متسخة في الجانب البعيد من الغرفة.

استطردت تارا "لقد دمرت حياتي يا دانيل".

نظرا إلى بعضهما، والتقت أعينهما لوهلة قبل أن ترفع تارا رأسها لتحتسي شرابها، "ولكن على أي حال لقد أصبح هذا الأمر من الماضي".

قالت تارا ذلك وهي تعلم تمام العلم أن هذا غير صحيح، وأن ثمة شيئا آخر، هناك شيء أكثر عمقا.

كانت سيارة المرسيدس المكسوة بالتراب قابعة في هدوء خلف البوابة الحجرية الكبيرة بجوار الرصيف.

15

الأقصر

تساءل خليفة بلهفة وهو يطفئ السيجارة في أحد أكواب القهوة الفارغة "هل تعرف أي شيء عن الاكتشاف الجديد".

هزّ الرجل رأسه ولم يبدِ إجابة.

"مقبرة؟ مخبأ؟ أي شيء غير مألوف؟"

مرة أخرى هزّ الرجل رأسه.

"هيا يا عمر، لو كنت تخفي شيئا، فسنعرفه عاجلا أو آجلا، هيا أخبرني".

"أنا لا أعرف شيئا، لا شيء على الإطلاق. أنت تضيع وقتك معي".

أشارت عقارب الساعة إلى الثامنة صباحا وقتها، ولم ينم خليفة طوال الليل. كان يعاني من الدوار، وكان حلقه جافّاً ورأسه يتصبب عرقا. فعلى مدار 17 ساعة لم يأخذ سوى استراحات بسيطة للصلاة وتناول الطعام، وكان هو وسارية يقابلان كل من له علاقة بتجارة الآثار في الأقصر، على أمل الوصول إلى خيط في قضية أبو ناير. فمنذ ظهر أمس وطوال الليل وحتى الصباح توافد الكثير من التجار المعروفين على قسم الشرطة في شارع الكرنك، وجميعهم أجابوا نفس الإجابات تقريبا "لا أعرف شيئا عن اكتشافات جديدة، لا أعرف شيئا عن أي آثار جديدة دخلت السوق، وإذا عرفت أي شيء فسأتصل بك على الفور". بدا الأمر وكأنك تستمع إلى أحد شرائط الكاسيت مرارا وتكرارا.

أشعل خليفة سيجارة أخرى، ولم يكن بحاجة إليها سوى لتبقيه يقظا.

وجّه خليفة سؤالا إلى عمر "ما رأيك، هل تعتقد أن شخصا مثل أبو ناير يستطيع تحمل تكاليف تلفاز جديد وثلاجة لأمه؟"

أجاب عمر "بالله عليك، كيف لي أن أعرف ذلك؟ لقد كنت بالكاد أعرفه".

كان عمر رجلا صغير الحجم، نحيلا، قصير الشعر، ذا أنف مستدير.

"لقد عثر على شيء، أليس كذلك؟"

رد عمر "ظننتك تعرف أكثر مني".

"لقد عثر على شيء ما ولهذا تمّ قتله، وأنت تعرف ماذا وجد".

"أنا لا أعرف شيئا".

"أنت تعرف يا عمر أنه ما من شيء يحدث في الأقصر إلا ويصلكم خبر به".

"في هذه القضية، نحن لا نعرف شيئا، كم مرة سأؤكد لك ذلك؟ أنا لا أعرف شيئا على الإطلاق".

وقف خليفة، ثم سار نحو النافذة، وهو ينفث دخان سيجارته، وكان يعرف أن كل هذه الأمور مضيعة للوقت، فلم يكن عمر ليخبره بشيء، وهذا ما آل إليه الأمر بالفعل، ظل يوجِّه أسئلة دون نتيجة، ثم أخذ نفسا عميقا، وقال "حسنا يا عمر، يمكنك الذهاب الآن، واتصل بي إذا ما عرفت أي شيء".

رد عمر "بالتأكيد يا سيدي". ثم توجَّه مسرعا ناحية الباب قائلا "سأخبرك على الفور".

غادر عمر تاركا خليفة ومساعده وحدهما.

علّق سارية قائلا "هذه هي النهاية". ثم تقدم للأمام قليلا وهو يمسح عينه، "لقد انتهينا منهم جميعا، لم يبقَ شخص آخر".

تهاوى خليفة على الكرسي، وأشعل سيجارة أخرى دون ملاحظة السيجارة التي تركها مشتعلة عند منفضة السجائر على حافة النافذة.

"ربما تكون توقعاتنا غير صحيحة ولا يكون للحادثة علاقة بالآثار، ففي ضوء ما سمعنا، هناك أسباب كثيرة قد تدفع الكثيرين لقتله". بالفعل لم يحصل خليفة على أي شيء يقيم العلاقة السببية بين الحادثة والآثار.

على الرغم من عدم وجود أدلة واضحة، إلا أن خليفة شعر في نفسه أن هناك علاقة بين مقتل ناير وتجارة الآثار القديمة، وهو نفس الشعور الذي يراود المنقبين عن الآثار عندما يشعرون أنهم على وشك الوصول إلى اكتشاف مهم. فهي كما ندعوها الحاسة السادسة. فما إن رأى جثة الرجل وعليها وشم الجعل، حتى أدرك أن هذه الحادثة وقعت في الوقت الراهن، ولكن فك طلاسمها يعود إلى الزمن الفائت.

كانـت هـناك بـضعة تلميحات تدفعه إلى وقف التحقيق تماما. بالفعل كان ناير يتاجر في الآثار، وحصل على كثير من الأموال مؤخرا على نحو لا يمكن تفسيره، إلا إذا جـزمنا أنـه يجري بعض الأعمال غير المشروعة ليفي باحتياجات أسرته. عندما حقق خليفة مع زوجة ناير في اليوم السابق، أنكرت معرفتها بامتلاك زوجها لأي آثار، وبالتأكـيد كـان ذلك سيبدو طبيعيا لو أنها لم تستبق الأحداث وتؤكد ذلك حتى قبل أن يـسألها عنه خليفة، حيث بدا الأمر وكأنها أعدت الإجابة مسبقا. ثم بعد ذلك ازداد هذا الإحساس لدى خليفة من ردود أفعال التجار عند التحقيق معهم.

نفـث خليفة الدخان، وشاهده يتصاعد إلى سقف الغرفة قائلا "الخوف". حتى تبدد الدخان.

تساءل مساعده "ماذا؟"

"الخوف يا سارية إنهم خائفون بل مرتعبون".

"لا عجب في ذلك، فسيتم سجنهم خمس سنوات إذا ثبت أنهم يتاجرون في الآثار المسروقة".

رد خلـيفة وهو ينفث الدخان مرة أخرى "لا، إنهم ليسوا خائفين منا، هناك شيء آخر، أو شخص آخر".

قال سارية محدقا به "ماذا تقصد؟ أنا لا أفهم".

"هـناك شخص آخر يا سارية يحاولون إخفاءه، ولكن خوفهم فضحهم. لقد ظهر ذلك واضـحا وهم يشاهدون صور ناير، لقد تغير لونهم وكأنهم يرون نفس الشيء يحدث لهم. كل تجار الآثار في الأقصر مصابون بالرعب، وهو أمر لم أعهده من قبل".

"هل تعتقد أنهم يعرفون القاتل؟"

"إنهـم متشككون، ولكنهم لن يتحدثوا. في الحقيقة، إنهم مرتعبون ممن فعل ذلك بناير أكثر من خوفهم منا".

تثاءب سارية وقال "حسنا، من هو الشخص الذي نتعامل معه من وجهة نظرك؟ شخص من الأقصر؟ عصابة من القاهرة؟ أصوليون؟"

هـزّ خلـيفة كتفـيه، قـائلا "ربما هم وربما غيرهم، غير أنني متأكد أنه ليس بالشخص السهل".

"هل تعتقد فعلا أنه عثر على مقبرة جديدة؟"

"ربمـا، أو لعل شخصا آخر عثر عليها، ووصل الخبر إلى ناير، أو ربما تكون بضعة آثار، ولكن بالتأكيد هي ذات قيمة كبيرة، شيء يستحق قتل هذا الرجل".

قذف خليفة السيجارة من النافذة، بينما تثاءب سارية الذي تأسف متعللا بعدم النوم على نحو كافٍ في الفترة الأخيرة بسبب المولود الجديد.

ردّ خليفة "بالتأكيد لقد نسيت ذلك، كم عدد أبنائك الآن؟"

"خمسة".

هزّ خليفة رأسه، قائلا "لا أدري من أين تأتيك هذه الطاقة، فأنا لا أستطيع تحمل ثلاثة فقط".

"يتعين عليك تناول مزيد من الحمص، فهو يمنحك طاقة مستمرة".

أثـــارت حماســـة سارية وهو يوجِّه هذه النصيحة دهشة خليفة، وجعلته يضحك ضحكة خافتة. بدوره شعر سارية بالخجل لوهلة قبل أن يشرع في الضحك هو الآخر.

قـــال خليفة "اذهب إلى بيتك يا سارية، وتناول بعض الحمص، ثم نم، واسترخِ، وتوجَّه إلى الضفة الغربية للتحدث مع زوجة وعائلة ناير، ولننتظر ما ستتوصل إليه".

نهض سارية، وأخذ معطفه من فوق الكرسي، وتوجَّه نحو الباب، لكن سرعان ما رجع مرة أخرى وقال "سيدي".

"ماذا هناك؟"

قال وهو يعبث بكمّي قميصه دون أن ينظر إلى خليفة "هل تعتقد باللعنات؟"

"اللعنات؟"

"لعنة الفراعنة، كما تعرف، لعنة توت عنخ آمون مثلا؟"

ابتسم خليفة "هل تقصد من يزعج نوم الأموات سيواجه مصيرا مشؤوما؟"

"نعم، شي من هذا القبيل".

"هل تعتقد أن هذا ما نحن بصدده هنا، لعنة؟"

هزّ سارية كتفيه دون تعليق.

"لا يـــا سارية، أنا لا أعتقد بهذه الأشياء، إنها مجرد خرافات". ثم قام بفتح علبة الـــسجائر ولكـــنها كانت فارغة، فألقى بها في زاوية الغرفة. "ولكنني أعتقد بالأرواح الـــشريرة. تلـــك الأشياء التي تسيطر على عقل الرجل وقلبه، وتجعل منه مسخا، فقد رأيت ذلك بعيني، وهو ما نحن بصدده هنا، شر مستطير".

انحنى خليفة للأمام، وهو يفرك عينيه بإبهامه متمتما "وفّقنا الله ومنحنا القوة".

بعـــد أن تناول بيضتين مسلوقتين وبعض الجبن، توجَّه خليفة إلى النهر، واستقل سيارة أجرة حتى وصل إلى دار أبو النجا، فنزل، وناول السائق بعض النقود، ثم سار إلى معبد حتشبسوت في الدير البحري.

كـــان هـــذا المعـــبد أحد الأماكن الأثرية المفضلة لدى خليفة، حيث يحتوي على مجموعة كبيرة من القاعات والمصاطب والأعمدة. وقد تم نحت هذا المعبد في الصخر عند قاعدة منحدرة بمساحة مائة متر. وفي كل مرة يرى فيها المعبد تصيبه الدهشة من مظهره الخلاب، فهو بلا شك إحدى عجائب الأقصر بل مصر والعالم بأسره.

لكـــن هذا المعبد هو إحدى العجائب التي فقدت بريقها بعد أن تعرض 62 سائحا عـــام 1997 إلى مذبحة هناك، وكان خليفة من بين الفوج الأول لرجال الشرطة الذي وصل إلى المكان حيث كان يحقق مع أحد الأشخاص في قرية مجاورة. وظل لشهور عديدة بعد هذه الحادثة يستيقظ ليلا والعرق يتصبب منه متخيلا سماع وقع قدميه وسط بـــركة مـــن الـــدماء. الآن، عـــندما يرى المعبد، فإن تقديره للمكان يعكره شيء من الاشمئزاز.

ظـــلّ خليفة يمشي حتى وصل إلى صف من المحلات التي تبيع الهدايا التذكارية فـــي الجهـــة اليمنـــى من الطريق، حيث يقف أصحابها أمامها ينادون على السائحين المـــارين بهم لمشاهدة البطاقات البريدية، والحلي، وقبعات الرأس، ومنحوتات المرمر وكـــل منهم يؤكد أن بضاعته هي الأرخص والأفضل في مصر بأسرها. توجّه أحدهم إلـــى خليفة وهو يحمل قميصا عليه كتابة هيروغليفية من الأمام، إلا أن خليفة صرفه، وانعطف إلى اليمين حيث مرّ بمرآب للسيارات، ثم توقف أمام دورة مياه.

نادى خليفة قائلا "سليمان، هل أنت هنا يا سليمان؟"

ظهر رجل قصير القامة، يرتدي جلبابا أخضر شاحب اللون، ويعرج قليلا، وفي جبهته ندبة طويلة تبدأ بجوار عينه اليسرى حتى تختفي عند مفرق رأسه.

"المحقق خليفة، هل أنت هنا؟"

"السلام عليكم، كيف حالك يا صديقي؟"

"بخير، الحمد لله. هل تريد تناول الشاي؟"

"شكرا".

"تفضل بالجلوس".

أشار الرجل لخليفة بالجلوس على مقعد في ظل أحد المباني المجاورة، ثم وضع غلايـــة الشاي خلف إحدى العربات المقطورة. صب الرجل كوبين من الشاي، وسلك طـــريقه بحـــرص وسط الأرض غير المستوية حتى لا يتعثر. أعطى الرجل كوبا من الشاي لخليفة، ثم وضع الكوب الآخر بجواره على المقعد. وضع خليفة كيسا بلاستيكيا في يد الرجل، وقال له إليك بعض السجائر.

فتح سليمان الكيس، وكشف عن علبة سجائر.

"لم تكن بحاجة إلى ذلك، أنا من أدين لك".

ردّ خليفة "أنت لا تدين لي بشيء".

"نعم لا أدين لك بشيء باستثناء حياتي".

منذ أربعة أعوام كان سليمان الرشيد يعمل حارسا للمعبد عندما أتى المهاجمون، وأطلقوا الرصاص على السائحين، فأصيب في رأسه عندما حاول حماية مجموعة من النساء والأطفال السويسريين. في أعقاب الهجوم، اعتقد الجميع أنه قد لقي حتفه، إلا أن خليفة وجده في الرمق الأخير، فاستدعى المساعدة الطبية. خضع الرجل للعلاج لعدة أسابيع حتى تعافى. أدت هذه الحادثة إلى فقدانه البصر، ومن ثم لم يستطع استكمال عمله كحارس، وأصبح عاملا على أحد المراحيض الموجودة في هذا الموقع الأثري.

"كيف حال رأسك؟"

هزّ سليمان كتفه، وحك جانبي رأسه، وقال "تارة وتارة، فالآن يؤلمني قليلا".

"هل تداوم على الذهاب إلى الطبيب؟"

"الأطباء! لا".

"إذا كان رأسك يؤلمك، يتعين عليك زيارة الطبيب لفحصه".

"لا، أنا بخير على هذه الحال".

كان خليفة يعرف مدى فخر سليمان بنفسه، لذا لم يصرّ على إثارة هذه النقطة، وإنما سأله عن زوجته وعائلته، وأخذ يغيظه لأن فريقه (الأهلي) قد خسر أمام فريق خليفة (الزمالك) في ديربي القاهرة. خيّم الصمت لفترة، حيث جلس خليفة يشاهد مجموعة من السائحين ينزلون من الحافلة.

أخيرا، نطق خليفة وقال "أنا بحاجة إلى مساعدتك يا سليمان".

"بالطبع أيها المحقق، أنا رهن إشارتك".

أخذ خليفة رشفة من الشاي، وشعور بالسوء ينتابه إزاء إشراك صديقه في هذا الأمر اعتمادا على امتنانه لما قام به معه. كان الرجل يعاني بما فيه الكفاية، ولكن خليفة كان بحاجة إلى معلومات، ودوما كان سليمان ممن هم على دراية ببواطن الأمور.

"أعتقد أنه تمّ العثور على شيء ما، مقبرة أو مخبأ أو شيء مهم، ولكن أحدا لا يتحدث عن ذلك كالعادة، غير أن ما يمنعهم ليس الطمع وإنما الخوف". انتهى خليفة من تناول الشاي، ثم قال "هل سمعت شيئا عن ذلك؟"

لم ينبس صديقه ببنت شفة، وإنما ظل يحك جانبي رأسه.

"صدّقني، لا أود إقحامك في هذا الأمر، ولكنّ شخصا ما قد لقي حتفه، ولا أريد مزيدا من القتلى يا صديقي".

ظلّ الرجل لا ينبس بكلمة.

ســأل خليفة "هل هناك مقبرة جديدة؟ هيا تحدث يا صديقي فلا شيء يحدث هنا دون أن تسمع به".

اعتدل سليمان في جلسته، وأخذ كوبا من الشاي يشربه على مهل.

"لقــد ســمعت بعــض الأشــياء، لكنها غير مؤكدة، فكما تقول أنت الجميع هنا مرتعبون".

أشــاح الرجل بوجهه ناحية التلال، وعلى وجه التحديد تجاه الجدران اللامعة من الصخر الأصفر- البني.

ســأله خليفة "هل تعتقد أن هناك من يراقبك؟ وأخذ ينظر في الاتجاه الذي ينظر إليه الرجل".

"أنا أعرف أن هناك من يراقبنا أيها المحقق، فهم كالنمل منتشرون في كل مكان".

"من هم المنتشرون في كل مكان؟ ما الذي تعرفه يا سليمان؟ ما الذي سمعته؟"

استمر سليمان في تناول الشاي، ولاحظ خليفة أن عيني الرجل بدأتا تدمعان.

"مجرد شائعات، كلمة من هنا وهناك".

"ما هي هذه الشائعات؟"

انخفض صوت الرجل وكأنه يهمس، وقال "تفيد الشائعات أنهم وجدوا مقبرة".

"وماذا أيضا؟"

"إنها تحتوي على أشياء فريدة لا تقدر بمال".

أخذ خليفة يعبث في بقية الشاي بالكوب، وقال "هل تعرف أين؟"

أومأ خليفة تجاه التلال، وقال "هناك في مكان ما".

"هناك تشير إلى مكان فسيح، هل بمقدورك أن تكون أكثر تحديدا؟"

هزّ الرجل رأسه.

"هل أنت متأكد من أنك تريد معرفة ذلك؟"

"نعم".

بعــد وقفة طويلة، سُمع صوت سيارة تقف فجأة في هذا الجو الحار، ثم صوت حمــار يأتي من خلفهم، وأصوات سائحين يتجادلان مع سائق سيارة بالقرب من النهر حول سيارة الأجرة.

سأل خليفة "لماذا الجميع مرعوب يا سليمان، ممن يخافون".

خيّم الصمت مرة أخرى.

"مع من أتعامل في هذه القضية؟"

نهض سليمان، وأخذ الكوبين الفارغين متظاهرا بعدم سماع السؤال.

كرر خليفة سؤاله مرة أخرى "من هؤلاء الأشخاص يا سليمان؟"

ذهب الرجل في طريقه إلى المرحاض، وتحدث دون أن يدير رأسه إلى خليفة وقال "سيف الثأر، إنهم يخافون من سيف الثأر. متأسف أيها المحقق، لدي عمل أقوم به. لقد سرتني رؤيتك".

صعد الرجل درجات سلم المرحاض، وأغلق الباب خلفه.

أشعل خليفة سيجارة، واتكأ على الحائط، وهمس قائلا "سيف الثأر، كيف لم يخطر ببالي؟"

أبو سمبل

دخل الشاب المصري وسط الحشد وقبعته تتدلى على عينيه، ولم يبدُ مختلفا عن السائحين الذين يطوفون حول التماثيل الأربعة الضخمة باستثناء أنه بدا وكأنه يتحدث إلى نفسه، ولم يعر اهتماما للتماثيل الضخمة المحيطة به، حيث انصب كل تركيزه على الحراس الثلاثة الجالسين على مقعد بالقرب منه، نظر الشاب إلى ساعته، وخلع حقيبة الظهر، وأخذ يفك أحزمتها.

كان الوقت يشير إلى منتصف الصباح، حيث وصلت حافلتان بهما كثير من السائحين الأمريكيين، جميعهم يرتدون قمصانا صفراء. وكان باعة البطاقات التذكارية والحلي الصغيرة يحيطون بهم.

فتح الشاب حقيبة الظهر ثم جثا على إحدى ركبتيه، وأخذ يبحث بداخل الحقيبة وعلى يساره مجموعة من السائحين اليابانيين، يلتفون حول المرشدة السياحية التي كانت ترفع مقشة الذباب عاليا حتى يتعرفوا على مكانها.

تحدثت المرشدة السياحية قائلة "بنى هذا المعبد الفرعون رمسيس الثاني في القرن الثالث عشر قبل الميلاد وكان مخصصا للآلهة ري - هارختي وآمون وبتاح".

كان أحد الحراس الثلاثة ينظر إلى التمثال بينما الاثنان الآخران يدخنان ويتحدثان إلى بعضهما البعض.

كانت التماثيل الأربعة ترمز إلى الملك رمسيس، ويرتفع الواحد منها لما يزيد عن عشرين مترا.

بدأ السائحون الأمريكيون في الوصول، وهم يتبادلون الضحكات، ويتجاذبون أطراف الحديث، وكان أحدهم ممسكا بكاميرا فيديو، ويُصدر تعليمات لزوجته بالتقدم للأمام أو التحرك لليسار أو النظر لأعلى أو الابتسام. نهض الشاب المصري وإحدى ذراعيه لا تزال داخل الحقيبة، وبدأ الحارس ينظر إليه، ثم قطع الحارسان الآخران حديثهما، وأخذا ينظران إليه أيضا.

كانت التماثيل الصغيرة الموجودة بين قدمي رمسيس ترمز إلى أم الملك ميوتويا وزوجته المفضلة نفرتاري وبعض أطفاله.

ارتفع صوت الشاب فجأة، واستدار العديد من الأشخاص ينظرون إليه. أغلق الشاب عينيه لوهلة، ثم ابتسم ابتسامة عريضة، وسحب ذراعه من الحقيبة وبها بندقية رشاشة صغيرة الحجم، وفي نفس الوقت سحب القبعة من فوق رأسه مظهرا ندبة طويلة تصل إلى ما بين حاجبيه.

صرخ الشاب قائلا "سيف الثأر". وصوَّب البندقية تجاه الحشد وسحب الزناد، فصدر صوت دون رصاص.

انتفض رجال الشرطة الثلاثة، وأمسكوا ببنادقهم، بينما ظل الجميع بلا حراك. استمر هذا الوضع لوهلة حتى أخذ الشاب يعبث ببندقيته بجنون، ثم جذب الزناد مرة أخرى. وهذه المرة صدر صوت إطلاق النار، وانطلقت الرصاصات تخترق الحشد، فتمزق الأجساد، وتهشم العظام، وتخلط الرمال بالدماء. هرول الجميع في جنون، بعضهم يبتعدون عن الشاب، فيما البعض الآخر يهرع إليه من هول الصدمة وصرخات الخوف والألم تملأ المكان. انهار الرجل الذي كان يحمل كاميرا الفيديو، بينما انبطح الحراس الثلاثة أرضا. وسط كل هذه الفوضى، كان صوت الشاب واضحا وهو يغني ويضحك.

استمر إطلاق الرصاص لعشر ثوان، وهو ما يكفي لإسقاط عشرات القتلى على أعتاب هذه التماثيل العظيمة. انقطع الصوت فجأة، وخيّم الصمت على المكان. ظل الشاب يمسك بالبندقية لوهلة قبل أن يلقيها جانبا، ويهرب إلى الصحراء.

لم يبتعد الشاب لمسافة طويلة، حيث طارده خمسة من الباعة، وأمسكوا به، وطرحوه أرضا، وأخذوا يركلونه بأقدامهم ورأسه يترنح جيئة وذهابا وكأنه كرة قدم.

ظلّ الشاب يصرخ، وهو يضحك مرددا "سيف الثأر" والدم يسيل من أنفه وفمه.

16

القاهرة

استيقظت تارا ظهر اليوم التالي حيث وجدت نفسها لا تزال في غرفة دانيل بالفندق، نهضت من السرير ورأسها يؤلمها.

كانت هناك زجاجة مياه معدنية بجوار السرير، فأخذتها، وتجرعت جرعة كبيرة من المياه. على الرغم من الضوضاء المتصاعدة من الشارع، لم تكن هناك أي علامة على وجود دانيل، ولم يترك لها ملاحظة.

شعرت تارا ببعض السوء جراء المقابلة التي أجرتها بالأمس مع دانيل، حيث شعرت وكأنها ضعفت، ولذلك قررت المغادرة سريعا قبل عودته. ما إن انتهت من شرب المياه، حتى كتبت ملاحظة تعتذر فيها عن نومها في غرفته، وأخذت حقيبة ظهرها، وغادرت دون أن تخبره عن مكان إقامتها.

نزلت تارا إلى الشارع، وتوجهت إلى البوابة الحجرية الكبيرة التي مرا بها بالأمس، ولكن سرعان ما غيرت اتجاهها خوفا من إمكانية مقابلة دانيل صدفة، حيث سارت في الشارع الضيق العميق المؤدي إلى الحي الإسلامي القديم.

كان الجو حارا ومغبرا، والعديد من الأشخاص يحيطون بها من بينهم نساء يحملن سلال خبز طازج على رؤوسهن، وتجار يروجون لسلعهم، وأطفال يمتطون الحمير. كان هذا المنظر يسعد تارا لو أنها كانت في ظروف أخرى: الأصوات الغريبة، والأقفاص الملونة المحتوية على البلح، ونبات الكركديه، والأقفاص الأخرى المملوءة بالأرانب والبط والدجاج.

نظرا لشعورها بالإرهاق والحيرة، سريعا ما أصابتها الضوضاء من حولها بالضيق، أصوات طرق وآلات تنبيه وموسيقى. شعرت تارا بالغثيان جراء رائحة

القمامة والتوابل في ظل ازدحام كثيف حيث يتوافد عليها كثير من الأشخاص يصطدمون بها من هنا وهناك. مرت تارا بمجموعة من الأولاد يفرغون صفائح النحاس الأصفر من فوق متن إحدى عربات الشحن، وفتاة تقف على كومة من أكياس الخيش، ورجلين كبيرين في السن يلعبان الدومينو على جانب الطريق، وكلهم يحدقون بها. أثناء سيرها نطق رجل يقف على صقالة خشبية ببعض الكلمات غير أنها تجاهلته ومضت في طريقها وسط الازدحام وهي بالكاد تتنفس، وتحلم بلحظة عودتها إلى غرفتها بالفندق، حيث الهواء البارد والهدوء والأمان.

بعد عشر دقائق، مرت تارا بأحد الجزارين وهو يذبح الدجاج على جانب الطريق، حيث يجذب الواحدة تلو الأخرى من القفص، ويمسك بمنقارها، ويجذب رأسها نحو الأسفل، ويضع إبهامه على رقبتها، ثم يذبحها، ويضعها في برميل بلاستيكي أزرق بينما لا يزال جناحاها يرفرفان. اجتمع حشد كبير لمشاهدة الرجل وهو يفعل ذلك، وانضمت إليهم تارا التي اشمأزت من الموقف، ولكن فضولها دفعها إلى ذلك.

لم ترَ تارا الرجال الذين يرقبونها من بعيد، حيث ظلت تشاهد الرجل وهو يسلخ الدجاج، وبعد دقيقتين، لاحظت أن هناك رجلين ملتحيين يرتديان جلبابين أسودين ينظران إليها مباشرة.

نظرت تارا إليهما لوهلة، ثم صرفت نظرها نحو الجزار مرة أخرى، وبعد أن ذبح دجاجتين أخريين، نظرت مرة أخرى في اتجاه الرجلين فوجدتهما مازالا ينظران إليها، وكانت تعابير وجهيهما حادة وقاسية. كان هناك شيء مريب في هذين الرجلين، ولهذا خرجت تارا من وسط الحشد، وسارت في الشارع. انتظر الرجلان لثوانٍ، ثم تبعاها.

بعد خمسين مترا، توقفت تارا أمام أحد المحلات لشراء طاولة زهر، فتوقف الرجلان خلفها على بعد مسافة ثلاثين مترا دون أن تنزل أعينهم عنها. أسرعت تارا الخطى، وسارت في شارع آخر، وبعد عشر، خمس عشرة، عشرين خطوة كان الرجلان في إثرها. بدأ قلبها يخفق حيث كان هذا الشارع أضيق من سابقه، وكلما مشت فيه أكثر، ازداد ضيقا، وكأن المباني تطبق عليها كالفك المفترس، فضلا عن الازدحام الشديد المتزايد. شعرت تارا باقتراب الرجلين منها أكثر فأكثر، وفجأة ظهر أمامها شارع يؤدي إلى اليمين، فشقت تارا طريقها وسط الازدحام، ودخلت ذلك الشارع.

كان الشارع فارغا مما أشعرها بالراحة والسعادة للخروج من الازدحام، ولكن سرعان ما بدأت الوساوس تطاردها: هل هذا تصرف خاطئ؟ ففي هذا الشارع هي في العراء ولا يوجد من تستنجد به. أثار هذا الفراغ الهلع في نفسها، ولهذا سارعت بالرجوع مرة أخرى والدخول وسط الازدحام، ولكن الرجلين كانا قد اقتربا منها أسرع مما توقعت، حيث كانا على بُعد عشرة أمتار فقط. لوهلة أخذت تنظر إليهما، ثم هرولت هربا، وهي تسمع وقع أقدامهما خلفها.

صرخت تارا "النجدة". وصوتها خافت ومكتوم، وكأن هناك قطعة قماش على فمها.

بعد خمسين مترا، انعطفت إلى شارع على اليسار ثم إلى اليمين ومرة أخرى إلى اليسار غير مكترثة بالاتجاه الذي تسلكه، فكل ما تريده هو الهرب.

كانت هناك أبواب خشبية ثقيلة على الجانبين، فطرقت تارا أحدها، ولكن أحدا لم يجبها، ولهذا استمرت في العدو خوفا من أن يمسكوا بها. كان صدى صوت وقع أقدام متعقبيها يدوي في كل مكان، وكأنهما سيأتيان من الأمام ومن الخلف. في هذه اللحظة، ضلت تارا طريقها تماما، وأصابها الدوار، وأشعرها الخوف بالإعياء، وكأنها جرت الدهر كله في هذه متاهة حتى وصلت أخيرا إلى ساحة صغيرة مشمسة بها شوارع تؤدي إلى اتجاهات مختلفة. كانت هناك شجرة نخيل وسط الساحة يجلس في ظلها رجل عجوز، فهرعت إليه طلبا للنجدة.

"أرجوك، ساعدني!"

نظر الرجل إليها وعيناه بيضاوان كالحليب، ورفع يده قائلا "بقشيش، بقشيش".

"لا، ليس معي، ساعدني أرجوك".

ألح الرجل في طلبه، وهو يجذب كمها، "بقشيش".

حاولت تارا الابتعاد عن الرجل، ولكنه أمسك بها وكأن أصابعه مخالب في ملابسها.

"بقشيش، بقشيش".

كانت هناك صرخة، ووقع أقدام تجري.

نظرت تارا إلى الشوارع الأربعة بما فيها الشارع الذي أتت منه لترى من أين يأتي هذا الصوت، وكان وقع الأقدام يدوي في أرجاء الميدان وكأن شخصا ما يقرع الطبول. ظلت تارا بلا حراك غير قادرة على تحديد وجهتها، ولكن فجأة أعطاها هذا الخوف قوة لا يستهان بها، فجذبت ذراعها من يد الرجل الأعمى،

وجـــرت بأقصى سرعة في الشارع المقابل للشارع الذي أتت منه. وما إن وصلت إلـــى هـــذا الشارع حتى وجدت رجلين ملتحيين قادمين نحوها، فانعطفت إلى أحد الشوارع الأخرى، ولكن غريزتها، أوحت إليها بالسير في الشارع المجاور لذاك الذي دخلته.

تـــوقفت تـــارا عند أول الشارع لالتقاط أنفاسها في حين دخل الرجلان الملتحيان إلـــى الـــساحة حيث بحثا عنها، ونظرا إلى الشارع الذي دخلت إليه أولا قبل أن تغير وجهتها إلى الشارع الآخر. خيّم الصمت لفترة، وفجأة ظهر الرجل الضخم الذي رأته في سقارة وأمام الفندق. كانت حلته مجعدة ووجهه يتصبب عرقا، حيث ظل يحدق بها لـــوهلة وأنفاســـه تتلاحق، ثم وضع يده في جيبه وأخرج ما يشبه مالجا صغيرا للبناء. اقترب الرجل منها، "وسألها أين؟ أين القطعة؟"

"لا أدري ماذا تقصد، لا بد أنك مخطئ".

"كـــرر الرجل سؤاله أين هي؟ القطعة المفقودة التي تحمل الرموز الهيروغليفية، أين هي؟"

كان الرجل في هذه اللحظة في وسط الساحة، تقريبا بجوار شجرة النخيل.

كـــرر الـــرجل الأعمى "بقشيش". وهو يمسك بالسترة الكتان التي يرتديها الرجل العملاق بيد، ويمسك بحفنة من النقود المعدنية باليد الأخرى ويردد "بقشيش".

حـــاول الرجل العملاق التخلص منه، ولكنه لم يستطع، فرفع المالج، ثم هوى به علـــى أنف الرجل الأعمى، فهشمه، وأصدر الرجل صرخة مدوية من الألم. لم تنتظر تارا لترى المزيد، فاستدارت، وهربت وخلفها صوت وقع أقدام.

أخـــذت تـــارا تجري وصوت الدم المتدفق الذي ينحدر إلى ما يشبه النفق حيث يـــوجد جمع من النساء اللواتي يغسلن الثياب يدوي في أذنيها. مرت بجوارهن ثم عبر بـــوابة تـــؤدي إلى شارع به عدد أكبر من الأشخاص. انعطفت تارا إلى أحد الشوارع الأخرى، المكتظ بالكثير من الناس والمحلات والطاولات، فأبطأت لالتقاط أنفاسها، ثم استأنفت الجري مرة أخرى، لكن فجأة شعرت بشخص يضع يديه عليها ويديرها وهي تردد "لا، لا، اتركني". والرجل يقول "تارا، تارا!"

لقد كان دانيل وخلفه المنارتان والسماء الشاحبة والبوابة الحجرية الكبيرة القريبة من الفندق، حيث كانت تارا قد لفت دورة كاملة حول المكان.

قالت تارا وهي تلهث "إنهم يحاولون قتلي، وأعتقد أنهم قتلوا والدي أيضا".

"من؟ من يريد قتلك؟"

استدارت تارا، وأشارت إلى الشارع المزدحم بالناس لدرجة يصعب معها التعرف على متعقبيها وإن كانوا وسط هذا الحشد. أخذت تارا تحدق بالحشد للحظة قبل أن تستدير نحو دانيل مرة أخرى واضعة رأسها على كتفه.

الأقصر

في طريقه للخروج من المعبد مفكرا بما قاله سليمان، شاهد خليفة ولدين صغيرين يمتطيان جملين في طريق عودتهما من دار أبو النجا وهما يحثان الجملين على السير "هيا، بسرعة". استدار خليفة، ونظر إليهما، وفجأة تذكر الأيام الخوالي مع أخيه علي في إسطبلات الجيزة قبل أن ينهار كل شيء.

لم يتذكر خليفة على وجه التحديد متى يتم التلاقي بين شخصيتي علي وسيف الثأر. فلم يكن الأمر فجأة، وإنما جاء تدريجيا حيث انسحب علي من بين أسرته وأصدقائه وانخرط في بؤرة العنف هذه. أخذ خليفة يفكر لو أنه أدرك مبكرا التغييرات التي طرأت على علي، لتمكن من فعل شيء ما للحيلولة دون ذلك، أو حتى كان ليقنع نفسه بأن الأمور لم تكن بهذا السوء. ولهذا السبب فُقد علي، فُقد بسبب خليفة.

كان الإسلام ومايزال مكونا أساسيا في حياتهم حيث تذكر خليفة كيف كان إمام مسجدهم ينقم على الصهاينة والأمريكيين والحكومة المصرية أثناء خطبة الجمعة، ويحذر من أن الكفار يحاولون تدمير الأمة الإسلامية. ولا شك أن ذلك قد أثر على تفكير علي. بل إنه أثر على تفكير خليفة أيضا لا لشيء إلا لأن هذه الكلمات بها كثير من الحقائق، فالعالم مليء بالشر والفساد، فضلا عن أن ما يقوم به الإسرائيليون في فلسطين هو أمر لا يمكن التسامح معه. وأخيرا نجد تجاهلا مؤسفا للفقراء والمحتاجين، بينما الأغنياء ينعمون برغد العيش.

لكن خليفة غالباً ما كان يجد صعوبة في الربط بين هذه الحقائق واستخدام العنف، على عكس علي الذي ربط سريعا بينها، وسار في هذا الدرب.

بدأ الأمر بهدوء شديد، مجرد محادثة وقراءة واجتماعات بين الحين والآخر، ثم شرع في المشاركة في المظاهرات، وتوزيع المنشورات، والتحدث بين الجمهور. بالتدريج أخذ يتخلى عن مطالعة كتب التاريخ، وتوجَّه شيئا فشيئا إلى كتب الدين، وقال لخليفة ذات مرة "ما هي أهمية التاريخ دون إيمان؟ والإيمان لا يوجد في أعمال البشر (أي كتب التاريخ) وإنما في كتاب الله".

لــم يكن شيء مما فعله علي يوحي بما ستؤول إليه الأمور، ولذا لم يشعر خليفة بالخــوف جــراء التغييــرات التي طرأت على أخيه، حيث كان يجمع المال للفقراء، ويقضي الوقت في تعليم الأطفال الأميين، ويفسر ما يقوله البكم.

لكــن تزامن ذلك مع قسوة في الطباع وغلظة، وانضم إلى المنظمات المتطرفة. فكان ينضمّ لواحدة، ثم يتركها للانضمام إلى أخرى أكثر تطرفا، مما أزال الفارق بين الإيمان والغضب لديه، حتى أصبح في النهاية على ما هو عليه.

عــندما ســمع خليفة اسم سيف الثأر من سليمان، تذكر أنه من حطم علي وأفسد علــيه حــياته، وجعله يقوم بمثل هذه الأعمال، وهو من أقضى عليه منذ أربعة عشر عاما.

مع ظهور هذه القضية اكتملت الصورة، فالآن لم يعد خليفة يحقق في حادثة قتل فحسب، وإنما يبحث عن الانتقام. كان خليفة يعرف أن سيف الثأر وراء هذه الحادثة، فالماضي يلاحقك دوماً مهما حاولت الفرار منه.

صــدر صوت ما فقطع حبل أفكار خليفة، وعاد به إلى الزمن الحالي. نظر إلى الطــريق، فوجد عربة بها سائحون متجهة نحوه والسائق يطلق آلة التنبيه. سار خليفة علــى جانــب الطريق، يحاول النظر إلى الولدين اللذين يمتطيان الجملين، غير أنهما تواريا عن نظره. أشعل خليفة سيجارة منتظرا مرور العربة حتى يعبر الطريق وسط حرارة الظهيرة.

القاهرة

قال دانيل "لقد ندمت على فراقك".

"هل تقصد اليوم أم منذ السنوات الست الماضية؟"

نظر إليها دون تعليق. ثم قال "أتحدث عن هذا الصباح على وجه التحديد".

17

سقارة

استقل دانيل وتارا سيارة أجرة، وتوجها إلى سقارة سالكين معظم الطريق التي سلكتها تارا منذ يومين. لم يكن حسن الرجل الذي اصطحب تارا عندما عثرت على جثة والدها موجودا، ولكن كان هناك رجل آخر تعرف على تارا، وأعطاها مفاتيح المحفر، حيث توجهت هي ودانيل في سيارة الأجرة حتى وصلا إلى المحفر، وأخبرا السائق أن ينتظرهما حتى يخرجا منه.

كان الجو مظلما وباردا عندما دخلا، فتح دانيل نافذتين، بينما كانت تارا تحدق بحزن في الجدران البيضاء والأرائك البالية ورفوف الكتب، وتفكر في مدى سعادة والدتها بهذا المكان وكيف أصبح يشكل جزءا من حياتها كما كان يمثل جزءا من حياة والدها. مسحت تارا دموعها بكمها، واستدارت إلى دانيل الذي كان ينظر إلى صورة ذات إطار معلقة على الحائط.

سألت تارا "ما الذي نبحث عنه بالضبط".

"ليس لدي أدنى فكرة، ولكن ربما يجب أن نبحث عن شيء يبدو قديما، ويحمل رموزا هيروغليفية".

بدأ دانيل ينظر في رفوف الكتب، بينما دلفت تارا إلى إحدى الغرف المحتوية على سرير صغير في أحد الأركان، بالإضافة إلى خزانة ملابس مقابل الحائط، فضلا عن سترة سفاري معلّقة على الباب حيث وضعت يدها في أحد الجيوب، وأخرجت منه محفظة كانت لوالدها.

صاحت تارا قائلة "هذه غرفة والدي".

أتى دانيل، وأخذ الاثنان يبحثان في حاجيات والدها. لم يكن هناك الكثير باستثناء بعض الملابس، ومعدات للكاميرا، وكراستين، وكرسي بجوار السرير، ومذكرات في حافظة جلدية. كانت عناوين اليوميات مبهمة ولا توضح ماهية ما بداخلها حيث كانت مقتصرة على التقدم الذي حققه في عمله هذا الموسم، فضلا عن بعض الإشارات إلى تـارا والتـي كان يشير إليها بحرف التاء وذلك في آخر يوم قبيل وصولها إلى مصر وآخر يوم في حياته أيضا.

"في الصباح سأتوجه إلى القاهرة لاجتماع في الجامعة الأمريكية لمناقشة المنهج الجديـد للعـام القـادم، وبعد ذلك سأتناول الغداء في هيئة الآثار، ثم أتسوق في خان الخليلي استعدادا لقدوم تارا، وأخيرا سأعود إلى سقارة بعد الظهر".

كان هذا كل شيء في اليوميات دون مزيد من الضوء حول الأحداث التي وقعت مؤخرا ولهذا تركا اليوميات وقالت تارا "علهم وصلوا إلى ما نبحث عنه".

"أشك في ذلك، وإلا لماذا كانوا يطاردونك؟"

"كيف نعرف أنها هنا وليست في القاهرة؟"

"أعتقد أنه بغض النظر عما نبحث عنه فإن والدك لم يستحوذ عليه سوى لبضعة أيـام. ولمّـا كـان والدك يعيش في الشهور الثلاثة الماضية في سقارة فلا بد أن نبدأ البحث من هنا. هيا فلنشرع في تفتيش الغرف الأخرى".

قـضيا سـاعة يبحثان هنا وهناك في كل جارور وخزانة، حتى أنهما جَثوَا على ركـبهما للـبحث أسفل الأسرة. وباستثناء معدات الكاميرا، لم يكن بالمحفر شيء آخر يغري لصا صغيرا.

"أعتقد أنني قد أخطأت في تخميني".

كانـت تـارا في إحدى غرف النوم والأدرينالين يجري في مخها جراء البحث المـضني، وفجـأة شعرت بوحشة شديدة وفقدان لا ينقطع لوالدها. وضعت تارا يدها علـى شعرها، وألقت بجسدها على السرير، واتكأت على الوسادة حيث شعرت بشيء مـا أسـفلها، فاعتدلت مرة أخرى، ورفعت الوسادة، وأخرجت من تحتها ورقة بردى مطوية تحمل اسمها ففتحتها وقرأتها.

نادت تارا على دانيل قائلة "فلتنظر إلى هذه يا دانيل".

ثماني أحجيات، أولها وصلة في سلسلة.

مفتاح وراء مفتاح، كهرم ذي درجات.

في النهاية تصل إلى جائزة، شيء خفي.

أهو كنز، أم مجرد عظام قديمة؟

قد تساعدك الآلهة، إذا ما استعنت بها.

أمنحتب أو ربما ايزيس أو سيتة.

وأنا شخصيا كنت لأبحث بجوار المنزل.

لأنه لا أحد يعرف أكثر من ماربيت.

تساءل دانيل "ألست ناضجة بعض الشيء على هذه الأحجيات".

"عندما كنت في الخامسة عشرة من عمري ابتكر لي والدي أحجية كهذه كهدية لعيد ميلادي". قالت تارا ذلك وهي تبتسم ابتسامة حزينة تنم عن افتقادها لهذه الذكريات. "وقد كانت هذه من المرات القليلة التي شعرت فيها أن والدي يهتم بي، وأعتقد أن هذه هي طريقته في معالجة الجروح القديمة كنوع من المصالحة بيننا".

وضع دانيل يده على كتفها، ونظر إلى ورقة البردى مرة أخرى.

تساءل دانيل....

"أتعتقدين أن...".

"هل هدية والدك هي هذا الشيء الذي يبحثون عنه؟"

"ليست لدي فكرة، ولكن هو بالتأكيد شيء يستحق العثور عليه".

عاد دانيل إلى الغرفة الرئيسية مرة أخرى.

ماربيت هو أوغست ماربيت أحد المؤسسين لعلم المصريات حيث قام بالكثير من العمل هنا في سقارة، واكتشف أشياء كثيرة تتعلق بسيرابيس.

سارت تارا خلف دانيل إلى الغرفة الرئيسية، فوجدته واقفا أمام الصورة التي كان ينظر إليها في السابق.

ردد دانيل "أوغست ماربيت رجل ملتح يرتدي حُلة وعمامة مصرية تقليدية كما توضح الصورة". أزال دانيل إطار الصورة من فوق الحائط، ونظر خلفه فوجد ورقة بردى أخرى مطوية وملتصقة بالخلف.

لمعت عيناه وقال "يا الله".

أسرعت تارا والحماسة تملؤها، قائلة "افتحها".

جذب دانيل مفتاح اللغز من الإطار، وفتحه.

زوجة أحد الفراعنة، هي فرعون أيضا.

حكمت فترة بين الزوج وابن الزوج.

اسمها نفرتيتي، اسم جميل.
ومعها جاء الجمال.
زوج منشق عن العقيدة، أخناتون اللعين.
سامحته الآلهة لأنه سامحها.
عاشا معا، ولكن أين عاشت هي؟
ربما تكون الإجابة في أحد الكتب.

تساءلت تارا "ما هذا بحق الله".

أجاب دانيل "كانت نفرتيتي هذه الزوجة الأساسية للفرعون أخناتون، وكان اسمها يعني لقد أتى الجمال. بعد موت أخناتون غيرت اسمها إلى سمنكرع وحكمت البلاد كفرعون، وجاء بعدها توت عنخ آمون وهو ابن أخناتون من زوجة ثانية".

أومأت تارا قائلة "بالطبع".

"لعنت الأجيال التالية أخناتون لأنه هجر الآلهة المصرية التقليدية، وجعلها إلها واحدا اسمه أتون. وقام هو ونفرتيتي ببناء عاصمة جديدة على بعد مائتي متر غرب سقارة أسموها أخيتاتون أي أفق أتون وهي معروفة الآن باسم تل العمارنة، وقد قمت ببعض الحفريات هناك ذات مرة".

توجَّه دانيل إلى خزانة الكتب، وقال "يبدو أننا بحاجة إلى البحث عن كتاب يتعلق بتل العمارنة".

انضمت إليه تارا باحثة عن هذا الكتاب في صفوف عديدة من الكتب الموجودة في الخزانة حيث يوجد العديد من العناوين المشتملة على كلمة عمارنة، ولكن لم يكن بأي منها مفتاح اللغز. كانت هناك خزانة كتب أخرى في إحدى غرف النوم، قاما بالبحث فيها أيضا دون أن يعثرا على ضالتهما. وضعت تارا يدها على رأسها تعبيرا عن الإحباط.

"هذا هو طبع والدي، أقصد أنني وبمساعدة عالم مصريات لم نتمكن من حل اللغز، فكيف كنت سأفعل ذلك بمفردي، إنه لم يفهم قطّ أنني لا أكترث بعلم الآثار!"

لم يكن دانيل يستمع إلى ما تقوله تارا، وإنما كان جاثيا على الأرض مرددا "أين عاشت؟ أين عاشت نفرتيتي؟"

فجأة نهض على قدميه قائلا اللعنة "يالي من أبله!"

رجع دانيل مرة أخرى إلى الغرفة الرئيسية حيث جثا على ركبتيه أمام خزانة الكتب وإصبعه يجول في خزانة الكتب ثم أخرج مجلدا صغيرا.

"لقد حاولت أن ألعب دور الماهر هنا، ولكن مفتاح اللغز كان أكثر وضوحا مما اعتقدت". أخرج دانيل الكتاب مشيرا إلى عنوانه "نفرتيتي عاشت هنا". قالها وهو مبتسم وسعيد بنفسه. "ربما هذا الكتاب هو أفضل ما كُتب في مجال الحفريات بواسطة ماري تشاب، لقد قابلتها ذات مرة وهي سيدة رائعة، دعينا نرى ما مفتاح هذا اللغز".

كان اللغز التالي أسهل من سابقه حيث قادهما إلى صورة لقناع موت توت عنخ آمون في المطبخ، أما الأحجية الخامسة فكانت داخل إحدى القوارير في غرف النوم، والسادسة كانت مطوية بشكل سداسي في أنبوب المدخنة، والسابعة مخبأة خلف حوض المرحاض، والثامنة كانت داخل لفة من ورق التنشيف في خزانة الأواني في الغرفة الرئيسية. وفي هذا الوقت كان الاثنان يقتلهما الفضول فقرأا معا الشطر الأخير لمعرفة نهاية الأحجية

آخر الألغاز، الثامن والأخير.

أصعبها على الإطلاق، فاستخدم عقلك.

بالقرب منك، ولكن ليست بالداخل.

مقعد للموتى يرجع إلى خمسة آلاف عام.

خمس عشرة خطوة للجنوب (أو لليسار).

اضرب بقوة في الوسط، واستخدم عينيك.

ابحث عن أنوبيس ابن آوى

لأن أنوبيس هو من يحرس الهدية.

سألت تارا "ما هو مقعد الموتى".

أجاب دانيل "إنه المصطبة، إنها نوع من المقابر المستطيلة مصنوعة من الطوب الطيني وهي المرادف العربي للكلمة، هيا بنا".

التقطت تارا حقيبة الظهر، وتبعته إلى الخارج، وهي تشعر بالحرارة الناتجة عن الخروج من الداخل البارد للمحفر. كان سائق سيارة الأجرة قد أوقف سيارته في الظل أمام المحفر، وغطّ في النوم بعد أن أرجع الكرسي للخلف، وأخرج قدميه العاريتين من النافذة. أخذ دانيل ينظر لوهلة هنا وهناك قبل أن يشير إلى أحد النتوءات المستطيلة وسط الرمال على بعد خمسين مترا إلى اليسار.

لابد أن هذه هي المصطبة، فلا توجد مصاطب أخرى في المكان. عبرا الطريق معا، وأسرعا إلى النتوء المستطيل، حين اقتربت منه تارا، لاحظت أنه مصنوع من

الطـــوب الطيني المائل. ذهب دانيل إلى أحد الجوانب وعد خمس عشرة خطوة، حيث أصبح الجزء العلوي من المصطبة مساويا لرقبته تقريبا.

"لابـــد أنهـــا فـــي مكان ما هنا مشيرا إلى وسط الحائط، إننا نبحث عن صورة لحيوان ابن آوى".

أخـــذا ينظران، ويمرران أيديهما على السطح غير المستوي للحائط حيث عثرت تارا على الصورة على الفور.

صرخت تارا قائلة "وجدتها!"

كانـــت تارا تنظر إلى أحد قوالب الطوب الذي يحمل وجها باهتا يشير إلى شكل ابـــن آوى مستلقيا ومخالبه بارزة وأذناه منتصبتان. كان من الواضح أن هذا القالب قد أُزيح قبل ذلك لأنه خرج بسهولة تاركا فجوة عميقة خلفه. جمّع دانيل كمه، وأدخله في الفجـــوة ليـــتأكد مـــن عدم وجود أي عقارب، ثم أخرج يده وبها صندوق من الورق المقوى وضعه على ركبته، وبدأ في فك الخيط المحيط به.

سألت تارا "ما هذا؟"

"لست متأكدا، ولكنه ثقيل للغاية، أعتقد أنه ربما يكون...".

فجـــأة خيّم ظل فوقهما، وصدر صوت طقطقة معدنية، فنظرا فوقهما فإذا برجل ملـــتح يـــرتدي جلبابا أسود يقف فوق المصطبة وبيده مسدس، فأشار إليهما بالنهوض على قدميهما، وقال شيئا ما باللغة العربية.

سألت تارا وصوتها يرتعش "ماذا يقول".

"إنه يريد الصندوق".

بدأ دانيل يتقدم بالصندوق ليعطيه للرجل، ولكن تارا جذبت ذراع دانيل.

"لا".

حملق بها دانيل، "ماذا؟"

"لا لن نعطيه له حتى نعرف ما بداخله".

تحدث الرجل مرة أخرى وهو يلوح بالمسدس. مرة أخرى حاول دانيل أن يعطي الصندوق للرجل، ولكن تارا جذبت ذراعه مرة أخرى.

"لقد قلت لا، ليس قبل أن نعرف لماذا يفعلون ذلك".

"بالله عليك يا تارا أنها ليست لعبة، سيقتلنا، أنا أعرف هؤلاء الناس!"

استـــشاط الـــرجل غـــضبا، ولوّح بالمسدس إلى رأس تارا، ثم إلى رأس دانيل، وأخيـــرا، أطلـــق الرصاص على مقدمة المصطبة مثيرا كومة من التراب حول قدميه

وأمـــام وجهـــيهما. علـــى الفور حرر دانيل ذراعه من تارا، ثم ألقى بالصندوق على المصطبة.

"اتـــركيه يا تارا، أنا أريد أن أعرف ما بداخله مثلك تماما ولكن الأمر لا يساوي ذلك، ثقي بي، من الأفضل أن نتركه له".

ظـــلّ الـــرجل يلوّح بالمسدس نحوهما، ثم نزل على ركبتيه باحثا عن الصندوق بإحدى يديه. كان الصندوق موجودا إلى اليسار قليلا، ولكنه لم يتمكن من العثور عليه، فخفـــض عينيه لوهلة ناظرا إليه فما كان من تارا إلا أن أمسكت بجلبابه وجذبته فسقط الرجل، وغاص رأسه في الرمال بزاوية حادة.

لـــم يتحـــركا لوهلة، ثم نظر دانيل إلى تارا، وجثا على ركبته ممسكا بيد الرجل متحسسا النبض.

سألت تارا "هل فقد الوعي؟"

"لقد مات!"

"يا الله". وضعت تارا يدها على فمها، وقالت "يا الله!"

حملقت تارا بالجثة، ثم أزالت العمامة من فوق رأسه، فظهرت ندبة رأسية بطول جبهـــته. حـــدّق بهـــا دانيل، ثم اقترب منها، وجذب ذراعها، وقال "هيا بنا نغادر هذا المكان".

بـــدأ دانـــيل يجذبها، ولكن بعد مترين فقط، تراجعت، وتوجهت نحو المصطبة، وأمسكت بالصندوق.

"بحـــق الله يـــا تـــارا، اتركيه هناك أشياء كثيرة تحدث هنا... أنت لا تفهمين... سيأتي آخرون إلى هنا".

دفعـــته تـــارا قائلة "لقد قتلوا والدي". وصوتها يملؤه التحدي. "افعل أنت ما يحلو لك، أما أنا فلن أتركهم يأخذون الصندوق، هل تفهم يا دانيل لن يأخذوه". توجهت تارا إلـــى المحفر وهي تضع الصندوق في حقيبتها، بينما وقف دانيل يحدّق بها وهو يكظم غيظه.

استيقظ السائق على صوت الرصاص، ووقف على الطريق ينظر إليهما.

سأل السائق "ماذا حدث؟"

أجاب دانيل "لا شيء، هيا عد بنا إلى القاهرة".

"لقد سمعت صوت رصاص!"

"أدر المحرك اللعين...!"

قاطعهما صوت الرصاص مجددا، وإذ برجلين يرتديان جلبابين أسودين يأتيان عبر الطريق تجاههم. من الناحية الأخرى كان هناك رجلان آخران يطلقان النار أيضا، وكأنهما نقطتان سوداوان وسط الرمال الصفراء. صرخ السائق، وانبطح على الأرض.

"لقد أخبرتك أنّ هناك المزيد منهم". صرخ دانيل "هيا بنا إلى المحفر!"

أمسك دانيل بذراعها، واتجها إلى المحفر. أزّت إحدى الرصاصات خلف رأس تارا مباشرة، بينما أثارت الأخرى التراب أمامهما. ما إن وصلا إلى جانب المبنى حتى قفزا إلى السطيحة حيث يوجد منحدر رملي ثم طريق وبعدهما قرية يقف بها العديد من الأشخاص يحاولون استكشاف ما يحدث.

"هيا إلى أسفل المنحدر يا تارا!"

"وماذا عنك يا دانيل؟"

"اذهبي أنت، وسأتبعك".

"لا، لن أتركك!"

"يا الله!"

كان هناك صوت وقع أقدام، فنظر دانيل حوله، ووجد معولا بجوار المقعد، فأمسكه، وعاد إلى جانب المحفر مختبئا بجوار الحائط، وعندما سمع وقع الأقدام يقترب، رفع المعول، والتقط أنفاسه، ثم هوى على رأس أحد مطارديهما ويده لا تزال ترتعش، فتقدم دانيل للأمام، وأمسك بالمسدس.

"هيا الآن، ما دامت الفرصة متاحة أمامنا".

انطلقا معا إلى حافة السطيحة، وقفزا عبر المنحدر الرملي، وتارا متشبثة بحقيبة ظهرها. أسفل المنحدر كان هناك الرمال، ثم الطريق، ثم قرية تطل على واحة نخيل. ما إن وصلا إلى قاع المنحدر حتى شاهد دانيل سيارة تقترب منهما، فأشار إلى سائقها بالتوقف، فتوقف على الفور، ثم قفز من السيارة عندما رأى المسدس في يد دانيل. أخذ الرصاص ينهمر عليهما من فوق المنحدر، فاستدار دانيل، وأطلق الرصاص هو الآخر. تعالت الصرخات، وبدأ حشد القرويين في التفرق. ظل دانيل واضعا إصبعه على زناد المسدس مُطلقاً الرصاص حتى نفد، فألقى المسدس، وقفز إلى السيارة خلف المقود، وصرخ في تارا "هيا اركبي".

قفزت تارا إلى المقعد المجاور له، فضغط دانيل بقدمه على دواسة البنزين، وانطلق بالسيارة على الطريق. هشمت إحدى الرصاصات الزجاج الخلفي بينما

اصـــطدمت الأخـــرى بغطـــاء محرك السيارة. انزلقت السيارة في إحدى الحفر على الطريق، وفقد دانيل السيطرة عليها لوهلة، وكان على وشك الاصطدام بأحد الجدران، إلا أنـــه تمكن من السيطرة على المقود مرة أخرى وسط دوي الرصاص خلفهما حتى اختفى المحفر وسط غمامة الأتربة المنبعثة على الطريق.

"لا أدري مـــا يحتويه هذا الصندوق، ولكن على كل حال، أتمنى أن يكون به ما يستحق هذا العناء يا تارا".

18

الأقصر

فـــي الوقت الذي وصل فيه خليفة إلى منزله وكان ذلك عند الظهيرة، كان متعبا، وبالكاد يستطيع فتح عينيه.

مـــا إن وصــــل إلـــى المنزل، حتى قفز ابنه علي بين يديه، قائلا "أبي، أبي هل يمكنني الحصول على بوق للاحتفال بعيد أبو حجاج؟"

كان عيد أبو حجاج على وشك البدء في غضون يومين. وعلى مدار أسابيع، كان علـــي ورفاقـــه فـــي الدراسة يزيّنون موكب الأطفال، وكان الطفل لا يستطيع كتمان حماسته لهذا الاحتفال.

"هـــل يمكننـــي ذلـــك يـــا أبي؟" أخذ علي يجذب سترة والده، ويقول "لقد حصل مصطفى على واحد وكذلك سعيد".

حمله خليفة، ومسح على رأسه، وقال له "بالطبع يمكنك الحصول على واحد".

ظلّ الطفل يقفز فرحا بين ذراعي والده.

"أمي، لقد أخبرني أبي أنه يمكنني الحصول على بوق للاحتفال بعيد أبو حجاج".

رفع خليفة الطفل على كتفه، وشق طريقه وسط مواد البناء الموجودة في الردهة الأمامـــية، بيـــنما كانـــت زينب جالسة برضيعها على الأريكة وبجوارها أختها سماء وزوجهـــا حـــسني. ما إن رأى خليفة زوج شقيقة زوجته حتى استاء في نفسه وقال "أهلا سماء، أهلا حسني". نهض حسني، وعانقه خليفة بينما جرى علي، واختبأ خلف الأريكة.

كـــان حـــسني وزوجته قد أتيا للتو من القاهرة. أخبرته زينب بذلك بنبرة يشوبها شيء من اللوم. فغالباً توسلت إلى خليفة لكي يصطحبها إلى القاهرة لبضعة أيام، ولكنه لم يتمكن من ذلك لسبب أو لآخر فضلا عن عدم قدرتهما ماديا على ذلك.

قالت سماء متباهية "لقد سافرنا بالطائرة لأنها أسرع كثيرا من القطار".

أضاف حسني "لقد كنا ننجز بعض الأعمال فقد تعين عليّ لقاء مورد جديد".

كان حسني يتاجر في زيوت الطعام، وقلما تحدث عن شيء آخر غيرها.

"أتعرف يا خليفة؟ إننا نواجه صعوبة كبيرة في الوفاء بالطلب على زيوت الطعام حاليا. فالناس يريدون الأكل، والأكل يتطلب زيتا ولهذا فهو سوق لا ينضب".

افتعل خليفة تعبيرا يفيد عن اهتمامه بما يقوله حسني.

"لا أدري إذا ما كانت زينب قد أخبرتك بذلك أم لا، ولكننا على وشك طرح نوع جديــد من زيوت الطعام أغلى من النوع التقليدي، ولكن جودته لا تقارن. ربما أرسل لكم صفيحتين إذا أردتم ذلك".

قال خليفة "أشكرك، بالطبع نودّ ذلك، أليس كذلك يا زينب؟"

نظر خليفة إلى زوجته التي اصطنعت ابتسامة لتوهم حسني أنها مهتمة بعمله.

قالــت زيــنب "هــيا بنا يا سماء فلنترك الرجلين ليتحدثا. أتريد كوب كركديه يا حسني؟"

"بالتأكيد أنا أحب ذلك".

"وأنت يا خليفة".

"نعم، أريد كوبا من فضلك".

ذهبت زينب وسماء إلى المطبخ، وجلس خليفة وحسني يتجنبان أن تلتقي أعينهما وسط حرج شديد.

خـــيّم صمت طويل قبل أن يتحدث حسني قائلا "كيف حالك عملك، هل أمسكت بمجرمين اليوم؟"

كـــان حـــسني غير مكترث بعمل خليفة أكثر من عدم اكتراث خليفة بتجارته في زيــوت الطعـــام. في الحقيقة، كان حسني يكره عمل الشرطة حيث يتعين عليك العمل علـــى مـــدار اليوم مقابل راتب ضئيل! لا شك أن زينب تزوجت من شخص أقل منها مكانـــة. بالتأكـــيد كانـــت هناك خيارات أسوأ، ولكن في نفس الوقت كان أمامها خيار أفـــضل كالارتباط بشخص يتاجر في زيوت الطعام مثلا في سوق لا ينضب، وتزداد فيه الأرباح كلما طرحت أنواع جديدة من الزيوت.

أجاب خليفة "لا، ليس اليوم".

"ماذا تقصد؟"

"أقصد أنني لم أقبض على أي مجرمين اليوم".

"حسنا، هل هذا جيد أم سيئ؟" توقف حسني فجأة محاولا تجاذب أطراف الحديث مرة أخرى، "سمعت أنك تقدمت بطلب ترقية، أتعتقد أنك ستحصل عليها؟"

أومأ خليفة بالإيجاب.

"أعتقد أن الأمر سيتم إذا أراد رئيسك!"

ضحك حسني بصوت مرتفع على هذه المزحة وهو يضرب على ذراع الأريكة.

نـــادى حسني بأعلى صوته قائلا "سماء لقد قال خليفة إنه سيحصل على الترقية، وأنا قلت له إذا أراد رئيسك".

ضـــحكت ســـماء بصوت مسموع من المطبخ لأنها استمتعت بهذه المزحة تماما كزوجها. وفي هذا الوقت ظهر علي من وراء الأريكة ممسكا بالوسادة ويستعد لضرب حسني على رأسه بها غير أن والده نظر إليه فاختبأ الولد مرة أخرى.

بعد صمت طويل سأل حسني "ماذا عن النافورة؟"

"كل شيء على ما يرام، هل تود إلقاء نظرة عليها؟"

"ولم لا؟"

ذهـــب الـــرجلان إلى الردهة، ووقفا أمام الأسمنت والدهان ينظران بأسف إلى الحفرة البلاستيكية التي يتمنى خليفة أن تنبثق منها نافورة ذات يوم.

لاحظ حسني أن المكان ضيق على ذلك بعض الشيء.

"سيتسع المكان أكثر وأكثر بعد أن نزيل هذه الأشياء".

"من أين سيأتي الماء؟"

سنعمل على مد وصلة من المطبخ.

"لا أدري لماذا لم تقم بـــ...".

في هذه اللحظة تدخل علي، الذي أتى مهرولا خلفهما، ويحمل في يده فرشاة ينقر بهـــا فـــوق عـــبوة دهان أبيض، وإذا بالعبوة تسقط وتمتلئ الأرضية الخرسانية بدهان أبيض- رمادي.

صرخ خليفة قائلا "اللعنة يا علي". ثم نادى على زينب لتحضر قطعة قماش حتى يمسح الأرضية.

نظـــرت زينب من المطبخ، وقالت إنها لن تلوث قطعة قماش من أجل ذلك، بل طلبت من خليفة أن يستخدم إحدى الجرائد القديمة.

"ليست لدي جرائد قديمة".

قال حسني "لدي نسخة قديمة من جريدة الأهرام في حقيبتي يمكنك استخدامها".

ذهب حسني؟ وأحضر الجريدة من الغرفة الأخرى، وبدأ يضع ورقة تلو الأخرى على الدهان.

"هل ترى يا خليفة؟ إنها رائعة في امتصاص الدهان".

أخـذ حـسني ورقة أخرى ليضعها على الدهان، ولكن خليفة جذب ذراعه وقال "انتظر!"

جثا خليفة على ركبتيه، وسأله "ما هو تاريخ هذه الجريدة؟"

"ما هو تاريخها؟"

ارتبك حسني، وقال "أمس".

كانـت إحدى ركبتي خليفة في الدهان، ولكنه لم يكترث، وظل يميل أكثر، ويقرأ شيئا ما مكتوبا في أسفل يمين الصفحة وإصبعه يجول جيئة وذهابا على الكلام. جلس عليّ بجوار والده، وجعل إصبعه يجول جيئة وذهابا مثله تماما.

قال خليفة لنفسه "أمس! لقد لقي ناير حتفه يوم الجمعة، يبدو أنهما لقيا حتفهما في نفس اليوم...".

نهض خليفة واقفا وإحدى ركبتيه عليها بقعة دهان، وقال "اللعنة".

نهض عليّ هو الآخر، وقال "اللعنة".

سأل حسني "ماذا هناك؟"

تجاهلـه خلـيفة، وتـوجَّه إلى المطبخ، وقد نسي التعب والإرهاق وقال لزوجته "يتعين عليَّ الذهاب الآن".

"إلى أين؟"

"إلى القاهرة؟"

"القاهرة!"

لـوهلة كانـت زيـنب على وشك الدخول في مشاجرة معه. ولكنها سرعان ما اقتربت منه، وقبلته على جبينه، وأخبرته أن ينتظر حتى تحضر له بنطالا نظيفا.

في الردهة، كان حسني يقرأ المقالة التي انتهى منها خليفة لتوه، حيث كانت هناك صـورة لـرجل عجوز ذي رقعة على عينه والخبر تحت الصورة على النحو التالي تاجـر آثار بالقاهرة يلقى حتفه بصورة وحشية. هز حسني رأسه وقال "هذه الأشياء لا تحدث أبدا في تجارة زيوت الطعام".

19

القاهرة

لـــم يتحدث أي منهما في طريق عودتهما للقاهرة، حيث صب دانيل تركيزه على القـــيادة، وعيـــناه على المرآة باستمرار ليتأكد من أنّ أحدا لا يتبعهما، بينما كانت تارا تنظـــر بـــشغف إلى الحقيبة على رجليها. ولم ينكسر هذا الصمت إلا عندما دخلا إلى طـــريق القاهـــرة - الجيزة، وانحرفا إلى اليمين، لتجنب ازدحام المرور، والتوجه إلى وسط المدينة، عندها بدأ دانيل في الحديث.

"متأسف يا تارا، ولكنك لا تدركين خطورة الأمر، فهؤلاء الرجال هم أتباع سيف الثأر كما يبدو من الندبة التي على جبين كل منهم".

أخذت تارا تعبث في سحابة الحقيبة متسائلة "من هو سيف الثأر الذي أسمع اسمه باستمرار".

قـــال دانـــيل، وهو يتفادى رجلا يركب دراجة، ويضع على رأسه لوحا من الخـــشب عليه خبز "إنه زعيم أصولي ينادي بالقومية المصرية والتطرف الديني. وكل ما هو معروف عنه هو أنه ظهر في أواخر الثمانينيات، وأخذ يرتكب عمليات قتل منذ ذلك الحين، معظم ضحاياه من الأجانب، فضلا عن تفجيره لسيارة السفير الأمريكي منذ عام تقريبا، ولهذا ترصد الحكومة مكافأة قدرها مليون دولار لمن يلقي القبض عليه".

التفت دانيل نحوها، وابتسم ممازحا.

"هنيئا لك يا تارا، لقد صرت عدوا لأخطر رجل في مصر. يا الله".

خـــيّم الصمت عليهما وهما يجتازان مسافة نحو كيلومترين متوغلين أكثر وأكثر فـــي المديـــنة، قبل أن يعبرا جسرا علويا، ثم يتوقفا تماما في الازدحام المروري لمدة

خمس دقائق. انحرف دانيل بالسيارة للاتجاه المقابل، وأوقفها في شارع جانبي غير نظيف، ثم خرجا منها.

"لابد أن نحاول الخروج من هذا الشارع فهو مكشوف تماما. لا أعتقد أنهم يتبعوننا، ولكن لا يمكن التأكد من ذلك فلديهم أعين في كل مكان".

بدأ دانيل وتارا يمشيان حتى وصلا إلى خط من السياج يحيط بمكان اعتقدت تارا في بادئ الأمر أنه مرآب كبير، ولكن بعد وهلة اتضح أنه حديقة للحيوانات، يقع مدخلها على بعد ثلاثين مترا. أخذ دانيل بيدها، وتوجها إلى الداخل قائلا "لن يرانا أحد هنا، كما أنه يوجد هاتف عمومي يمكن أن نستخدمه".

دفع دانيل عشرين قرشا ثمن تذكرتي دخول، وتوجَّه نحو الأبواب الدوارة. هدأت ضوضاء المدينة قليلا حتى خيَّم هدوء تام، وتصاعد صوت الطيور المغردة فوق الأشجار، والعائلات جالسة في كل مكان، والأحبة يمسكون بأيدي بعضهم البعض وسط صوت مياه جارية من مكان قريب.

جلس الاثنان أسفل شجرة وارفة الظل، وأعينهما تجول جيئة وذهابا خوفا من وجود من يتعقبهما. مرّ الاثنان بجوار بركة وحيد القرن، وبيت القردة، وبركة كلب البحر، وبحيرة مليئة بالطيور المائية قبل أن يصلا إلى شجرة ضخمة أسفلها مقعد حجري جلسا عليه. كان الهاتف العمومي على بعد خمسة أمتار فقط، وأمامها قفص لأحد الأفيال العابسة، وقدمه موثقة بسلسلة كبيرة في السياج الحديدي. تفحص دانيل المماشي المجاورة ثم أخذ حقيبة ظهر تارا، وفتحها، وأخرج الصندوق.

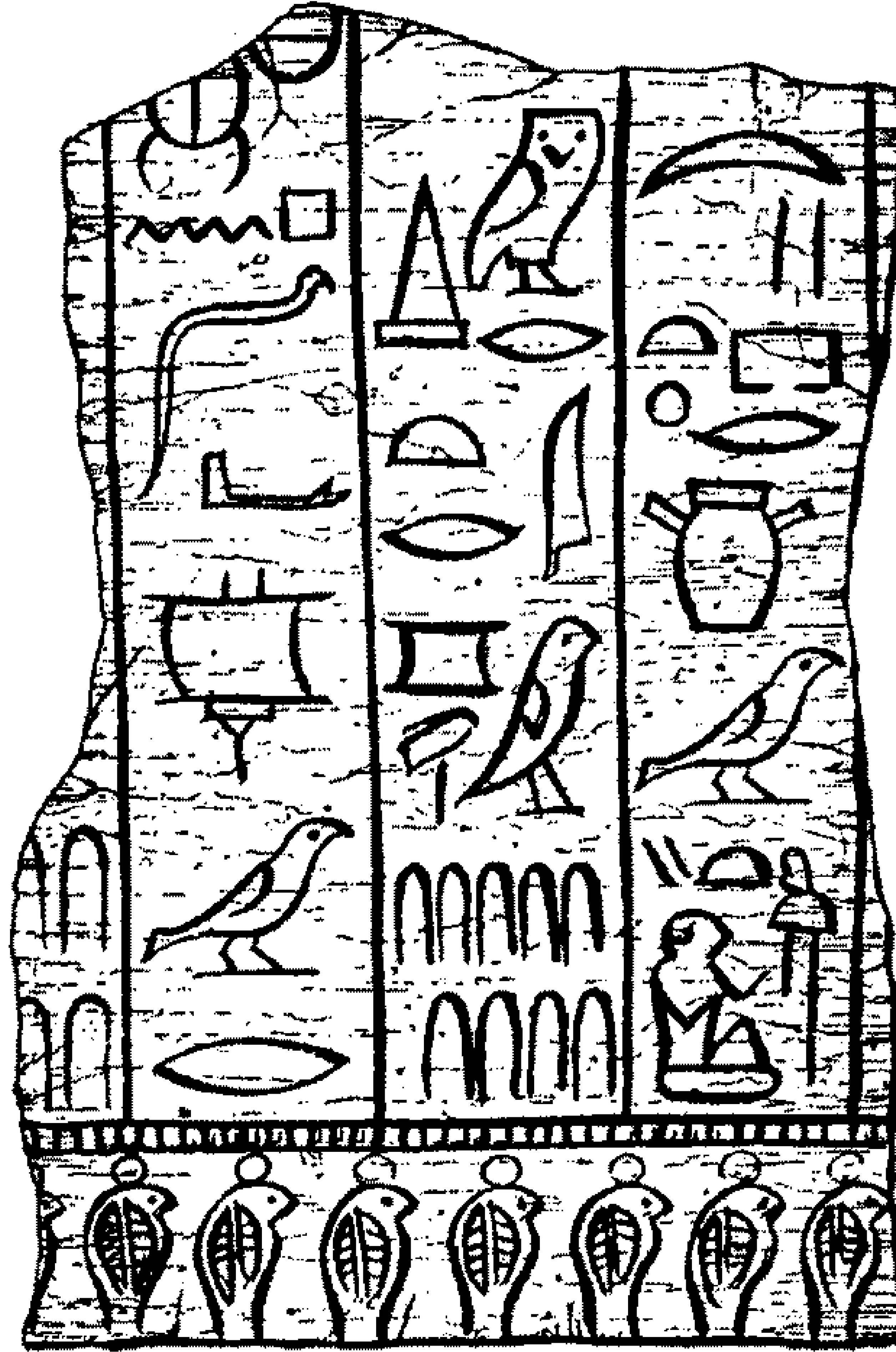
أخذ يقرأ الأشياء الأولى أولا لقد عرفنا ما ذلك.

نظر دانيل حوله مرة أخرى، ثم أزال الوثاق، ورفع الغطاء، حيث وجد داخل الصندوق شيئا مستطيلا ملفوفا في ورق جرائد وموضوعا على كومة من القش وقد لُصِقَت به بطاقة صغيرة كُتب عليها:

تارا تخيلت أن هذه الهدية ستكون مناسبة لك. مع حبي دائما، والدك.

نظر دانيل إلى تارا، ثم فتح هذا الشيء بعد أن أزال ورق الجرائد، وظهر ما يبدو وكأنه جزء من حجر جبسي شبه مستطيل بحوافٍ غير مستوية، وسطحه أصفر باهت به ثلاثة أعمدة من الأشكال الهيروغليفية السوداء تصل إلى نهاية القطعة الحجرية بينما يشكل جزء آخر من الحجر عموداً رابعاً غير كامل. كانت الأشكال تشير إلى خط من الثعابين رؤوسها موجهة نحو الأسفل، وهو ما اعتقدت تارا أنه السبب وراء اختيار والدها لهذه الهدية؛ أي لمعرفته مدى حبها للثعابين.

رفع دانيل القطعة الحجرية، وأخذ يحدق بها، وكأنه يتأكد من أنها غير مزيفة.
سألت تارا "هل تعرف ما هي".
لم يجب دانيل على الفور حتى أعادت تارا السؤال مرة أخرى.
"إنه حجر جبسي من إحدى المقابر، وربما تكون هذه الرموز الهيروغليفية جزءا من نص أكبر حيث كما ترين هنا يوجد جزء مفقود تشير إليه هذه الكلمة المنقسمة إلى شطرين. إنها تحفة رائعة". قالها وهو يبتسم مزهوا بنفسه.
سألت تارا "هل هي أصلية".



"بالطبع، وهي ترجع إلى الحقبة الأخيرة كما يبدو من شكلها. ربما ترجع إلى العصر اليوناني أو الروماني. ومن الممكن أيضا أن ترجع إلى فترة الاحتلال الفارسي وليس قبل ذلك. أكاد أجزم أنها من الأقصر".
"لماذا أنت متأكد هكذا؟"
نظر إلى ورقة الجرائد، وكان مكتوبا عليها باللغة العربية الأقصر، "لا شك أنها جريدة محلية تصدر هناك".
أخذت تارا القطعة الحجرية منه، وحدقت بها، وهي تهز رأسها قائلة "لا أفهم لماذا اشتراها أبي طالما أنها أصلية، فقد كان يبغض الاتجار بالآثار وكثيرا ما كان يتحدث عن مدى إضرارها بالآثار".

قـال دانيل "ربما اعتقد أنها مزيفة، فهي لا ترجع إلى الحقبة المتخصص بها والدك. فإن لم تكوني خبيرة في مقابر الأسر الأخيرة، فلن يمكنك التعرف على الفارق بينها وبين المزيفة. ولو أنها ترجع إلى حقبة المملكة القديمة لأدرك والدك على الفور أنها أصلية".

تنهدت تارا قائلة "يا لوالدي المسكين، لا بد أن هذ الحقيقة كانت لتصعقه". أعطت تارا القطعة الحجرية لدانيل مرة أخرى، وسألته ماذا تعني هذه الرموز الهيروغليفية؟

وضع دانيل الحجر على فخذيه، وأخذ يتفحص النص.

"إنـه يُقـرأ مـن اليمـين إلى اليسار فدوما ما يكون النص موجودا على وجوه العلامـات. فالعمـود الأول يقـول في الشهر الثالث من فصل الشتاء والعمود الثاني يحتوي على اسم ولكنه ليس اسم علم وإنما لقب على الأرجح، وهو بالتأكيد ليس جزءا من لقب ملكي أو على الأقل لقب لم أسمع به من قبل".

أخذ دانيل يفكر للحظة، وهو يكرر الاسم، ثم حرّك إصبعه نحو العمود الثاني من الـنص، وقـال "ينص العمود الثاني أنه على بعد تسعين إيترو وهي وحدة قياس لدى المـصريين القدماء". أما العمود الثالث فيقول "كانت هناك عاصفة كبيرة، ويوجد في آخر العمود رقم ولكن من المستحيل قراءته. وهذا كل شيء".

حملـق دانـيل للحظـة بالقطعـة الحجرية قبل أن يعطيها إلى تارا لتضعها في الصندوق ثم في الحقيبة.

"لابـد أنها ستكون نادرة للغاية لو أنها ترجع إلى مقبرة طيبة في الفترة الأخيرة. وحتى لو أن الأمر كذلك فهي لن تساوي سوى بضع مئات من الدولارات ولا تستحق القتل من أجلها".

"إذا، لماذا يسعى هؤلاء الأشخاص وراءها؟"

"الله أعلم، ربما يريدون تكملة النص. ولكن ما هي أهمية هذا النص؟ ليست لدي أدنى فكرة". أخرج دانيل سيجارا، وأشعله، ووقف وهو ينفث سحابة من الدخان. فجأة قال دانيل "انتظري هنا".

تـوجّه دانـيل إلـى الهاتف العمومي، ورفع السماعة، وأدخل بطاقة الهاتف في الفتحة المخصصة لذلك، وأخذ ينظر إليها لوهلة قبل أن يستدير، ويبدأ في الحديث لمدة ثـلاث دقائـق، وبـدا للحظـات يومئ بغضب، ثم وضع السماعة، وعاد إلى المقعد الحجري مرة أخرى وجبينه يتصبب عرقا.

بـدأ دانيل في الحديث "لقد كانوا في الفندق، ثلاثة منهم قلبوا غرفتي رأسا على عقب، وقد كان مالك الفندق خائفا للغاية، يا الله، يالها من فوضى".

انحنـــى دانـــيل للأمـــام، وهو يحك رأسه حيث أتت فتاة صغيرة ونظرت إليه، وضحكت، وانطلقت في طريقها بينما القرد يقفز في القفص المجاور.

قالت تارا "لابد أن نذهب للشرطة".

علّــق دانـــيل ساخرا "بعد أن استولينا على سيارة، وقتلنا اثنين من المصريين؟ أعتقد أنه أمر غير مناسب".

"لقد كنا ندافع عن أنفسنا، فهم إرهابيون".

"لن تنظر الشرطة إلى الأمر من هذه الناحية، صدقيني، أنا أعرف كيف يفكرون هنا".

"أعتقد أن علينا...".

"قلـــت لا يا تارا إن ذلك سيزيد الأمر سوءا". خيّم الصمت لفترة حتى قالت تارا "هل سنظل قابعين هنا؟"

أخيرا، نطق دانيل قائلا "السفارة، سنذهب إلى السفارة البريطانية فهذا هو المكان الوحيد الآمن، فنحن عالقان هنا وبحاجة إلى الحماية".

أومأت تارا برأسها إيجابا.

سألها دانيل "هل لديك الرقم؟"

أخـــذت تارا تبحث في جيبها، وأخرجت البطاقة التي أعطاها إياها سكويرز في اليوم السابق.

"حسنا، اتصلي به، وأخبريه ماذا حدث وأننا بحاجة إلى مساعدة عاجلة".

أعطاهـــا دانـــيل بطاقة الهاتف الخاصة به، وتوجهت تارا إلى الهاتف العمومي واتصلت بالرقم، حيث ردّ الطرف الآخر بعد رنتين فقط.

جاء الصوت من الطرف الآخر على النحو التالي:

"تشارلز سكويرز".

بصوته الهادئ الحنون.

"سيد سكويرز؟ معك تارا مولراي".

"أهلا آنسة تارا". لم يبدُ على الرجل الدهشة لسماع صوتها، "هل كل شيء على ما يرام؟"

"لا، لا ليس على ما يرام. أنا مع صديق هنا وقد...".

"صديق؟"

"نعـــم، عالم آثار، دانيل لاكاج وهو يعرف والدي. نحن في ورطة، ولا يمكنني توضيح الأمر عبر الهاتف، لقد وقع لنا شيء ما".

خيّم الصمت، ثم تحدث بعد وهلة.

"هل يمكنك أن تكوني أكثر تحديدا؟"

"شخص ما يحاول قتلنا".

"قتلكما؟"

"نعم، يريدون قتلنا، ونحن بحاجة إلى حماية".

خيّم الصمت لوهلة مرة أخرى.

"هل لهذا الأمر علاقة بالرجل الذي أخبرتنا عنه بالأمس؟ الرجل الذي كان يتعقبك؟"

"نعم، لقد وجدنا شيئا وهم يريدون قتلنا من أجله".

كانت تارا تدرك أن كلامها غير منطقي.

قال الرجل بهدوء "حسنا، دعينا نتحلى بالهدوء. أين أنت الآن؟"

"في القاهرة، في حديقة الحيوانات".

"في أي مكان بحديقة الحيوانات؟"

"بالقرب من قفص الفيل".

"وهل معك القطعة الأثرية؟"

"نعم".

صمت الرجل للحظة، وشعرت تارا كما لو أنه يتحدث إلى شخص بجواره وهو يضع يده على السماعة.

"حسنا، سأرسل لك كريسبن على الفور، فقط ابقي أنت وصديقك في مكانكما، هل تفهمين؟ ابقيا في مكانكما، وسنحضر إليكما بأسرع ما يمكن".

"حسنا".

"كل شيء سيكون على ما يرام".

"أشكرك".

"أراك عما قريب، ووضع الرجل السماعة".

عادت تارا، وجلست بجوار دانيل الذي سألها "ماذا فعلت؟"

"سيرسلون شخصا ما إلى هنا، لقد طلب مني البقاء في مكاننا".

خـيّم الـصمت لفتـرة قبل أن ينفث دانيل دخان السيجار، بينما تارا تنظر إلى حقيبتها وهي تأمل أن توضح هذه القطعة الأثرية غموض الأمر برمته، ولكن الأمر لم يكـن كـذلك حـيث ظهر سطر رابع به رموز تزيد الأمر تعقيدا، ولهذا شعرت تارا بالحيرة والخوف.

أخيرا نطقت تارا، ربما يستطيع الدكتور جمال المساعدة.

رفع دانيل حاجبيه متسائلا، "من هو الدكتور جمال".

"إنه صديق قديم لوالدي التقيته بالأمس عندما كنت في السفارة، وربما يعرف ما هي أهمية هذه القطعة".

هزّ دانيل كتفيه قائلا "لم أسمع به من قبل".

"إنه نائب مدير المجلس الأعلى للآثار".

"إن محمد فيصل هو من يشغل هذا المنصب يا تارا".

"حسنا، إنه يشغل منصبا ما في إدارة الآثار".

صمت الاثنان لفترة قبل أن يسأل دانيل "من هو جمال؟"

"اسمه شريف جمال تماما كاسم الممثل الشهير عمر الشريف".

"لم أسمع به من قبل".

"هل تعرف كل من يعملون في هذا المجال؟"

"بالتأكيد، لو أنه يشغل منصبا مهما، فيجب أن أعرفه، فأنا أتعامل مع ذوي المناصب المهمة بشكل يومي". رفع دانيل السيجار أمام وجهه مرة أخرى، ولكن هذه المرة لم يدخنه وإنما أخذ ينظر إليه فقط، وسأل تارا "ماذا قال الدكتور جمال هذا؟"

"لم يقل الكثير، فقط أوضح أنه عمل مع والدي في سقارة، وأنهما عثرا على مقبرة معا في العام 1972، أي في العام الذي ولدت فيه".

"أي مقبرة".

"لا أذكر، حتب أو شيء كهذا".

"تباح حوتب؟"

"نعم، هذه هي المقبرة التي أخبرني عنها".

تساءل دانيل "مع من تحدثت؟"

"ماذا؟"

"مع من تحدثت في السفارة؟"

"لماذا؟ ماذا هناك؟"

زاد العرق على جبين دانيل، وظهرت نظرة غير مريحة في عينيه. "لقد عثر والدك على المقبرة في العام 1963، أي في العام الذي ولدت أنا فيه، وكان ذلك في أبيدوس وليس في سقارة". فجأة ألقى دانيل بالسيجار، ونهض واقفا، "مع من تحدثت لتوك؟" سألها بنبرة سريعة. "تحدثت مع تشارلز سكويرز، الملحق الثقافي".

"ماذا قال لك؟"

"أخبرني أن أنتظر هنا، وأنهم سيرسلون شخصا ما ليصطحبنا".

"هل هذا كل شيء؟ هل أخبرته أين نحن؟"

"بالطبع أخبرته، بالله عليك كيف سيعثر علينا لو لم أفعل ذلك؟"

"ماذا عن القطعة الأثرية؟ هل أخبرته عنها؟"

"نعم، لقد قلت إننا...".

"ماذا؟"

انتابها إحساس غير مطمئن.

"لقد سألني هل لا نزال نملك القطعة الأثرية".

"وماذا في ذلك؟"

ازداد الإحساس سوءا.

"أنا لم أخبره أن ما لدينا هو قطعة أثرية، لقد قلت إننا عثرنا على شيء ما".

لم يحرك دانيل ساكنا، ثم فجأة أمسك بذراعها وجعلها تنهض. "هيا سنخرج من هنا".

"ولكن هذا جنون، لماذا سيكذبون علينا في السفارة؟"

"لا أدري، ولكن الدكتور جمال هذا ليس كما أخبرك، ولو أن ذلك صحيح فبالتأكيد لن يكون صديقك الملحق الثقافي ملحقا ثقافيا أيضا".

"ولكن لماذا؟ لماذا؟"

"لقد أخبرتك، لا أدري لماذا، ولكن يتعين علينا مغادرة هذا المكان الآن، هيا بنا".

لم يكن دانيل مخطئا في حدسه. لذا أمسك بحقيبة ظهرها، وانطلقا بسرعة بجوار قفص الفيل، وهرولا في طريق مؤدية إلى تلّة تغطيها الأشجار، وعندما وصلا إلى أعلى التلة استدارا، ونظرا خلفهما.

"انظري!"

أشار دانيل إلى ثلاثة رجال يرتدون زيا يتكون من حلة سوداء ونظارة سوداء، وقفوا بجوار المقعد الحجري الذي كانا يجلسان عليه، وتوجه أحدهم إلى كابينة الهاتف العمومي، ونظر بداخلها.

تساءلت تارا "من هؤلاء".

"لا أدري، ولكنهم ليسوا هنا للتنزه، هيا دعينا نرحل عن هنا قبل أن يرونا".

استدار الاثنان، وجريا عبر الجانب الآخر من التل. للخروج من حديقة الحيوانات. وما إن وصلا إلى الشارع، حتى نادى دانيل على سيارة أجرة، وركبا فيها على الفور.

قال دانيل "أشعر أننا في خطر يا تارا". قالها وهو ينظر عبر الزجاج الخلفي للسيارة، مضيفا "في خطر كبير".

رفع سكويرز سماعة الهاتف قبل أن يكتمل الرنين الأول.

"نعم"

جاء الصوت من الطرف الأخير سريعا، حيث استمع سكويرز، وهو يمسك السماعة بيده، بينما كان يزيل غلاف قطعة حلوى. لم ينطق سكويرز بكلمة، وظل وجهه بلا أي انطباعات. ما إن انتهى الشخص الآخر من حديثه، حتى قال سكويرز "شكرا، استمر في البحث". ووضع السماعة.

الآن أصبحت الحلوى بلا غلاف، ولكن بدلا من وضعها في فمه، وضعها بحرص على المكتب أمامه، وأجرى ثلاث مكالمات متتابعة، وفي كل مرة كان يكرّر نفس العبارة "لقد حصلت عليها". ثم يضع السماعة. بعد أن انتهى من المكالمة الثالثة، أراح سكويرز ظهره للخلف، وأمسك بالحلوى، ووضعها في فمه.

ظلّ الرجل بلا حراك للحظة، وعيناه شبه مغلقتين، وأطراف أصابعه مائلة أمام وجهه وكأنه يتأمل. ما إن انتهى من قطعة الحلوى حتى اعتدل في جلسته، وفتح أحد الجوارير أمامه، وأخرج كتابا ذا غلاف سميك، وعلى الغلاف صورة لحائط ذي ألوان متعددة لرموز هيروغليفية تحت عنوان فن الدفن في الفترة الأخيرة في مقابر طيبة لمؤلفه دانيل لاكاج.

سحب الرجل نظارته قليلا حتى صارت فوق أنفه تماما، واسترخى للوراء، وفتح المجلد واضعا قدما فوق الأخرى مزهوا بنفسه.

20

الأقصر

أصرّ خليفة على أن هناك علاقة بين الحادثين.

كـــان خليفة يجلس في مكتب كبير منظم للغاية في الطابق الأرضي بقسم شرطة الأقصر، وأمام طاولة فخمة خلفها كرسي جلدي غاية في الجمال يعود لرئيس المباحث عـــبد الله بن حساني، رئيس خليفة الذي كان جالسا على كرسي صغير. يعكس ترتيب المكـــتب المركـــز المـــرموق الذي يشغله الرجل في الشرطة والذي قلما فوت فرصة ليظهر أنه الشخص الذي بيده الحل والربط.

تنهد حساني، وقال "حسنا، أخبرني عن ذلك مرة أخرى ولكن بهدوء".

لـــم يتفق الاثنان على شيء قطّ. وكان خليفة يبغضه لأنه يعتمد على الروتين في كل شيء، بينما لم يكن حساني يثق كثيرا في كفاءة خليفة كرجل شرطة نظرا لاستعداده الدائم للاســـتغراق في الخيال أكثر من الحقائق المجردة، وإعجابه الشديد بالعصور القديمة. كان حساني رجلا يؤمن بالحقائق فقط وليس لديه وقت للتفكير في الأشياء التي حدثت منذ آلاف السنين، إذ ينصب اهتمامه على حل الجرائم القائمة أمامه في التو واللحظة، ولا يتأتى ذلك إلا مـــن خلال العمل الجاد، والاهتمام بأدق التفاصيل، واحترام الرؤساء وليس عن طريق تخيّل أشخاص يصعب نطق أسمائهم ماتوا منذ ثلاثة آلاف عام، فالتاريخ بالنسبة له تشتيت للفكـــر وانغماس في الماضي، وبناء على ما تقدم، إنه يعتبر خليفة رجلا مشتتا ومستغرقا فـــي الماضي. لهذا السبب كان حساني يعارض ترقية خليفة، ويعتبره مفتقرا إلى مقومات العمل كمحقق وإنما كان من الأفضل له أن يعمل في مكتبة وليس في الشرطة.

تحدث خليفة قائلا "طبقا للتقرير الوارد في الجريدة، فإن هذا الرجل المدعو إكبار وُجد في محله الخاص ووجهه وجسده مشوهان تماما".

"ما هي هذه الجريدة؟"

"الأهرام".

أشار إليه حساني للاستمرار في كلامه.

"فالجـــروح الموجودة على جسد الرجل هي نفسها الموجودة على جسد ناير. وناير كـــان يعمـــل في الآثار، وكذلك إكبار أو على الأقل لديه محل للآثار أي أنهما ينتميان إلى نفـــس المجـــال، ولقـــيا حتفهما بنفس الطريقة بفارق زمني هو يوم واحد. إذا، الأمر ليس محض صدفة. خاصة إذا ما تأكدنا من التذكرة التي عثرنا عليها في جيب ناير والتي تفيد أنه كان في القاهرة في اليوم السابق لمقتل إكبار. لا بد أن هناك علاقة بين الحادثين".

"هل هناك دليل واضح على ذلك؟ أنا لا أريد تخمينات، أريد حقائق فقط".

"حسنا، لم أقرأ التقرير الطبي القادم من القاهرة بعد...".

"إذا، قـــد يكـــون هناك اختلاف في طريقة مصرع الرجلين، وأنت بالتأكيد على دراية بأن الجرائد دوما ما تبالغ في هذه الأمور، خاصة الجرائد التي هي من مستوى جريدة الأهرام".

كـــرر خلـــيفة كلامه مرة أخرى، "لم أقرأ التقرير الطبي القادم من القاهرة بعد، ولكنني متأكد أن الاثنين لقيا مصرعهما بنفس الطريقة".

"حسنا، ما هي نظريتك؟"

"أعتقد أن ناير قد عثر على مقبرة...".

"لا شك أنك ستزج بالمقابر في هذا الأمر".

استأنف خليفة حديثه "أو أن شخصا آخر قد عثر عليها، وعلم ناير بالأمر، ولابد أنها مقبرة كبيرة. ذهب ناير إلى القاهرة، وباع بعض الأشياء إلى إكبار، وحصل على المقابل، وعاد إلى الأقصر. ولابد أنه أعتقد أن الحياة ابتسمت له غير أن شخصا ما لم تعجبه فكرة اقتسام الغنيمة".

"هذه مجرد تخمينات يا خليفة، إنها محض تخمينات".

تجاهل خليفة هذا التعليق، واستمر في حديثه.

"ربما أخذ ناير شيئا ثمينا، وأراد هؤلاء الأشخاص استرجاعه مرة أخرى. ربما يكـــون مجرد معرفته بوجود المقبرة أمرا كافيا لقتله، أو ربما الأمران معا. بغض النظر عن السبب، فقد وصل هؤلاء الأشخاص إلى ناير، وعذبوه ليعترف بأسماء من يعـــرفون بأمر المقبرة، ثم ذهبوا إلى إكبار، وفعلوا به نفس الأمر، ولو لم نصل إليهم فسيفعلون ذلك بآخرين".

"مـــن هم هؤلاء الأشخاص؟ من هم هؤلاء المجانين المستعدون لذبح أي شخص مقابل حفنة من الآثار الترابية؟"

بدا الأمر وكأن حساني يحاول كبح جماح خيال طفل صغير. توقف خليفة لوهلة قبل أن يجيب.

"لدي ما يبرر تورط سيف الثأر في ذلك".

صـــرخ حساني قائلا "لا يا خليفة، وكأنك غير مكتف بوجود سفاح في القضية، حتى تزج بسيف الثأر أيضا، ما هو دليلك على ذلك؟"

"لدي مصدر معلومات".

"من هو مصدرك؟"

"أحد الأشخاص العاملين في الدير البحري، بالمعبد هناك حيث كان حارسا".

"كان؟"

"لقد أصيب بالمجزرة التي حصلت بالمعبد".

"الآن؟ ماذا يعمل هذا الشخص؟"

ضغط خليفة على شفتيه مدركا تعليق حساني على ما سيقوله. "إنه ينظف دورات المياه".

"يا للروعة. مصدر معلوماتك عامل تنظيف دورات مياه".

"إنـــه يعرف ما يدور في الأقصر بأسرها أكثر من أي شخص آخر. وهو رجل محل ثقة".

"بالتأكيد إنه محل ثقة طالما أن الأمر يتعلق بتنظيف دورات المياه، ولكن بالنسبة لعمل الشرطة فهو لا يصلح على الإطلاق".

أشعل خليفة سيجارة، ونظر من النافذة المطلة على معبد الأقصر في أبهى منظر تـــراه عيناك في الأقصر. وياله من عار أن يكون متاحا لهذا الرجل حساني. في هذا الوقت ارتفع صوت أذان الظهر من أحد المساجد المجاورة.

"كـــل تجـــار الآثـــار فـــي الأقصر خائفون، ولابد أن هذا يرجع إلى سبب ما يا سيدي".

"بالطبع هناك سبب، وهو بالتأكيد يقبع في رأسك وحدك".

"لو أنني أستطيع التوجه للقاهرة ليوم واحد فقط لاستطلاع الأمر هناك...".

"إنهـــا محاولة عقيمة يا خليفة. فهذا النايدر أو أيا كان اسمه قد لقي مصرعه على يد أحد دائنيه أو أحد الأشخاص الذين سبهم. ألم تقل إن عليه ديونا وكثيرا ما يسب الآخرين؟"

أومأ خليفة بالإيجاب.

"بينما لقي إكبار مصرعه على يد أحد اللصوص، هذا إن كان قد لقي مصرعه أصلا، ولم يكن ذلك خبرا كاذبا من الجريدة، ومن ثم فهما ليسا ضحيتين لنفس القاتل. إنك تشغل بالك كثيرا بالربط بين الحادثين يا خليفة".

"إنه مجرد شعور...".

"المشاعر ليس لها دخل في عمل الشرطة، لا بد أن نعتمد على الحقائق، والتفكير الواضح، والأدلة الساطعة أما المشاعر فهي تزيد الأمر غموضا".

"أتقصد كما كان الأمر في قضية الحمدي؟"

نظر حساني إلى خليفة بغيظ شديد.

قضية أمية الحمدي هي إحدى القضايا التي أثارت دهشة كافة العاملين في قسم شرطة الأقصر، حيث عُثر على جثة الفتاة البالغة من العمر أربعة عشر عاما عارية تماما في قاع إحدى الآبار.

تم القبض على أحد الشبان المتخلفين عقليا من أبناء القرية، وأرغموه على الاعتراف بارتكاب الجريمة. ولكن هذا الأمر لم يكن مقبولا لدى خليفة، ومن ثم عمل في القضية بشكل فردي، ونجح في التوصل إلى أن مرتكب الجريمة هو ابن عم الفتاة والذي كان مغرما بها غير أن أحدا لم يعترف بدور خليفة في حل غموض القضية، ولكن في نفس الوقت بدأ الجميع ينظرون إليه بمزيد من الاحترام.

"حسنا، ما الذي تريده على وجه التحديد يا خليفة؟"

"أريد الذهاب إلى القاهرة". قال ذلك وهو يستشعر جانب اللين من رئيسه، "ومحاولة معرفة ما إذا كانت القضية هناك لها علاقة بقضيتنا هنا. كل ما أحتاجه هو يوم واحد فقط".

استدار حساني بكرسيه نحو النافذة وأصابعه تضرب على المكتب، وكان هناك أحد الأشخاص يطرق على الباب.

قال حساني لمن يطرق على الباب، "انتظر".

"سأستقل قطار الليل حتى أوفر تكلفة الطائرة".

"هل ستستقل قطار الليل. نحن لسنا شركة رحلات يا خليفة". واستدار مرة أخرى قبالة خليفة وقال له "يوم واحد، فلتذهب الليلة ولتعد غدا على أن يكون أول شيء على مكتبي صباح بعد غد هو تقرير بما توصلت إليه، واضح؟"

"نعم يا سيدي؟"

نهض خليفة، وتوجَّه إلى الباب.

"أتمنـــى أن تكون مصيبا في رأيك وذلك لأنني لا أريد أن أنظر إليك نظرة أقل مما أنظرها إليك الآن بالفعل".

"وماذا إن كنت مصيبا؟"

"اغرب عن وجهي يا خليفة".

21

القاهرة

سأل سائق التاكسي "إلى أين تريد الذهاب؟"

أجاب دانيل "إلى أي مكان وسط المدينة".

"ميدان التحرير؟"

"نعم، هذا جيد".

مضى السائق في طريقه. وبعد دقيقتين انحنى دانيل للأمام قليلا وقال له "لا أريد الذهاب إلى ميدان التحرير، فلنتوجَّه إلى الزمالك إلى شارع عبد العظيم".

أومأ السائق إيجابا، واسترخى دانيل للخلف مرة أخرى.

سألت تارا "إلى أين نذهب".

"سنزور المساعد الخاص بي محمد إسماعيل، إنّه الشخص الوحيد الذي أثق به تقريبا في القاهرة، ولا أستطيع التفكير في أي شخص سواه قد يساعدنا الآن".

جلس الاثنان معا ينظران من نوافذ السيارة، بينما شقّ السائق طريقه ببطء وسط الازدحام المروري. بعد دقيقتين، مرر دانيل يده حتى أمسك بيد تارا دون أن ينبس أي منهما بكلمة أو ينظر إلى الآخر.

يعتبر حي الزمالك من الأحياء الراقية المليئة بالفيلات والمباني ذات الشقق الباهظة الثمن. توقفت السيارة أمام أحد المباني الحديثة ذات الحدائق البهية المنظر وردهة مكسوة بالزجاج، وبعد أن دفعا الأجرة للسائق، صعدا معا درجات السلم المؤدية إلى الباب الرئيسي حيث يوجد عليه جهاز اتصال داخلي ذو لون معدني لامع. ضغط دانيل على الزر رقم 43.

بعد ثلاثين ثانية، ضغط مرة أخرى، وانتظر فترة طويلة قبل أن يصدر صوت من لوحة الاتصال.

"من هناك؟"

"دانيل لاكاج".

"يا لها من مفاجأة رائعة يا دانيل". جاء الصوت ناعما وموسيقيا. "مرة أخرى أتيت في وقت غير مناسب، هل يمكنك أن..."

"إنه أمر ملح، أنا بحاجة للتحدث معك".

خيّم الصمت لفترة.

"انتظر بالأسفل خمس دقائق، ثم اصعد إلى الطابق الرابع كما تعرف".

صدر صوت نقرة، فدفعا الباب، ودخلا إلى ردهة ذات أرضية مكسوة بالسجاد ويسودها هواء بارد. انتظرا خمس دقائق كما طلب الرجل، ثم صعدا إلى الطابق الرابع حيث توجد شقة إسماعيل في وسط البهو ذي الأرضية المكسوة بالسجاد وبها العديد من صور الآثار القديمة المعلقة على الحائط. طرق دانيل الباب، وانتظر سامعا صوت وقع أقدام خفيف يقترب من الباب.

همس دانيل لتارا "احذري في كل كلمة تقولينها، وحافظي على الصندوق في حقيبتك فمن الأفضل ألا يراه لأنه قد يبيع والدته إذا كان سيربح من ورائها حفنة من الجنيهات، وكلما قلت التفاصيل التي سيعرفها، كان أفضل".

صدر صوت طقطقة أقفال عدة، تم فتحها واحدا تلو الآخر حتى انفتح الباب.

"اعتذر عن بقائكما منتظرين، تفضلا بالدخول".

كان إسماعيل رجلا طويل القامة، شديد النحافة، أصلع، وجلده يلمع وكأنه يضع كريما مرطبا. استدار الرجل، واصطحبهما إلى غرفة معيشة واسعة بها القليل من الأثاث، ذات أرضية خشبية باهتة وجدران بيضاء وبعض الأثاث الجلدي والمعدني هنا وهناك. قرب باب جانبي، لاحظت تارا وجود صبيين صغيرين يرتدي أحدهما رداء الاستحمام ولكن الباب أُغلق على الفور.

ابتسم إسماعيل لتارا قائلا "أعتقد أننا لم نلتقِ من قبل".

قال دانيل "إنها تارا مولراي صديقة قديمة لي".

"فرصة سعيدة".

تقدم إسماعيل خطوة للأمام، وأمسك بيدها، وقبّل أطراف أصابعها وكأنه يشم يدها بأنفه، ثم ترك يدها وأشار لهما بالجلوس على إحدى الأرائك الجلدية الكبيرة.

"شراب؟"

"نعم، مشروبي المفضل لو سمحت".

"وأنت آنسة مولراي؟"

"نفس المشروب من فضلك".

توجَّه إسماعيل إلى خزانة المشروبات، وسكب لهما كوبين، وأضاف مكعبات من الثلج، ثم أعطاهما المشروب، وجلس أمامهما.

"تساءل دانيل ألن تشرب شيئا؟"

"لا، أفضل المشاهدة فقط". قال إسماعيل ذلك مبتسما.

أشعل الرجل سيجارة، وأخذ نفسا عميقا. كان حاجباه رفيعين وداكنين للغاية، حتى أن تارا لاحظت أنه يستخدم إحدى أدوات التجميل ليظهر على هذا النحو.

"حسنا، ما سبب هذه الزيارة المبهجة؟"

نظر دانيل إلى الرجل، ثم أشاح بوجهه تجاه النافذة وأصابعه تطرق بعصبية على حافة الأريكة.

"نحن بحاجة للمساعدة".

قال إسماعيل وهو لا يزال مبتسما "ولكنك دوما من يقدم المساعدة".

استدار الرجل نحو تارا واضعا قدما فوق الأخرى وهو يسوِّي أطراف ملابسه بيده.

"أنا من يطلقون عليّ *المساعد*، حيث أظل مبتسما حتى يحتاج شخص ما شيئا ما فيلجأ إليّ وبعد ذلك لا يمكن الاستغناء عني. ولكنها مهنة مربحة". قالها وهو يشير بيده إلى الشقة الفاخرة ولكن الكئيبة. "إن رجلا في مثل مهنتي سريعا ما يتعلم أنه ليس مقصدا لزيارة اجتماعية فحسب، وإنما- ما هي الكلمة المناسبة - نعم لا بد أن يكون لديه جدول أعمال".

ابتسم الرجل وهو يردد العبارة السابقة، غير أن شيئا في عينيه أوضح أنه يدرك تماما السبب من زيارتهما. استرخى الرجل للوراء، وأخذ نفسا عميقا من السيجارة، وهو يحدق بالسقف.

"حسنا، ماذا تريد يا دانيل؟ هل لديك مشكلة في تصريح الحفر؟ أو ربما يريد ستيفن سبيلبيرج تصوير أحد أعمالك، وترغب في الحصول على التصريحات اللازمة؟"

ضحك الرجل على هذه المزحة، بينما وضع دانيل الكوب من يده، وقال "أنا بحاجة لمعلومات".

"معلومات! كيف يتأتى لرجل مثلي أن ينصح عالما شهيرا مثلك؟ أنا لا أدري ما هو هذا الشيء الذي يمكنني معرفته وأنت لا تعرفه، من فضلك ما هو هذا الشيء؟"

تقـدم دانيل للأمام قليلا والأريكة الجلدية أسفله تصدر صوتا إثر حركته، وعيناه تنظران إلى إسماعيل، ولكن سرعان ما أشاح بوجهه مرة أخرى نحو النافذة، وكأنه لا يرغب في النظر إلى الرجل العجوز.

"أود معرفة معلومات عن سيف الثأر".

خيّم الصمت لوهلة.

"هل هناك شيء على وجه التحديد؟ أم تريد معلومات عامة فحسب؟"

"أود معرفة علاقة سيف الثأر بالآثار؟"

مرة أخرى ساد شيء من التردد في صوت إسماعيل.

"هل لي أن أسأل لماذا؟"

"مـن الأفـضل عدم الخوض في التفاصيل لسلامتك وسلامتنا ولكن هناك قطعة آثار يريدها الرجل، ونحن نريد أن نعرف السبب وراء ذلك".

"ما هذه الألغاز يا دانيل؟"

رفع إسماعيل يده اليسرى، وأخذ في تفحص أظفاره، بينما وصل إلى مسمع تارا صوت هامس من الغرفة المجاورة.

"هل أنا مصيب إن قلت إن هذه القطعة الأثرية لديكم هنا في حقيبة الآنسة مولراي؟"

لم ينبس دانيل أو تارا بكلمة.

"حسنا، صمتكما يفيد بأنني محق". ونظر إلى تارا قائلا "هل يمكنني رؤيتها؟"

حـدّقت تـارا بالـرجل، ثم نظرت إلى دانيل ثم إلى الحقيبة على رجليها بينما الصوت الوحيد المسموع هو الصوت الخشن لحنجرة إسماعيل.

"لا شـك أن الدكـتور لاكاج طلب منك ألا تريني هذه القطعة. هناك درس آخر يتعلمه من يعملون في مثل مهنتي وهي أننا لسنا أهلا للثقة.

لا داعـي لـرؤيتها طالمـا أنكما لا ترغبان في ذلك. ولكن الأمر سيصبح أكثر صعوبة عند الإجابة عن سؤالكما، وكأنك تلعب الورق واللاعب الذي أمامك لا يظهر أيا من أوراقه".

استمر إسماعيل بتفحّص أظفاره.

"حـسنا، أنت تريد معلومات عن علاقة سيف الثأر بالآثار؟ يا له من تساؤل، ما يدهشني...".

نهض دانيل قائلا "ما أهمية ذلك بالنسبة لك؟" ثم توجّه إلى خزانة المشروبات، وسكب لنفسه كوبا آخر، ويداه ترتعشان. "أنا أطلب منك مساعدتنا اعتمادا على طيبة قلبك".

رفـــع إســـماعيل حاجبـــيه في تعجب قائلا "حسنا، أولا دعني أؤكد أنني مصدر المعلـــومات. ثـــم بعد ذلك أنا أكثر رجل محب للخير في العالم، ولكن مع انتهاء هذا الأمر يصعب عليّ تحديد شخصيتي".

"سأعطيك ثلاثمائة أو أربعمائة دولار، لو أن هذا ما تريده".

"رجـــاء يـــا دانيل ربما أكون رجلا عصاميا، ولكنني قد وصلت إلى ما أنا عليه بعـــزة نفـــس؛ أي أننـــي لست شحاذا في الشارع ألهث وراء الأموال مقابل خدماتي. فلتحتفظ بأموالك".

أخذ الرجل نفسا آخر من السيجارة مبتسما، وكأنه يستمتع بارتباك دانيل.

"علـــى الـــرغم من عدم وجود شيء مجاني تماما في هذه الحياة، وخاصة عندما يتعلق الأمر بمعلومات عن رجل في خطورة سيف الثأر فلنجعل الأمر دينا بيني وبينك على أن ترد لي الدين متى طلبت منك ذلك، موافق؟"

حـــدّق الاثنان ببعضهما البعض لوهلة، حتى أنزل دانيل مشروبه من يده، وقال "موافق". ثم سكب لنفسه كوبا آخر، وعاد إلى الأريكة.

فـــي هذه اللحظة كانت سيجارة إسماعيل قد حرقت الحامل، فأطفأها في المنفضة المعدنية أمامه.

"دعـــونا نتفق أولا على أنه لا تربطني أي صلة بسيف الثأر، وأن كل ما سأقوله هو محض أنباء تتردد هنا وهناك".

"حسنا، فلتمضِ قدما".

"من الواضح أن الرجل كان يمول عملياته في السنوات الأخيرة من خلال اتجاره خفية في الآثار". شرع إسماعيل في وضع سيجارة أخرى في الحامل، وقال "إنه أعلم الـــناس بالآثار المصرية أكثر من معظم الخبراء، ومن ثم فهي مصدر أساسي للدخل بالنسبة له. وهي أيضا المصدر الأوحد نظرا لأن كل الجماعات الأخرى لا تجرؤ على المساس بهذه التجارة؛ حتى مجموعة... نفسها".

نهـــض إســـماعيل، وتوجّه ببطء إلى النافذة وأشعة الظهيرة تنعكس على رأسه الأصلع وكأن رأسه مصنوع من النحاس الأصفر.

"تـــشير معظـــم الأخـــبار إلى أن لديه صناعة أكواخ صغيرة. وتأتي هذه الآثار المسروقة من المحافر أو المقابر المكتشفة حديثا أو من مخازن المتاحف، ثم ترسل إلى

جنوب السودان، ثم إلى الوسطاء في أوروبا، والشرق الأقصى لتباع لمن يرغب في شرائها. بعد ذلك يتم تسريب الأموال الناجمة عن ذلك إلى المنطقة مرة أخرى حتى تُستخدم في... حسنا أعرف أنكما على دراية باستخداماتها".

قالت تارا "هناك رجل ضخم الجثة على وجهه علامة خلقية".

ظلّ إسماعيل ينظر من النافذة إلى الشارع ثم قال أخيرا "دافيتش أو دراكيتش أو درافيتش، شيء من هذا القبيل. إنه رجل ألماني على ما أعتقد وهو اليد اليمنى لسيف الثأر في مصر، وأخشى أنني لا يمكنني إخباركما المزيد عنه خاصة أن الإشاعات التي تتردد حوله ليست جيدة".

استدار إسماعيل إليهما قائلا "لا أدري ماذا لديكما في الصندوق يا دانيل، ولكن كما قلت أنت لو أن سيف الثأر يريده فسيأخذه عاجلا أو آجلا. فالاتجار في الآثار هو قوام حياته، ولا يعوقه شيء عنه على الإطلاق".

قال دانيل "ولكنها عديمة القيمة، فلماذا يرغب في الحصول عليها بهذا الإصرار؟"

"كيف يمكنني الإجابة عن ذلك دون أن أراها؟ كل ما يسعني قوله هو طالما أنه يريدها فسيحصل عليها".

استرخى إسماعيل للوراء، وأخذ القداحة، وأشعل السيجارة.

"أعتقد أنني سأجلب لنفسي مشروبا، فالجو حار على غير العادة".

توجّه إسماعيل إلى خزانة المشروبات، وسكب لنفسه كوبا من مشروبه المفضل.

سألت تارا "وماذا عن السفارة البريطانية".

خيّم الصمت لوهلة، قبل أن يصدر صوت ارتطام مكعب الثلج بالكوب وقال إسماعيل "ماذا عنها؟"

بدا في صوته شيء خبيث.

"يبدو أنهم يريدون هذا الشيء أيضا، أو على الأقل الملحق الثقافي لدى السفارة".

وضع إسماعيل ملقط الثلج، وحمل مشروبه، وعاد إلى الأريكة.

"ما الذي دفعك إلى هذا الاعتقاد؟"

قالت تارا "لأنهم كذبوا علينا".

أخذ إسماعيل رشفة من مشروبه، وعاد مرة أخرى إلى النافذة، وصمت لوهلة.

"سأعطيكما نصيحة مجانية، تخلصا من هذه القطعة الأثرية، وغادرا مصر على الفور اليوم قبل الغد، لأنكما إن انتظرتما فسيكون مصيركما الموت".

شعرت تارا بقشعريرة تسري في جسدها، فأمسكت بيد دانيل وإذا بها مكسوة بالعرق.

سأل دانيل "ماذا تعرف يا إسماعيل".

"لا أعرف الكثير، وأنا سعيد بذلك. ولكن أتعرفان شيئا؟"

قالت تارا "نعم من فضلك".

خيّم صمت طويل حتى أنهى إسماعيل مشروبه، ونهض وهو ينفث دخان سيجارته والصمت مخيّم على المكان دون أدنى صوت من الشارع، حتى أن الهمس الصادر من الغرفة المجاورة توقف أيضا.

"هناك... كيف أقول ذلك؟" أخيرا، نطق الرجل، وقال "لو أن ما سمعته صحيح فإن السفارة البريطانية والأمريكية متورطتان في الاتجار بالآثار، ولكنها محض إشاعات. حيث يتم أخذ الآثار من المتاحف، وتخرج من البلاد تحت غطاء دبلوماسي، وتباع بالخارج، ويتم إيداع حصيلة ذلك في حسابات خاصة".

همس دانيل "يا الله!"

استأنف إسماعيل "هذه ليست نهاية القصة، حيث تقوم السفارات بتنظيم عملية تصدير الآثار، ولكن في الأساس تقوم خدمات الأمن لدينا بترتيب سرقتها أو على الأقل أحد العاملين بها. دانيل هؤلاء الأشخاص لديهم اتصالات في كل مكان، ويعرفون كل شيء ولربما يشاهدوننا ويسمعوننا الآن".

قالت تارا "لابد أن نذهب إلى الشرطة".

ابتسم إسماعيل ابتسامة خافتة، وقال "يبدو أنك لم تسمعي ما قلته، فهؤلاء الأشخاص هم من الشرطة، ولديهم نفوذ لا حدود له. فهم يتلاعبون من حيث لا تدري، وعندما يتعلق الأمر بهم، فمن الأهون عليكما التعامل مع سيف الثأر".

قال دانيل "ولكن لماذا؟ لماذا هذه القطعة؟"

"ليست لدي إجابة عن ذلك فكل ما أراه هو السفارات والمخابرات السرية من ناحية"، ورفع يده ممسكا بالكوب، "وسيف الثأر من الناحية الأخرى". رافعا يده بالسيجارة، "وفي الوسط من هم على وشك الهلاك...".

همست تارا "نحن". وأمعاؤها تضطرب.

سألت تارا "ماذا نفعل. إلى أين نذهب".

لم يجب إسماعيل، بينما أخذ دانيل يحدق بالأرض، وفجأة سقط الصندوق من تارا لأنها لم تعد قادرة على حمله، فضلا عن أن رجليها قد تألمتا منه. وخيّم الصمت على المكان.

قـــال دانـــيل "نحن بحاجة لوسيلة نقل، سيارة أو دراجة نارية أو أي شيء، هل يمكنك تدبير ذلك؟"

نظـــر إليهما إسماعيل ورقّ لحالهما قليلا، ثم توجَّه إلى الهاتف، وتحدث بسرعة مع صدى صوت من الطرف الآخر، حتى وضع السماعة.

سأل دانيل "كم سيكلفنا ذلك؟"

"إنه مجاني. فأنا لست مرتزقا إلى هذا الحدّ بحيث أحصل على مال من رجل في مأزق مثلك".

على الرغم من حرارة جو الغرفة، إلا أن تارا كانت ترتعش.

ما إن نزل دانيل وتارا حتى وجدا دراجة نارية من فئة جاوا 350 برتقالية اللون تماما كما أخبرهما إسماعيل. لم تكن هناك إشارة لوجود الشخص الذي وضع الدراجة فـــي هـــذا المكان. قام دانيل برفع دواسة التشغيل، وشغّل المحرك، وقفزت تارا خلفه وحقيبتها على ظهرها.

سألت تارا "إلى أين يا دانيل".

"إلى المكان الوحيد الذي يمكننا فيه العثور على سر أهمية هذه القطعة الأثرية".

"وما هو؟"

"الأقصر بالتأكيد".

انطلق دانيل بالدراجة النارية، وشعر تارا يتطاير خلفها.

نظـــر إسماعيل من النافذة حتى تأكد من مغادرتهما ثم توجَّه إلى الهاتف، ورفع السماعة، وقال "لقد غادرا للتو ومعهما القطعة الأثرية".

شمال السودان

كانـــت المروحيّة تحلق فوق المخيم مباشرة، وهبطت على قطعة أرض منبسطة علـــى بعد مائة متر من المخيم. ما إن هبطت المروحيّة، حتى أثارت مروحتها أكواما مـــن الـــرمال، كادت تزيل الخيام من مكانها. كان هناك صبي صغير ينتظر الضيف، وعندما هبطت المروحيّة، استدار الصبي ووضع يده على وجهه لتجنب الرمال. ولكن ما إن توقفت المروحة حتى توجَّه الصبي، وفتح الباب الجانبي للطائرة.

نـــزل من الطائرة رجل يرتدي حلة مجعدة، وفي يده حقيبة صغيرة وسيجار في اليد الأخرى.

قال الصبي "إنه في انتظارك يا دكتور".

توجَّه الاثنان إلى المخيم، والصبي لا يستطيع رفع رأسه والنظر إلى وجه الرجل الذي تعلوه علامة خُلقية تبث الرعب في نفس الصبي.

سار الاثنان بجوار المخيم حتى وصلا إلى خيمة منفصلة إلى حدٍّ ما عن سائر المخيم. رفع الصبي باب الخيمة ودخل، وتبعه الرجل بعد أن ألقى السيجار.

"مرحبا دكتور درافيتش أترغب في كوب من الشاي؟"

كان سيف الثأر جالسا القرفصاء في وسط الخيمة، ونصف وجهه تخيّم عليه الظلمة، وبجواره كتاب لا يمكن تمييزه بسبب الظلام.

"أودّ مشروبا آخر من فضلك".

"كما تعرف، نحن لا نشرب هذا هنا. محمد أحضر بعض الشاي للدكتور درافيتش".

"حسنا يا سيدي".

"تفضل بالجلوس يا دكتور".

جلس الرجل العملاق على السجادة غير مستقر لأنه غير معتاد على ذلك، ومن ثم أخذ يتحرك هنا وهناك حتى استقر على أنسب جلسة له، وإحدى قدميه أسفله والأخرى ملاصقة لصدره.

همس درافيتش "لا أدري لماذا لا تحضر كرسيا إلى هنا؟"

"نحن نفضّل الحياة البسيطة".

"حسنا، ولكنني لا أفضّلها".

"فلتحضر معك كرسيك في المرة القادمة".

تحدث سيف الثأر بحدة دون غضب، وتمتم درافيتش بشيء إلا أنه لم يكمله حيث بدا عليه الخنوع في حضرة الرجل. أخرج الرجل الضخم الجثة منديلا من جيبه، وأخذ يمسح جبهته التي كانت تتصبب عرقا رغم أنه لم يمضِ على دخوله الخيمة سوى دقيقتين.

تحدث سيف الثأر قائلا "هل حصلت عليها؟" وعلى عكس درافيتش كان الرجل جالسا مستقرا، ويداه مستقرتان فوق ركبتيه.

"لا، لم نحصل عليها بعد. لقد كانت في سقارة كما أخبرتك، ولكن الفتاة عثرت عليها، وهربت بها بعد أن قتلت اثنين من رجالنا".

"هل فعلت الفتاة ذلك؟"

"نعم، وبصحبتها شاب آخر يدعى دانيل لاكاج، عالم آثار".

"لاكـــاج؟ الـــرجل ذو العينين الخضراوين اللامعتين في الظلام! إن كتابه حول الأيقونات في فترة المقبرة الأخيرة يُعد من كتبي المفضلة".

"لم أسمع بهذا الكتاب قطّ".

"ينبغي عليك قراءته، فهو من أروع ما كُتب في هذا المجال".

خـــيّم شيء من الضيق على وجه درافيتش، ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يـــسأل نفسه فيها هذا السؤال: لماذا يجعلني هذا الرجل أعمل معه، على الرغم من أن معـــرفته بمـــصر القديمة لا يباريه فيها أحد؟ لا بد أنه يفعل ذلك لا لشيء إلا ليسخر مني. هذا العبثي لو أن مصر كانت تحت سيطرة رجال كهذا الرجل لوصلت عمليات الحفر إلى كل شبر فيها، وبيعت آثارها لمن يدفع أكثر. أخذ الرجل يثني ويبسط قبضته مخلفا آثارا بيضاء عليها.

وصل محمد، وأعطى درافيتش كوب الشاي، بينما وضع الآخر إلى جوار سيف الثأر.

غادر الصبي مرة أخرى دون أن ينظر إلى درافيتش.

سأل سيف الثأر "لماذا يساعدها هذا الشاب؟"

"لـــست أدري، لقد كانت معه ليلة أمس، ثم ذهب إلى سقارة ظهر هذا اليوم حيث أخذا القطعة الأثرية واختفيا".

"والآن؟"

"الآن لا أعرف".

"هل ذهبا إلى الشرطة؟"

"لا كنا لنعرف لو فعلا".

"هل ذهبا إلى السفارة؟"

"لا، لقد كنا نراقبها طوال اليوم".

"إلى أين ذهبا إذا؟"

"لا أدري، فقد اختفيا كما قلت لك، وربما يكونان في أي مكان".

"هل يسعيان إلى الحصول على الجائزة بنفسيهما؟ هل هذا هو الأمر؟"

"لست أدري، فلست قارئا للأفكار".

ظهرت علامة من الامتعاض حول فم سيف الثأر.

"مـــن العـــار عليك أنك لم تكن حريصا في سقارة. فلو كنت أقل عنفا مع الرجل العجوز لتجنبنا كل هذه المتاعب".

"لقــد أخبــرتك، لم تكن غلطتي، لم ألمس الرجل. كل ما حدث أننا انتظرناه في المحفــر، وقبل أن نسأله أصيب بأزمة قلبية حيث نظر نظرة واحدة إلى المالج، وسقط صريعا".

"من العار عليك أنك لم تبحث في المحفر بدقة".

"لــم تكــن القطعــة في المحفر، ولهذا لم نعثر عليها فقد خبأها الرجل في أحد الجدران في مصطبة مقابلة للمحفر".

حدّق سيف الثأر في درافيتش، ومدّ يده دون أن يرفع عينيه عنه، وأمسك بكوب الشاي، وأخذ منه رشفة، ومرر لسانه على شفتيه، بينما رفع درافيتش كوبه هو الآخر، واحتسى منه رشفة محدثا صوتا مرتفعا والعرق يتصبب من جبينه، وهو يجد صعوبة في التنفس في هذه الحرارة الشديدة.

"سنعثر عليهما، إنها مسألة وقت فقط".

"ليس لدينا وقت كاف، فلا يمكننا إبقاء الأمر سرا للأبد، نريد هذه القطعة الآن يا دكتور درافيتش".

"نحن نراقب محطات الحافلات والمطارات، ولدينا أعين في كل مكان، وسنعثر عليهما".

مرة أخرى، بدا وكأن درافيتش يتمالك أعصابه بشق الأنفس. وفي حركة مفاجأة، وكأنه ينفث غضبه، أخرج المنديل وأخذ يمسح جبهته.

"يا إلهي! لو ظهرت هذه القطعة فسنصبح أغنياء".

بدت هذه الملاحظة مثيرة لاهتمام سيف الثأر الذي انحنى للأمام قليلا، وقال "هل هذه أقصى أمانيك يا دكتور درافيتش، فكرة أن تكون غنيا؟"

"هل تمازحني؟ بالطبع. أليس الأمر كذلك معك؟"

"أن يكون معي مليون جنيه أنفقها على نفسي لأعيش في رفاهية بينما الأطفال في الأحــياء الفقيرة يتضورون جوعا؟" ابتسم الرجل، "لا بالطبع ليست هذه أقصى أمانيّ، هذه الفكرة ليست محببة إليّ على الإطلاق، بل على العكس إنها تصيبني بالضيق".

رفع سيف الثأر كوب الشاي مرة أخرى، وأخذ منه رشفة أخرى.

اســتطرد سيف الثأر، قائلا "أن يكون معي مليون جنيه لأنفقها في سبيل الله، أو لقهر الكافرين ونشر شريعة الله وتطهير الأرض من دنس الكفر وتنفيذ أوامر الله، هذه هي أقصى أمانيّ. هذا هو ما يثير اهتمامي يا دكتور درافيتش".

ضحك درافيتش قائلا "اللعنة، كل ما يهمني هو المال".

فجأة اختفت ابتسامة سيف الثأر، وحملق بدرافيتش ويده مطبقة على كوب الشاي الذي كاد يتحطم في أي لحظة.

"انتبه لما تقوله، فهناك بعض الكلمات التي ينبغي ألا تنطق بها".

أخذ سيف الثأر ينظر إلى درافيتش بعينيه الخضراوين وكأنهما لا يوجد حولهما رموش، بينما درافيتش يمسح جبينه متجنبا التقاء عينيه بعيني سيف الثأر.

"حسنا، حسنا، أنت لديك أولوياتك وأنا لدي أولوياتي، دع الأمر يجري على هذا النحو".

"نعم، دعه يجري على هذا النحو".

خيّم الصمت لوهلة قبل أن ينادي سيف الثأر على الصبي الواقف أمام الخيمة.

"محمد، اصطحب الدكتور درافيتش إلى طائرته".

نهض درافيتش ببطء بسبب الألم الذي يعاني منه في قدميه جراء هذه الجلسة، وتوجَّه إلى الخارج شاعرا براحة شديدة لخروجه من هذا المكان.

"سأتصل بك عندما أتوصَّل إلى أي أخبار. سأكون في الأقصر منتظرا ظهورهما".

"آمل ذلك، فكل شيء هنا جاهز، ويمكننا عبور الحدود وتسوية الأمر برمته في بضع ساعات، يتعين علينا فقط معرفة مكانهما".

أومأ درافيتش برأسه، وهمَّ بالخروج إلا أن سيف الثأر نادى عليه مرة أخرى.

"اعثر على القطعة المفقودة يا دكتور درافيتش هذه فرصة العمر وينبغي أن تستغلها، اعثر على القطعة".

أومأ درافيتش إيجابا، ومضى في طريقه. وبعد دقيقتين، صدر صوت تحرك المروحيّة محلقة فوق الصحراء.

وقف سيف الثأر، وذهب إلى خزانة كبيرة في مؤخرة الخيمة، وأخرج المفاتيح من جلبابه، وفتح القفل، ورفع الغطاء.

كان سيف الثأر يشعر بالعار جراء تعامله مع رجل كافر مثل درافيتش، ولكن لم يكن لديه خيار آخر فعبوره الحدود بنفسه أمر في غاية الخطورة، فالشرطة تبحث عنه في كل مكان. ومن ثم لم يكن أمامه سوى الانتظار، على الأقل حتى يتم العثور على القطعة المفقودة. ولكن درافيتش وحده هو من يمتلك المؤهلات اللازمة. والأهم من ذلك أنه لا يتردد أبدا. ولهذا كان يعتمد عليه اعتقادا منه أن الطرق إلى الله قد تكون غامضة.

انحنى سيف الثأر للأمام، واقترب من الجزء الأسود في الخزانة، وأخرج منه عقدا صغيرا، ورفعه في الضوء. أخذ العقد الذهبي يلمع ويصدر صوتا موسيقيا كلما اهتز في يد سيف الثأر حتى وضعه، وأخرج بعض الأشياء الأخرى- صندل، وخنجر، ودرع للصدر لا يزال يحتوي علي الأحزمة الجلدية، وتعويذة فضية على شكل قطة - وكلما رفع قطعة منها أخذ يحدق بها ويستغرق في الخيال.

لا شك أن هذه القطع قطع أصلية. لقد صدّق ذلك الآن على عكس ما اعتقده عندما أخبره درافيتش في بادئ الأمر عن المقبرة. ففي ذلك الحين لم يصدقه لأن الأمر غير معقول، فضلا عن بعض الأخطاء التي ارتكبها درافيتش قبل ذلك ومن ثم لم يعد سيف الثأر يعتمد على رأيه في هذه الأمور.

لم يصدق سيف الثأر هذه الأخبار، إلا بعد أن أمسك هذه القطع بيديه، ونظر إليها بأم عينيه. وعندها، تأكد من وجود هذه المقبرة التي كانت بمثابة منحة من الله له، بل هي أعظم منحة على الإطلاق.

أعاد سيف الثأر القطع إلى الخزانة مرة أخرى، ووضع الغطاء عليها وهو لا يزال يسمع صوت المروحيّة من بعيد.

كان العثور على المقبرة يتوقف على العثور على القطعة المفقودة، أي أن مصيرهم يعتمد عليها.

غادر سيف الثأر الخيمة حيث أغلق عينيه قليلا جراء أشعة الشمس، ولكنه لم يكترث بالحرارة الشديدة حيث سار في المخيم حتى وصل إلى ربوة مرتفعة، وأخذ ينظر إلى الشرق عبر التلال المتلاحقة حيث تظهر بقعة سوداء وحيدة في وسطها جميعا. أخذ سيف الثأر يفكر في مكان ما هناك، وسط هذا البحر المترامي من الرمال الحارقة. أغلق الرجل عينيه، وحاول تخيّل ما قد تبدو عليه هذه المقبرة.

22

القاهرة

استغرقت الرحلة من الأقصر إلى القاهرة نحو عشر ساعات، وكان القطار مزدحما للغاية حتى أن خليفة أمضى الرحلة كلها ممددا في جانب من العربة بين سيدة تحمل قفص حمام ورجل مسن كثير السعال. على الرغم من ذلك، استغرق في نوم عميق حيث وضع سترته خلف رأسه كوسادة، وأرخى قدميه على كومة كبيرة من البلح الجاف. عندما استيقظ، ارتطم رأسه بقضبان نافذة المقصورة فانتعش وأفاق تماما. همس خليفة مرددا أدعية الصباح، ثم أشعل سيجارة، وجلس يتناول الخبز والجبن الذي أعطته له زوجته بعد أن تقاسمه مع الرجل المسنّ الجالس بجواره.

دخل القطار إلى أطراف مدينة القاهرة قبل السادسة صباحا، وكان من المتوقع أن يلتقي خليفة محمد عبد التواب الضابط المسؤول عن قضية إكبار في التاسعة صباحا. بدلا من الانتظار في محطة القطار، قرر خليفة استغلال هذه الساعات الثلاث في الجيزة فغادر المحطة، واستقل سيارة أجرة، وتوجَّه إلى قريته القديمة نزلة السمان.

كانت هذه هي المرة الثالثة له في الجيزة منذ رحيله عنها بعد فقدان أخيه ووالدته التي لم تعش طويلا بعد فقدان علي، فلم يعد يشعر بالانتماء إلى هذا المكان بعد وفاتهما. كلما مرّ بشارع أو منزل أو شجرة تذكر مدى سوء الوضع آنذاك، فلم يكن يستطيع العيش في هذا المكان دون الشعور بالوحدة والضياع، لهذا قَبِل وظيفة الأقصر، وانتقل إلى هناك، وكانت الزيارتان السابقتان اللتان قام بهما إلى الجيزة لا لشيء إلا لأداء واجب العزاء.

استقل خليفة حافلة عند مفترق طرق مزدحم، وأخذ ينظر إلى هرم خوفو الذي يختفي نصفه وسط ضباب الصباح، وشق طريقه عبر أحد الشوارع الرئيسية المؤدية إلى القرية، وهو يشعر بالإثارة والعصبية.

كـان المكان قد تغير عما كان عليه في الماضي. ففي أيام طفولته، كانت الجيزة قـرية صـغيرة، تضمّ مجموعة صغيرة من المحلات والمنازل المنتشرة في أرجائها تحت المنظر الصامت لأبي الهول.

أما الآن، ومع ازدهار السياحة وزحف المدينة نحو الأطراف الغربية، فقد فقدت الجيزة كثيرا من هويتها. أصبحت الشوارع مكتظة بالمحلات، واختفت المنازل الطينية القديمـة، وحـلّ محلها بنايات خرسانية بلا مظهر محدد. أخذ خليفة يجول بنظره هنا وهناك ليرى قليلا من المباني المألوفة، وكثيرا من المباني الجديدة. وأخذ يسأل نفسه: لماذا أتى إلى هنا؟ وكانت الاجابة إلى حدٍّ ما هي أنه كان بحاجة إلى هذا المكان القديم مرة أخرى. مرّ خليفة بمنزله القديم أو على الأصح بموقع منزله القديم حيث حل محله الآن فـندق مـن أربعـة طوابق، وأخذ ينظر إلى حظيرة الجمال التي كان هو وأخوه يعمـلان بها. وبين الحين والآخر كان يرى وجها مألوفا فيتبادلان التحية مرة بترحاب غير حار ومرة أخرى ببرود. كان مندهشا من ذلك بعض الشيء نظرا لما فعله علي.

ظلّ خليفة هناك لساعة، وهو يشعر بشيء من الكآبة وتساءل: هل كان من الخطأ قدومـه إلـى هذا المكان؟ نظر خليفة إلى ساعته، ثم مشى على أطراف الجيزة حتى وصـل إلـى الجـزء الرملـي، حيث أخذت الشمس في الشروق، وأخذ الضباب في الانـزواء كاشفا عن قمم الأهرامات الثلاثة. في الجهة المقابلة لأبي الهول توجد مقبرة أسفل المنحدر.

كان الجزء الأسفل من المقبرة عبارة عن أرضية منبسطة مظللة بالأشجار. بعد ذلـك، تـرتفع الأرض قليلا، وتأخذ المقابر في الارتفاع أيضا دون وجود أي أشجار تظللها، وكأنها ضواحٍ فقيرة على أطراف مدينة مترفة.

صـعد خلـيفة إلى هذا الجزء من المقبرة مارا عبر كثير من القبور المستطيلة المنبسطة حتى وصل إلى الجزء العلوي من المكان أمام قبرين بسيطين قليلي الارتفاع خاليـين مـن أي شـيء باسـتثناء سنادة خرسانية على الجزء العلوي من كل منهما وسطرين من الآيات القرآنية تلاشى بعضها. وكان هذان القبران لوالديه.

جثا خليفة على ركبتيه، وقبّل قبر والدته، ثم قبر والده داعيا لهما، ثم نهض، وتحرك بـصعوبة كما لو أن قدميه لا تحملانه، وصعد منحدرا آخر حتى وصل إلى أعلى جانب المقبرة حيث كان حائطها مهدما، وكانت الأرض مليئة بالقاذورات وروث الماعز.

كـان هـناك قبر واحد في هذا الجانب من المقبرة، وكأنه منبوذ عن بقية القبور الأخرى، وكان أقل بساطة من قبري والديه. فقط شكل مستطيل من الأسمنت دون أي

آيـــات علـــيه. فـــي هذه اللحظة، تذكّر خليفة كيف توسل إلى المسؤولين عن المقبرة للـــسماح له بدفن الجثة هنا، وكيف حفر القبر بيديه في الليل الدامس دون أن يراه أحد من القرية، وكيف بكى بمرارة.

جثا خليفة على ركبتيه، ووضع وجنته على السطح البارد للقبر قائلاً "آه يا علي، يا أخي وحياتي لماذا، لماذا فعلت ذلك، لماذا؟"

كان محمد عبد التواب الضابط المشرف على قضية إكبار يشبه المومياء. فهو ذو بـــشرة جافـــة، ووجنتاه غائرتان، وفمه مغلق وعليه علامة دائمة، وكأن نصفه مبتسم ونصفه بائس.

يعمـــل محمد عبد التواب في مكتب متواضع بشارع بورسعيد في إحدى الغرف المـــشتركة مع أربعة ضباط آخرين وسط سحابة من الدخان. وصل خليفة بعد التاسعة صباحا بقليل، وبعد تبادل التحية وتناول الشاي، شرع الاثنان في العمل.

اســـتهل محمـــد الحـــديث وهو يطفئ سيجارة في المنفضة الممتلئة، بينما يشعل أخرى قائلا "أنت مهتم بقضية إكبار".

"أعتقد أن هناك علاقة بين هذه القضية وقضية أخرى لدينا في الأقصر".

نفـــث محمـــد خطين من الدخان من أنفه، "ياله من أمر سيئ، لقد واجهنا العديد من القـــضايا هنا ولكن هذه القضية هي الأبشع على الإطلاق، لقد ذبحوا الرجل العجوز". توجَّه محمد إلى أحد الجوارير، وأخرج ملفا، ووضعه على المكتب، وقال "هذا هو التقرير الطبي. العديد من الجروح في الوجه والذراعين والجذع، بالإضافة إلى العديد من الحروق".

"حروق سيجار؟"

"نعم".

"ماذا عن الجروح، ما سببها؟"

أجـــاب محمـــد "أداة غريبة لم يستطع الطبيب الشرعي تحديدها على وجه الدقة، ولكنها أداة معدنية أدق من السكين. ويعتقد الطبيب أنها مالج".

"مالج؟"

"نعم، مالج. كذلك المستعمل في البناء ووضع الأسمنت بين الشقوق، هذا ما ورد في التقرير".

فـــتح خلـــيفة الملـــف، وتصفّحه مشاهدا صور الرجل العجوز وهو مسجى على أرض محلـــه، ومـــضرجا في دمائه، ثم صور الجثة وكأنها سمكة مقسمة إلى أجزاء. كان تقرير الطبيب الشرعي مماثلاً تماما لتقرير الطبيب أنور حول جثة ناير.

بالنسبة لطبيعة الأداة المستخدمة في إحداث الجروح السابقة فهي غير معروفة وتوضح تحاليل الجروح أنها ليست ناجمة عن سكين. فالشكل والزاوية يوضحان أنها ربما تكون نتيجة لمالج بناء أو نتيجة لمالج كالذي يستعمله علماء الآثار، غير أنه لا يوجد دليل قاطع على ذلك.

توقف خليفة عند كلمة علماء الآثار لدقيقة، قبل أن يلتفت إلى محمد، ويسأله "من عثر على الجثة؟"

"صاحب محل مجاور انتابته الشكوك عندما لم يفتح إكبار متجره. ذهب الرجل فوجد الباب مفتوحا، ووجد جثة إكبار على الأرض كما توضح الصور بين يديك".

"متى كان ذلك؟"

"صباح السبت، ولا أدري كيف حصلت الصحف على الخبر بهذه السرعة". ثم قال مازحا "أعتقد أنهم يرتكبون نصف الجرائم حتى تزداد مبيعاتهم".

ابتسم خليفة، وسأل "هل كان إكبار يتاجر بالآثار".

"كلهم يتاجرون بالآثار، ولكن ليس لديه ملف عندنا. فنحن نسعى وراء الرؤوس المدبرة. وعندما يتعلق الأمر ببضع قطع صغيرة، فنحن نميل إلى ترك الأمر يمر، وإلا فإننا سنملأ بهم السجون من هنا وحتى أبو سمبل".

تصفح خليفة التقرير مرة أخرى، وتوقف عند كلمة عالم آثار.

"هل سمعتم بأي شيء غير طبيعي في سوق الآثار مؤخرا؟"

"غير طبيعي؟"

"أقصد شيئا ثمينا يستحق القتل لأجله".

"لا يحضرني شيء الآن. ولكن منذ شهرين تقريبا كان هناك شاب يوناني يصدّر الآثار على أنها مقلدة. ولا يحضرني شيء حصل في الفترة الأخيرة؛ إلا إذا كنت تقصد ما حدث في سقارة".

"سقارة؟"

"ظُهْرَ أمس أطلق إنجليزيان النار على بعض الأشخاص، وهربا في سيارة أجرة مسروقة. من الواضح أن الفتاة قد أخذت شيئا من المحفر هناك".

نادى محمد على صديق له في الغرفة، فأتى رجل سمين يتصبب عرقا.

"أهلا حلمي، إنه صديق لي من شرطة الجيزة، ما هي آخر أخبار حادثة إطلاق النار في سقارة؟"

أجـــاب حلمي، وهو يقضم قطعة كبيرة من الحلوى "ليس الكثير، فلا أحد يدري ماذا حدث هناك باستثناء أن هذه الفتاة قد أخذت شيئا ما، صندوقا أو ما شابه ذلك".

"ألديك فكرة عمن تكون هذه الفتاة؟"

قـــضم حلمي مزيدا من الحلوى، ثم قال "إنها ابنة أحد علماء الآثار، حيث تعرّف عليها أحد موظفي التفتيش، اسمها مولراي أو شيء كهذا".

"أتقصد مولراي؟ مايكل مولراي؟"

"نعم هذا هو الاسم، وقد توفي الرجل منذ يومين نتيجة أزمة قلبية، وعثرت ابنته على الجثة".

أخرج خليفة مفكرة وقلما من جيبه، وشرع في تدوين بعض الملاحظات.

"حسنا، دعني استوضح الأمر بدقة. عثرت الفتاة على جثة والدها منذ يومين، ثم حضرت مرة أخرى، وأخذت شيئا من المحفر".

"يعـــتقد ســـائق التاكسي الذي كان معهما أنهما حصلا على الصندوق من إحدى المقابر حيث خرجا إلى الصحراء، ثم عادا بشيء في أيديهما يشبه علبة البيتزا".

صرخ أحد زملاء حلمي "لابد أنك تفكر في الطعام بداخله".

ردّ حلمي "عليك اللعنة يا عزيز".

اســـتأنف حلمي قائلا "أخذا الصندوق، وعادا إلى المحفر، إلا أن شخصا ما أخذ يطلق النار عليهما، ولكن القرويين قالوا إن الشاب الذي كان بصحبة الفتاة هو من كان يطلق النار. كما قلت لك، فالأمر غامض ولا أحد يدري ماذا جرى هناك".

"هل تعرف من هذا الشاب؟"

هـــزّ حلمي رأسه، بينما جلس خليفة صامتا لبعض الوقت وهو يفكر. "هل هناك أي إمكانية للتحدث مع صديقك من الجيزة؟"

"بالطـــبع، ولكنه لن يخبرك شيئا إضافيا عما أخبرتك به، فضلا عن أنه قد ترك القضية برمتها، وتولت المخابرات القضية منذ ليلة أمس".

"المخابرات!" بدت الدهشة على خليفة.

"من الواضح أنهم يريدون الإبقاء على الأمر سرا لأن ذلك يُعد بمثابة دعاية سيئة لمـــصر، فـــضلا عـــن تورط أحد السائحين في القضية. حتى أن القضية لم تتناولها الأخبار".

ظلّ خليفة يكتب في المفكرة.

"هل هناك شخص آخر يمكنني التحدث معه؟"

أجـــاب حلمي وهو يزيل بقايا الحلوى من على مكتبه "هناك شخص في السفارة البريطانية يعرف هذه الفتاة، يُدعى اورتس أو شيئاً كهذا، وهو ملحق صغير. هذا كل ما أعرفه".

سأل محمد عبد التواب "هل تعتقد أن هناك علاقة بين القضيتين؟"

أجـــاب خلـــيفة "ليست لدي أدنى فكرة، ولكنني لا أرى صلة واضحة، غير أنني أشعر..." توقف فجأة دون أن يكترث بتكملة الجملة، ثم أمسك بالتقرير الطبي الخاص بإكبار وقال "هل هناك نسخة أخرى؟"

"بالطبع".

"أود الذهاب إلى محل إكبار إن أمكن؟"

"لا توجد مشكلة".

بحـــث محمد عبد التواب في مكتبه، وأخرج ظرفا به العنوان والمفاتيح الخاصة بالمحل، وقال "إنه في خان الخليلي، وقد انتهينا من كل الأمور المتعلقة برفع البصمات والأدلة الجنائية".

أخذ خليفة الظرف، ثم نهض واقفا.

"سأعود في غضون ساعتين".

"خذ وقتك فسأتأخر هنا على أي حال، غالبا ما أتأخر هنا".

صـــافح خليفة محمد عبد التواب، وغادر المكتب، قبل أن ينادي عليه محمد."لقد نسيت أن أسألك يا خليفة؛ إن أسرتك ليست من نزلة السمان أليس كذلك".

صمت خليفة لوهلة، ثم قال "لا، من بورسعيد". ثم توجَّه إلى الممر.

الأقصر

كـــان أكثـــر شـــيء ندم عليه درافيتش في حياته هو أنه لم يقتل الفتاة. فبعد أن اغتـــصبها كـــان يتعين عليه قتلها ودفنها، ولكنه لم يفعل ذلك وإنما تركها تذهب إلى الشرطة وتخبرهم بما حدث، وكان ذلك بمثابة النهاية المؤلمة لمستقبله المهني.

حصل درافيتش على محام ماهر نجح في إقناع القاضي بأنها كانت علاقة متبادلة بـــين درافيـــتش والفـــتاة. ولكن ذلك لم يبرئ ساحة الرجل تماما، فالعاملون في علم المـــصريات عـــددهم صـــغير للغاية ومن ثم انتشر الخبر بينهم كالنار في الهشيم. لقد اغتصب درافيتش إحدى المتطوعات معه، وأفلت بفعلته. ومن هنا نبذه الجميع، فلم يعد يستطيع التدريس أو الحصول على منح أو حتى الاتصال بدور نشر الكتب. رجل في

العقــد الثالث من عمره دمّر مستقبله المهني، لماذا لم يقتلها وينتهي الأمر؟ ولكن هذا الخطأ قد تداركه في كل أفعاله بعد ذلك.

هزّ درافيتش رأسه حتى يستيقظ من هذه الخيالات ويعود إلى أرض الواقع ملوحا بيده لصاحب المقهى حتى يحضر له مزيدا من القهوة.

ظــلّ العاملون في المقبرة طوال الليلة الماضية يخرجون القطع الأثرية: الأعمدة الخــشبية المنقوشة، وأحجار البازلت، والأوعية الفخارية المرمدية، وكل ما تبقى هو التابوت نفسه الذي يحمل نقوشا براقة ونصا هيروغليفيا غامضا. قام العاملون بإخراج كــل هــذه الأشــياء لــيلا وحملها إلى السودان حتى يتم نقلها إلى الأسواق الأوروبية والشرق الأقصى.

لقــد كانت غنيمة رائعة، بل هي الأروع على الإطلاق لأنها تحتوي على مئات القطع الأثرية للأسرة السابعة والعشرين من الفترة الأخيرة. كلها تحف رائعة في حالة جيدة، ولابد أنها ستدر مئات الآلاف أو أكثر، يحصل منها درافيتش على عشرة بالمائة وهو ما يُعد مكسبا رائعا له، ولكن مقارنة بالجائزة الكبرى فهي لا تساوي شيئا، بل إن كل الآثار التي قام بتهريبها لا تساوي شيئا مقارنة بالجائزة الكبرى، فهذه الجائزة هي الأكبر على الإطلاق، إنها الفرصة التي طالما انتظرها حتى تنتهي كافة مشاكله.

كل ما يتعين عليه للحصول على الجائزة الكبرى هو العثور على القطعة الأثرية المفقــودة، ولهــذا كــان مستقبله معلّقا بين يدي تارا ودانيل، أين هما الآن؟ وما الذي يخططان له؟ وما الذي يعرفانه؟

كــان قلقــه فــي بــادئ الأمر يتمثل في أنهما قد أخذا القطعة، وتوجها بها إلى الــشرطة. ولكنهما لم يفعلا ذلك، مما أشعره بشيء من الارتياح. ولكن القلق لا يزال قائما فلا زالت أمامهما فرصة للعثور على الجائزة الكبرى.

هذا ما يخشاه درافيتش الآن والوقت يمر كما قال سيف الثأر، ولا يمكن الانتظار للأبــد، وكلما زادت مدة بقاء القطعة معهما، زادت إمكانية إفلات الجائزة الكبرى من بين يديه، وبالتالي تتلاشى كل آماله وأحلامه.

سأل درافيتش نفسه: ما الذي تفعله هنا عليك اللعنة؟

وصلت القهوة، وأخذ درافيتش يرشف منها، وهو يحدق بتلال طيبة الماثلة أمامه بنية اللون، والتي تمتد حتى تتشابك مع اللون الأزرق للسماء.

كــان أكثــر مــا يزعجه ويدفعه للتساؤل هو إن كان دانيل وتارا يسعيان وراء الجائــزة الكبرى، فهل يمكنهما الوصول إليها من خلال هذه القطعة الأثرية الصغيرة؟

نعـــم، مـــن المفترض أن دانيل أحد أفضل علماء الآثار، ويمكنه إدراك الأمر كله من خـــلال رموز هذه القطعة. ولكن الشك لدى درافيتش كان أكبر من ثقته في قدرة دانيل علـــى ذلك. لا بد أنهما سيحتاجان إلى أشياء أخرى، ولهذا يتعين عليهما الحضور إلى الأقصر، حيث سينتظرهما درافيتش المتأكد من أنهما سيأتيان والأمر كله لا يعدو عن كونه مسألة وقت. غير أن هذا الوقت كان يمضي بسرعة.

أنهـــى درافيتش قهوته، وأخرج سيجارا من جيبه، ووضعه بين إصبعيه مستمتعا بـــصوت طقطقة التبغ الجاف تحتهما، ثم وضعه في فمه، وأشعله شاعرا براحة عميقة وفكر أهدأ. نهض درافيتش، وأخذ يفكر في تارا وما سيفعله بها عندما يجدها.

23

القاهرة

يقـــع محل إكبار في شارع ضيق متفرع من شارع المعز، وهو شارع حيوي يجـــري كالـــشريان وســـط القاهـــرة الإسلامية، ولذا استغرق خليفة بعض الوقت للوصول إلى الشارع، ثم وقتا أكثر للعثورعلى المحل، حيث وجده مغلقا بمصراع حديـــدي متـــسخ خلف كشك لبيع الحلوى. فتح خليفة المحل، ودخل وسمع صوت الأجراس فوق رأسه.

كـــان المحـــل مظلمـــا ومكدسا بالتحف من الأرض إلى السقف؛ من المصابيح النحاســـية إلى الأثاث وغير ذلك من الأشياء الأخرى المنتشرة في أركان المحل، أمّا علـــى الجـــدران فـــتوجد أقنعة خشبية وطيور محنطة، بينما تملأ المحل رائحة الجلد والمعادن القديمة، وكأنك تستشعر الموت ذاته.

نظـــر خلـــيفة في المكان لدقيقة، حتى بدأت عيناه تتأقلمان على هذه الظلمة، حـــيث تـــوجَّه إلى المنضدة الموجودة في مؤخرة المحل، وإذا بقطعة من الأرض عليها علامات بالطبشور داخلها علامات أصغر توضح مكان مصرع إكبار، فضلا عن بعض العلامات القاتمة نتيجة لآثار الدماء التي نزفها الرجل وبعض آثار رماد سيجار.

لم يكن خليفة يضع أمالا عريضة في العثور على شيء، فلو أن إكبار قد حصل على بعض القطع الأثرية من ناير فإما أنها بيعت أو أخذها من قتلوه، بل حتى إن كان هناك شيء منها في المحل، فإنه من الصعب العثور عليه لأن تجار الآثار في القاهرة ماهـــرون للغايـــة في إخفاء هذه الأشياء القيّمة، وعلى الرغم من ذلك لم يتمالك خليفة نفسه، وأخذ يبحث هنا وهناك.

فتح خليفة بعض الجوارير، وأخذ يفتش فيها، ثم رفع مرآة كبيرة لعله يجد وراءها خزانة أو ما شابه ذلك، ثم بحث في سلتين في جانب المحل، وبعد ذلك توجَّه إلى الغرفة في مؤخر المحل محاولا إضاءة الأنوار.

كانت الغرفة صغيرة ومكدسة كسائر المكان، وبها صف من الخزانات المكدسة بجوار الحائط، وفي الجانب تمثال خشبي ذو حجم صغير من اللونين الأسود والذهبي وهو تقليد للتماثيل الحارسة لمقبرة توت عنخ آمون.

كانت الخزانات مكدسة بأوراق كثيرة. وبعد عشرين دقيقة، فقد خليفة الأمل في العثور على أي شيء، وعاد مرة أخرى إلى مقدمة المحل.

بدا وكأنه يبحث عن إبرة في كومة قش، غير أنه ليس متأكدا حتى من وجود هذه الإبرة. فلو أن هناك أي إشارات حول مصرع الرجل، فستكون قد ضاعت وسط هذه الفوضى من الأشياء، ولن يستطيع العثور عليها إلا بعد تفريغ المكان تماما. نظر خليفة نظرة أخيرة خلف المنضدة، ثم أطفأ الأنوار في الغرفة الخلفية، وأخذ المفاتيح، وتوجَّه لإغلاق الباب الأمامي للمحل بعد أن نفد لديه الأمل في العثور على أي شيء.

وجد خليفة وجها صغيرا ينظر إلى داخل المحل عبر الزجاج. وجه فتاة صغيرة ذات شعر أشعث لا تزيد عن الخامسة أو السادسة من العمر. خرج خليفة إليها، وانحنى قليلا تجاهها قائلا "أهلا".

لم تلقِ له الفتاة بالا بسبب تركيزها الشديد على داخل المحل.

أخذ خليفة بيدها، وقال "أهلا، اسمي خليفة، ما اسمك؟"

نظرت الفتاة بعينيها البنيتين إليه قبل أن تشيح بهما إلى المحل مرة أخرى.

سحبت الفتاة يدها، وأشارت إلى الظلام قائلة "هناك تمساح في هذه الصدرية الخشبية".

ابتسم خليفة قائلا "هل هذا صحيح؟" وتذكر حينها عندما كان صغيرا، واعتقد أن هناك طنينا أسفل سرير والديه، سألها خليفة "وكيف عرفت ذلك؟"

تجاهلت الفتاة السؤال، وقالت "إنه أخضر، ويخرج ليلا ليأكل الناس".

كانت الفتاة هزيلة الجسد، ومنكمشة الخصر، حيث اعتقد خليفة أنها فتاة مشردة، أرسلها أهلها للبحث عن شيء تقتات عليه. أزاح خصلة من الشعر من فوق جبينها شاعرا بالأسى لأجلها. تعجب خليفة في نفسه: لا شك أن هؤلاء المتطرفين يحصلون على دعم كبير لا لشيء سوى لأنهم يفكرون في مساعدة هؤلاء الأشخاص على الرغم من انتهاجهم طرقا غير مقبولة.

نهض خليفة على قدميه، وسأل الفتاة "هل تحبين الحلوى؟"

لأول مرة أعارته الفتاة إنتباهها الكامل، وأجابت "نعم".

"انتظري هنا دقيقة".

تـوجَّه خلـيفة لكـشك الحلوى أمام المحل، واشترى لها قطعتين، وعندما عاد، وجدها قد دخلت المحل، فأعطاها الحلوى، وأخذت الفتاة تأكلها.

سألت الفتاة "هل تعرف ماذا بداخل هذا المصباح النحاسي".

"لا".

"جنـي، يـوجد بداخله جني يسمى الغول يبلغ عمره عشرة ملايين عام، ويمكنه الـتحول إلـى أشكال كثيرة، وعندما أتى الرجال إلى هنا، طلبت منه مساعدة إكبار، ولكـنه لـم يفعل". قالت الفتاة هذه الجملة ببراءة شديدة، حتى أن خليفة لم يدرك على الفور مدى أهميتها. وضع خليفة يده برفق على كتف الفتاة، وأدارها ناحيته.

"هل كنت هنا عندما أتى هؤلاء الرجال وآذوا إكبار؟"

كانـت الفتاة منشغلة بالحلوى في يديها ولم تجب. بدلا من الضغط عليها، تركها خليفة حتى تنتهي من الحلوى.

بعد أن انتهت الفتاة من الحلوى، سألته مرة أخرى "ما اسمك؟"

"خليفة، وما اسمك أنت؟"

"مايا".

"ياله من اسم جميل".

أخذت الفتاة تنظر إلى قطعة الحلوى الأخرى، وسألته "هل يمكنني الاحتفاظ بهذه القطعة؟"

"بالطبع".

تـوجَّهت الفـتاة خلـف المنضدة، وأخرجت قطعة ورق شفافة، ووضعتها حول الحلوى، ثم داخل جيبها.

"هل تودّ رؤية شيء ما؟"

"نعم".

"حسنا، أغمض عينيك".

أغمض خليفة عينيه، وسمع الفتاة وهي تسرع إلى الغرفة في مؤخر المحل.

"افتحهما الآن".

فتحهما، وإذا بالفتاة قد اختفت.

انتظـــر خليفة لوهلة قبل أن يتوجَّه ببطء إلى الغرفة، وهو ينظر يمينا ويسارا في الظلام، حتى رأى رأس الفتاة خلف إحدى السلال.

"إنه مكان رائع للاختباء". ثم أمسك بها.

نظـــرت إليه الفتاة مبتسمة حتى تلاشت الابتسامة تماما، وحل محلها بكاء مرير، وجـسدها الهـــزيل يرتعش بشدة. أخذها خليفة بين ذراعيه قائلا "اهدئي يا عزيزتي، اهدئي يا مايا، كل شيء سيكون على ما يرام".

حملهـــا خلـــيفة على كتفه، وأخذ يتجول بها في المكان مرددا أغنية كانت والدته ترددها له في صغره.

أخيرا، أخذت الرعشة في الفتور، وبدأت الفتاة تتنفس بشكل طبيعي.

"هل كنت مختبئة خلف السلال، عندما أتى هؤلاء الرجال وآذوا إكبار؟"

أومأت الفتاة برأسها إيجابا.

"هل يمكنك إخباري عنهم؟"

صـــمتت الفـــتاة لمـــدة طويلة، ثم قالت "كان هناك ثلاثة رجال". ثم صمتت مرة أخرى، وقالت بعدها "أحدهم به ندبة في جبينه".

ابـــتعدت الفـــتاة قليلا عن خليفة، وقالت وهي تشير إلى جبهة خليفة "هنا، وكان الرجل الآخر يبدو كعملاق كبير أبيض البشرة ووجهه مضحك".

"مضحك؟"

"أقـــصد أنـــه أرجواني اللون من جهة وأبيض من جهة أخرى، وكان معه شيء يـــشبه السكين ضرب به إكبار. والاثنان الآخران كانا يمسكان بإكبار، وأخذت أرجو الغول أن يأتي ويساعده، ولكنه لم يأتِ".

أخـــذت الفـــتاة تتحدث بسرعة، وهي تروي القصة، وكيف أخذ الرجال يسألون إكـــبار العديد من الأسئلة، وكيف قتلوه بعد أن أخبرهم بكل شيء، ومدى الرعب الذي شـــعرت بـــه بعد رحيلهم لوجود أشباح في المحل، ولهذا هرولت إلى منزلها دون أن تخبر أحدا، لأن والدتها لو علمت أنها كانت تجلس مع إكبار بدلا من استجداء الأموال من المارة لضربتها ضربا مبرحا.

استمع خليفة إلى الفتاة بهدوء، تاركا إياها تسرد القصة بحسب كلماتها البسيطة، محـــاولا الربط بين ما تقوله من معلومات مشتتة. بعد أن توقفت فجأة وسط جملة دون أن تكملها، وكأنها لعبة قد نفد الشحن الخاص بها، رفعها خليفة على المنضدة، وأخرج منديلا، ومسح دموعها وأنفها، وبدأت الفتاة تأكل قطعة الحلوى الأخرى.

"أرجو ألا تحزني لما فعله الغول، فأنا واثق أنه كان يريد المساعدة، ولكنه لم يستطع الخروج من المصباح، فلابد من فرك المصباح أولا حتى يخرج الجني".

تجهمت الفتاة، وهي تتلقى هذه المعلومة، ثم ابتسمت وكأنها بدأت تثق بخليفة.

سألت الفتاة "هل نفرك المصباح الآن؟"

"نعم يمكننا ذلك، ولكن لا بد أن تدركي أنك لا يمكنك استدعاء الجني سوى ثلاث مرات فقط، ولذا لا تستدعيه إلا في حالات الضرورة فقط، أليس كذلك؟"

"بلى". ثم قالت الفتاة بعد قليل من التفكير "أنت تعجبني".

"وأنت أيضا يا مايا، فأنت فتاة شجاعة".

سكت خليفة لوهلة قبل أن يقول "هل يمكنني الاستفسار عن شيء يا مايا؟"

لم تجب الفتاة على الفور، بل استمرت في أكل الحلوى، وهي ترفع قدميها وتنزلهما على جانب المنضدة.

"إنني أريد القبض على هؤلاء الرجال الذين قتلوا العم إكبار، وأعتقد أنك يمكنك مساعدتي، أليس كذلك؟"

"بلى".

صعد خليفة، وجلس إلى جوار الفتاة التي التصقت به.

"لقد قلت إن هؤلاء الأشرار كانوا يريدون شيئا من إكبار هل تذكرين ما هو هذا الشيء؟"

فكّرت الفتاة لوهلة، ثم هزت رأسها دلالة على تذكرها.

"هل تذكرين ما قاله إكبار لهؤلاء الأشرار؟"

لقد قال "إنها بيعت".

ولمن باعها، أتذكرين؟

فكّرت الفتاة، ثم رفعت رأسها معتذرة عن الإجابة.

"حسنا، لا عليك، فأنت تبلين بلاء حسنا".

كان خليفة يرغب في مساعدة الفتاة على التذكر، كان يعطيها بعض مفاتيح الإجابة لتنشط ذاكرتها.

ظلّ خليفة يسترجع الحوار الذي دار مع محمد عبد التواب، وقرر محاولة قطع شوط طويل في هذا الأمر.

"هل قال إكبار إنه باعها لرجل إنجليزي؟"

هزت الفتاة رأسها متعجبة.

"هــل باعها لرجل إنجليزي يعمل في مكان يسمى سقارة؟" قال كلمة سقارة حرفا حــرفا. سكتت الفتاة لوهلة قبل أن تهز رأسها مرة أخرى متعجبة. وعندها قرر خليفة تغيير طريقته في الحديث.

"مايا، هل تذكرين قدوم رجل إلى المحل منذ بضعة أيام؟"

كــان خلــيفة قــد رأى البروفيــسور مولراي في بعض المحاضرات بالجامعة الأمريكية منذ عدة سنوات، وحاول الآن وضع صورة للرجل في مخيلته.

"إنــه رجــل طــويل يــا مايا وعجوز ذو شعر أبيض، ويضع نظارة مستديرة ومضحكة و...".

قاطعته الفتاة قائلة "ويستطيع إخفاء إبهامه، إنه رجل مضحك".

كــان البروفيــسور مولراي قد حضر إلى المحل منذ بضعة أيام، وأخذ يداعب الفــتاة، بيــنما كان إكبار يبحث عن شيء ما بالخلف، حيث سألها "هل تريدين رؤية خدعة سحرية؟"

"نعم".

فلعب معها لعبة إخفاء الإبهام مما أثار ضحك الفتاة الصغيرة.

"وهل اشترى شيئا من إكبار؟"

"نعم، صورة".

"صورة؟"

أخــذت الفتاة ترسم بطرف إصبعها، ورسمت مربعا فوق سطح المنضدة، وقالت "كانت الصورة على هذا النحو". وراحت ترسم ثعابين وأشكالا.

أشــكال؟ أخــذ خلــيفة يفكّر، ربما تكون رموزا هيروغليفية، قطعة أثرية عليها رموز هيروغليفية.

اســتأنفت الفتاة "وقد ساعدت العم إكبار في لف الصورة، ووضعها في صندوق، فغالبا ما كنت أساعده في لف الأشياء".

تابعت الفتاة تناول الحلوى، بينما خليفة يجول في المحل جيئة وذهابا.

راح خلــيفة يفكّر في كيفية ربط الأحداث ببعضها: أتى ناير إلى القاهرة، وباع بعــض القطع لإكبار، ثم اشترى مولراي قطعة من إكبار، وأخذها معه إلى سقارة، ثم لقــي نايــر مصرعه، وكذلك إكبار، بينما مات مولراي جراء أزمة قلبية، وهي ربما تكون أحداثا متزامنة وربما لا، بعد ذلك أتت ابنة مولراي إلى سقارة، وأخذت القطعة الأثرية في الوقت الذي حاول فيه بعض الأشخاص إيقافها.

بدلا من أن تتّضح الأمور، وجدها خليفة تزداد تعقيدا، فماذا كان مولراي يفعل بهذه القطع الأثرية المسروقة؟ وما الذي حدث بالضبط في سقارة ليلة أمس؟ وكيف تورطت ابنة مولراي في ذلك؟

القطعة الأثرية، لا شك أنها مفتاح كل ذلك، لماذا يرغب الجميع في العثور عليها؟ ما هي هذه القطعة؟ ما هي؟

استدار خليفة نحو الفتاة، وهو يدرك تماما أنه لا فائدة من سؤالها عن الصورة مرة أخرى، فمن الواضح أنها أخبرته بكل ما تعرفه، والشيء الوحيد الذي ربما تكون على دراية به هو القطع الأثرية الأخرى التي أخذها إكبار من ناير والتي ربما لاتزال في المحل.

سألها خليفة برفق "مايا هل لدى العم إكبار مخبأ يضع فيه الأشياء المهمة؟"

لم تجب الفتاة، وتجنبت أن تلتقي عيناها بعينيه، ولكن بدا عليها أن لديها إجابة عن السؤال.

"أرجوك، ساعديني يا مايا. لا بد أن العم إكبار كان ليطلب منك إخباري بذلك". أمسك خليفة بيدها، وقال لها "لو لم تخبريني، فلن أتمكن من القبض على هؤلاء الأشرار".

صمتت الفتاة لوهلة، ثم نظرت إليه.

"هل تعطيني مصباح الجني لو أخبرتك بمكان المخبأ؟"

ابتسم خليفة، وأنزلها من فوق المنضدة إلى الأرض.

"إنها صفقة عادلة بالنسبة لي، أريني مكان المخبأ، وسأعطيك مصباح الجني".

قفزت الفتاة فرحة، وأخذت بيد خليفة، وتوجهت إلى الغرفة في مؤخر المحل.

"أنا الشخص الوحيد في العالم الذي يعرف هذا المكان". ارتفعت الفتاة لتصل إلى التمثال الخشبي في جانب الغرفة "ائلة "حتى الأشباح لا تعرف هذا المكان، إنه سرّ".

كان التمثال أسود، ذا رأس وزينة وصندل ذهبي فضلا عن قبعة ذهبية أيضا. وضعت الفتاة يدها في أسفل القبعة، وضغطت عليها، فصدرت طقطقة، وانفتح جارور صغير ببطء، فأخرجته الفتاة من مكانه، ووضعته على الأرض، وعادت إلى التمثال مرة أخرى، وبعناية شديدة أدارت أحد أصابعه، فظهرت فجوة، أخرجت منها مفتاحا معدنيا صغيرا، أدخلته في خزانة بالجارور، وأدارته مرتين، فانفتحت الخزانة.

"أليس رائعا؟"

انقسم الجارور إلى خزانتين في إحداهما أموال وبعض الوثائق القانونية وعبوة مليئة بمعدن الفيروز، أما الخزانة الأخرى فاحتوت على قطعة قماش مربوطة ففتحها خليفة، ووجد بداخلها شيئا أدهشه تماما.

كان بداخلها سبع قطع أثرية: خنجر حديدي على مقبضه جلد خشن، وتعويذة فضية على شكل عمود، وصدرية ذهبية، وعبوة مرهم مصنوعة من مادة التراكوتا تحمل وجه المعبود القزم بس، وثلاثة أشكال أثرية أخرى. تفحص خليفة هذه القطع الأثرية الواحدة تلو الأخرى، ثم استدار نحو الفتاة، فوجدها قد اختفت.

نادى خليفة على الفتاة دون أدنى إجابة منها، فقد اختفت الفتاة، وأخذت معها المصباح النحاسي، فتوجَّه إلى خارج المحل يبحث عنها فلم يجد لها أثرا.

"الوداع يا مايا أسعد الله أوقاتك".

الأقصر

كان سليمان نائما على سجادة في ظل دورة المياه، عندما سمع صوت خطوات داخل دورة المياه.

عادة، كان الرجل ينهض واقفا عند سماعه مثل هذا الصوت ليرى ما إذا كان هذا الشخص يحتاج إلى مناديل ورقية للحمام، وأيضا ليحصل على الإكرامية متى أمكن ذلك. لكن حرارة الظهيرة جعلته يظل في مكانه ورأسه فوق ذراعه وصوت وقع الأقدام يأتي من أعلى، غير أنه لم يشعر بأي شيء غريب. كان هناك صوت يشبه رش المياه، فاعتقد سليمان أن أحد الزائرين يسكب بعض المياه ليطهر المكان، على الرغم من أنه يحافظ عليه نظيفا دوما، ولكن بعض السائحين وخاصة الألمان يحتاطون لذلك، ويسكبون بعض المياه للتأكد من نظافة المكان.

شمّ سليمان رائحة بنزين، وسمع صوت شيء ألقي من دورة المياه على الرمال المجاورة. نهض الرجل على قدميه، وقال "من هناك؟" ولكن ضربة قوية من خلفه جعلته يرتطم بدرجات السلم الحديدي. حاول النهوض فإذا بشخص يمسك به من أعلى، وآخر يمسك به من الأسفل وهو لا يستطيع الحراك، فضلا عن أن رائحة البنزين جعلته يتقيأ.

قُيِّد هناك بماسورة، فإذا بشيء صلب يلتف حول يده ثم حول الماسورة.

"الآن اسكبوا عليه البنزين".

قام المجرمون بسكب البنزين على وجهه وجلبابه، فحاول التملص، ولكن القيد

كان أقوى منه. أخذت عيناه وفمه يؤلمانه من أثر البنزين عليهما، فلم يستطع رؤية المجرمين، ولكنه لم يكن بحاجة لرؤيتهم على كل حال، فهو يعرفهم.

توقف المجرمون عن سكب البنزين، وألقوا الوعاء بعيدا في الرمال، ثم قفزوا من فوق السلم، وخيّم الصمت لوهلة قبل أن يسمع سليمان صوت عود ثقاب يشتعل، لم يشعر الرجل بالخوف وإنما شعر بالغضب والأسى على أسرته، فمن سيتولى أمرهم بعده؟

"عليك اللعنة أيها الخائن، هذا جزاء من يُدلي بمعلومات عن سيف الثأر!"

ساد الصمت لفترة قبل أن يسمع سليمان صوت لهيب يتجه نحوه من الأرضية الخشبية المشتعلة.

"رحمكم الله وعفا عنكم".

لم يمضِ إلا وقت قليل حتى التهمته النيران، ولم يتبقَ منه سوى صرخات الألم.

القاهرة

بعد ساعة من مغادرته محل إكبار، كان خليفة يجلس أمام كريسبن أوتيس بمكتبه في السفارة البريطانية. لم يهتم خليفة بالاتصال قبل الذهاب لتحديد موعد، وإنما توجه مباشرة إلى السفارة. لم يكن أوتيس سعيدا بهذا اللقاء، ولكن لم يكن أمامه خيار آخر سوى السماح للمحقق بالدخول إلى مكتبه، وعمل جاهدا على عدم مساعدته، ولكن بأدب إنجليزي جم.

سأله خليفة "ألا تعلم أين ذهبت تارا مولراي؟"

"لا يا سيدي، ليست لدي أدنى فكرة، فكما أوضحت لك منذ دقائق قليلة أنا لم أعرف عنها شيئا منذ غادرت مكتبي بعد أن اصطحبتها من الفندق منذ يومين".

لاحظ أوتيس أن خليفة على وشك إشعال سيجارة، فسارع قائلا "يؤسفني القول إن التدخين في هذا المكان ممنوع". فوضع خليفة السجائر في جيبه مرة أخرى متكئا قليلا للأمام والقطع الأثرية التي أخذها من متجر إكبار تثقل جيوبه.

"هل كانت الآنسة مولراي تتصرف بغرابة؟"

"الآنسة مولراي؟ ما الذي تعنيه بالتصرف الغريب؟"

"أقصد هل بدت مشغولة البال؟"

"لقد عثرت على جثة والدها، وأعتقد أن أي شخص سيبدو مشغول البال في مثل هذه الحالات، أليس كذلك؟"

"إن ما أقصده هو... سامحني على ضعف لغتي الإنجليزية... ولكن...".

"علـــى العكـــس يـــا ســـيدي، إن لغتك الإنجليزية رائعة وأفضل كثيرا من لغتي العربية".

"ما أقصده هو: في المرة الأخيرة التي رأيت فيها الآنسة مولراي، هل بدا وكأنها تعاني من مشكلة، وكأنها خائفة؟ أو أنها تحت التهديد؟"

أجاب أوتيس "لا، حسبما رأيته منها فهي لم تكن تعاني أيا من هذه الأشياء، وقد أخبـــرت رجال شرطة الجيزة بكل ذلك، وإنه ليسعدني التعاون معك، ولكنني أشعر أن هذا تكرار لا طائل منه".

أجاب خليفة "اعذرني، وسأحاول ألا أضيع وقتك".

اســـتمر خلـــيفة جالـــسا مع الرجل لعشرين دقيقة أخرى، وكلما سأله مزيدا من الأسئلة تأكد أنه يخفي شيئا، ولكنه يجهل السبب وراء ذلك. أخيرا، قرر خليفة الذهاب لأنه لن يحصل على مزيد من المعلومات، فأبعد الكرسي، ونهض واقفا.

"أشكرك يا سيد أورتيس وأعتذر عن مضايقتك".

"لا علـــيك يا سيد خليفة، كان ذلك من دواعي سروري، ولكن اسمي هو أوتيس وليس أورتيس".

"بالتأكيد، أعتذر عن خطئي".

تصافح الرجلان بحرارة، وتوجَّه خليفة ناحية الباب. ولكن، بعد خطوتين توقف، وأخرج مفكرته، وتصفحها حتى وصل إلى صفحة شبه فارغة.

"سؤال أخير، هل هذا يعني أي شيء لك؟"

أظهر خليفة صفحة بها مربع، كانت قد رسمته الفتاة في محل إكبار يحتوي على بعـــض الـــرموز الهيـــروغليفية وصف من الثعابين، نظر أوتيس إلى الصفحة وتجهم وجهه!

"لا، لا أدري ما هذا".

قال خليفة في نفسه يالك من كاذب.

نظر خليفة إلى عيني أوتيس لوهلة، ثم أغلق مفكرته، وأعادها إلى جيبه.

استأنف خليفة قائلا "محاولة فاشلة أخرى، أشكرك على مساعدتك يا سيد أوتيس".

قال أوتيس "أشعر أنني لم أقدم أي مساعدة تذكر".

"لا، على العكس، لقد قدّمت لي معلومات رائعة".

ابتسم خليفة، ثم خرج من الباب.

كان تشارلز سكويرز جالسا في مكتبه يستمع إلى جهاز الاتصال الداخلي، ويتابع الحـــوار بين خليفة وأوتيس. ظل الرجل هادئا لبضع دقائق محدقا بالسقف، وتبدو على وجهـــه أمـــارات الـــتجهم، ثـــم ما لبث أن رفع سماعة الهاتف، واتصل بسرعة بأحد الأرقـــام، وبعد ثلاث رنات رفع الطرف الآخر السماعة، وتحدث سكويرز قائلا "أعتقد أننا في مشكلة يا جمال".

24

الأقصر

وصل الاثنان إلى الأقصر بعد أن قطعا المسافة في حوالى عشرين ساعة، وهو ما كان يمكن أن يختصراه إلى ثلث الوقت، غير أن دانيل أصر على الاحتياط وسلوك طرق غير مألوفة لتجنب المرور بوسط مصر.

قال دانيل لتارا "إن بني سويف مليئة بأتباع سيف الثأر، ولن نتنفس هناك دون أن يعـــرف ذلك، فضلا عن وجود نقطة تفتيش في كل مفترق طرق، ومن المفترض ألا يسافر الأجانب دون حماية، ولذا كانوا سيوقفوننا بعد عشرة كيلومترات فقط".

بدلا من الذهاب إلى الجنوب مباشرة كما يفعل كل المسافرين واتباع الطريق السريعة بمحاذاة نهل النيل ثم التوجه نحو الأقصر، اتجه دانيل إلى شرق الواسط عبر الصحراء.

قال دانيل لتارا "سنعبر البحر الأحمر طبقا للخريطة التي أمامنا، ثم نسير بمحاذاة جـــنوب الساحل إلى القصير، ثم نعود أدراجنا برا، ونعبر النيل مرة أخرى من خلال بلـــدة قـــوص الواقعة في شمال الأقصر، وبهذه الطريقة نتجنب المنطقة الوسطى التي تنتشر فيها الأعين الساعية إلى مراقبتنا".

أجابت تارا "أعتقد أنها طريق طويلة".

"نعـــم، إنهـــا كـــذلك، ولكن هناك العديد من الفوائد، منها على سبيل المثال أننا سنصل إلى الأقصر حيَّيْن".

علـــى الـــرغم من هذه الظروف القاسية إلا أن تارا استمتعت بالرحلة كثيرا، فلم يكن هناك ازدحام مروري كثيف، وكان دانيل يسير بسرعة 140 كيلومترا في الساعة. انـــزوت الـــشمس خلفهما، وحلّ الظلام فجأة، وأصبحا بمفردهما في الصحراء حيث الهواء العليل البارد وفوقهما نجوم كثيرة.

صرخت تارا "يا له من منظر جميل! أنا لم أرَ كل هذه النجوم من قبل".

أبطأ دانيل قليلا، وقال "اعتقد المصريون القدماء أن هذه النجوم ابنة المعبود نت إلـه المساء حيث يمدها بالحياة كل ليلة، ويأخذها منها بحلول النهار، وكانوا يعتقدون كذلك أنها أرواح الموتى تنتظر في الظلام حتى يعود رع إله الشمس".

أحكمـت تـارا يـديها حول خصر دانيل، وفجأة نسيت كل ما حدث على مدار اليومين السابقين.

نزل الاثنان في غرفة صغيرة بإحدى قرى الصيد المجاورة للبحر، ذات سريرين ونافذة تطل على البحر.

غـرق دانـيل فـي نوم عميق على الفور، بينما ظلت تارا مستيقظة حتى وقت متأخـر تستمع إلى صوت البحر، وتحدق بوجه دانيل الذي ينعكس عليه ضوء القمر، وجبهـته المتأثـرة بحرارة الشمس، والتي يبدو عليها بعض التجاعيد التي توحي بأنه يفكر في أشياء غير مريحة، بينما أخذ يهذي ببعض الكلمات. انحنت تارا قليلا تجاهه لتسمع ما يقول، فوجدته يردد كلمة ماريا، فشعرت بالضيق والحزن، وأخذت تنظر من النافذة.

لـم تقـل تارا كلمة واحدة عن ذلك في الصباح التالي، وبعد أن تناولا فطورهما بسرعة، استمر الاثنان في سيرهما جنوبا مع بزوغ الفجر، حيث مرا بالغردقة وميناء سفاجا والحمراوين حتى وصلا أخيرا إلى القصير، وتوجها غربا مرة أخرى والرياح تصفع وجهيهما، والصحراء إلى جانبيهما. استمر دانيل في سيره بأقصى سرعة، بينما كانـت تـارا تخبـئ وجهها حيث ينتابها خوف من ألم الشعور بالفرقة بعد نهاية هذه الرحلة.

وصـل الاثـنان إلى قوص عند الساعة الثانية ظهرا، وإلى غرب الأقصر بعد نصف ساعة. ومع ازدحام الشوارع بالسيارات والأشخاص من حولهما، وضعت تارا رأسها على ظهر دانيل وكأنها تخلصت من عبء كبير كان يؤرقها.

سألت تارا مع دخولهما إلى مرآب صغير عند أطراف المدينة "ماذا سنفعل الآن؟!"

"سنذهب إلى عمر".

"عمر؟"

"إنه صديق قديم لي، وكان رئيس العمال لدي في وادي الملوك. ومنذ مائة عام، كانـت عائلـته مـن أكثر العائلات سرقة للمقابر، أما الآن، فهي عائلة تخدم البعثات الأثرية، وتدير بعض متاجر الهدايا، وهي على دراية بما يدور في هذه الأنحاء".

"ماذا لو لم يتمكن من مساعدتنا؟"

أمسك دانيل بيدها، وقال "سيكون كل شيء على ما يرام، سنخرج من هذا المأزق، ثقي بي".

لم يبدُ دانيل مقتنعا تماما بما يقوله.

كان عمر يعيش في منزل كبير من الطوب الطيني، ملاصق تماما لبقايا قصر شهير يسمى مالقطة، وعندما وصلا كان يعمل في الحديقة، ويجمع بعض سعف النخيل، بينما كان هناك حمار يعبث في الأوراق الصفراء لهذا السعف. ما إن رآهما الرجل حتى هلّل فرحا قائلا "مرحبا دكتور، لقد مضى وقت طويل منذ لقائنا".

تعانق الرجلان، وقبّلا بعضهما، وقدّم دانيل تارا موضحا من هي.

قال عمر "لقد سمعت بما حدث لوالدك، وحزنت لذلك كثيرا، أسأل الله أن يكون في سلام الآن".

"أشكرك".

نادى الرجل على شيء ما بداخل المنزل، واصطحبهما إلى طاولة في ظل إحدى شجرات الموز.

"لقد قمت بحفريات كثيرة مع دكتور دانيل لسنوات عديدة، وعملت كذلك مع علماء آثار آخرين، ولكن دكتور دانيل هو الأفضل على الإطلاق، فلا أحد يعرف وادي الملوك مثله".

أجاب دانيل "عمر يقول ذلك لكل من يقابله".

غمز المصري بعينه قائلا "ولكنني أعني ما أقوله يا دكتور".

ظهرت فتاة جميلة من المنزل، وبيدها ثلاث زجاجات من مشروبهم المفضل، وضعتها على الطاولة، ثم نظرت إلى دانيل، وأسرعت عائدة للمنزل.

أوضح عمر "إنها ابنتي الكبرى، وقد تلقت عرض زواج من شابين ينتميان لعائلتين كبيرتين هنا، ولكنها لا ترغب في الزواج سوى من شخص واحد فقط". قالها وهو يومئ إلى دانيل.

علّق دانيل "تناول مشروبك اللعين، واصمت يا عمر".

تجاذب الاثنان أطراف الحديث لوهلة، قبل أن تظهر الفتاة الجميلة مرة أخرى، وبيدها وعاء به حساء من العدس، وبعد أن انتهيا منه، أحضرت لهما دجاجا مشويا وأرزا وملوخية.

بعد ذلك، خرجت زوجة عمر ومعها الشيشة، حيث وضعتها بين الرجلين، ورحلت مباشرة بعد أن شكرها دانيل وتارا على هذا الطعام الشهي.

استطرد عمر وهو ينفث الدخان من أنفه قائلا "أنت هنا لسبب ما يا دكتور دانيل فالأمر لا يقتصر على زيارة صديق فقط، أليس كذلك؟"

ابتسم دانيل، وقال "لا يمكن إخفاء شيء عن آل الفاروق".

"لقد عملت عائلتي مع علماء آثار إنجليزيين لما يزيد عن مائة عام، فجدي الأكبر عمل مع بتري، والذي يليه عمل مع كارتر، ثم عمل عمي مع بندلبري في منطقة العمارنة، وبالتالي نحن نعرف الإنجليز تماما". مرر الرجل الشيشة إلى دانيل، وقال له "حسنا أخبرني يا صديقي، هل يمكنني مساعدتك بشيء، فأنت جزء من عائلتي".

صمت دانيل لوهلة ثم استدار ناحية تارا، وقال لها "أريه القطعة".

ترددت تارا لوهلة، ثم انحنت قليلا، وأخرجتها من حقيبة ظهرها، وأعطتها للرجل. فتح الرجل غطاء الصندوق، وأمسك بالقطعة في يديه.

قال دانيل "أعتقد أنها مستخرجة من مكان قريب من هنا، مقبرة أو ما شابه. هل رأيتها من قبل؟ هل تعرف أي شيء عنها؟"

لم يجب عمر على الفور، وإنما قلّب القطعة في يديه، حتى أعادها مرة أخرى إلى الصندوق، وأغلق الغطاء.

أخيرا، سأل الرجل "من أين حصلتِ عليها!"

"اشتراها والدي لي". ثم سكتت تارا قليلا قبل أن تستطرد قائلة "إنها قطعة يريدها سيف الثأر، وكذلك بعض الرجال في السفارة البريطانية".

شعرت تارا أن دانيل لم يكن سعيدا بهذه الإضافة، وكأنه لم يرغب في ذكرها لذلك.

أومأ عمر برأسه، ثم أخذ الشيشة مرة أخرى، وأخذ منها نفسا ببطء، وقال "ألهذا السبب قطعتما كل هذه المسافة من القاهرة؟"

أجاب دانيل "نعم اعتقدنا أنه من الأفضل لنا تجنّب وسط مصر. أنت تعرف شيئا يا عمر أليس كذلك؟"

نفث المصري سحابة كبيرة من الدخان، وكأنه يفكر في الأمر.

"بالأمس استدعتني الشرطة للتحقيق معي. لم يكن الأمر غريبا، حيث إنّه وبعد كل جريمة آثار تحدث هنا تقوم الشرطة باستدعائنا على الفور، على الرغم من تأكيدنا لهم أننا لم نعد نتاجر في هذه الأشياء، ولكنهم لا يقتنعون، ويستدعوننا مرة تلو الأخرى.

هــذه المرة على وجه التحديد كانت مختلفة يا دكتور، فلم يسألوني أسئلة سخيفة كالمعــتاد، وإنمــا كانــت هناك جريمة قتل راح ضحيتها أحد أبناء القرية، وقد اعتقد المحقــق أنه ربما يكون قد اكتشف مقبرة، وأخذ منها بعض الأشياء، مما أثار غضب بعض الأشخاص ممن لهم سطوة. وكان المحقق يريد معرفة إذا ما كنت أعلم شيئا عن ذلك".

انحنى المصري للأمام قليلا، وهو ينفخ في حجر الشيشة، وقال "لم أخبر الشرطة بــشيء طــبعا فهم ملعونون. في الحقيقة، لقد سمعت بعض الأشياء عن مقبرة جديدة هناك في أعلى التل، ولا أدري مكانها بالضبط، ولكنها مقبرة كبيرة، ويقول البعض إن سيف الثأر يريد الحصول عليها مهما كلفه الأمر".

قال دانيل "أعتقد أن هذه القطعة جزء منها؟"

"ربما نعم وربما لا، لا أعرف. فكل ما يمكنني قوله هو أنها لو كانت جزءا منها فأنتما في خطر كبير، فليس من السهل الوقوف بوجه سيف الثأر".

أخذت عينا الرجل تتنقل جيئة وذهابا من دانيل إلى تارا، بينما توقف الحمار عن العــبث فــي ورقات السعف الصفراء، وتوجّه ليشمّ أحجار الفرن الطيني الموجود في جانب المنزل، وخيّم صمت طويل على المكان.

قطع دانيل هذا الصمت قائلا "أريد معرفة من أين أتت هذه القطعة، ونودّ معرفة لماذا هي مهمة هكذا، أرجوك ساعدنا يا عمر".

لــم يــنطق المصري بأي كلمة، وإنما ظل ينفث دخان الشيشة، ثم وقف ببطء، وعــاد إلى منزله، حيث اعتقدت تارا لوهلة أن وقتهما انتهى معه، ولم يعد يرغب في وجودهما، ولكن ما لبث أن عاد مرة أخرى.

"بالطبع سأساعدك يا دكتور دانيل فأنت صديقي، وعندما يطلب صديق المساعدة لا يمكــن لآل الفاروق خذلانه. سأقوم ببعض التحريات، ولحين الانتهاء منها ستحلان ضيفين عليّ هنا".

أمسك الرجل بذراع دانيل، وأشار إليهما بالدخول إلى المنزل.

25

القاهرة

تمنى خليفة لو أن لديه مزيدا من الوقت ليقضيه في هذا المكان الجميل، حيث دخل بهو المتحف المصري، ونظر إلى سقفه المكسو بالزجاج وإلى التماثيل المنتشرة في المكان. كان قد مضى على آخر زيارة له للمتحف عامان، وأحب إلقاء نظرة خاطفة على المكان، والتمعّن في القطع الأثرية المفضلة لديه مثل التوابيت الخاصة بيويا وتجوجو، وكنوز توت عنخ آمون، والتمثال الجيري المزين للمعبود القزم سينيب.

مضى الوقت سريعا، وكان يتوجّب عليه الرحيل بقطار الظهيرة. لذا استدار إلى اليسار مارا بمكان العرض المخصص للمملكة القديمة وبعض الآثار الأخرى، ولكنه قاوم كل هذه الإغراءات، ومضى في طريقه سريعا.

في أعلى السلم، فتح خليفة بابا مكتوبا عليه خاص، وصعد سلما آخر، لكنه من الخشب هذه المرة، وسار في ممر طويل ضيق، حتى وصل إلى باب مكتوب عليه البروفيسور محمد الحبيب، فطرق الباب، وإذا بصوت يقول "ادخل".

كان أستاذه القديم منحنيا فوق مكتبه وظهره مواجهاً للباب، بينما كان يتفحص شيئا ما بالعدسة المكبرة.

أغلق خليفة الباب، وهو ينظر بشغف إلى ظهر أستاذه، مدركا تماما أن شيئا لن يصرف انتباهه عمّا يتفحصه. فعندما يكون الحبيب عاكفا على فحص قطعة أثرية، فلن ينتبه حتى لو مرّ بجواره قطيع من الفيلة.

كان الأستاذ على نفس هيئته القديمة. رجل ممتلئ الجسم، يرتدي سترة من الصوف، وبنطال جينز قصيرا إلى حدٍّ ما، غير أن كتفيه أصبحتا أكثر تحدبا، ورأسه

الأصـــلع أكثـــر تجعدا، ولم يكن ذلك مستغربا، لأنه وصل إلى الخامسة والثمانين من عمره.

تذكّــر خلــيفة الــيوم الذي التقيا فيه هو وعلي بالبروفيسور الحبيب، منذ خمسة وعـــشرين عاما في المتحف. فبينما كانا واقفيْن أمام منضدة من المرمر، يتجادلان عن ماهيتها، إذا به يقف ويخبرهما بماهية المنضدة.

حظـــي الرجل بإعجاب الولدين على الفور، لظهوره المفاجئ أمامهما، وأسلوبه الـشيق فـــي الحـــديث، وحديثه عن المنضدة وكأنها كائن حي، وليست مجرد جماد. وبـــدوره، كان البروفيسور معجبا باهتمام الولدين بالتاريخ بالرغم من كونهما فقيرين، وأخيرا كما عرف خليفة بعد ذلك فإن علي كان في نفس سن ابن البروفيسور الذي لقي مصرعه في حادثة سيارة قبل عدة أعوام.

بعـــد ذلك أصبح البروفيسور هو المرشد غير الرسمي لهما، حيث كانا يلتقيان به كل نهار جمعة عندما يزوران المتحف لساعة أو ساعتين، وبعد ذلك كان الرجل يذهب ويـــشتري لهما مشروبين وقطعتين من الحلوى وهو ما تحول بعد ذلك إلى وجبة غداء دسمة في منزل البروفيسور بصحبة زوجته التي كانت ممتلئة الجسم أكثر منه. وكثيرا مـــا كـــان يعيرهما كتبا، ويجعلهما يتعاملان مع القطع الأثرية، ويسمح لهما بمشاهدة الـــتلفاز، وهو السبب الأساسي لرغبتهما في الذهاب إلى منزله، غير أنهما لم يصرحا بذلك قطّ.

إلى حدٍّ ما، كان البروفيسور يملأ الفراغ الذي خلّفه موت والدهما، وغالبا ما كان ينظر إليهما بعين الأب. وكانت فرحته بخليفة عندما حصل على مكان له في الجامعة، أكثـــر من فرحة الأب بابنه، وأكثر من صديق لصديقه، وكذلك كان البكاء المر الذي بكاه عند سماعه بما حدث لعلي.

وضع البروفيسور العدسة المكبرة، ثم استدار.

صـــرخ الـــرجل فـــرحا "خليفة". والبسمة تملأ وجهه "لماذا لم تقل أنك هنا أيها الأحمق؟"

"لم أرغب في مقاطعتك".

"أبله".

تقدم خليفة للأمام، وتعانق الرجلان.

"كيف حال زينب والأولاد".

"بخير، ويرسلون إليك تحياتهم".

"كيف حال علي الصغير، هل يبلي بلاء حسنا في المدرسة؟"

كان البروفيسور بمثابة الجد لأولاد خليفة، ويهتم للغاية بتعليمهم.

"رائع".

"كنت أعرف أنه سيكون على عكس والده، وسيكون له عقل يفكر به". استدار الرجل، وتوجَّه إلى المكتب، ورفع سماعة الهاتف قائلا "سأتحدث مع أروا، وأخبرها أنك ستتناول العشاء معنا".

"متأسف، لا يمكنني ذلك، يتعين عليّ العودة إلى الأقصر الليلة".

"أليس لديك وقت لوجبة خفيفة؟"

ضحك خليفة لأنه في منزل البروفيسور فإن الوجبة الخفيفة تعني عشرة أصناف من الطعام بدلا من خمسة.

"لا، فليس لدي وقت. إنها زيارة عاجلة".

وضع الحبيب السماعة، وقال "ستستشيط أروا غضبا لأنها افتقدتك كثيرا يا خليفة، وستلومني لأنني لم أصطحبك معي، وستقول لماذا لم تبذل معه مزيدا من الجهد، أو ربما ستقول: كان يجدر بك تخديره وإحضاره معك إلى المنزل. أنت لا تدري ما هي المشاكل التي ستواجهني يا خليفة".

"متأسف يا عزيزي، فأنا في زيارة قصيرة للغاية".

"حسنا، فلتأتِ مرة أخرى فنحن لا نراك كثيرا".

جلس الحبيب على كرسيه، وأخرج شرابه المفضل، وسكب لنفسه كوبا، بعد أن اعتذر خليفة عن مشاركته الشراب.

"انظر يا خليفة إلى المنضدة".

نظر خليفة، فوجد قصاصة من ورق البردى موضوعة على ورقة لامتصاص الحبر. كانت ورقة البردى بالية وتتكون من ستة أعمدة من الرموز الهيروغليفية السوداء، وفي جانبها ما تبقى من رسم لرأس صقر عليها رمز قرص الشمس. أعطاه الحبيب العدسة المكبرة، وقال له "انظر يا خليفة. ما رأيك؟"

كانت هذه لعبة غالبا ما لعباها في الماضي، حيث يقدم الحبيب قطعة أثرية، ويحاول خليفة تحديد كنهها. انحنى خليفة للأمام، وحدّق بالبردى.

"لم تعد قراءتي للرموز الهيروغليفية دقيقة كما كانت في الماضي، فلست بحاجة إليها في عملي بالشرطة".

نظر خليفة إلى السطور متفحصا إياها.

"إنها ورقة بردى من إحدى كتب الحياة الأخرى، أليس كذلك؟"

"جيد جدا، ولكن أي كتاب؟"

رجع خليفة ونظر إلى الورقة، وقال "كتاب أمروات". ولكن قبل أن يجيب الحبيب قال خليفة "كتاب الموتى".

"رائع يا خليفة أنا سعيد بك. ولكن هل يمكنك تحديد تاريخه؟"

سؤال صعب، فالصلوات والشعائر استمرت كما هي في كتاب الموتى منذ ظهوره في الأسرة الثامنة عشرة ولم تتغير على مدار 1500 عام. ولكن الرموز نفسها قد توحي بالتاريخ- من حيث طريقة كتابة العلامات لأنها تغيرت بمضي القرون- ولكن خليفة لم يكن خبيرا لدرجة تمكنه من ذلك. كانت المفاتيح الوحيدة لهذا السؤال هي رأس الصقر التي يعلوها قرص الشمس واسم آخر يوجد بين الرموز وهو أمنمحب.

قال خليفة "المملكة الجديدة؟"

"لماذا؟"

"بسبب وجود شكل المعبود رع - هركيتي وهو الإله المعبود في المملكة الجديدة، فضلا عن أن اسم أمنمحب هو أحد الأسماء الشائعة في المملكة الجديدة".

أومأ الحبيب برأسه إيجابا.

"أسباب مقنعة، على الرغم من أنك مخطئ. هيا حاول مرة أخرى".

"ليست لدي فكرة يا بروفيسور، ربما هي الفترة المتوسطة؟"

"لا".

"الفترة الأخيرة؟"

"لا. كان البروفيسور مستمتعا للغاية بهذا الحوار".

"هيا يا خليفة محاولة أخيرة!"

"هل هي من الحقبة اليونانية - الرومانية؟"

أخشى أنك مخطئ مرة أخرى. ربت البروفيسور على كتف خليفة، وقال له "إنها من العشرين".

"الأسرة العشرون، لكنني قلت بالفعل إنها تنتمي للملكة الجديدة".

"ليست الأسرة العشرين يا خليفة، بل أقصد القرن العشرين".

اندهش خليفة "أهي مزيفة؟ كيف ذلك؟ إنها تبدو أصلية".

ضحك الحبيب، وقال "لقد أصبح المزيفون ماهرين للغاية هذه الأيام ليس فقط في التقليد وإنما في استخدام المواد أيضا. فأصبحت لديهم طرق يستخدمونها ليجعلوا الحبر والبـــردى يبدوان وكأنهما يرجعان إلى آلاف السنين، إنها مهارة رائعة، ولكن للأسف، من العار أنهم يستخدمونها لخداع الناس".

سكب البروفيسور كوبا آخر من شرابه المفضل.

"هناك العديد من الاختبارات التي يمكنك من خلالها التعرف على ذلك، منها على ســبيل المــثال استخدام الكربون – 14 لكشف ما إذا كانت ورقة البردى أصلية أم لا، واســتخدام الميكروسكوب لتحليل الحبر. لكن في الورقة التي معنا لست في حاجة إلى استدعاء العلماء فيمكنني التعرف عليها بمجرد فحصها. اذهب وألقِ عليها نظرة أخرى يا خليفة".

انحنــى خلــيفة، وتفحّص البردى بالعدسة المكبرة مرة أخرى، ولكنه لم يجد ما يقوله، فالبردى مصنوعة بعناية فائقة.

"لقد خدعتني البردى يا بروفيسور، إنها رائعة للغاية لا يوجد بها خطأ واحد".

"بالــضبط، وهــذا هو طريقك في التعرف على زيفها. انظر إلى أي مخطوطة مصرية والجدران المزينة بالنقوش. لم تكن قطّ خالية من الأخطاء، فكثيرا ما تجد بقعة حبـــر هنا أو رمزا هيروغليفيا مطموسا هناك، أو شكلا موضوعا على نحو معاكس. فعلـــى الـــرغم مـــن الدقة، إلا أنها ليست خالية من الأخطاء وذلك على عكس القطع المـــزيفة التي دوما ما تكون خالية من الأخطاء وهذا هو السبيل الوحيد للتعرف على زيفهـــا، أن تجدها بلا أخطاء. فالمصريون القدماء لم يكونوا قطّ على هذه الدرجة من الدقة، على عكس المزيفين الذين ينتبهون لكل كبيرة وصغيرة؛ مما يتسبب في كشفهم".

أخــذ البروفيـــسور ورقة البردى، وألقى بها في القمامة، ثم جلس على كرسيه، وأخـــرج الغلـــيون، وملأه بالتبغ، وأشعله بينما أشعل خليفة سيجارة، وأخرج من جيبه القطع الأثرية التي أخذها من متجر إكبار، ووضعها على المكتب أمام الحبيب.

ابتـــسم خليفة، وقال "حسنا، دورك الآن يا بروفيسور. ما الذي يمكنك إخباري به عن ذلك؟"

نظـــر الحبيب إلى القطع من خلال سحابات الدخان الزرقاء، وتجهّم وجهه أمام القطـــع الـــسبع التي أحضرها خليفة من متجر إكبار. انحنى البروفيسور قليلا، ومرر يديه المجعدتين برفق فوقها، وكأنه يحاول طمأنتها، ويكسب ثقتها.

"رائع، رائع يا خليفة من أين أتت هذه الأشياء؟"

"هذا ما أنتظر أن تخبرني به".

صبّ البروفيسور تركيزه على القطع مرة أخرى، وأضاء المصباح إلى جواره، والتقط العدسة المكبرة، وأخذ يرفع قطعة تلو الأخرى، ويتفحصها والأنسجة الحمراء في عينيه تبدو ضخمة من وراء العدسة المكبرة. خيّم الصمت على المكتب باستثناء رجع صدى أنفاس البروفيسور.

بعد خمس دقائق، سأل خليفة "ما رأيك يا بروفيسور؟"

وضع البروفيسور القطعة التي كان يتفحصها، ثم قضى دقيقة يعيد ملء غليونه مرة أخرى، وبدت على وجهه أمارات السعادة، وكأنك سألت شخصا: ما هو هذا المشروب، وبعد أن شرب منه عرفه عن ثقة.

أجاب البروفيسور "الاحتلال الفارسي".

رفع خليفة حاجبيه قائلا "الاحتلال الفارسي؟"

خيّم الصمت لوهلة، ثم قال خليفة "الأول أم الثاني؟"

"يا لك من شخص عنيد، لن تدعني أفلت بها، أعتقد أنه الاحتلال الأول، ولكن لا يمكنني ذكر تاريخ محدد باستثناء أنه في الفترة ما بين 525 و404 قبل الميلاد، وبالنسبة لتماثيل حراس المعبد، فأعتقد أنها من فترة لاحقة".

"فترة لاحقة؟"

"الاحتلال الثاني على الأرجح، ويمكن أيضا أن ترجع إلى الأسرة الثلاثين، فمن الصعب التعرف على تاريخ محدد لمثل هذه الأشياء، وخاصة عندما لا تحمل شعارا أو نقشا، حيث لا توجد علامات تميزها، فالأمر يعتمد أولا وأخيرا على إحساسك".

"وإحساسك يقول إنها تعود لفترة الاحتلال الثاني".

"أو الأسرة الثلاثين".

صمت خليفة لوهلة مفكرا، ثم قال "هل هي أصلية؟"

"بالطبع لا شك في ذلك، إنها أصلية تماما".

فجأة نطق النظام الصوتي للمتحف، معلنا أن المتحف سيغلق أبوابه بعد عشر دقائق.

"هل لديك تعليق آخر يا بروفيسور؟"

"هذا يتوقف على ما تريد معرفته. بالنسبة لعبوة المرهم المصنوعة من التراكوتا، فعلى الأرجح هي لأحد الجنود، ونحن لدينا هنا في المتحف الكثير منها، وعلى الأرجح هي من بين المعدات المنتشرة بين الجنود في تلك الحقبة. أما الخنجر، فيشير إلى

وجود علاقة بحملة عسكرية، فيمكنك أن ترى هنا الشفرة المسننة والبالية التي توضح أنه لم يكن لغرض الزينة أو قضاء نذر وإنما يستخدم فعليا. أما بالنسبة للصدرية فهي رائعة، فهي ذات جودة أكثر من بقية هذه القطع الأثرية".

"ماذا يعني ذلك؟"

"إما أنها أتت من مكان آخر أو أن الشخص الذي امتلك هذه الأشياء أراد أن يزيد ثروته من هذه المقتنيات".

ضـــحك خليفة، وقال "كان الأولى بك الانضمام للشرطة، فلديك قدرة رائعة على الاستنتاج، ولابد أنك كنت ستصبح رئيسا للمباحث في هذه السن".

"ربمـــا، ولكن لم أكن لأتحدث على النحو الذي أريده، وهذا هو ما يجعلني أحب الآثار، فيمكنك قول ما تشاء دون أن يحجر أحد على رأيك لأنها مسألة تفسيرية بحتة. حسنا، أخبرني يا خليفة من أين أتت هذه الأشياء؟"

أخذ خليفة آخر نفس من سيجارته، وأطفأها في المنفضة.

"من الأقصر على ما أعتقد، من مقبرة جديدة هناك".

"شيء ما يتعلق بقضية تعمل على حلها؟"

أومأ خليفة.

"لن أسأل عن مزيد من التفاصيل يا خليفة".

أخـــرج الحبيب قلما، وأخذ ينظف الغليون، في الوقت الذي صدر فيه تنبيه آخر بقرب إغلاق أبواب المتحف. جلس الاثنان لوهلة دون أن ينبثا بكلمة.

"الأمر يتعلق بأخيك علي أليس كذلك يا خليفة؟"

"ماذا؟"

"القضية وهذه القطع الأثرية لها علاقة بعلي".

"ما الذي جعلك...".

قاطعـــه البروفيـــسور، قائلا "أرى ذلك على وجهك، وأسمعه في صوتك، فأنا لم أمضِ عمري كله أدرس الموتى، دون أن أتعلم ولو قليلا عن الأحياء أيضا. أعتقد أن الأمر يتعلق بأخيك".

لم يجب خليفة. نهض البروفيسور، ومشى ببطء حول المكتب، ثم وراء خليفة، الذي أعتقد أنه توجَّه إلى خزانة الكتب في الجانب الآخر من الغرفة، ولكن فجأة، شعر خليفة بيد الـــرجل على كتفه، قبضة قوية على الرغم من كبر سنه، بدأ البروفيسور يتحدث وصوته مهتز "أنت تعرف أنني وأروا... عندما قدمت أنت وعلي إلى حياتنا...".

توقف الرجل وسط الجملة، ثم استدار خليفة، وأمسك بيد الرجل، وقال "أعرف ما تريد قوله يا بروفيسور".

"توخَ الحذر يا خليفة، هذا ما أطلبه منك، رجاء توخَ الحذر".

ظلّ الوضع كذلك لوهلة، قبل أن يعود البروفيسور إلى كرسيه مرة أخرى، قائلا "دعــنا نلقي نظرة أخرى على هذه الأشياء، هل يمكننا ذلك؟" قال ذلك وهو يحاول أن يــبدو سعيدا. "دعنا نرى ما الذي يمكنني أن أخبرك به عنها. أين وضعت هذه العدسة المكبرة اللعينة؟"

26

الأقصر

اصطحبهما عمر إلى غرفة صغيرة في الطابق العلوي للمنزل، ذات أرضية خرسانية خشنة، وبدون زجاج على النافذة، وقامت زوجته وابنته الكبرى بإحضار الوسادات والمفارش، بينما وقف أولاده الثلاثة الآخرون على باب الغرفة، يشاهدون الضيفين. كان الصبي الصغير ينظر إلى تارا معجبا بشدة بشعرها، فحملته، وإذا به يعبث بخصلة من شعرها بين أصابعه الصغيرة، ويقول شيئا ما لأمه. استفسرت تارا عما قاله الصبي، فعرفت أنه يقول إن شعرها يشبه ذيل الحصان. ابتسمت تارا، وداعبت أنف الفتى، وأنزلته على الأرض، شعرت تارا بارتياح شديد وسط هذا الجو الأسري، وكأنه واق لها من شرور العالم الخارجي.

ما إن اطمأن عمر عليهما، حتى أشار لأفراد عائلته بالخروج، وقال لهما "سأذهب الآن، وأرى ما يمكن عمله حيال هذا الأمر، وفي أثناء ذلك هذا منزلكما، وستكونان آمنين هنا، فعلى الأقل، ما زال اسم آل الفاروق يؤمن بعض الحماية".

بعد أن ذهب عمر، استحم دانيل، ثم تارا. وبعد ذلك، صعدا إلى سطح المنزل، حيث الملابس ترفرف على أحد الحبال، وإلى جوارها ثمار البلح الجاف على قطعة قماش. ظل الاثنان يحدقان بتلال ذيبان التي تبدو وكأنها موجة بنية اللون، ثم استدارا، ونظرا شرقا تجاه النيل والدخان يتصاعد من حقول الفلاحين الذين يحرقون أعواد الذرة وقصب السكر. وفي أثناء ذلك، مرّت عربة محملة بالأرز، تجرها مجموعة من الأبقار المائية. في المقابل، كان هناك مجموعة من طيور البلشون البيضاء فوق بركة طينية، وبعض الصبية الذين يداعبون كلبا مقيدا، ومن بعيد يتهادى صوت خافت لمضخة مياه.

بعد صمت طويل، قالت تارا "أشعر أنه يتعين علينا فعل شيء".

"مثل ماذا؟"

"لا أدري، ولكنني أرى من الخطأ أن نقطع كل هذه المسافة، ثم نقف هنا لنستمتع بهذا المنظر".

"ليس هناك الكثير لنفعله يا تارا، على الأقل حتى يعود عمر، لأن خطوتنا التالية تعتمد على ما سيتوصل إليه".

"أعرف، أعرف، ولكنني لا أستطيع الجلوس هكذا، وكأننا تحت رحمة الظروف، فقد مات والدي، وهناك أشخاص يريدون قتلنا، ولهذا أود القيام بشيء ما والعثور على بعض الإجابات".

تقدم دانيل للأمام، وقال لها "أنا أفهم ما تقصدين يا تارا، ولكن لا خيار أمامنا".

صـــمت الاثنان لبرهة، وهما ينظران إلى رجل عجوز يمتطي جملا بالأسفل، ثم اســتدار دانيل، ونظر إلى التلال، وعيناه تتبعان حائطا من الصخور، وهو غارق في أفكاره. فجأة، وكأنه توصل إلى قرار، جذب يد تارا، وتوجّه بها ناحية السلم.

"هيا بنا، ربما لن يحل هذا الأمر كل مشاكلنا، ولكن على الأقل سيشغل وقتنا".

"إلى أين سنذهب؟"

"إلـــى هـــناك". وأشار بيده إلى حافة مستوية، وكأنها شفرة في أعلى التلال. "لا يوجد مكان في مصر يمكنك منه مشاهدة غروب الشمس كهذا المكان".

نزل الاثنان، وقال دانيل "أحضري الصندوق معك".

"لماذا، أتخشى أن يسرقه عمر؟"

"لا، ولكننـــي لا أود أن يلقـــى الرجل مصرعه لأجله، إنها مشكلتنا نحن يا تارا، ولذا ينبغي أن نحتفظ به معنا".

اســـتغرق الأمـــر قـــرابة الساعة، للوصول إلى أعلى الحافة، حيث صعدا بضع درجات سلم خرسانية، قبل أن يصلا إلى طريق ترابية غير مستقيمة، تقود إلى أخدود ضـــيق، ثـــم إلـــى قمة التلال. كان الصعود شاقا، حتى أنهما غرقا في عرقهما فور انـــتهائهما مـــن الـــصعود، حيث وصل دانيل أولا، وجلس على صخرة كبيرة، وهو يضرب بأطراف أصابعه على فخذه في انتظار تارا.

خلعـــت تـــارا حقيـــبة ظهرها، وجلست إلى جوار دانيل، مندهشة من هذه المناظر الخلابة، حيث غروب الشمس بلونها الأحمر الذي يعانق السماء الزرقاء، ثم الشريط النيلي الأزرق الذي يلمع في ضوء الشمس، ثم التلال اللامتناهية وسط الهدوء والسكون.

قال دانيل "إنهم يسمونها رأس القرن، لأنها تبدو من كافة الاتجاهات، وكأنها حافة تجري عبر قمة التلال، أما إذا نظرت إليها من الشمال؛ أي من وادي الملوك، فستبدو وكأنها هرم. لقد سماها قدماء المصريين الحاجب، ولهذا اختاروها لتكون مقبرة لموتاهم".

"إنها هادئة للغاية".

"نعم يا تارا، لقد رأوها كذلك منذ أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة عام، فكانت هذه القمة مقدسة ومخصصة للمعبودة ميريت - سيجر؛ أي المرأة التي تحب الصمت".

نهض دانيل، وأشار إلى جزء مستطيل إلى اليمين، وقال "هذا هو المعبد الجنائزي لرمسيس الثالث، أحد أجمل الآثار المصرية قاطبة، ثم هناك عند أشجار النخيل يوجد منزل عمر أترينه؟"

نظرت تارا للأسفل متتبعة إصبع دانيل، وقالت "نعم أعتقد أنني أراه".

"إذا ما نظرت إلى الشمال عند هذه الطريق المتجهة نحو النهر، فسترين التماثيل الضخمة لممنون، وإذا ما نظرت أبعد، فسترين مجمع المباني هذا، وهو المعبد الجنائزي لرمسيس الثاني".

نظرت تارا إليه، وقالت "أتريد قول شيء يا دانيل؟"

"أنا...". ثم صمت وكأنه لا يجد الكلمات التي يستطيع بها التعبير عما يجول بداخله.

"ماذا يا دانيل؟"

"أردت أن..."

فجأة صدر صوت ضوضاء من خلفهما، فنظرا هنا وهناك، وهما محاطان بجوانب الأخدود الذي صعداه منذ قليل، فوجدا رجلا ذا وجه أشعث، ووجنتين غائرتين، وعينين حمراوين.

همس دانيل، "يا الله، ما هذا بحق الله؟"

"أهلا، أرجوك". رددها الرجل ذو الملابس الرثة، وهو يقترب منهما، قائلا "انتظرا سأريكما شيئا جميلا هنا، هنا انظرا".

تقدم الرجل نحوهما وفي يده النحيفة جُعل كبير مصنوع من الحجارة السوداء.

"أعرف أنكما أتيتما من مكان بعيد، انظرا، إنها قطعة رائعة، كم تدفعان فيها؟"

أجاب دانيل "لا ليس الآن".

"إنها ذات جودة عالية".

أجاب دانيل، بصوت أكثر حدة "قلت لا، لا أريدها".

"أعطني سعرا، هل تدفع عشرين جنيها مصريا؟"

"لا أريدها".

"خمسة عشر. عشرة؟"

"لا، هيا اذهب من هنا".

"أرجوكما، أنا لم آكل وأشعر بالجوع، أتوسل إليكما".

"حسنا، حسنا". أعطاه دانيل بعض النقود، فابتسم مظهرا أسنانه الصفراء، ثم أخذ يقفز فرحا على قمة الجبل.

أخذ الرجل يغني قائلا "رجل طيب، رجل طيب، صديقي رجل ذو قلب كبير". ثم نظر إلى تارا، وقال "سيدة جميلة، أتودين رؤية بعض المقابر؟ حتشبسوت، وادي الملوك، وادي الملكات، مقابر سرية لم يرَها أحد من قبل؟"

نهره دانيل، قائلا "كفى، لقد حصلت على ما تريده هيا اذهب الآن".

"لكن سأريكما أشياء خاصة، والعديد من الأسرار".

"اغرب عن وجهي".

توقف الرجل عن الرقص، ثم توجَّه ناحية الأخدود، وهو يعد النقود في يديه، ويهمس ببعض الكلمات.

هبط الرجل للأسفل، ولم يتبقَ سوى رأسه، الذي أطل به، ونظر مباشرة إلى عيني تارا، وقال لها "لقد أخبرتني الأشباح أن الأمر ليس كما تعتقدين فهناك العديد من الأكاذيب".

اختفى الرجل عن الأنظار، تاركا إياها ترتعش من وقع هذه الكلمات.

"ما الذي يقصده يا دانيل؟"

توجَّه دانيل للنظر إلى أسفل التل إلى وادي الملوك، قائلا "لا أدري، إنه رجل مجنون، فقد بدا وكأنه لم يأكل منذ شهر".

خيّم الصمت لوهلة، ودانيل ينظر إلى وادي الملوك، بينما تارا تنظر إليه.

نظر إليها دانيل، وقال "لم يكن بالأمر المهم. اقتربي، وانظري إن هذا هو أفضل وقت تشاهدين فيه وادي الملوك، حيث يكون خاليا تماما، وكأنه يعكس الحياة في مصر القديمة".

قفزت تارا إلى جانب دانيل، ونظرا إلى الأسفل حيث يقع الوادي هادئا وساكنا وتنقسم عنه وديان أصغر وكأنها أصابع منبسطة عن راحة اليد.

سألت تارا "أين مقبرة توت عنخ آمون".

أشـــار دانـــيل، وقـــال "أترين عنق الوادي هناك، في الوسط حيث توجد مقبرة رمسيس السادس، وبعدها مباشرة تقع مقبرة توت عنخ آمون؟"

"وأين الموقع الذي تنقب به؟"

صمت دانيل قليلا قبل أن يجيب.

"لا يمكنك رؤيته من هنا، فهو يقع بعيدا باتجاه معبد تحتمس الثالث".

"أتذكــر أنني أتيت إلى هنا في صغري بصحبة أبي وأمي، عندما كان أبي يلقي محاضرة على سطح إحدى الباخرات في النيل، وكان مهتما للغاية باصطحابنا معه إلى كل المقابر، ولكنني كنت أفضل العودة إلى الباخرة، والمكوث في حمام السباحة. أعتقد أن أبي أدرك في ذلك الوقت أنني لم أكن البنت التي يريدها".

نظر إليها دانيل، وقال "لقد أحبك والدك للغاية يا تارا".

"ربما".

"صدقيني يا تارا لقد أحبك، ولكن بعض الناس لا يمكنهم البوح بمكنون صدورهم".

أمـــسك دانيل بيدها، دون أن ينبس أحدهما بكلمة، والشمس تغيب خلفهما، وأخذ الـــضوء ينزوي. ظهرت نجمتان، وبدأت الأنوار أسفل الوادي تنبعث من المنازل. في الجهـــة المقابلة، شاهدا جنديين بالقرب من أحد الأكواخ حيث يخدمان في إحدى النقاط الأمنية التي تم إنشاؤها بعد مذبحة الدير البحري.

اشتدت الريح قليلا، وسألت تارا "هل هناك شخص في حياتك؟"

ابتسم دانيل، واستفسر "أتقصدين محبوبة؟ لا، ليس هناك ما يستدعي ذكره، وماذا عنك يا تارا؟"

"نفس الشيء، ليس هناك ما يستدعي ذكره".

صـــمتت تارا لوهلة، ولكنها لم تتمالك نفسها من التوجه بالسؤال التالي "من هي ماري؟"

"ماري؟"

"لا أعرف أحدا بهذا الاسم".

بدا دانيل صادقا في إجابته.

"لقد ذكرت هذا الاسم مرارا وتكرارا ليلة أمس ماري، ماري".

فكّر دانيل للحظة وهو يكرر الاسم في نفسه، ثم انفجر في الضحك.

"ماري يا للروعة! هل أصابتك الغيرة يا تارا؟ اعترفي".

دافعت تارا عن نفسها قائلة "لا، إنه مجرد فضول".

"يـــا الله! إنها ميري يا تارا ميري– آمون محبوب آمون. لا تقلقي فهو اسم رجل على كل حال، وقد مات منذ أكثر من ألفين وخمسمائة عام".

ظـــلّ دانيل يضحك، وانضمت إليه تارا شاعرة بالخجل، ولكنها سعيدة في نفس الوقت.

شـــعرت تـــارا، وكأنهـــا نسيت كل ما تعرضت له من أذى على يد دانيل عندما هجـــرها، بل ونسيت أيضا كل ما حدث لها على مدار اليومين السابقين، وظلت جالسة بجـــواره مغمضة العينين، حتى أفاقت فجأة، ووجدت الظلام يخيم على المكان. نظرت تـــارا إلـــى الممـــر الذي صعدا من خلاله إلى قمة التل، فإذا به سلسلة من الأضواء المتناثرة، ومزيد من الأضواء هناك أسفل السفح معظمها أبيض، وفي وسطها أضواء خضراء ترمز إلى مآذن المساجد.

سألت تارا "من ميري هذا؟"

ابتـــسم دانـــيل، وقال "إنه ابن الفرعون أماسيس، عاش في عام 550 قبل الميلاد تقـــريبا، وأعـــتقد أنه مدفون هنا في وادي الملوك، وهو ما كنت أبحث عنه على مدار السنوات الخمس الماضية، لاقتناعي التام بأن مقبرته هنا لم يلمسها أحد".

أخرج دانيل سيجارا من جيبه، وأشعله.

استطردت تارا قائلة "متى استأنفت حفرياتك ثانية؟"

أخـــذ دانيل نفسا عميقا من السيجار، ونفثه ببطء حيث حملته الريح بعيدا، وكأنه قطعة قماش بالية. صمت الرجل كثيرا قبل أن يتحدث ونبرة صوته مختلفة الآن، فبها شيء من المرارة والامتعاض.

"لم أستأنف الحفر ثانية".

"هل تقوم ببعض الحفريات في مكان آخر؟"

"ربما، ولكن ليس في مصر".

أخذ دانيل ينظر نحو الأسفل إلى قدميه، وشفتاه شاحبتان، وقبضته مستديرة وكأنه على وشك أن يضرب شخصا ما. استدارت تارا في جلستها بحيث أصبحت تنظر إلى جانب وجهه حينذاك.

"لا أفهم يا دانيل! ما الذي تقصده بأنك لا تحفر في مصر؟"

"مـــا أقـــوله يـــا تارا هو أن كل أمانيّ وأحلامي كعالم آثار مصري قد تلاشت، وذهبت أدراج الرياح".

كـان الإحساس بالمرارة ظاهرا في صوته. رفع دانيل رأسه، ونظر إلى عيني تـارا التـي رأت عينين سوداوين خاليتين من كل معنى للحياة، ثم أخفض رأسه مرة أخرى.

"لقـد سحبوا الترخيص الخاص بي، السفلة أخذوه. وفي ضوء الظروف الحالية ليس من المحتمل أن أحصل عليه مرة أخرى".

"يـا الله!" لقد نشأت تارا في بيئة بها العديد من علماء الآثار، وتدرك تماما معنى سحب الترخيص من عالم الآثار. أمسكت تارا بيده، وقالت له "ماذا حدث؟ أخبرني؟"

أخذ دانيل نفسا من السيجار، ثم نفثه بعيدا، ووجهه متجهم، وكأنه يوجد في حلقه شيء ذو مذاق سيئ.

"لا يوجد ما أخبرك به، ولكن على أي حال، عثرنا على آثار لما يبدو وكأنه بقايا جـدار قديم في موقعنا، وأردت الحفر مع طول الجدار لمعرفة إلى أين يؤدي. للأسف كـان الجـدار يمتد إلى الموقع المجاور لنا وهو موقع يحفر فيه فريق بولندي. وأنت تعـرفين أنـه من غير المسموح الحفر في موقع ينتمي لفريق آخر. ولكنهم لم يكونوا موجودين على مدار أسبوعين، فقررت أن أحفر. كان يتعين عليّ الاتصال بهم أو على الأقل بالسلطات المصرية، ولكن لم أستطع الانتظار، لم أتمالك نفسي من المضي قدما في الحفر".

في هذه اللحظة، بدأت أطراف أصابعه تطرق بغضب على سطح الصخرة.

"عـندما عاد البولنديون، حدثت مشادة كبيرة، حيث اتهمني رئيس الفريق بانعدام المـسؤولية، وعدم احترامي للماضي. لقد كرست حياتي كلها لمصر يا تارا، ولا أحد يحتـرم تاريخها أكثر مني. عندما قال هذه الأشياء، لم أتمالك نفسي، ولم أنتبه إلا وهم يرفعونـني من فوقه، لقد كدت أقتله. ذهب الرجل وقدّم شكوى بذلك للسفارة البولندية، التي رفعتها بدورها للسلطات المسؤولة، وانتهى الأمر بسحب الترخيص مني. لم يقف الأمـر عـند هـذا الحدّ، وإنما أنا ممنوع من العمل مع أي بعثة أخرى في أي مكان بمـصر، فهـم يقولون عني بأني غير متزن، وشخص خطر على نفسه وعلى رفاقه، اللعنة على هؤلاء الحمقى أود لو أقتلهم جميعا".

كـان دانـيل يتحدث بسرعة، وكتفاه ترتعشان، ثم نزع يده من يد تارا، ونهض واقفا، ومشى حتى وصل إلى مقدمة حافة التل محدقا بالوادي أسفله. وعلى الرغم من الظلام إلا أن السهل الأبيض للوادي كان واضحا، وكأنه نهر من الحليب. بعد فترة هدأ دانيل، وتوقفت الرعشة.

"متأسف لقد أصابتني نوبة...".

مسح دانيل جبهته، وتنهد بعمق، وقال "منذ ذلك الحين، وأنا أقوم ببعض الجولات السياحية، وأبيع بعض اللوحات المائية على أمل أن تتغير الظروف، ولكنها لم تتغير. في مكان ما بالأسفل هناك توجد مقبرة لم يمسها أحد تنتظر من يكتشفها، ولن يسمحوا لـــي أبدا بذلك. هل تدركين مدى صعوبة ذلك؟ إلى أي مدى يصيبني ذلك بالإحباط؟ يا الله!"

"لا أدري مـــاذا أقول، أنا آسفة يا دانيل، أنا أعرف ماذا يعني هذا المكان بالنسبة لك".

استطرد دانيل قائلا "لقد حدث نفس الشيء مع كارتي في العام 1905 فقد طردته ســـلطة الآثار لدخوله في عراك مع بعض السائحين الفرنسيين في سقارة، وانتهى به الحـــال كمرشد سياحي ورسام. ولذا إلى حدٍّ ما يوجد وجه شبه بيننا، ولكن ليس على النحو الذي تمنيته".

ذهـــبت المرارة من صوته، وحل محلها غضب ويأس. وقفت تارا إلى جواره، تحاول مساندته.

"هـــل تـــدرين ما هي المفارقة الكبرى يا تارا؟ اتضح أن هذا الجدار ما هو إلا جدار بناه أحد علماء الآثار منذ مائتي عام". ضحك دانيل ضحكة باهتة.

كررت تارا "أنا آسفة يا دانيل".

"هـــل أنت حزينة لأجلي". استدار دانيل، وأصبحا وجها لوجه، وقال "لقد اعتقدت أنك ستسعدين لذلك، إنها عدالة السماء لما فعلته بك".

"بالطبع لست سعيدة يا دانيل، أنا لم أتمنَ أن يلحق بك سوء على الإطلاق".

قال دانيل "أتودين رؤية مكان جميل؟"

"بالطبع".

حمل دانيل حقيبة ظهرها، وتوجها أعمق وسط التلال بعيدا عن السفح، والهدوء يخـــيّم علـــى المكـــان باستثناء صوت وقع أقدامهما على الصخر. بعد عشرين دقيقة، وصـــلا إلى مكان اتسعت عنده الطريق، وأصبحت على شكل قرص به أربعة أشكال، وكأنهـــا فواصل في صفحة فارغة. عندما اقتربا منها، وجدتها تارا عبارة عن جدران صغيرة تصل إلى ركبتيها.

أوضح دانيل قائلا "إنها مصدات للريح، كان جنود الدوريات الذين يحرسون هذه التلال في العصور القديمة يحتمون بها".

أمـــسك دانيل بأحد الأحجار، ووضعه في ضوء القمر، وقال لها "انظري إنه من الفخار".

كان المكان جميلا، بحيث نسيا كل ما حدث لهما مؤخرا!

27

القاهرة

كانــت الساعة تقترب من السابعة مساء، عندما عاد خليفة إلى مكتب محمد عبد التواب الذي كان جالسا خلف مكتبه، تحت ضوء المصباح، يكتب بإصبعين فقط، على مــا يــبدو وكأنه آلة كتابة يدوية قديمة، والأرضية حوله مكسوة برماد السجائر فوق السجادة، وكأن هناك ثلجا يتساقط في هذا الجانب من المكتب.

أعطــى خليفة المفاتيح لمحمد عبد التواب، وأخبره بما أخبرته به الفتاة، وأخبره أيضا عن القطع الأثرية، فاندهش عبد التواب.

قــال خلــيفة "أعرف أن ذلك يخالف القواعد، ولكنني تركت القطع الأثرية لدى صــديق لــي في المتحف ليفحصها، على أن يعيدها صباح الغد، وأرجو ألا تمانع في ذلك".

"لا، علــى الإطلاق، لا توجد مشكلة، فلن أفعل شيئا بها قبل صباح الغد على كل حال".

"لقــد أعطتني الفتاة وصفا جيدا للأشخاص الذين هاجموا إكبار، ويبدو أن اثنين منهما من أتباع سيف الثأر".

"يا للهول".

"أمــا الــثالث فليس مصريا، وأعتقد أنه أمريكي، فهو ضخم الجثة، وعلى وجهه ندبة أو علامة خلقية".

"درافيتش؟"

"هل تعرفه؟"

"كل رجال الشرطة في الشرق الأدنى يعرفونه. أنا مندهش لأنك لا تعرفه، إنه مجرم ألماني لعين".

نادى عبد التواب على أحد رفاقه في الغرفة، فشرع في البحث في مكتبه، وأخرج ثلاثة ملفات حمراء، أعطاها لعبد التواب.

أخرج عبد التواب صورة بالأبيض والأسود لدرافيتش، وأعطاها لخليفة.

علّق خليفة قائلا "إنه وسيم".

استطرد عبد التواب، "لقد قضى شهرين في سجن طرة منذ فترة، لتورطه في حيازة بعض الآثار. ولكن لم يستطع أحد أبدا إدانته بشيء ذي قيمة، فهو ماهر للغاية، ويجند أشخاصا آخرين لأداء أعماله القذرة، ونظرا لعمله مع سيف الثأر، فلا يستطيع أحد الوشاية به، والفتاة الوحيدة التي أوشت به بعد أن اغتصبها حدث لها ذلك".

أظهر عبد التواب صورة مروعة لجثة الفتاة.

قال خليفة "يا الله!"

"لقد أخبرتك إنه مجرم لعين".

رجع عبد التواب بكرسيه للخلف قليلا، وبسط قدمه على جانب المكتب، وأشعل سيجارة، بينما خليفة يبحث في الملفات.

"لقد ذهبت للملحق الثقافي في السفارة البريطانية".

"وماذا وجدت؟"

"لا شيء يذكر، فلم يخبرني بجديد، ولكن لدي إحساس أنه يخفي شيئا. هل لديك فكرة عن سبب ذلك؟"

أجاب عبد التواب "لماذا تعتقد أنه يخفي شيئا؟"

أجاب عبد التواب عن سؤاله بنفسه "إنهم لم ينسوا قطّ ما فعلناه بهم عند تأميم القناة، وحين طردناهم إلى بلادهم. ولذا لن يترددوا في إلحاق أي أذى بنا".

"الأمر أكبر من ذلك يا عبد التواب، إنه يعرف شيئا عن هذه القضية، ولا يريد إطلاعي عليه".

"أتقصد أن السفارة البريطانية متورطة في هذا الأمر؟"

"بصراحة، لا أعرف. فلم أعد أعرف أي شيء. هناك أمر ما يحدث، وأنا لا أعرفه".

أنزل سكويرز نظارته قليلا بحيث أصبحت الآن على أنفه، وبدأ يقرأ قائمة الطعام. خيّم الصمت لدقيقتين قبل أن يضعها جانبا وهو راضٍ عن اختياره.

"سأطلب السمان إنه رائع في هذا المطعم، وسأبدأ وجبتي بفطيرة ثمار البحر، أليس كذلك يا جمال؟"

"لست جائعا".

"هيا يا رجل، لن تجلس معنا دون تناول شيء!"

"أتيت إلى هنا للحديث لا للأكل".

أومأ سكويرز بامتعاض، والتفت إلى الشخص الجالس إلى يساره. وهو رجل ممتلئ الجسم، أصلع الرأس، يطوق معصمه بساعة رولكس كبيرة الحجم.

"ماذا عنك يا ماساي؟ بالتأكيد لن تتركني أتناول الطعام وحدي؟"

نظر الرجل الأمريكي إلى قائمة الطعام وهو يضع منديلا خلف رأسه الذي يتصبب عرقا على الرغم من أن المطعم مكيف الهواء.

"هل يقدمون لحم البقر هنا؟" أوضحت لكنة الرجل أنه من جنوب أمريكا.

أشار سكويرز في قائمة الطعام، وقال له "أعتقد أن هذه الشرائح ستعجبك".

"هل عليها صلصة؟ لا أريد صلصة على شرائح اللحم".

نادى سكويرز على النادل "هل وجبة شرائح اللحم تحتوي على الصلصة؟"

"نعم، نقدم معها صلصة الفلفل".

"لا، لا أريد صلصة معها".

"حسنا، يا سيدي سنقدمها بلا صلصة".

"حسنا، وأعطني معها بعض المخلل والبطاطا المحمرة".

"ماذا عن المقبلات يا سيدي؟"

"لا أعرف، ما الذي طلبته يا سكويرز؟"

"فطيرة ثمار البحر".

"حسنا، سآخذ فطيرة، وبعض المخلل مع شريحة اللحم".

قال سكويرز "حسنا بالنسبة لي سآخذ فطيرة ثمار البحر والسمان، وأحضر لي قائمة المشروبات من فضلك".

تلقى النادل الطلبات، وتراجع منحنيا.

قطع ماساي نصف رغيف الخبز، ووضع به الزبدة، وألقى به في فمه، وسأل وهو على هذه الحال "يبدو أن صديقينا، قد ظهرا في الأقصر، أليس كذلك يا جمال؟"

"نعم، لقد وصلا ظهر اليوم".

"إن الأمر برمته لا يستحق هذا العناء، فنحن نعرف أين القطعة الأثرية، فلماذا لا نذهب ونحضرها، ونكف عن هذا الهراء؟"

"لأن الأمر خطير للغاية، ولذا من الأفضل أن نبقى بعيدا حتى يتعين علينا التدخل".

"نحن لا نمرح هنا، لدينا الكثير من الأشياء لننتهي منها".

"أنا أقدر ذلك، ولكن في الوقت الراهن، أفضّل أن نظل في الخلف، فلماذا نتحمل مخاطر يتحملها عنا لاكاج والفتاة؟"

أجاب ماساي "لا يروق لي الأمر".

"سيكون كل شيء على ما يرام".

"سيف الثأر سوف...".

كـرر سـكويرز الجملة مرة أخرى "سيكون كل شيء على ما يرام، طالما أننا نحتفظ بهدوء أعصابنا". قال ذلك، وصوته به شيء من الضيق.

عاد النادل بقائمة المشروبات، فأخذ سكويرز ينظر إليها، بينما شقّ ماساي طريقه لينهي نصف رغيف الخبز بتناوله مع الزبدة.

تحـدث سكويرز دون أن يرفع عينيه من على قائمة المشروبات، "أعتقد أن لدينا مشكلة بسيطة!"

علّق ماساي "ما هي؟"

"ضابط شرطة الأقصر يبدو أنه عرف شيئا ما عن القطعة الأثرية".

"اللعنة! هل تعرف مدى خطورة ذلك؟"

أجـاب سكويرز وصوته يعكس مدى الضيق الذي يعانيه "نعم أعرف كل شيء، وفي نفس الوقت لن أتجاهله".

"لا تعاملني على هذا النحو أيها اللعين...".

هـنا تـدخل جمال، وهوى بقبضتيه على المنضدة، حيث اهتز كل ما عليها من أدوات وأكواب، "توقفا. هذا لن يؤدي إلى شيء".

صـمت الـثلاثة، وكلهم غاضبون. ماساي يتناول ما تبقى من الخبز، وسكويرز يعبث بالشوكة على المنضدة، بينما جمال يعبث بالمسبحة في يديه.

أخيـرا، نطق سكويرز "جمال على حق. والسؤال الآن: ما الذي سنفعله مع هذا الشرطي؟"

"اعـتقدت أن ما يجب أن نفعله واضح". همس ماساي مضيفا "إن الأمر مهم جدا بالنسبة لنا لدرجة عدم السماح لهذا الشرطي الأخرق بإفساده برمته".

همس جمال "يا الله! أتقصد أن نقتله؟ نقتل شرطيا؟"

"لا، أقصد أن نشتري له حلة جديدة، ونصطحبه إلى مرقص! عليك اللعنة، بالطبع أقصد قتله".

نظر جمال بغضب إلى الرجل، وقبضته تنبسط وتنقبض، بينما يضع سكويرز رأسه على أطراف أصابع يديه المتشابكتين.

"أعتقد أن القتل في هذه الظروف سيأتي بنتائج مروعة، وكأنك تستخدم مطرقة لكسر حبة بندق. ألا توجد طريقة نحل بها هذه المشكلة دون اللجوء إلى العنف يا جمال؟"

"حسنا، لا مشكلة، يمكنني اقصاؤه عن القضية".

أجاب سكويرز "أعتقد أن ذلك أفضل شيء فمقتل رجل شرطة سيسبب لنا العديد من العوائق غير الضرورية، ولكن تأكد من أن تراقبه بعد إقصائه عنها".

أومأ جمال إيجابا.

علّق ماساي "ما زلت أرى أن نقتله، وننجز كل شيء بهدوء".

أجاب سكويرز "قد نلجأ إلى ذلك في النهاية، ولكن في الوقت الراهن أفضّل أن نحافظ على هدوئنا، فقد وقع الكثير من القتلى حتى الآن".

سخر منه ماساي قائلا "إذا كنت تريد الحصول على جائزة نوبل للسلام، فأنت في المكان الخاطئ يا صديقي".

تجاهل سكويرز هذا التهكم، وعاد يقرأ قائمة المشروبات مرة أخرى، مستمعا إلى الموسيقى التي يعزفها الرجل على البيانو في آخر المطعم.

أضاف سكويرز "هناك شيء مهم حول هذا الشرطي، وهو أن لديه علاقة سابقة بسيف الثأر، أليس كذلك يا جمال؟"

"نعم، لديه أمر يريد تصفيته مع سيف الثأر أمر عائلي".

علّق ماساي "اللعنة!"

ابتسم سكويرز قائلا بعد أن استعاد هدوءه، "يبدو أنها حالة خاصة. إنه عالم صغير! أعتقد أن هذه الفطائر الآتية هي فطائر ثمار البحر الخاصة بنا، ولابد من وجود مشروب إلى جوارها حتى يسهّل الهضم".

وضع سكويرز المنديل على فخذيه في انتظار وجبته الشهية.

أخذ البروفيسور محمد الحبيب يضع يده على عينه ماسحا إياها بأصابع قبضته التي تغوص في مقلتيه الغائرتين، فيذهب الألم للحظة، ولكن سرعان ما يعود مرة

أخرى متى نظر البروفيسور بالعدسة المكبرة إلى القطع الأثرية مرة أخرى، مما يجعل جبهته تنبض بالألم، وهي مشكلة كان يعاني منها على مدار الأيام الماضية. كان البروفيسور قد بلغ من العمر عتيا، ولم تعد عيناه قادرتين على تحمل هذا الضغط، وكان يعرف أنه يتعين عليه أخذ بعض الراحة، ولكنه لا يستطيع. ليس قبل أن يكتشف كل شيء حول هذه القطع الأثرية، ليخبر بها صديقه خليفة، لقد شعر أن من واجبه القيام بذلك لأجله ولأجل علي أيضا، علي المسكين.

سكب البروفيسور آخر قطرة من مشروبه المفضل في الكوب، وأشعل غليونه، وأمسك بالعدسة المكبرة، واستمر في فحص الصدرية الذهبية.

كان هناك شيء محير في هذه القطع التي أحضرها خليفة، ليس في مظهرها، وإنما في إحساس البروفيسور بها. فالآثار بالنسبة للبروفيسور تعد نفوسا حية ترسل إشارات وتتواصل معه. فلو كنت تستطيع سماعها، لأخبرتك بهذه الأشياء المشوقة، ولكن في هذه الحالة كلما استمع البروفيسور إليها، زادت حيرته بشأنها.

عندما قام البروفيسور بفحصها حال وجود خليفة، لم يشعر بشيء غريب فيها، فهي مصنوعة ببساطة وتصميم عادي. وبالتأكيد، لقد فحص الرجل عشرات القطع المشابهة قبل ذلك، وهي قابعة في المتحف بالأسفل.

لكن بعد رحيل خليفة، بدأت الشكوك تحيط بالرجل دون سبب محدد. فقد كان لديه شعور بأنها تحاول إخباره بشيء خاص.

همس البروفيسور "ماذا تقولين؟" وأخذ ينظر إلى وجه الصدرية الذهبية، "ما الذي تريدينني أن أسمعه؟"

كان المكتب مظلما تماما، باستثناء المصباح الصغير على مكتب البروفيسور. وكالعادة، كان البروفيسور يسمع، وقع قدمي الحارس في الممر الخارجي، وباستثناء ذلك لم يكن هناك صوت في جنبات المتحف.

أخذ البروفيسور نفسا عميقا من الغليون، ونفث سحابة من الدخان الأزرق فوق رأسه، وكأنها سحابة ممطرة.

وضع البروفيسور الصدرية، ورفع الخنجر ممسكا بشفرته، وحرّك المقبض جيئة وذهابا تحت الضوء. كان الخنجر عبارة عن قطعة أثرية بسيطة ومألوفة للغاية، بطول 12 إنشا، وكان مصنوعا من الحديد، ومزخرفا ببعض البرونز الخام على مقدمته، ومزودا بقطعة جلد بنية اللون حتى تحكم القبضة عليه. تذكر البروفيسور أنه قد فحص خنجرا مشابها له منذ بضعة أشهر.

استرخى الرجل قليلا، وأخذ نفسا من الغليون، ونفث الدخان نحو الخنجر، بحيث انحجبت الرؤية عنه تماما، وبعد أن زال الدخان، وظهر الخنجر مرة أخرى لاحظ البروفيسور أن القطعة الجلدية لم تعد محكمة الربط كما كانت عند أسفل المقبض، ضغط الحبيب على المقبض، فأخذ الرباط الجلدي ينحل ببطء.

اعتقد البروفيسور في بادئ الأمر أنها مجرد خدوش، ولكنه عندما أدار المقبض، وجعله قبالة الضوء مباشرة، وأمسك بالعدسة المكبرة، اكتشف أن هذه الخدوش هي علامات لأحرف. لم تكن هذه الأحرف مصرية أو فارسية كما كان يتوقع وإنما كانت يونانية ومنقوشة على معدن المقبض.

دياماكوس ابن منديز. اتسعت عينا البروفيسور من الدهشة!

"حسنا، أنت سر صغير، أليس كذلك؟"

كتب البروفيسور الأحرف واحدا تلو الآخر، وأخذ يتأكد من ترتيبها الصحيح، ثم وضع الخنجر جانبا، ورفع الورقة التي كتب عليها الأحرف، واسترخى على كرسيه.

أين رأيت هذا من قبل؟ أين؟ أين؟

جلس الرجل لمدة عشرين دقيقة دون حراك، يحدق في السقف، ويرفع كوب المشروب، ويضعه قرب فمه على الرغم من أن الكوب فارغ. فجأة وضع البروفيسور الورقة جانبا، وهرول إلى المكتبة الموجودة في الجانب البعيد من الغرفة، وهو يتحرك بخفة ورشاقة، لا تدلان على أنه في الخامسة والثمانين.

"مستحيل! لا يمكن!"

حرك البروفيسور إصبعه بسرعة بين صف الكتب أمامه، ثم أخرج مجلدا مكسوا بجلد قديم، وقد نُقِش عليه بالذهب النقوش اللاتينية لمقابر طيبة، ثم أسرع به إلى مكتبه، مفسحا فراغا للكتاب، ليكون تحت المصباح، وأخذ يتصفح بسرعة.

من الخارج أتى صوت الحارس "مساء الخير يا بروفيسور". لكن الرجل لم ينتبه لذلك، وظل غارقا في أفكاره مع الكتاب. في هذه اللحظة بدأ سكون الغرفة يتلاشى أمام الأنفاس المتلاحقة للبروفيسور.

"مستحيل، مستحيل. ولكن يا الله ماذا لو كان ذلك ممكنا...!".

28

الأقصر، تلال طيبة

اشتد البرد عليهما، حتى وهما خلف هذا الجدار المرتفع، ولاحظت تارا أن رأسه يـدور هـنا وهناك، وعيناه تفحصان المنحدرات المظللة فسألته تارا "ما الذي تبحث عنه".

همهـم دانـيل، ثم أضاف "لا شيء، لا يعدو الامر عن أنني لم آتِ إلى هنا منذ فترة طويلة".

"أنادم على قدومنا إلى هنا يا دانيل؟"

"لا، على الإطلاق. هل أنت نادمة؟"

"على العكس، لقد أسعدني ذلك كثيرا".

انطلـق الاثـنان أعمق وأعمق داخل التلال الساكنة، باستثناء وقع أقدامهما على الصخر، ونباح الكلاب من بعيد بين الحين والآخر.

بدأت الصورة تتضح أمام تارا بعد أن وصلا إلى مكان فسيح أعلى الجبل، حيث تنحدر الأرض إلى اليمين نوعا ما، حاجبة أي شيء في هذا الاتجاه. أما على اليسار، فتنبسط لعدة مئات من الأمتار، قبل أن تتحول إلى مجموعة من المنحدرات والوديان، وفـوقهما تحلـق قمـم الجـبال الشاهقة بلونها الأسود الذي يعانق السماء الزرقاء – الـرمادية، ولم تكن تارا تدري أين هما، بل إنها لم تكترث لذلك في الأصل، فقد كانت سعيدة للغاية بالتواجد مع دانيل بعد فترة الفراق الطويلة.

بعـد أن مشيا لما يزيد عن الساعة، أبطأ دانيل، ثم توقف، وأصبحت الطريق الآن أكثر انحدارا عبر ممر مائي جاف ضحل ينحدر من اليمين إلى الشمال، وكأنه مسار للثعابين.

كسرت تارا حدة الصمت، وقالت "أنت ترتعش يا دانيل".

"أشعر بالبرد فقط، فقد نسيت إلى أي مدى يكون الجو باردا هنا ليلا".

"أعــتقد أنـــه من الأفضل أن نعود أدراجنا يا دانيل، فقد مضى علينا هنا ما يزيد عن الثلاث ساعات، وربما يقلق عمر علينا".

"نعم، أعتقد أنه ينبغي علينا العودة".

فجأة، ظهر ضوء فوقهما، فلم يحرك أحدهما ساكنا.

اســتطرد دانـــيل قائلا "لو كان هناك ضوء لسرنا في اتجاه آخر للعودة، فهناك طرق عديدة هنا، ولكن ينبغي ألا نخاطر، وسط هذا الظلام الدامس، فهذه التلال مليئة بحفـــريات للمقابـــر القديمة، ولو سقط شخص في أحدها، فلن يتمكن من الصعود مرة أخـــرى. منذ عدة سنوات سقطت امرأة كندية في إحدى الحفريات بالدير البحري، ولم يـــسمع أحـــد صراخها، حتى ماتت جوعا، وعندما عثروا على جثتها...". هنا توقف دانيل فجأة، وبدا عليه الاضطراب.

سارعت تارا قائلة "ماذا هناك يا دانيل؟"

"أعتقد أنني سمعت صوتا... اسمعي".

أطـــرقت تـــارا الـــسمع، ولكن دون جدوى، فلم يكن هناك أي صوت، باستثناء صوت الهواء العليل.

كررت تارا سؤالها "ماذا هناك يا دانيل؟"

"إنه هناك... اسمعي".

ســـمعت تارا الصوت الآن. إلى يسار المنحدرات يصدر صوت طقطقة أحجار، وكـــأن هـــناك شخـــصا يضرب عليها بمطرقة. من الواضح أن شخصا ما في طريقه إلـــيهما، ولـــذا حاولت تارا جاهدة أن ترى من هناك، ولكن الظلام الدامس حال دون ذلك.

علّق دانيل "ربما تكون دورية شرطة، من الأفضل أن نختبئ".

اصطحبها دانيل عبر الممر المائي، واختبآ خلف صخرة ضخمة.

همست تارا "ما المشكلة يا دانيل؟"

"إنهـــم يشكون في أي شخص يتواجد هنا بعد حلول الظلام، ويعتقدون أنه يخطط لشيء سيئ، ولكن بوصفنا أجانب فهذه ليست مشكلة بالنسبة لنا، أما في ضوء الموقف الراهن فمن الأفضل أن نتجنب الاحتكاك بهم".

نظر الاثنان فوق الصخرة، وقالت تارا "ماذا لو رأونا؟"

"ابقي في مكانك، واحرصي على أن يعرفوا أنك سائحة، فهم عديمو الخبرة، ومن واقع ما سمعت، يسعدهم كثيرا إطلاق الرصاص".

ارتفع صوت وقع الأقدام الآن، فضلا عن بعض الأصوات الآدمية الخافتة، وعلى ما يبدو صوت شخص ما يغني. أخذت الأفكار تطارد مخيلة تارا، فبعد كل ما عانياه يتم قتلهما خطئاً! في هذا الوقت، بدأت تارا تشعر بمدى قلق دانيل.

بعد دقيقة، بدأت الصورة تتضح نوعا ما، فبدأت بعض الأشكال في الظهور وسط أضواء خافتة، وهم يتحركون بطول الممر المائي الجاف. في بادئ الأمر، بدوا وكأنهم صف واحد، ولكن تدريجيا اتضح الأمر أكثر وأكثر في ضوء القمر، تسعة أشخاص يمشون في صف واحد، ويحملون في آخر الصف ما يبدو وكأنه تابوت، وأمام الصف رجل ضخم الجثة، يرتدي حلة شاحبة اللون. في هذه اللحظة، أخذت تارا ترتعش من الخوف.

"يا الله، إنه هو يا دانيل".

انحنت تارا نحو الأمام، لترى بشكل أوضح، وإذا بالأحجار تتفتت تحت قدميها وتتهاوى إلى الممر المائي الجاف، محدثة صوتا رهيبا وسط هذا السكون القاتل. جذبها دانيل، ووضع يده على فمها خلف الصخرة الضخمة.

ظلّ الاثنان بلا حراك، يكتمان أنفاسهما مع اقتراب وقع الأقدام أكثر فأكثر، حتى أن تارا أصبحت الآن تميّز صوت الرجال واحدا واحدا، وباتت متأكدة من أنها ودانيل لن يستطيعا الاختفاء، ومن ثم تجهزت للجري. ولكن ما إن وصل الرجال فوق الصخرة مباشرة، ورائحة سيجار درافيتش تملأ المكان، حتى تراجعوا مرة أخرى نحو الطريق، وساروا إلى اليمين نحو الممر المائي بعيدا عن وادي النيل، مع اختفاء وقع أقدامهم، كلما تقدموا أكثر في عمق الوديان.

لم تتحرك تارا ودانيل من مكانهما لوهلة، ثم نهض دانيل ببطء وحرص، ونظر من فوق الصخرة، ونهضت تارا إلى جواره، تشاهد صف الرجال وهو ينزوي في الظلام.

همست تارا "ما الذي يفعلونه هنا؟"

"لقد كانوا في المقبرة".

ارتسمت علامات الدهشة على وجه تارا.

"بحق الله، ماذا سيفعلون هنا في هذا الليل الدامس وهم يحملون تابوتا؟"

صعد دانيل على سطح الصخرة، وأخذ ينظر إلى الرجال.

"لابــد أنهــم يعــرفون طريقا أخرى للنزول من التل، طريقا يمكنهم فيها تجنب الحراس المحيطين بوادي الملوك. فكما قلت لك هذه الوديان مليئة بالممرات لو بحثت جيدا".

وقــف دانيل لوهلة يحدق في الظلام، ثم أخذ نفسا عميقا، ووضع يده على حقيبة الظهر، ورفعها.

قــال دانيل "أريدك أن تعودي إلى منزل عمر مرة أخرى". وأخذ بيدها ليرشدها إلـــى الطريق قائلا "اتبعي الطريق حتى تصلي إلى قمة القرن، ثم اهبطي إلى الطريق التي جئنا منها، ولا تحيدي عنها حتى تصلي إلى بيت عمر، وابقي هناك".

"وماذا ستفعل أنت؟"

"لا تقلقي بشأني، اذهبي أنت".

جذبت تارا يدها، وقالت "ستبحث عن المقبرة، أليس كذلك؟"

"بالطـــبع سأبحث عنها، فنحن هنا لهذا السبب أليس كذلك؟ الآن اذهبي، وسألحق بك".

حاول دانيل جذب ذراعها مرة أخرى، ولكنها أبعدت يده قائلة "سأذهب معك".

"تارا أنا أعرف هذه الوديان، ومن الأفضل أن أذهب وحدي".

"سنذهب معا يا دانيل، فأنا أود معرفة ما في هذه المقبرة مثلك تماما".

"بـــالله عليك يا تارا ليس لدي وقت لهذا الجدل، فضلا عن أن هؤلاء الرجال قد يرجعون ثانية".

"لذا من الأفضل أن نمضي سريعا يا دانيل".

مضت تارا في طريقها، وتبعها دانيل، وأمسك بكتفها، وأدارها بعنف قائلا

"أرجــوك يا تارا، أنت لا تفهمين أن هذه التلال خطيرة، لقد عملت هنا، وأعرف طريقي جيدا، أنت فقط سوف...".

"سوف ماذا يا دانيل؟ سأكون عائقا في طريقك؟ هل هذا ما أمثله بالنسبة لك؟"

"لا لست عائقا... فقط لا أريد أن يصيبك مكروه".

كان صوته يشوبه شيء من اليأس. وعلى الرغم من الرياح، إلا أن جبهته كانت تتصبّب عرقا، وكانت تارا تشعر برعشة جسده خلفها.

كرر دانيل نفس الجملة مرة أخرى "لا أريد أن يصيبك مكروه، ألا تفهمين؟ إنها ليست لعبة يا تارا".

وقف الاثنان لوهلة في صمت ينظران إلى بعضهما، ثم جذبت تارا يدها من يده.

"أنت لا تدين لي بشيء يا دانيل، ونحن هنا متساويان، فإذا ذهبت سأذهب معك، موافق؟"

كــان دانــيل علــى وشــك الجدال معها، ولكن نظرات عينيها، أظهرت مدى تصميمها.

"أنت لا تعرفين ما أنت مقبلة عليه".

"بغــض النظــر عمّــا أنا مقبلة عليه، فأنا بالفعل عالقة فيه، ولذا ليس هناك ما أخشاه، وأعتقد أن علينا المضي الآن".

أخيرا، قال دانيل "لا أريد أن يصيبك مكروه يا تارا" قالها باستسلام هذه المرة.

"وهل خطر ببالك يا دانيل أنني لا أريد أن يصيبك مكروه أيضا؟"

ســار الاثــنان في الممر المائي الجاف، يقتفيان أثر درافيتش ورجاله. كان الجو بــاردا، وبدأ الندى يتساقط، ويلمع في ضوء القمر، كالأضواء التي تظهر على أرضية الطرق ليلا.

كــان الممــر المائي يحيط بالأرض المنبسطة للتل لمسافة مائتي متر، ثم بدأت الأرض تضيق، وكذلك الممر المائي باتجاه الحافة الجنوبية لمركز التل.

قــال دانــيل، وهو يحدق بعينيه وسط الظلام الدامس "إن التلال في هذا الجانب تنتهي إلى سلسلة من المنحدرات. وعلى الأرجح توجد المقبرة في أحد هذه المنحدرات بالقرب من خط الممر المائي، ولكن لا أحد يعرف أين هي على وجه التحديد، وقد لا نتمكن من الوصول إليها بدون معدات تسلق مناسبة".

استمر الاثنان في سيرهما نحو الأسفل، والممر المائي يأخذ شكلا شديد الانحدار، وجانباه يمثلان حائطيْن إلى اليمين واليسار، وأرضيته مليئة بصخور كبيرة وصلصال. تعــيّن علــيهما الــسير بمنتهــى الحرص، حيث تتفتت هذه الصخور مع كل خطوة يخطــيانها، وكأنها قطع بسكويت صغيرة. أخرج دانيل من جيبه مصباحا قائلا "لو بدأ هــذا الجانب في الانهيار فسنلقى حتفنا، إذ سينجرف نحو المنحدر، وكأنه شلال مياه. لــذا لو زاد التفتت تحت أقدامنا فسيتعين علينا الرجوع. أنا مندهش كيف صعدوا بهذا التابوت إلى هنا".

كلما مضيا في طريقهما، ازداد المنحدر انخفاضا، وازدادت تربته تفتتا، واقترب الحائطان من بعضهما البعض بحيث يمكن ملامستهما بذراعين مبسوطتين.

ألح دانيل على تارا مرتين أن ترجع، ولكنها أصرت على المضي معه.

"لقد قطعت شوطا طويلا، ولن أعود الآن".

أخيرا، وصل دانيل وتارا إلى نقطة ينحدر فيها الأخدود رأسيا لمسافة ستة أمتار في منحدر من الصلصال مرتفع ومنزلق، ثم بعدها ينحدر لمسافة عشرين مترا أخرى، وأخيـرا وكأن هناك بابا فُتح على مصراعيه يختفي الجداران، ويظهر من بعيد سهل منبسط ومنزلق.

قـال دانـيل "هذه هي حافة المنحدر". وأشار بالمصباح في يده، "وبعدها مباشرة منحدر مستقيم بعمق مائة متر، ولذا لن نتمكن من المضي قدما أكثر من ذلك".

أمـسك دانـيل بجـزء من حجارة الأخدود لمعرفة ما إذا كانت ستتحمله عندما يتسلق، ثم استلقى فوق الحافة مسلطا ضوء المصباح نحو الأسفل.

سألت تارا "هل هناك شيء بالأسفل".

قال دانيل "نعم هناك فتحة ما تشكل تجويفا للمكان الذي نقف فيه الآن".

انحنى دانيل نحو الأمام أكثر.

"لا يمكننـي رؤيـة المزيد من هنا، فهناك أحجار وركام كثير. لا بد أنه مدخل لـشيء ما". تراجع دانيل للوراء قليلا، وأعطاها المصباح قائلا "أمسكي هذا، وسلطي الضوء نحو الأسفل".

اسـتدار دانيل، وارتكز على حائطي الأخدود، وأرجح نفسه فوق الحافة، ونزل علـى تربة الصلصال بالأسفل، وتحرك بسرعة، وكأنه معتاد على السير في مثل هذا النوع من التربة، وفي غضون ثلاثين ثانية، كان قد وصل إلى الأسفل.

سارت تارا خلفه ببطء، وهي تتحسس كل خطوة، ومتشبثة بأصابعها في الصخور.

بالأسفل رأت دانيل يقف أمام مدخل صغير مستطيل الشكل قبالة المنحدر.

همست تارا "هل هذه هي المقبرة؟"

أخذ دانيل المصباح منها وقال "إنها مقبرة بالتأكيد. هل ترين لقد قُطعت الأحجار لتشكل مدخلا، ويمكنك هنا رؤية أثر أدوات النحت القديمة".

كـان نـصف المـدخل مسدودا بأحجار وركام، مخلِّفا فتحة في الجزء العلوي بعـرض متـر تقـريبا. أدخل دانيل رأسه، وأضاء المصباح في الظلام الدامس حيث حدثت حركة مفاجئة، وشعر أن شيئا ما يتقدم نحوه.

صرخت تارا "ما هذا؟"

ابتسم دانيل قائلا "خفافيش. إنها تحب المقابر، لا تقلقي".

تـسلق دانـيل حتـى وصل إلى الفتحة، ونهضت تارا لتتبعه، ولكن فجأة تفتت الحجـارة أسفل قدمها، فسقطت وهي متشبثة بجدار الأخدود، ولكن سرعان ما تهاوت

الأحجار، ووقعت تارا على ظهرها، وجرفتها الأحجار نحو حافة المنحدر، والأحجار الصغيرة تجري أسفلها كالمياه أسفل الشلال.

صرخ دانيل "تارا!"

لم تنجح تارا في التشبث بشيء، وكان رجع صدى الأحجار التي تتهاوى نحو أسفل المنحدر فظيعا، وكأنها سقطت في وابل من الحجارة. تساقطت الأحجار من أسفلها، واختفت في عمق المنحدر بينما دانيل يقف عند باب المقبرة لا يمكنه فعل شيء، وهي تنحدر أكثر وأكثر نحو الأسفل، حتى وصلت إلى حافة المنحدر، حيث تشبثت بها، واستطاعت رفع قدمها على مقدمة الصخرة دون أن تسقط.

خيّم الصمت لوهلة، حتى هدأ صوت ارتطام الأحجار المتساقطة بالجزء السفلي من المنحدر.

همست تارا "اللعنة".

ظلت تارا راقدة لبعض الوقت، تلتقط أنفاسها بصعوبة، ثم نهضت بحرص شديد، وقدماها مثبتتان بإحكام بحائطي الأخدود، في مكان ذي صخور صلبة.

نادى عليها دانيل "هل أنت بخير؟"

"نعم".

"ابقي مكانك ولا تتحركي".

تسلق دانيل باب المقبرة ممسكا بالمصباح، ومسلطا الضوء على الأحجار، وشق طريقه بحرص شديد نحو تارا، وأمسك بيدها، وجذبها من ظهرها حتى استقرت على سطح المنحدر مرة أخرى. تلونت ملابسها ووجها بلون رمادي جراء الأتربة العالقة بهما، بينما تمزّق قميصها أسفل المرفق وتلطّخ بالدماء.

"لقد تأذيت يا تارا".

"لا، أنا بخير". ثم نفضت التراب من على شعرها قائلة "هيا بنا نرى ما في هذه المقبرة".

ابتسم دانيل على عكس ما يوحي به الموقف قائلا "كنت أظن أنني وحدي من تسيطر عليه هذه الأفكار، أعتقد أنه كان يجدر بك أن تكوني عالمة آثار يا تارا".

"لا، فهي مهنة ليست مشوقة بما فيه الكفاية".

داخل المقبرة، وجدا نفسيهما في ممر منحدر ضيق، فسلط دانيل المصباح على جانب الباب، فرأى أن النصف الأسفل منه مسدود بأحجار وطوب طيني، وظل دانيل يحدق طويلا بالمكان من حوله.

أخيرا، قال دانيل "من المفترض أن يكون الباب بأكمله مسدودا بهذا الطوب الطيني. ولكن بمضي السنين تراكمت الأحجار عليه حتى لم يعد يظهر سوى الجزء العلوي فقط.

أدار دانيل المصباح إلى الجانب الآخر، وقال لها "انظري.. هذا هو الطوب".

بجوار حائط الممر توجد كومة من الطوب الطيني، بعضه كامل وبعضه مهشم، فأخذ دانيل طوبة منها، فوجد على سطحها رسما لتسعة رجال راكعين وأيديهم موثقة خلف ظهورهم، وفوقهم يجلس حيوان ابن آوى.

قالت تارا "ما هذا؟"

"إنه ختم المقبرة تسعة أسرى وفوقهم ابن آوى. أتدرين، لو كان الباب كما هو وعليه هذا الختم، فمعنى ذلك أن المقبرة لم تُمس، أي أنها كما هي منذ القدم".

ظلّ دانيل ينظر إلى الطوبة بين يديه لبعض الوقت، ثم وضعها بهدوء على الأرض، ووجّه الضوء إلى الممر مرة أخرى، حيث ظهرت حفرة ضيقة وسط الظلام الدامس، تنحدر تدريجيا لمسافة ثلاثين مترا حتى تصل إلى ما يبدو وكأنه غرفة. كان الظلام الدامس في هذا المكان لا يقارن بأي ظلام آخر رأته تارا في حياتها. بدأ الاثنان يتقدمان للأمام رويدا رويدا، بينما دانيل يحرك ضوء المصباح على الجدران والسقف. بعد عدة خطوات قليلة توقف دانيل.

سألت تارا "ماذا هناك؟"

"هناك شيء ما يتحرك".

"خفافيش؟"

"لا، شيء ما على الأرض".

وجّه دانيل الضوء نحو الأسفل، وإذا بشيء يأتي نحوهما مسرعا.

قالت بصوت رقيق، وكأنها تطمئن دانيل، "ابق كما أنت ولا تتحرك".

بين القاهرة والأقصر

كان قطار الليل المتوجه نحو الأقصر أقل ازدحاما منه وهو قادم إلى القاهرة، حتى أن خليفة كان وحده تقريبا في العربة بأكملها، فخلع حذاءه، وأشعل سيجارة، وبدأ يتصفح الملفات الخاصة بدرافيتش، وخلفه في مؤخرة العربة شاب وفتاة يلعبان الورق.

لم تكن قراءة الملفات بالأمر الممتع حيث توضح أن درافيتش وُلد في العام 1951 في ألمانيا الشرقية سابقا لرجل يعمل بالمخابرات، ومن ثم انضم إلى الحزب الشيوعي، وارتقى منصبا بارزا.

في طفولته، كان درافيتش متفوقا في الدراسة، وخاصة في مجال اللغات، وعندما بلغ السابعة عشرة، نجح في الحصول على مقعد في جامعة روستوك، حيث حصل هناك على دكتوراه في علم آثار الشرق الأدنى، ونشر كتابه الأول وهو في العشرين من عمره، حول تحليل النقوش القديمة، وأتبعه بمجموعة من المؤلفات أحدها حول المستوطنات اليونانية في الفترة الأخيرة في دلتا النيل وهو لا يزال حتى الآن كتابا مرجعيا في هذا المجال.

أنهى خليفة سيجارته، وأشعل أخرى، وهو يتذكر أنه قرأ هذا الكتاب أثناء دراسته في الجامعة. نظر لوهلة من النافذة إلى الفراغ والظلام المحيط بالمكان باستثناء بعض الأنوار بين الحين والآخر تنبعث من منازل القرويين على جانب الطريق، ثم عاد إلى الملفات بين يديه مرة أخرى.

منذ الوهلة الأولى كانت إنجازات درافيتش الأكاديمية يعكر صفوها ميله لاستخدام العنف. ففي الثانية عشرة من عمره، فقأ عين زميل له في عراك معه، ونجا من المحاكمة بفضل تدخل أحد أصدقاء والده. وبعد ذلك بثلاث سنوات، اتهم في جريمة قتل وحرق أحد الشحاذين في حديقة محلية، وبعدها بعام تورط في جريمة اغتصاب، وفي كل مرة كان يفلت من العقاب بفضل اتصالات والده، وهو ما جعل خليفة يهز رأسه مندهشا.

بدأ درافيتش عمله في الحفريات في مستهل العشرين من عمره في سوريا، ثم في السودان، ثم في مصر حيث عمل لخمسة مواسم متواصلة في نوكراتيس بالدلتا. وعلى الرغم من الشكوك المتواصلة حول ضلوعه في تهريب الآثار، إلا أن أحدا لم يفلح في إمساك شيء عليه، مما جعل مستقبله المهني ينمو ويزدهر. وفي الملف كانت هناك صورة له وهو يصافح الرئيس السادات، وأخرى وهو يتلقى جائزة من إيرك هونكر.

كان من المتوقع أن يكون مستقبله باهراً، ولكن سرعان ما تورط في حادث اغتصاب الفتاة التي تطوعت للحفر معه. وعلى الرغم من وقوع الحادث في مصر إلا أن الفتاة كانت ألمانية، ولذا تمت محاكمته في ألمانيا، ونجح في الإفلات من العقوبة، ولكن هذه المرة تأثر مستقبله المهني، حيث تم سحب منحة البحث الخاصة به، وكذلك ألغيت تصريحات الحفر، وتوقفت دور الطباعة عن نشر كتبه.

كل ذلك حدث منذ عقدين من الزمن، ومنذ ذلك الحين، وهو يتكسب من عمله في سوق الآثار، مستخدما خبرته في الحصول على الآثار، والتأكد من أنها أصلية، ليبيعها

للأثـــرياء. فـــي العام 1994 تم إيقافه في الإسكندرية لحيازته آثارا مسروقة، وأمضى حكمـــا بالـــسجن لمـــدة ثلاثة أشهر في سجن طرة بالقاهرة. وكما توضح آخر صورة الـــتقطت لـــه وهو يقف قبالة الحائط ويمسك بيده قطعة عليها رقم يضعها على صدره وهو يحدق بالكاميرا؛ رجل ضخم الجثة وعنيف إلى أقصى درجة.

بعـــد إطـــلاق سراحه من السجن، أصبح يدخل إلى مصر ويغادرها بطرق غير قانونـــية، وهـــو يـــنظم تهـــريب الآثار، ويبيعها في السوق السوداء بأوروبا والشرق الأقـــصى. على الرغم من صدور أوامر بالقبض عليه في سبع دول، فضلا عن العديد من محاولات القبض عليه، إلا أنه دوما ما كان يسبق القضاء بخطوة.

لـــم تكـــن هـــناك تفاصيل واضحة عن الأحداث الأخيرة في حياته، فكل ما هو معـــروف عـــنه حتى الآن أنه بدأ في العمل لدى سيف الثأر في منتصف التسعينيات. هـــناك إشاعات كثيرة حول وجود حسابات سرية له في بنوك سويسرية، وصلات مع مـــنظمات نازيـــة جديـــدة، وتـــورطه مع وكالات مخابرات غربية، ولكن معظم هذه الإشـــاعات هي مجرد قيل وقال. بعد العام 1994 ضعف نشاط درافيتش، ولكن ظلت هناك حقيقة واحدة وهي أنه لا يزال على نفس قدر السوء كما كان قبل ذلك.

بعد أن أنهى خليفة قراءة الملف، نهض ليريح قدميه قليلا، وتوجَّه إلى مؤخرة العـــربة، حـــيث وجد الشاب والفتاة قد توقفا عن لعب الورق ويستمعان إلى بعض الموســـيقى، فألقى عليهما التحية، وسألهما إلى أين سيذهبان. تجاهلاه معتقدين أنه يحاول بيع شيء ما، فابتسم وعاد إلى كرسيه مرة أخرى، وأشعل سيجارة أخرى، وبـــدأ يقرأ تقرير الطب الشرعي عن مقتل إكبار. وفي هذا الوقت، بدت الموسيقى الـــصادرة مـــن العـــربة متوافقة مع صوت عجلات القطار، وشعر خليفة بالنعاس يغلبه.

توقف القطار عندما وصل إلى جنوب بني سويف لمدة خمس دقائق، وكأنه يلتقط أنفاســـه، ثم مضى في طريقه ثانية. بعد دقيقة سمع خليفة صوت باب العربة يُفتح، ثم عـــمّ الهـــدوء لوهلة، قبل أن يكسره صوت الصرخات والضربات، وتوقفت الموسيقى الصادرة من الخلف.

نظـــر خليفة، وإذا بثلاثة رجال يرتدون جلاليب سوداء يقفون أمام الشاب والفتاة بينما المذياع ملقى على الأرض مهشما. أمسك أحد الرجال بشعر الشاب وأرجع رأسه للـــوراء، وأخـــرج ســـكينا، وقطع رقبته في حركة خاطفة بالكاد لاحظها خليفة، وإذا بالدماء تسيل على أرضية العربة.

نهض خليفة واقفا ليبحث عن مسدسه، ولكنه اكتشف أنه نسيه في الأقصر، فأخذ ينظر هنا وهناك باحثا عن شيء ما يستخدمه كسلاح، فوجد كومة من الكتب قد نسيها شخص ما على الكرسي المقابل، فبدأ يلقى بها على الرجال.

"ألقوا أسلحتكم، أنا شرطي".

ضحك الرجال، وتقدموا نحوه، ولكنه ظل كما هو لوهلة، ثم استدار، وأخذ يعدو حتـــى وصـــل إلـــى الباب الخلفي للعربة ومنه إلى العربة التالية والتي بها أشخاص كثيرون منهم مجموعة من الأطفال الذين كانوا يحملون مصابيح سحرية.

أخـــذ خلـــيفة يعـــدو وسط المقاعد حتى اصطدم بعبوة زيت طعام، فسقط على الأرض، وإذا بـــيد تجـــذب رأسه بعنف إلى الخلف، فأخذ خليفة يردد "يارب ساعدني، يارب احمني".

نظر خليفة، فوجد رجلا ضخم الجثة، وجهه نصفه أبيض ونصفه أحمر، ويمسك بيده مالجا مستقيما ذا أضلاع حادة. ضحك بصوت مرتفع، وهوى على رقبة خليفة.

ســـقط تقريـــر الطـــب الشرعي على الأرض، فاستفاق خليفة من هذا الكابوس وانحنـــى يجمـــع الأوراق بيـــنما صوت الموسيقى يأتي من مؤخرة العربة. نظر إلى الـــشابين فـــوجدهما نائمـــين، فهزّ خليفة رأسه وتابع جمع الأوراق من على أرضية العربة.

29

الأقصر، تلال طيبة

تــوجَّه الثعــبان مباشرة أعلى الممر ناحية دانيل وتارا، وعيناه تلمعان في ضوء المصباح.

كررت تارا نفس الجملة مرة أخرى "ابقَ ساكنا".

"يا الله! ما هذا يا تارا؟"

"الكوبرا سوداء الرأس".

"هل هي سيئة؟"

"ماذا تقصد بسيئة؟ لو لدغت أحدنا فلن ينجو منها، إنها عدائية وسامة للغاية وهي من النوع الذي ينفث السم أيضا، لذا لا تقم بأي حركات فجائية".

كانــت بطن الكوبرا تحدث صوت طقطقة مع احتكاكها بالأرض، وحاول دانيل تسليط الضوء عليها.

"اللعنة".

تــوقفت الكوبــرا علــى بعد عدة خطوات منهما، واتخذت وضعية الانقضاض، وعيناها السوداوان تلمعان، ويظهر فيهما غضب شديد. لقد كانت الكوبرا كبيرة، ويزيد طــولها عن المترين، ذات جلد سميك يشبه خرطوم المياه. شعرت تارا بأن دانيل بدأ يرتعش.

همست تارا "حاول أن تبقى هادئا، وكل شيء سيكون على ما يرام".

أخــذت الكوبــرا تتأرجح يمينا ويسارا، ثم نزلت على الأرض، وزحفت للأمام قلــيلا، ثــم صعدت على حذاء دانيل ولسانها الذي يشبه الشوكة يلمس جلد الحذاء، ثم تراجعت قليلا، وبدأت تستكشف كعب القدم، والتفت ببطء حول قدمه.

قالت تارا "أطفيء المصباح".

"ماذا؟"

"أطفيء المصباح الآن، إنه يثيرها".

في هذه اللحظة، كان لسان الكوبرا يداعب جلد دانيل، وأصبح بالكاد يلتقط أنفاسه.

همس دانيل "لا يمكنني البقاء معها في الظلام".

"افعل ذلك يا دانيل".

"يا الله".

وبالفعل، أطفأ دانيل المصباح، وخيّم ظلام دامس، وكأن أعينهما قد اكتست بغطاء غليظ. خيّم صمت رهيب باستثناء صوت ذيل الكوبرا، وأنفاس دانيل.

"إنها تصعد على قدمي".

"ابقَ هادئا قدر المستطاع".

"ستلدغني".

"لن تفعل إذا بقيت هادئا".

"إنها كلها حول قدمي الآن، ولا يمكنني تحمل ذلك. افعلي شيئا يا تارا أرجوك افعلي شيئا".

بدأ الرعب يتسرب إلى نفس دانيل، بحيث بدأت الكوبرا تشعر بذلك أيضا وهو ما جعلها أكثر استعدادا للدغ.

همست تارا "أخبرني عن ميري آمون".

"اللعنة على ميري آمون".

"أخبرني عنه يا دانيل".

نطق دانيل والرعب يملؤه، "إنه ابن الملك أماسيس، وعاش في العام 550 قبل الميلاد تقريبا، وعمل ككبير كهنة آمون بمعبد الكرنك".

"استمر يا دانيل".

"عثر كارتر على اسمه مكتوبا في الوادي، ومشيرا إلى مكان المقبرة الخاصة به بجوار الطريق الجنوبية على بعد عشرين مترا من المياه في السماء وهو ما نعتقد أنه منحدر في الجزء العلوي من الوادي".

صمت دانيل، ولم يعد هناك صوت سوى صوت الهواء من حولهما.

سألت تارا "ماذا يحدث؟"

"إنها ليست على قدمي، ولكنني أشعر بها".

أخذت تارا تفكر لدقيقة.

"ماذا هناك يا تارا؟"

"حسنا، أريدك أن تضيء المصباح ثانية، ولكن سلّط الضوء نحو الأعلى وليس على الأرض، وافعل ذلك ببطء شديد، وتجنب الحركات المفاجئة".

أضاء دانيل المصباح، وسلّط الضوء نحو الأعلى، وتمكنت تارا من رؤية الكوبرا واقفة بين قدمي دانيل ورأسها موازية للمنطقة المنفرجة أعلى قدميه.

"إنها معجبة بك يا دانيل".

نطق دانيل وأسنانه مطبقة على بعضها البعض، "أعتقد أنني أهل لهذا الإعجاب".

انحنت تارا ببطء، وذيل الكوبرا يتراقص خلف حذاء دانيل.

"أخفض الضوء ببطء يا دانيل".

فعل دانيل ذلك بهدوء، في الوقت الذي تأرجحت فيه الكوبرا جيئة وذهابا، ورأسها يتمدد، وهي علامة ليست جيدة، فمعنى ذلك أنها مغتاظة الآن. ببطء شديد، وضعت تارا يدها في جيبها، وأخرجت منديلا، وأمسكت به بعيدا عنها، محاولة جذب انتباه الكوبرا التي أخذت تنظر إلى المنديل مرة وإلى تارا مرة أخرى، ثم تراجعت نحو الوراء، وأصدرت صوتا وكأنها تعطس، ثم نفثت سمها على المنديل الأبيض، وشعرت تارا ببعض هذا السم على يدها وذراعها اللتين أخذتا تؤلمانها حينذاك.

نطق دانيل وهو ينظر نحو الأسفل دون أن يحرك رأسه "ماذا يحدث؟"

"ابق بلا حراك يا دانيل، إنني أحاول إبعادها".

"لا تخبريني أنك ستلمسينها، رجاء لا تلمسيها يا تارا".

"سأكون بخير، فلدينا كوبرا في الحديقة أتعامل معها طوال الوقت".

فكّرت تارا قائلة في نفسها، ولكنني أتعامل معها بالمقبض وليس عارية اليدين هكذا، بالإضافة إلى استخدامي القفازين والنظارة الواقية. حاولت تارا طرد ذكريات عضة الكوبرا في الحديقة، واستمرت في التلويح بالمنديل بيدها اليسرى، وبدأت في تحريك يدها اليمنى للإمساك بالكوبرا عند النقطة السوداء تحت الرأس مباشرة.

همس دانيل "يا الله".

تجاهلته تارا، وركّزت انتباهها على الكوبرا، التي نفثت سمها على المنديل مرتين. وفي كل مرة، كانت تارا تجمّد يدها اليمنى، وتغلق عينيها، وتنتظر بضع ثوان قبل أن تحرك يدها مرة أخرى، وتبسط أصابعها أسفل رأس الكوبرا، وهي تتوقع في

أي وقت أن تغرس أنيابها في جلدها. أخذت تارا تفكر: لا بد أن أفعل ذلك على النحو الصحيح، فلو انخفضت يدي قليلا، فسيكون لديها فراغ واسع لتلتف وتلدغني، وإذا ارتفعت يدي قليلا، فسأضعها بين أنيابها مباشرة، لا بد أن أضبط المسافة بدقة.

همس دانيل "ماذا يحدث؟"

"لقد أوشكت على الانتهاء".

كانت يدها على بعد سنتمترات قليلة عن رقبة الكوبرا، وقطرات العرق تتساقط على عينيها، وأطراف أصابعها ترتعش بشدة، وكأنها تلوّح بها.

"أرجوك يا تارا، ماذا يحدث؟"

نفثت الكوبرا السم مرة أخرى، على المنديل وليس على يد تارا. وبغريزتها فقط قامت تارا بحركة خاطفة، حيث أبعدت يدها اليسرى، وفي نفس الوقت، قدمت يدها اليمنى ممسكة بالكوبرا من تحت الرأس مباشرة، فما كان من الكوبرا إلا أن أخذت تتلوى في يدها وذيلها يصطدم بقدم دانيل.

انتفض دانيل، وعاد إلى الوراء قائلا "يا الله، وسقط المصباح من يده".

"كل شيء على ما يرام يا دانيل، لقد أمسكت بها".

التوت الكوبرا، والتفت حول ذراع تارا، وهي تناضل باستماتة، ولكن قبضة تارا كانت ثابتة، ولم تستطع الكوبرا الفرار. التقط دانيل المصباح وأضاءه، وإذا بفم الكوبرا مفتوحا وأنيابها تشبه الإبر.

"يا الله، لا أصدق أنك فعلت ذلك يا تارا".

"ولا أنا يا دانيل".

مرت تارا من وراء دانيل، وتسلقت نحو الخارج، والكوبرا تتأرجح في يدها وكأنها علم يرفرف، وشقت طريقها بحرص عبر الأخدود، حتى وصلت قرب نهايته، وأسقطت الكوبرا في الهواء، التي بدت وكأنها خيط يتهاوى من السماء حتى غابت عن الأنظار.

رجعت تارا إلى المقبرة مرة أخرى، وهي تلتقط أنفاسها بسهولة.

قالت تارا بصوت أهدأ كثيرا مما تشعر به بالفعل "حسنا، دعنا نرى ما في هذه المقبرة، أيمكننا ذلك؟"

كانت الغرفة في نهاية الممر مستطيلة الشكل وصغيرة، لا تزيد عن ثمانية أمتار طولا وأربعة أمتار عرضا، وجدرانها مزينة بأعمدة من الرموز الهيروغليفية ذات مشاهد خلابة بالالوان الحمراء والخضراء والصفراء، ويوجد أسفل الجدران خط

متواصـــل من الثعابين رؤوسها موجهة نحو الأسفل، تشبه تلك الموجودة على القطعة الأثرية التي وجداها في سقارة، وباستثناء ذلك كان المكان خاويا تماما.

كانت هناك منطقة منخفضة بطول متر تقريبا تصل بين الممر وأرضية الغرفة. قفزت تارا إلى الأسفل على الفور، بينما ظل دانيل مكانه لوهلة، يوجّه ضوء المصباح هـــنا وهناك، ثم قفز إلى جوارها. مرر دانيل ضوء المصباح على الأرض، ثم رفعه ببطء، وسلّطه على الجدران، حيث ظهرت أشكال عديدة. أخذ يجول بعينيه هنا وهناك، ولكنه شعر بالهدوء عندما بدأ يركز تدريجيا على الأشكال المرسومة بالألوان الزاهية والوجوه الغريبة وصفوف الرموز الهيروغليفية، وظهرت ابتسامة واسعة على وجهه، ولمعت عيناه.

همس دانيل لنفسه إنها جيدة، بل جيدة جدا.

ســـلّط دانيل المصباح على أحد الرسومات؛ شكل يعكس صورة حيوان ابن آوى يقـــود رجلا إلى مجموعة من الموازين، وفي الناحية المقابلة شكل آخر لأيبيس يمسك بلوح وقلم بيده.

سألت تارا "ما هذا".

"إنها صورة من كتاب الموتى، توضح أنوبيس إله الموت، وهو يقود أحد الموتى إلـــى مـــوازين الحـــساب، حيث يتم وزن قلبه، ويكتب الإله توت النتيجة، وهو مشهد متكـــرر في كل المقابر المصرية كهذا المشهد هناك، ووجّه المصباح تجاه منظر آخر لرجل أحمر البشرة، يعتمر قبعة بيضاء، ويمدّ يده بما يشبه برطمان، وأمامه سيدة ذات بشرة صفراء، وعلى رأسها قرنا ثور، ووسطهما قرص مستدير.

قـــال دانـــيل "في هذا الشكل، يقدم الميت القرابين إلى الإله إيزيس، حيث يرمز اللـــون الأحمـــر لبـــشرة الرجل والأصفر لبشرة المرأة؛ والشكل مرسوم بعناية فائقة. انظـــري إلى الدقة في الخطوط وكثرة الألوان، إنه شكل رائع، لا أكاد أصدق ما ترى عيناي".

أخذ دانيل ينظر إلى الأشكال مندهشا مما يرى.

ســـألت تـــارا "وما هذه الأشكال؟" وأشارت إلى مشهد مرسوم على أحد الجدران الجانبية، رجلان قباله بعضهما البعض يضعان لحى وشعرا مستعارا في شكل ضفائر. أحدهما جالس، والآخر راكع، وكل منهما له مظهر مختلف عن صاحبه.

وجّـــه دانـــيل المصباح إلى المشهد، وقال "أنت محقة، إنهما مختلفان من ناحية الأســـلوب، فهما فارسيان، وليسا مصريين، ويبدو ذلك من الشعر واللحى المستعارة،

وإذا ما ذهبت إلى المناطق الأثرية في سوسة والأماكن المجاورة لها، فستجدين مشاهد كثيرة مشابهة لهذا المشهد، وعلى العكس لا يوجد لهما أثر في المقابر المصرية". ثم وجّه المصباح لمشهد آخر، وقال لها "نفس الشيء تجدينه هنا على الجدار المقابل، رجل ملتح ويرتدي ثوبا أبيض، يقف أمام منضدة مليئة بالفاكهة".

قال دانيل "هنا نجد أن الأسلوب أصبح يونانيا، ويتضح ذلك من خلال ارتدائه للتّوجه (ثوب روماني فضفاض)، فضلا عن أن بشرته شاحبة ولحيته أقصر وأشعث، وهو أمر غير مألوف في المقابر المصرية، ولكنه موجود في مقبرة بيتوسيريز في تونا الجبل، وكذلك مقبرة سي آمون في سيوة، غير أنه أمر نادر للغاية. ياله من مشهد فريد، وكأن هناك ثلاثة أشخاص مختلفين قد دُفنوا هنا، إنه أمر لا يصدق!"

استدار دانيل ببطء، وهو يسلّط الضوء على الجدران، مأسورا تماما بكل ما يراه، وكأنه هو من اكتشفها، بينما كانت تارا تنظر إلى الفجوة في مؤخرة الغرفة.

اقترب دانيل من تارا قائلا "إنه المكان الخاص ببرطمانات حفظ أعضاء الموتى. فعندما يموت الشخص، ويتم تحنيطه، تؤخذ أعضاؤه وتوضع في أربع حاويات. واحدة للكبد، وأخرى للمثانة، وثالثة للمعدة، ورابعة للرئة ثم يتم وضعها جميعا في هذا المكان".

بدا الأمر وكأن دانيل يصطحبها في جولة سياحية، مما جعلها تبتسم في داخلها، وهي تتذكر عندما كان يصطحبها إلى المتحف البريطاني حين كانا حبيبين في الماضي، ويوضح لها باستفاضة كل التفاصيل الخاصة بالآثار هناك.

أشارت تارا إلى إحدى اللوحات المرسومة قائلة "وماذا عن هذه يا بروفيسور؟"

سلّط دانيل المصباح نحو اللوحة المنقسمة إلى ثلاثة أجزاء فوق بعضها البعض، ففي الجزء العلوي يوجد خط من الأشكال تسير فوق صفحة صفراء، وأسفلها تظهر الأشكال تتعثر أسفل عربة تجرها الخيول، يقودها مخلوق بجسد رجل ورأس حيوان، ويمسك بصولجان في يده. أما المشهد الأخير فيحتوي على شكل واحد فقط موجود على الصفحة الصفراء حيث يوجد رجل طويل يحمل علامة مفتاح الحياة في يده، ويعتمر قبعة على شكل زهرة اللوتس.

قال دانيل "هذه اللوحة تروي قصة، فالجزء الأول منها يظهر بعض الجنود، أما الشكل الثاني فيرمز للإله سيث إله الحرب والصحراء أيضا وهو يضرب هؤلاء الجنود، مما يعني أنهم لقوا هزيمة في المعركة على الرغم من عدم وضوح العدو الذي يقاتلهم، وأخيرا يشير الجزء السفلي إلى الإله نفرتام إله البعث".

"وما معنى هذا يا دانيل؟"

"أعتقد أن ذلك ربما يشير إلى بقاء روح الجيش حتى بعد هزيمته أو أن بعضا من الجنود قد نجا من القتل. من الصعب يا تارا التأكد من رموز قدماء المصريين فقد كانوا يفكرون بطريقة مختلفة تماما عن الآن".

ظلّ دانيل ينظر إلى الأشكال قليلا، ثم سلّط الضوء على الجدران على جانبي فتحة الممر حيث كانت مغطاة برموز هيروغليفية صغيرة، ولاحظ وجود فجوة صغيرة في وسط الجدار الأيسر.

قال دانيل "هذا هو مكان القطعة الأثرية التي معنا، أترين كيف تكتمل الصورة بالأسفل مع رؤوس الثعابين الموجودة على القطعة؟"

انحنى دانيل قليلا وتارا إلى جواره، والظلام يخيم حولهما، وكأنهما قد غرقا في بحر من الظلمات، حتى أن تارا كانت تسمع صوت نبض قلبها.

قالت تارا "فلنضع القطعة مكانها فهذا ما أتينا لأجله".

نظر إليها دانيل، ثم أخرج القطعة من حقيبة الظهر، ووضعها بعناية في الفجوة، بحيث إنك إذا نظرت إليها، لم تكن لتتخيل قطّ أنها انتزعت من مكانها قبل ذلك.

سألت تارا "ما معنى ذلك".

نظر إليها دانيل مرة أخرى، ثم تراجع قليلا للخلف، وسلّط الضوء على الرموز الهيروغليفية، وبدأ يقرأ بترجمة سريعة وواثقة. وعندما وصل إلى أطراف النص، بدا صوته، وكأنه صادر من مكان بعيد يرجع إلى عصر قدماء المصريين، مما جعل تارا تشعر وكأن الشعر على كتفيها بدأ ينتصب.

"أنا – أب – وير – أمينتي أرقد هنا في العام الثاني عشر من حكم ملك مصر العليا والسفلى ستوت – رع – ثار – ي – يوش.. هذه هي المقبرة الملكية للإمبراطور الفارسي داريوس.. في اليوم الرابع من شهر أخيت. أنا محبوب داريوس وخادمه المخلص وحاميه وتابعه ونائبه على الجيش، العادل والمخلص والصادق. كنت إلى جواره في اليونان وليديا وفارس واشكالون".

توقف دانيل لوهلة عندما وصل إلى أسفل العمود الثالث.

سألت تارا "ما معنى هذا".

"إن هذا يشير إلى أن المقبرة ترجع إلى الفترة الأولى من الاحتلال الفارسي، فقد غزا الفرس مصر تحت قيادة قمبيز في العام 522 قبل الميلاد، وهذا الشخص هنا قد مات في العام الثاني عشر من حكم داريوس، أي أنه مات في العام 510 قبل الميلاد".

كانت تارا تشعر وكأن عقل دانيل يطن طنينا.

استطرد دانيل "لابد أن هذا الرجل كان أحد جنرالات داريوس، وهو ما يتضح من الألقاب التي يتمتع بها فهو تابع الملك ونائبه على الجيش. ليست لديك فكرة عن مدى أهمية ذلك يا تارا، إنها مقبرة أحد جنرالات الملك، فضلا عن أن المقبرة ترجع إلى القرن السادس، ولم يسبق أن اكتشفت مقابر من هذه الفترة قبل ذلك في طيبة. إنه أمر لا يصدق!"

قالت تارا "أكمل يا دانيل ماذا عن البقية؟"

سلّط دانيل ضوء المصباح إلى أسفل العمود الرابع، وقرأ

"لقد دمّرت النوبيين بأمر من سيدي، وحولتهم إلى تراب متناثر، وحصلت على شهرة واسعة، وأخضعت اليونانيين، وتخلصت من الليبيين، وأنقتهم الموت جرعات جرعات، وكان سيفي ماضيا، وقوتي هائلة دون ذرة خوف واحدة بفضل مساعدة الآلهة".

أخفض دانيل ضوء المصباح نحو الأسفل لوهلة، وقال "من هنا تبدأ القطعة الخاصة بنا مع بداية العمود التالي".

"في العام الثالث تحت قيادة ملك مصر العليا والسفلى مس - يو تي - رع كم - بت - جت... مرة أخرى أحد الملوك الفرس وهو قمبيز هذه المرة... وقبل أن أحصل على هذه الشهرة الواسعة وفي الشهر الثالث من بيريت ذهبت إلى الصحراء الغربية إلى سيخيت - أميت لتدمير أعداء الملك".

توقف دانيل مرة أخرى، وأمارات الدهشة تبدو على وجهه.

سألت تارا "ماذا هناك يادانيل".

"سيخيت - أميت إنه..."

توقف دانيل لوهلة، وهو يفكر، ثم استكمل الترجمة دون أن يكمل الجملة، وصوته أبطأ الآن وأكثر تركيزا، وكأنه يفحص ويتأكد من كل كلمة ينطقها.

"عند الهرم على بعد 90 إيترو إلى جنوب وشرق سيخيت- أميت في وسط وادي الرمال حيث كنا نتناول وجبة الظهيرة هبت عاصفة شديدة، وخيّم الظلام على العالم بأسره، واحتجبت الشمس تماما. ووارت الرمال 50,000 جندي، وقد نجوت وحدي، برحمة من الآلهة، حيث سرت مسافة ستة إيترو في الصحراء جنوبا وشرقا حتى وصلت إلى أرض الأبقار. وكم عانيت من الحرارة والظمأ والجوع حتى أنني أوشكت على الموت في مرات عديدة. ولكن أخيرا، وصلت إلى أرض المقابر بفضل من الآلهة فقد كنت مطيعا لها".

بدأ صوت دانيل يتلاشى، فنظرت إليه تارا، ووجدت أن شفتيه تتحركان دون صوت، ولاحظت مدى الدهشة على وجهه حتى وسط هذا الظلام الدامس.

كانت يداه ترتعشان، وضوء المصباح يهتز.

همس دانيل "يا الله". وكأن حلقه مختنق.

"ماذا".

لم يجب دانيل.

"ماذا هناك يا دانيل؟"

"إنه جيش قمبيز".

اتسعت عيناه وسط شعور بالدهشة والانتصار.

"ما هو جيش قمبيز؟"

لم يجب دانيل على الفور، وإنما ظل محدقا بالجدران غير مكترث بسؤالها، وكأنه في فترة نشوة. بعد دقيقة تقريبا، هزّ دانيل رأسه، وكأنه يحاول ايقاظ نفسه، وأخذ بيد تارا متوجها عبر الغرفة إلى اللوحة مرة أخرى، وسلّط ضوء المصباح على الجدران.

بدأ دانيل يشرح الموقف لتارا قائلا "في العام 525 قبل الميلاد، غزا قمبيز ملك الفرس مصر، وضمها للامبراطورية الفارسية، وبعد ذلك بقليل أي قرابة العام 523 قبل الميلاد أرسل جيشين من طيبة قاد هو الأول وتوجَّه به جنوبا لقتال الأثيوبيين. أما الثاني فتوجَّه إلى الشمال الغربي عبر الصحراء لتدمير مقر أتباع آمون في واحة سيوة، وهي ما يطلق عليها المصريون سيخيت - أميت أي مقر أشجار النخيل".

سلّط دانيل ضوء المصباح على العمود الأول من الأشكال الثلاثة الموجودة على اللوحة، وهو ما يوضح سير مجموعة من الأشخاص في الصحراء.

"طبقا لما أورده المؤرخ اليوناني هيرودوس الذي كتب عن هذه الحادثة بعد وقوعها بخمسة وسبعين عاما، وصل الجيش إلى واحة تسمى جزيرة المبارك، وهي تعرف الآن باسم الخارجة، في مكان ما بين مكاننا هنا وواحة سيوة، ولكنها تقع في بحر الرمال الأعظم، وقد هبت عاصفة رملية شديدة اكتسحت الجيش بأكمله، والتهمت جيشا من 50 ألف جندي في لمح البصر".

سلّط دانيل ضوء المصباح على الشكل الثاني الذي يوضح هزيمة الجنود تحت صولجان سيث.

"لم يعرف أحد على الإطلاق مدى صحة هذه القصة، ولكن هذا النص الذي بين أيدينا يؤكد ذلك. ليس ذلك فحسب، وإنما يؤكد أيضا أن شخصا واحدا على الأقل قد

نجا من العاصفة. لا أعرف كيف نجا، ولكن النص يؤكد ذلك". سلّط دانيل الضوء على الـــشكل الـــثالث والذي يوضح صورة إله البعث، وهو ما يعني أن الجيش قد فُني عن آخره باستثناء الشخص المدعو آب – وير – أمينتي.

سألت تارا "ولكن ما هي أهمية ذلك".

أجـــاب دانيل دون أن يرفع رأسه عن الجدار، وبعد أن أخرج سيجارا من جيبه، وأشعله مضيئا الغرفة بأكملها "إن مجرد تأكيد صحة قصة هيرودوس له أهمية كبيرة، ولكن هناك المزيد يا تارا".

أخذ دانيل بيدها، وعادا إلى النص مرة أخرى، وقال انظري "إن هذا الشخص لا يخبـــرنا فقط بنجاته من العاصفة الرملية، وإنما يوضح بدقة موقع الجيش. انظري هنا فـــي مكـــان الهرم على بعد 90 إيترو جنوبا وشرقا من سيخيت– أميت. أنا لا أدري شخصيا ما هو مكان الهرم هنا، ولكن أعتقد أنه نتوء جيري على شكل هرم، ونعرف أيضا أن إيترو هي وحدة قياس قديمة تساوي كيلومترين تقريبا. وقد أضاف الرجل أنه ســـار فـــي الـــصحراء لمسافة 60 إيترو إلى الجنوب والشرق حتى وصل إلى أرض الأبقار، وهي المعروفة الآن باسم واحة الفرافرة الواقعة بين الخارجة وسيوة. الآن أما زلت لا تدركين مدى أهمية ذلك؟ إن لدينا هنا خريطة مفصلة لمكان جيش قمبيز. 60 إيترو شمال غرب واحة الفرافرة، و90 إيترو جنوب شرق سيوة في موضع الهرم، يا للروعة".

كـــان الجـــو حـــارا في المقبرة، وأخذ وجه دانيل يتصبب عرقا. أخذ دانيل نفسا عمـــيقا مـــن السيجار، وقال "هل لديك أي فكرة عما يعنيه ذلك؟ لقد ظل علماء الآثار يبحـــثون عن جيش قمبيز المفقود لسنوات طويلة، فقد كان حلما يراودهم جميعا، ولكن المـــساحة الـــشاسعة للصحراء الغربية حالت دون تحقيق ذلك. فقد ذكر هيرودوس أن الجـــيش دُفن في وسط الصحراء وهو أمر مبهم، أما بواسطة هذه المؤشرات، فيمكننا تحديـــد موقعه على وجه الدقة في مسافة لا تعدو بضعة أميال مربعة. ولو قمنا بمسح جـــوي لهـــذا الموقـــع، فلن يكون من الصعب تحديد هذا الشكل الهرمي وسط الكثبان الرملية المنتشرة هناك، فوسطها سيبدو الشكل الهرمي كأنه نار على علم، ولا شك أننا ســـنعثر عليه في خلال يومين أو أقل. فقط إذا كانت لدينا القياسات، هل بدأت تفهمين الآن؟"

"بالطـــبع، ولهـــذا تعتبـــر القطعة التي بحوزتنا مهمة للغاية، لأنها تحتوي على القياسات من سيوة وجزء من الفرافرة، فبدونهما لن تزيد فرصك في الوصول للموقع

عن فرص مئات من علماء الآثار الذين حاولوا سابقا الوصول إليه. ومن هنا يسعى سيف الثأر بشتى الطرق للحصول عليها".

صمت دانيل لوهلة، وهو ينظر إلى الجدار بينما الأفكار تجول بخاطر تارا.

استطرد دانيل "جيش كامل يتكون من 50 ألف جندي بكامل عتادهم تحت رمال الصحراء! يا الله! سيكون ذلك أعظم اكتشاف في تاريخ الآثار. حتى أن مقبرة توت عنخ آمون مقارنة به ستبدو محلا صغيرا للهدايا. لقد بيع درع صدرية ترجع إلى نفس فترة هذا الجيش منذ سنتين تقريبا مقابل مائة ألف دولار، على الرغم من أنها بيعت قطعة قطعة. يا الله! إن إكتشافا كهذا سيجعل سيف الثأر أغنى رجل في الشرق الأوسط، ولا يمكنني تخيل مقدار الشر الذي سيسببه للعالم لو امتلك هذه الثروة".

وقف الاثنان في صمت، بينما بدأ ضوء المصباح يضعف.

"ماذا عن السفارة البريطانية؟ سكويرز وجمال؟"

أجاب دانيل "لابد أنهما عرفا شيئا عن المقبرة، ولو كان ما قاله إسماعيل صحيحا، فلابد أنهما يريدان الحصول على القطعة المفقودة كسيف الثأر تماما".

"إن الخطورة كبيرة هنا، أكبر كثيرا مما كنت أتوقع".

وقف الاثنان في صمت، وتارا ترتعش على الرغم من حرارة الغرفة.

أخيرا، سألت تارا "وماذا عن البقية، بقية النص الذي توقفت عن قراءته".

"حسنا، أين توقفنا؟ نعم توقفنا هنا". بدأ دانيل يقرأ بتركيز ثانية وبدت الكلمة التالية وكأنها اسم. اقترب دانيل أكثر وأكثر وهو يحدق بالجدار قائلا "أعتقد أنه اسم مصري مأخوذ من أصل يوناني ومن الصعب تحديده لأن المصريين كانوا يستخدمون حروف ساكنة فقط".

نطق دانيل الكلمة ببطء.

"ديمكوس أو ديماكوس شيء كهذا. ديماكوس هو اسمي ابن..." ثم توقف ثانية.

"... منديز من ناكوس عندما ذاع صيتي أطلقوا عليّ اسم آب - وير - أمينتي".

علق دانيل ضاحكا بالطبع.

"ماذا هناك يا دانيل؟"

"إنه تلاعب بالكلمات، وهي تعني القلب العظيم من الغرب، وفي نفس الوقت يمكن قراءتها على أنها الظمأ الشديد؛ وهو ما يصدق على رجل سار عشرين كيلومترا وحده في الصحراء، ولابد أنه من أصل يوناني، مرتزق على الأرجح، فمصر كانت مليئة بهم في هذا الوقت. جندي يوناني في خدمة حاكم فارسي بلقب مصري".

سلّط دانيل ضوء المصباح على الأشكال التي نظر إليها من قبل، الرجل ذو البشرة الباهتة أمام المنضدة المليئة بالفاكهة، والرجل ذو الشعر واللحية المستعارة راكعا أمام الملك، وأخيرا الرجل أحمر البشرة الذي يقدم القرابين لإيزيس.

"لهذا لدينا ثلاثة أساليب مختلفة هنا توضح ثلاثة جوانب مختلفة لنفس الشخص أحدها يوناني والآخر فارسي والثالث مصري. إنه أمر رائع، رائع للغاية".

سلّط دانيل الضوء مجددا على الجدار، وبدأ يقرأ في الأعمدة الخمسة الأخيرة.

"عندما ذاع صيتي، وكيف عدت من بين الأموات، قربني قمبيز منه، وجعلني يده اليمنى، وقدّمني وجعلني صديقه ومحبوبه لأنني عدت حيا من الصحراء، ولأنه علم أن الآلهة ساعدتني.

لقد أعطاني الكثير من الأراضي والألقاب والأموال وفي ظل حكم داريوس عشت سنوات مديدة في رخاء وعظمة، وتفوقت على سائر أقراني، وحصلت على كل أوسمة الكرامة والثراء. تزوجت وكان لي من الأولاد ثلاثة، وتبوأت مكانا عظيما في مجلس الملك، وكنت دوما مخلصا وشجاعا وصادقا، واحتللت مكانة عظيمة في مجلس النبلاء.

ضيعتي كانت في واسط.. واسط هي الاسم المصري القديم لطيبة والمعروفة حاليا بالأقصر... وهناك كنت سعيدا وقانعا وعشت سنوات مديدة ولم أعد قطّ إلى ناكسوس مكان مولدي.

إلى كل بني البشر الذين سيمرون بجوار هذه المقبرة، ويحبون الحياة، ويكرهون الموت. رددوا معي فليعش أوزيريس..."

بدأ صوت دانيل يخفت شيئا فشيئا، كما خفت ضوء المصباح.

"البقية يا تارا هي مجرد أدعية من كتاب الآخرة". هزّ دانيل رأسه، وأخذ نفسا عميقا من السيجار الذي اتقدت مقدمته بلون برتقالي وسط الظلام. يالها من قصة رائعة، أحد المرتزقة اليونانيين من جيش قمبيز، عاد من بين الأموات، وأصبح صديقا وشخصا مقربا من الملوك، وكأنها أسطورة من أساطير هوميروس، وكنت أمضي حياتي كلها...".

فجأة ظهر صوت ارتطام بعض الأحجار في الأخدود بالخارج. نظر دانيل إلى تارا منزعجا، وأطفأ المصباح والسيجار، وخيّم الظلام على المكان. كان هناك صوت همس خافت يأتي من أعلى الممر، ثم صوت تسلق شخص ما للمقبرة. اختبأ دانيل وتارا في أحد الجوانب بجوار الجدار، وهي متشبثة بكتفه تريد الصراخ ولكنها لا تستطيع.

ارتفع الصوت تدريجيا، وظهر شعاع ضوء في الممر في الغرفة، وتزايد الهمس، ثم صوت وقع أقدام متجهة نحوهما. عشرون مترا، عشرة، خمسة ثم ظهر الرجال على مدخل الغرفة. خيّم الصمت لوهلة، ثم قفز رجل يرتدي جلبابا أسود من الممر إلى الغرفة.

انقض دانيل على الرجل صارخا، ثم طرحه أرضا.

"اهربي يا تارا بحق الله، اهربي".

قفز رجلان آخران إلى الغرفة، وطرحا دانيل أرضا.

صرخت تارا "دانيل".

أسرعت تارا نحو دانيل، إلا أن أحد الرجلين أمسك بها، وطرحها أرضا، فسارعت بالنهوض مرة أخرى تضربه بقبضتيها، ولكنه ضربها ضربة أسقطتها أرضا، وأصبحت بالكاد تتنفس. ظل الصراخ والحراك في المكان، ثم فجأة امتلأت الغرفة بالأضواء، ولم تستطع تارا الرؤية للوهلة الأولى، لأن عينيها لم تعتادا على هذا الضوء.

نطق شخص ما بلهجة يكسوها الضحك "لقد سقط الفئران في المصيدة".

فتحت تارا عينيها تدريجيا، ورأت أربعة رجال يقفون أمامها. اثنان منهم يحملان بنادق رشاشة، وثالث يحمل بندقية، والأخير يحمل هراوة، وفي أعلى الممر وقف درافيتش ممسكا بمصباح، وخلفه الكثير من الرجال. نهضت تارا غير متزنة إثر الضربة، في نفس الوقت الذي نهض فيه دانيل أيضا وأنفه ينزف دما حيث توجّه إلى جوارها.

سألته تارا "هل أنت بخير؟"

أومأ دانيل بالإيجاب. نظر درافيتش إلى أرضية الغرفة، ثم أعطى المصباح للرجل الواقف بجواره، وقفز إلى الغرفة.

"أنا لا أرى الكوبرا، صديقتنا لم تكن حارسا أمينا كما اعتقدت، وللأسف لن أتمكن من رؤيتكما تموتان ببطء وسمها يسري في جسديكما".

تقدم درافيتش نحوهما وخيال جسده الضخم يملأ نصف الغرفة حاجبا الضوء. انزوت تارا في ركن الغرفة، ووجنتها تؤلمها إثر الضربة التي تعرضت لها.

نطق دانيل بصوت غليظ وفمه ينزف دما "كيف عرفت أننا هنا؟"

ضحك درافيتش قائلا "هل تعتقد أننا سنحمي المقبرة بكوبرا لعينة؟ يالكما من غبيين، لدينا مخبأ سري في أعلى الأخدود به أحد رجالنا، أخبرنا بقدومكما على الفور، فعدنا إليكما".

سألت تارا بصوت مرتجف "ماذا ستفعل بنا".

"بالطبع سأقطعكما". قالها درافيتش بصوت واثق، "ولكن الأمر يتوقف على الطريقة والوقت وما سأفعله بك أولا يا تارا".

همست تارا "لقد قتلت والدي".

"آه، لكم تمنيت ذلك، ولكن للأسف سقط الرجل سريعا قبل أن أفعل ذلك، وكنت حزينا مثلك تماما".

لاحظ درافيتش الألم في عيني تارا، فتضاعفت ضحكته.

"لقد كان واقفا أمامي، ثم سقط على الأرض فجأة يرتعش كحيوان مريض، لم أرَ شخصا يموت على هذا النحو من قبل".

استدار درافيتش، وقال شيئا ما بالعربية للرجال الذين انفجروا في الضحك أيضا.

على الرغم من خوفها، إلا أنها استجمعت قواها، ثم بصقت في وجهه بكل ما أوتيت من قوة. توقف الضحك فجأة في الوقت الذي استعدت فيه تارا لتلقي ضربة محتومة.

لم تحدث هذه الضربة على أي حال، حيث ظل درافيتش في مكانه بلا حراك واللعاب يتساقط من على وجنته الحمراء، ثم رفع يده ومسح وجنته.

سألها بهدوء شديد "هل تعرضت للإيذاء قبل ذلك؟ لا! تأكدي أن ذلك سيحدث لك".

صرخ دانيل "لا تفعل ذلك يا درافيتش".

"لا تحزن يا دانيل، لن نتركك دون إحداث شيء بك". مسح درافيتش وجنته ثم أخرج مالجاً معدنيا ذا أطراف حادة تلمع في ضوء المصباح.

هوى درافيتش بالمالج على ذراع دانيل، الذي صرخ متألما، وسط الدماء المراقة من ذراعه.

أعاد درافيتش المالج إلى جيبه مرة أخرى، وقال "هناك أشياء معينة لا بد من الانتهاء منها أولا، ثم استدار، ونظر إلى الرموز الهيروغليفية على الجدار، وأشار للرجل الذي يحمل المصباح بالاقتراب".

"أخيرا لدينا القطعة المفقودة، لم يكن من المفترض أخذها من مكانها أصلا، فلو لم يتم أخذها لجنبنا أنفسنا الكثير من المتاعب والوقت الضائع والألم".

نظر درافيتش إلى تارا متهكما، ثم توجَّه ناحية الجدار، وانحنى قليلا ليتفحص النص.

"عادة ما نكون أول من يعرف باكتشاف مقبرة جديدة في هذه التلال. فالسكان هنا يعرفون أن من مصلحتهم إخبارنا بذلك، وإلا فسيتعرضون لبطش سيف الثأر، وبطشي أنا أيضا، وهو أمر ليس باليسير.

ولكـــن فـــي حالتـــنا هذه، اكتشف رجل ما المقبرة، وأرادها لنفسه، ولذا فقد دفع حـــياته ثمـــنا لطمعه، ولكن قبل أن يُقتل، أخذ منها بعض القطع، بما فيها هذه القطعة المهمة".

خلع درافيتش القطعة من مكانها مرة أخرى، وأمسكها بيده.

"يالهـــا من مفارقة عجيبة أن ينتزع هذه القطعة على وجه التحديد دون أن يدرك مدى أهميتها، فقد كان يريد أي شيء ليبيعه، ولو كان لديه مزيد من الوقت لانتزع كل شـــيء في هذه المقبرة. وللأسف بدأ بانتزاع القطعة التي توضح بدقة موضع الجيش، مما عاد عليه وعلى آخرين بنهاية مؤسفة".

كانـــت تـــارا على بعد ثلاثة أمتار كاملة من درافيتش، ولكن رائحة عرقه كانت تصل إليها لدرجة تجعلها تريد أن تتقيأ.

"كل ذلك ليس مهما الآن، فقد حصلنا على القطعة، وغدا سنعثر على الجيش، ثم بعد ذلك.. نظر بتهكم إلى تارا... نبدأ باللهو".

قال درافيتش شيئا بالعربية، فقفز رجلان يحملان مطرقتين، ثم أشار إلى النص، وإذا بهما يبدأان في طمس معالمه تماما.

صـــرخ دانيل "يا الله!" وحاول التقدم لمنعهما، ولكن فوهة البندقية التي ارتطمت بمعدته، أسقطته على الأرض.

نطق دانيل وهو يسعل "لا يمكنك ذلك، بحق الله لا يمكنك".

أجـــاب درافيتش "للأسف يتعين القيام بذلك، ولكننا سنبقي على البقية، فلا يمكننا المخاطرة بترك هذا النص ليقرأه شخص آخر، ويعرف مكان الجيش".

خـــيّم علـــى المكان تراب أبيض نتيجة تدمير الرموز الهيروغليفية على الجدار، وبيـــنما كـــان أحدهما لا يزال يدمر الجدار، كان الآخر يهشم الأجزاء المتساقطة على الأرض مما جعل دانيل يخفض رأسه في حسرة ويأس.

بعـــد أن انتهـــى الرجلان من تدمير الجدار، أشار إليهما درافيتش بالانصراف، وبدأت تارا تسعل هي الأخرى بعد أن امتلأت الغرفة بالتراب.

همس دانيل، وهو لا يقوى على رفع عينيه من على ركام الحجارة المهشمة "ماذا الآن يا درافيتش؟"

توجَّه درافيتش ناحية مدخل الغرفة والقطعة الأثرية بيده، فأعطاها لأحد الرجال، وصعد إلى فتحة الممر.

استدار قائلا "الآن سيحدث لك شيء غير سار".

أشار درافيتش بيده، ثم اختفى من الممر، فرفع الرجل إلى جوار دانيل البندقية.

صـــرخت تارا "لا". معتقدة أنه سيطلق الرصاص على دانيل، ولكن الرجل أدار البندقـــية، وضرب دانيل بمؤخرتها في جانب رأسه، فسقط على الأرض فاقدا الوعي والدماء تسيل على رقبته. أسرعت تارا إليه، وجثت على ركبتيها تلمس وجهه، ولكنها ســـمعت حركة ما خلفها، وكأن شيئا سيهوي فوق رأسها. وإذا بها تفقد وعيها، وكأنها غرقت في محيط من المياه الراكدة.

شمال السودان

أســـرع الـــصبي نحو المخيم، وبيده البرقية، مفرّقا جمعا من الماعز في طريقه، حتى وصل إلى خيمة سيده، حيث رفع غطاء الخيمة، وهو يتصبب عرقا.

كـــان المدخل مظلما إلى حدٍّ ما، باستثناء مصباح كيروسين. وكان سيف الثأر جالسا القرفصاء على السجادة، وممسكا بكتاب بالقرب من وجهه، وكأنه تمثال بلا حراك.

تـــوجَّه الـــصبي ناحـــية سيف الثأر قائلا "لقد عثروا عليهما يا سيدي. لم يستطع الصبي كتمان فرحته، لقد عثر دكتور درافيتش على القطعة يا سيدي".

وضع سيف الثأر الكتاب على قدميه، ونظر باتجاه الصبي دون أي إشارات على وجهه.

"إن تعاليمـــنا تأمرنا بالاعتدال في كل شيء يا محمد سواء في فرحنا أو حزننا، ولذا ليست هناك حاجة للصراخ".

أخفض الصبي رأسه خجلا، وقال "حسنا يا سيدي".

"كـــذلك تأمـــرنا تعاليمـــنا بأن نبتهج بكرم الله علينا، ولذا لا تخجل من نفسك يا محمد. فقط حافظ على الاعتدال، لأنه الفطرة التي فطرنا الله عليها، وبها ستصبح سيدا على نفسك".

مـــدّ سيف الثأر يده، فأعطاه الصبي الرسالة، وبعد أن انتهى من قراءتها وضعها في جيب جلبابه.

"ألـــم أخبـــرك يا محمد أن الله اختارنا لهذه المهمة. طالما أننا واثقون في قدرته فسنحصل على كل شيء. إن اليوم يوم عظيم يا محمد".

ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه سيف الثأر، وكأنها مياه تروي أرضا جرزا. كانــت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها الصبي سيده يبتسم على هذا النحو، وأراد أن يقبّل قدم سيده ليعبر له عن مدى حبه وامتنانه لما فعله لأجله.

كـــبح الــصبي جماح هذه الرغبة، متذكرا الكلمات التي قالها سيده للتو، فقد تعلم الــصبي الــدرس، ومن ثم اقتصر الأمر على مجرد ابتسامة على الرغم من أن قلبه يتراقص فرحا.

بدا أن سيف الثأر يفهم تماما ما يختلج في قلب الصبي، فنهض واقفا، ووضع يده على كتفه.

"أحسنت يا محمد، فالله يكافئ دوما الطالب المطيع، ويعاقب المسيئ، اذهب الآن، وأخبر الرجال أن يستعدوا فسنرحل فور معرفة الموقع".

أومأ الصبي إيجابا، ثم خرج من الخيمة.

رجع الصبي مرة أخرى قائلا "سيدي، هل سنقضي على كل شرور العالم الآن؟ هل سيندثر الكفر؟"

ازدادت ابتــسامة سيف الثأر، وقال "بالطبع يا محمد، كيف لا ولدينا جيش كامل يساعدنا؟"

صرخ الصبي قائلا "الله أكبر، أكبر من خيال أي منا".

عــندما غــادر الصبي، رجع سيف الثأر إلى مكانه بجوار مصباح الكيروسين، وأمــسك الكتاب، وبسطه برفق على كلتا يديه. لم يكن نص الكتاب عربيا ولا إنجليزيا وإنما كان يونانيا كما يوضح العنوان **تاريخ هيرودوس**.

زاد ســيف الــثأر ضوء المصباح قليلا، ورفع الكتاب ناحية وجهه، وهو يتنهد بسعادة مستغرقا في محتوى الكتاب.

30

الأقصر

وصل القطار الذي يستقله خليفة إلى الأقصر قبل الثامنة صباحا بقليل، وفي هذا الوقت كان التعب والنعاس قد غلباه. ولأنه لم يستطع النوم بعد الكابوس الذي رآه، لذا قرر الذهاب إلى منزله أولا، لينعش نفسه، قبل أن يذهب إلى المكتب.

كانت المدينة مزدحمة بالفعل بسبب الاحتفال بعيد أبو الحجاج المقرر ظهر اليوم. ولكن الجميع كان يستعد له منذ الصباح الباكر. وكان الناس ينظرون إلى الأكشاك المزينة بالألوان الباهرة على جانبي الطريق، حيث تُباع الحلوى والكعك وقبعات الاحتفال. عادة، كان خليفة ينتظر هذه الاحتفالات بفارغ الصبر، ولكن اليوم كان لديه الكثير من الأشياء لينجزها، لذا أشعل سيجارة، وسار في شارع المحطة غير مكترث بالصخب الدائر حوله.

كانت شقة خليفة على بعد خمس عشرة دقيقة سيراً على الأقدام من وسط المدينة، في إحدى البنايات الخرسانية التي تشبه لعبة الدومينو، وسط مجموعة أخرى من المباني الخرسانية. ما إن وصل خليفة إلى منزله، حتى وجد بطة وعلي قد غادرا بالفعل إلى المدرسة، بينما يوسف الصغير يغط في نوم عميق. اغتسل خليفة، وأحضرت له زينب القهوة والخبز والجبن. أخذ خليفة ينظر إليها كلما أتت أو راحت، وشعرها الأسود الداكن تفوح منه رائحة العطر، وهو يتدلى حتى خصرها، وتذكر كيف كانت معارضة أهلها لهذه الزيجة، فقد كان طالبا مفلسا ومن عائلة فقيرة، ولكنها كانت فتاة ذات شخصية قوية. لم يتمالك خليفة نفسه من الابتسام عندما تذكر ذلك.

أتت زينب وبيدها طبق به قطع من الطماطم وسألته "ما الذي يضحكك؟"

"لقد تذكرت كيف تمّ زواجنا، وكيف كان أهلك غير راضين، ولكنك قلت لهم إن لم أتزوجه فلن أتزوج غيره".

ناولته زينب طبق الطماطم، وجلست عند قدميه.

"كيف كانت رحلتك إلى القاهرة؟"

"جيدة، وقد قابلت البروفيسور الحبيب هناك".

"هــل هو بصحة جيدة؟ ما هي القضية التي تعمل عليها حاليا؟ إنها قضية مهمة، أليس كذلك؟"

"إنها مهمة جدا".

"هلاّ تخبرني عنها".

"إنها معقدة".

أدركت زينب أنه لا يريد التحدث في هذا الأمر، فلم تضغط عليه أكثر من ذلك.

توجَّه الاثنان ليأخذا سِنة من النوم، ولكن قاطعهما صوت الهاتف وبكاء الصبي. تــوجهت زيــنب إلى الصبي، وأخذته من مهده، بينما رفع خليفة السماعة حيث وجد البروفيسور الحبيب يقول "أتمنى ألا أكون قد أزعجتك يا خليفة".

"على الإطلاق يا بروفيسور".

"اسمعني يا خليفة هناك شيء ما لا بد أن تعرفه حول هذه القطع التي أحضرتها لي بالأمس".

أخرج خليفة علبة السجائر من جيبه وقال له "هات ما عندك يا بروفيسور".

"لقــد تفحــصت القطــع بالأمس، ووجدت نقشا خاما على مقبض الخنجر تحت الرقعة الجلدية مباشرة مكتوب باللغة اليونانية".

"اليونانية؟"

"نعم، وأعتقد أنه اسم صاحب الخنجر".

"حسنا، أكمل يا بروفيسور".

"الاسم هو ديماكوس ابن منديز".

فكّــر خليفة في الاسم، وسأل البروفيسور "هل يعني هذا الاسم أي شيء بالنسبة لك؟"

أجاب الحبيب "هذا هو الأمر المضحك يا خليفة، فقد كنت متأكدا أنني رأيت هذا الاسم من قبل، وأخذت أفكر حتى تذكرت أين رأيته". توقف البروفيسور لوهلة، وكأنه يثير شوق خليفة لمعرفة ما تبقى.

"حسنا، وأين كان ذلك يا بروفيسور؟"

"في وادي الملوك، في مقبرة رمسيس السادس، فالجدران مليئة بالنقوش اليونانية والقبطية، وأحد هذه الجدران يحمل نقشا باسم ديماكوس ابن منديز من ناكسوس وقد بحثت عن ذلك حتى تأكدت منه".

"هل هو نفس الرجل صاحب الخنجر؟"

"لا يمكنني الجزم بذلك، ولكن من المستغرب وجود رجلين يحملان نفس الاسم على الرغم من عدم شيوعه".

أطلق خليفة تنهيدة صغيرة قائلا "أمر لا يصدق".

"بالتأكيد، ولكن ما يلي أكثر عجبا".

صمت البروفيسور مرة أخرى حتى حثّه خليفة على الكلام.

"لم يترك ديماكوس اسمه فقط في المقبرة وإنما ترك نقشا قصيرا أيضا".

"وماذا يوضح هذا النقش؟"

"يبدو أن النقش غير كامل لعله انطمس أو أن شيئا ما قاطع ديماكوس أثناء الكتابة".

فتح البروفيسور ورقة أمامه، وقرأ منها ما يلي "أنا ديماكوس ابن منديز من ناكوس قد رأيت هذه العجائب، وغدا سأمضي في طريقي إلى أتباع آمون... وعند هذه النقطة يتوقف النص يا خليفة".

لم يكن خليفة قد أشعل سيجارته بعد، وأخذ يفكر بصوت مرتفع قائلا "أتباع آمون، أليس هذا هو الاسم الذي أطلقه اليونانيون على سكان سيوة؟"

"بالضبط، فهو اسم مشتق من اسم الإله آمون الذي يقع مقره في هذه الواحة. وعلى حدّ علمي لم تكن هناك سوى حملة عسكرية واحدة ضد أتباع آمون في هذه الفترة".

"ما هي؟"

مرة أخرى صمت البروفيسور ثم أجاب.

"جيش قمبيز".

"جيش قمبيز المفقود في الصحراء؟"

"نعم، حسبما أوردته القصص".

"ولكنّ أحدا لم ينجُ منه، فكيف نحصل على خنجر لأحد جنود هذا الجيش؟"

"هذا هو السؤال، أليس كذلك؟"

سمع خليفة صوت البروفيسور وهو يشعل الغليون؛ فأخرج سيجارة، وأشعلها بعد أن تلفت الأخرى من كثرة إمسكاها في يده، ثم خيّم الصمت لفترة.

سأل البروفيسور قائلا "لابد أن هذا الخنجر قادم من إحدى المقابر في تلال طيبة".

أجاب خليفة "نعم، أعتقد ذلك".

"أعتقد أن هناك بعض الإيضاحات لهذا الأمر فربما لم يذهب ديماكوس مع الجيش، أو لعل الخنجر بيع لشخص آخر، أو ربما يكون هيرودوس قد أخطأ وأن الجيش لم يفنَ في هذه العاصفة الرملية".

"وربما يكون الجيش قد فُني، ولم ينجُ سوى ديماكوس".

صمت البروفيسور لوهلة.

"هذا أقل الاحتمالات قابلية للحدوث، ولكنه أكثرها غموضا في نفس الوقت".

أخذ خليفة نفسا عميقا، ثم تذكر أنه من غير المسموح له التدخين في غرفة النوم لأن الصبي الصغير ينام داخلها ففتح النافذة وهو يفكر بسرعة لدرجة يصعب معها مواكبة الأحداث أو الربط بينها.

"أتعتقد أن اكتشاف مقبرة لأحد الجنود من جيش قمبيز يُعد اكتشافا مهما؟"

أجاب البروفيسور "لو ثبت ذلك فبالتأكيد سيكون اكتشافا مهما".

"هذه هي المشكلة، أليس كذلك؟ اكتشف أبو ناير مقبرة هذا الجندي من جيش قمبيز المفقود، وكما قلت بروفيسور فهو اكتشاف ضخم، بل وأحد أهم الاكتشافات في مصر في السنوات الأخيرة، ولكن ذلك لا يوضح سبب سعي درافيتش للحصول على هذه القطعة الأثرية الصغيرة التي تحمل الرموز الهيروغليفية، فهو لم يكن يكترث لشيء غيرها في محل إكبار. لا بد أن هناك حلقة مفقودة هنا".

جرت الكلمات على لسان خليفة حتى قبل أن يفكر بها، فقال "وماذا عن الجيش؟"

"ماذا تقصد؟"

"جيش قمبيز المفقود، ما هي أهمية اكتشافه؟"

خيّم صمت طويل.

أجاب البروفيسور "أعتقد أننا بدأنا ندخل إلى عالم الأحلام الآن، فالجيش مدفون في مكان ما وسط الصحراء الغربية، ولن يتم اكتشافه أبدا".

"لكن ماذا إذا تمّ اكتشافه؟"

خيّم الصمت مرة أخرى؟

"أعتقد أنك لست بحاجة إلى توضيح مدى أهمية اكتشاف كهذا".

"لا، لا أحتاج إلى توضيح".

ألقى خليفة السيجارة من النافذة، ولوّح بيده مزيلا بعض الدخان من الغرفة.

"خليفة".

"متأسف يا بروفيسور، لقد كنت أفكر، ما الذي تعرفه عن الجيش يا بروفيسور؟"

"ليس الكثير، فهو لا ينتمي إلى العصر الذي أتخصص به، ولكن يمكنك الرجوع إلى البروفيسور إبراهيم الزهير، فقد قضى معظم حياته في دراسة هذه الفترة".

"وأين أجده؟"

"في الأقصر، فهو يمضي ستة أشهر كل عام هناك، ولكنه أصيب بسكتة دماغية العام الماضي، وبدأت ذاكرته تضعف".

صمت الاثنان قليلا، قبل أن يشكر خليفة البروفيسور، ويعده بأن يتناول معه الغداء في المرة القادمة التي يزور فيها القاهرة. ثم أغلق الهاتف، وتوجّه إلى غرفة المعيشة، حيث كانت زينب تهدهد الطفل برقة.

"لابد أن أذهب إلى المكتب الآن يا زينب".

"وأنا هنا سأبذل قصارى جهدي حتى يخلد الصبي للنوم مرة أخرى".

"أنا متأسف ولكن...".

"أعرف ما ستقوله يا خليفة". ابتسمت زينب، وأخبرته ألا ينسى حضور احتفال الأولاد بعيد أبو الحجاج عند الساعة الرابعة عصرا.

"لا تقلقي، لن أتأخر، أعدك بذلك".

الصحراء الغربية

أفاقت تارا مرتين أثناء الرحلة لفترات قصيرة قبل أن تغوص في بحر النسيان مرة أخرى.

ففي المرة الأولى شعرت بنفسها في مكان حار وضيق، يهتز، وتفوح منه رائحة البنزين. وعلى الرغم من الظلمة، إلا أنها أدركت أنها في صندوق سيارة بمفردها، ويداها موثقتان بقدميها، وعلى فمها شريط لاصق، وشعرت أنهم يسيرون في طريق ممهدة، لأنه على الرغم من السرعة، إلا أن الاهتزازات لم تكن عنيفة. أخذت تارا تفكر في كل الأحلام التي شاهدتها قبل ذلك، وتتناول قصص أشخاص مخطوفين في صناديق سيارات، وكيف تمكنوا من الإفلات عن طريق الاهتمام بالأصوات المحيطة

بالمكـــان، وحاولت القيام بنفس الشيء الآن لمعرفة مكانها. إلا أنه باستثناء صوت آلة التنبيه وصوت موسيقى صاخبة بين الحين والآخر، لم يكن هناك شيء يذكر. وسرعان ما فقدت وعيها مرة أخرى.

أمـــا فـــي المـــرة الثانية التي استيقظت فيها، فكان هناك صوت مرتفع يأتي من أعلـــى، ففتحت عينيها، ووجدت نفسها موثقة في كرسي، وإلى جوارها دانيل، ورأسه ملقى على صدره، والدم متجمد على وجنته ورقبته. للأسف لم تشعر تارا بأي اهتمام بـــه، فقد كان اهتمامها منصبّا على معرفة مكانها. نظرت تارا أمامها، فوجدت صفحة صـــفراء لا متناهية، فتخيلت أنها تنظر إلى كعكة صفراء كبيرة، وبدأت تضحك ولكن سرعان ما سمعت أصواتا حولها، وشعرت أن كيسا كبيرا هوى على رأسها، فغاصت في بحر من النسيان مرة أخرى بعد أن أدركت أنها في مروحية تطير فوق الصحراء باتجاه موقع جيش قمبيز المفقود ثم تاهت في عالم النسيان، ولم تتذكر شيئا آخر.

الأقصر

كانت هناك مفاجأتان بانتظار خليفة عندما وصل إلى المكتب. أولاهما عندما قابل رئيس المباحث في البهو الأمامي وبدلا من الصراخ فيه لقدومه متأخرا قابله بترحاب شديد.

"أنا سعيد لعودتك يا يوسف". كانت هذه هي المرة الأولى التي يناديه فيها باسمه الأول.

اســـتطرد رئـــيس المباحث قائلا "هلاّ تمر عليّ في مكتبي متى سمح وقتك، ولا داعي للقلق فلديّ أخبار جيدة لك".

ربّت الرجل على كتف خليفة، ومضى قدما في طريقه.

أما المفاجأة الثانية، فكانت وجود عمر عبد الفاروق منتظرا في مكتبه.

أوضح محمد سارية، أنه لم يجعله ينتظر بالأسفل حتى لا يراه أحد.

أضاف سارية أن عمر يدَّعي معرفة بعض المعلومات عن قضية أبو ناير.

كـــان عمر جالسا في جانب من المكتب، يضرب بأطراف أصابعه على ركبتيه، غير مرتاح للجو المحيط به.

دخل خليفة إلى المكتب، وتوجّه إليه قائلا "حسنا، حسنا، لم أتوقع يوما أن يحضر أحد أبناء آل الفاروق إلى قسم الشرطة بمحض إرادته".

"صدقني لم يكن الأمر سهلا عليَّ".

"أتشرب شايا؟"

هــزّ عمر رأسه إيجابا، وقال "اطلب من صديقك الخروج فما سأقوله خاص بك وحدك".

"إنه صديقي وهو...".

"سأتحدث معك فقط أو سأرحل".

تنهد خليفة، وقال لسارية "اخرج وسأطلعك على الأمر لاحقا".

خرج سارية، وأغلق الباب وراءه.

انحنى خليفة للأمام قليلا، وعرض على عمر سيجارة، ولكنه رفض قائلا "لست هنا لشيء إلا للتحدث في أمر مهم".

هزّ خليفة كتفيه، وأشعل سيجارة لنفسه، وقال له "حسنا، تحدث".

"أعــتقد أن صــديقيّ في خطر، لقد قدما بالأمس إلى منزلي طلبا للمساعدة، وقد اختفيا الآن".

"وما علاقة ذلك بقضية أبو نايرِ؟"

نظر عمر حوله، وكأنه يتأكد من عدم وجود أحد آخر، ثم قال "منذ يومين عندما استدعيتني إلى هنا، وسألتني عن اكتشاف أي مقبرة جديدة في تلال طيبة...".

قاطعه خليفة قائلا "وأنت قلت إنك لا تعرف شيئا، هل تذكرت فجأة؟" كانت هناك نبرة تهكم في صوته.

حدّق به عمر، وقال "لابد أنك مستمتع بذلك، أن يأتي إليك فرد من عائلة الفاروق طالبا العون".

لم ينطق خليفة، وأخذ نفسا عميقا من السيجارة.

استطرد عمر قائلا "لقد عثر أبو ناير على المقبرة، ولكني لا أعرف مكانها، فلا تبادرنـــي بهـــذا السؤال، وأخذ منها قطعة من الجدار، وكانت لدى صديقيّ عندما قدما إليّ، ولكنهما اختفيا الآن".

في هذه الأثناء كانت الألعاب النارية تدوي بالخارج مما أصاب عمر بالرعب.

"من هما صديقاك؟"

"عالم آثار يُدعى دكتور دانيل لاكاج وسيدة إنكليزية".

"تارا مولراي؟"

"هل تعرفها؟"

"لقد تورطا في حادث إطلاق نار في سقارة منذ يومين".

"أعـــرف ما تفكر فيه يا خليفة، ولكنني عملت مع لاكاج لست سنوات وهو رجل طيب".

"أصـــدقك يـــا عمر". توقف خليفة لوهلة، ثم أضاف "لم أعتقد أنني سأقولها يوما لأحد أفراد آل الفاروق".

لم ينطق عمر على الفور، ولكن ابتسامة رقيقة علت وجهه، واستراح في جلسته، وقال "الآن يمكنني أن آخذ منك السيجارة".

انحنـــى خلـــيفة للأمـــام قليلا، وقدّم له علبة السجائر متسائلا "حسنا، ماذا حدث بالأمس يا عمر".

"كمـــا أخبـــرتك، لقـــد حضرا إلى منزلي طلبا للمساعدة، وكانت معهما القطعة المزخـــرفة في صندوق، وقالت الفتاة إن والدها اشتراها لأجلها، وأن سيف الثأر يريد الحصول عليها، وكذلك السفارة البريطانية".

"السفارة البريطانية؟"

"نعم، لقد قالت إن هناك بعض الأشخاص في السفارة البريطانية يسعون وراءها أيضا".

أخرج خليفة قلما من جيبه، وبدأ يدوّن هذه الملاحظات مرددا "ما الذي يجري هنا بحق الله؟"

"كـــان الاثـــنان يريدان معرفة من أين أتت القطعة، وقد أخبرتهما بمدى خطورة ذلـــك، وأنه يتعين عليهما تركها، ولكنهما لم يصغيا إليّ. إن دكتور لاكاج صديق لي، وطلب مني المساعدة، ولم أتمكن من رفض ذلك، ولذا أخبرتهما أنني سأستطلع الأمر، ولكنني عدت لأجدهما قد اختفيا، ولم أرَهما منذ ذلك الحين".

"ألا تدري أين ذهبا؟"

"لقـــد أخبرا زوجتي أنهما ذاهبان إلى قمة القرن. أنا قلق عليهما للغاية، وخاصة بعدما حدث لأبو ناير وسليمان الرشيد".

توقف خليفة عن تدوين الملاحظات، وقال "سليمان الرشيد؟"

"لقد أحرقوه كهذه السيجارة".

تجهم وجه خليفة، وقال "مات؟"

أومأ عمر برأسه إيجابا.

ابتأس خليفة للغاية، وقال" يا الله، ليس سليمان".

"ألم تعرف بالخبر؟"

"لا، لقد كنت في القاهرة".

أخفض عمر رأسه، وتأسف لإفصاحه عن هذا الخبر، وقال "اعتقدت أنك على دراية بالأمر، ثم أضاف الجميع يعرف ما فعلته لأجل سليمان".

وارى خليفة وجهه بيديه، وقال "سأخبرك بما فعلته له، لقد تسببت في قتله. يا الله كيف كنت بهذا الغباء؟"

خيّم الصمت لوهلة، قبل أن يقول عمر "أعتقد أنه من الأفضل أن أذهب الآن. فليس من المعقول إرهاقك وأنت في هذه الحالة". وبدأ يتوجّه نحو الباب.

قال خليفة "ماذا عن القطعة؟"

"معذرة؟"

"هل رأيت القطعة المزخرفة؟"

نعم، رأيتها".

"أبها ثعابين بالأسفل وبعض الرموز الهيروغليفية؟"

"نعم".

"هل تتذكر العلامات الهيروغليفية؟"

فكّر عمر للحظة، ثم اقترب، وأخذ القلم من خليفة، ورسم على الورقة أمامه.

نظر خليفة إلى الورقة، وقال "هل أنت متأكد أن هذا هو ما رأيته؟"

"أعتقد ذلك. هل تعرف ما هو أيها المحقق؟"

"نعم، إنها علامة هرم".

نظر خليفة إلى الورقة، ثم وضعها في جيبه.

"شكرا لك يا عمر، أنا مقدر تماما لما فعلته اليوم".

"أرجوك أيها المحقق اعثر على صديقيّ، هذا كل ما أرجوه منك".

بدا الأمر وكأنه سيمد يده ليصافح خليفة، ولكنه تراجع، واكتفى بإيماءة بسيطة، وغادر الغرفة.

أمضى خليفة عشرين دقيقة يطلع سارية على ما حدث في القاهرة، ويستمع منه لتفاصيل مقتل سليمان، ثم صعد إلى مكتب رئيس المباحث، كما طلب منه في الصباح.

كان حساني عادة يحب أن يجعل خليفة ينتظره بضع دقائق، ولكن هذه المرة سمح له بالدخول على الفور، وأيضا جعله يجلس على كرسي جيد في وسط الغرفة.

بادره خليفة بإجابة عن الأسئلة التي توقع أن يطرحها رئيس المباحث، فقال

"سأقدم تقريري ظهر اليوم يا سيدي". ولكن الرجل أزاح يده غير مكترث.

"لا تقلق بشأن ذلك يا خليفة فلديّ أخبار جيدة لك".

جلس حساني ويده عند ذقنه، وهو يشبه إلى حدّ كبير الصورة المعلقة على الجدار خلفه.

"يسعدني إخبارك أنك حصلت على الترقية التي أردتها، تهاني".

ابتسم الرجل، ولكن شيئا ما بداخله أوضح عكس ما يظهره.

"أتمزح يا سيدي؟"

تلاشت الابتسامة تدريجيا، وقال حساني "أنا لا أمزح فأنا رجل شرطة".

"متأسف يا سيدي". لم يدرِ خليفة ما يقول في هذه اللحظة، فقد كانت هذه الترقية آخر ما يتوقع حدوثه.

"أريدك أن تأخذ بقية اليوم إجازة، واذهب إلى بيتك، وأخبر زوجتك، وابتهج بهذه المناسبة، وفي الغد عليك التوجه إلى الإسماعيلية لحضور مؤتمر هناك".

"الإسماعيلية؟"

"نعم، هناك اجتماع حول الشرطة الحضرية في القرن الحادي والعشرين لمدة ثلاثة أيام، فليساعدك الله، ولكن هذه هي طبيعة الأشياء التي يتعين عليك التعامل معها بحكم مهنتك".

لم ينطق خليفة، وشعر بسعادة غامرة، ولكن في نفس الوقت كان هناك شيء آخر.

"وماذا عن القضية يا سيدي؟"

"يمكنها الانتظار ليومين، اذهب أنت إلى الإسماعيلية، وعندما تعود استأنف عملك فيها".

"لا يمكنني ذلك يا سيدي".

"اهدأ يا خليفة، لقد حصلت على ترقية لتوك، ابتهج بها يا رجل!"

"أعرف، ولكن...".

بدأ حساني يضحك حتى ملأ صوته الغرفة كاتما كلمات خليفة.

"الوضع معكوس الآن يا خليفة، أنا أطلب منك ألا تجهد نفسك في العمل! أتمنى منك ألا تخبر أحدا بذلك. فسيضر ذلك بسمعتي".

ابتسم خليفة، ولكنه لم يتراجع عن موقفه.

"لقد لقي ثلاثة أشخاص مصرعهم يا سيدي، واختفى اثنان آخران، ولدي دليل دامغ على تورط سيف الثأر والسفارة البريطانية في ذلك، ولذا لا يمكنني تجاهل الأمر برمته بهذه البساطة".

استمر حساني في الضحك، ولكنّ عينيه كان بهما شيء من الضيق يعبر عن غضب دفين.

"ألا تريد هذه الترقية يا خليفة؟"

"سيدي".

"يبدو أنك غير سعيد بها أو دعني أقول غير ممتن!"

ركّز الرجل على كلمة ممتن.

"أنا ممتن لك يا سيدي، ولكن أرواح الناس في خطر، ولا يمكنني التوجه للإسماعيلية، وتركهم ثلاثة أيام".

"أتقصد أننا لن ننجح في إدارة الأمور في فترة غيابك، أليس كذلك؟"

"لا يا سيدي، ما أقصده هو...".

"أتعتقد أن الشرطة لن تعمل في غيابك؟"

"سيدي...".

"أتعتقد أنك الشخص الوحيد المهتم بالقانون والنظام والخطأ والصواب".

ارتفع صوت الرجل الآن، وبرز عرق في رقبته، وقال "دعني أخبرك يا خليفة، أنني أمضيت حياتي كلها أعمل لصالح هذا الوطن، ولن أجلس هنا استمع إلى شخص تافه مثلك يخبرني أنه الوحيد الذي يهتم بذلك. لقد حصلت على ترقيتك اللعينة، وأريدك غدا في الإسماعيلية، ولا تجادلني أكثر من ذلك".

نهض رئيس المباحث من على كرسيه، وتوجَّه نحو النافذة وظهره لخليفة وهو يطرق بأصابعه على النافذة. أشعل خليفة سيجارة دون أن يطلب الإذن من الرجل.

"من طلب منك ذلك يا سيدي؟"

لم يجب حساني.

"لهذا السبب حصلت أنا على هذه الترقية، أليس كذلك؟ لقد توسط لديك شخص ما، شخص يريد إزاحتي عن هذه القضية".

التزم حساني الصمت.

"إنها محاولة، أحصل أنا على الترقية وأنسى هذه القضية، هذا هو العرض، أليس كذلك؟ هذه هي الرشوة".

كانــت أصــابع حساني تطرق على النافذة بسرعة أكبر الآن، وكأنه على وشك كسرها.

اســتدار حساني ببطء، وقال "أنا لا أحبك يا خليفة. لم ولن أحبك يا رجل، فأنت متعال ومتعجرف وتسبب لي إزعاجا شديدا".

تقــدم حساني خطوة للأمام، وكأنه مصارع في حلبة. "ولكنك أيضا أفضل محقق فــي الــشرطة، الكل يعرف ذلك، وأعتقد أنك لن تصدقني إن أخبرتك أني لم أتمنَ لك ضــررا يــوما، لذا استمع إليّ بإنصات، احصل على هذه الترقية، وتخلَ عن القضية، لأنك إن لم تفعل فليس لدي ما أحميك به".

نظــر حــساني إلــى عيني خليفة لوهلة، ثم استدار نحو النافذة مرة أخرى قائلا "أغلق الباب خلفك".

31

الصحراء الغربية

أول مـــا لاحظـــته تارا هو الحرارة، وكأنها تغوص في أعماق بحيرة من الفحم المـــتأجج، وكلمـــا ارتفعت نحو الأعلى شعرت بمزيد من الحرارة، حتى وصلت إلى الـــسطح، وشـــعرت وكأنهـــا على سطح بركان، وأيقنت أنها لو ظلّت في هذا المكان فـــستحترق حتـــى المـــوت، فحاولت الغوص نحو الأسفل مرة أخرى. لكن جسدها لم يـــساعدها ســـوى على التحرك لبضع بوصات أسفل السطح. وبعد محاولات مضنية للغوص نحو الأسفل دون فائدة، توقفت عن المحاولة، واستلقت على ظهرها عائمة في اتجاه ألسنة اللهب، وعند هذه اللحظة استيقظت من هذا الكابوس المزعج.

وجـــدت تارا نفسها داخل خيمة، وإلى جوارها دانيل ينظر إليها، ثم تقدم نحوها، ومسح على شعرها قائلا "حمدا لله على سلامتك".

كان رأسها يؤلمها، وكان فمها جافا للغاية وكأنه محشو بالورق. استرخت لوهلة، قبل أن تجلس وترى رجلا مسلحا يجلس على بعد مترين عند مقدمة الخيمة.

سألت تارا "أين نحن".

أجاب دانيل "نحن في وسط الصحراء الغربية في بحر الرمال الأعظم، في منطقة وسط بين واحة سيوة والفرافرة".

كانت تارا بالكاد تلتقط أنفاسها بسبب حرارة المكان الشديدة، وكان الهواء الساخن يلفـــح فمهـــا وحلقها وكأنها تشرب حمما بركانية. لم تستطع تارا رؤية الكثير من باب الخيمة باستثناء الرمال الكثيرة المنتشرة في المكان، وسمعت بالقرب من الخيمة صوت صراخ وصوت مولدات كهربائية .وكان الظمأ على وشك الفتك بها.

"كم الساعة الآن؟"

نظر دانيل إلى ساعته، وقال "الحادية عشرة".

استطردت تارا قائلة "لقد كنت في صندوق سيارة". وكأنها تحاول تذكر ما حدث، "ثم في مروحية".

أجاب دانيل "أنا لا أتذكر شيئا عن الرحلة، كل ما أتذكره هو المقبرة".

تحسس دانيل موضع الدم عند رأسه ورقبته بحرص شديد، ولاحظت تارا عدم وجود أثر له حتى اعتقدت أنها كانت تحلم عندما رأت هذا الدم. حركت تارا يدها ببطء على السجادة حتى أمسكت بأطراف أصابع دانيل، وقالت "آسفة على توريطك في هذا الأمر".

ابتسم دانيل وقال "لقد ورطت نفسي بنفسي، هذا ليس خطأك يا تارا".

"لا يا دانيل، كان يتعين عليّ ترك القطعة الأثرية في سقارة كما أخبرتني".

"ربما أنت محقة يا تارا، ولكن لو فعلت ذلك ما كنا لنحظى بكل هذه المتعة، فلم أشعر بمثل هذه الإثارة في حياتي، بالإضافة إلى أننا سنشهد لحظة أعظم اكتشاف أثري على الإطلاق، وهو أمر يستدعي بعض التضحية".

أدركت تارا أنه يريد تخفيف الأمر عليها، وأنه في الحقيقة يشعر بالخوف واليأس مثلها تماما، وهو ما رأته بوضوح في عينيه واستسلامه.

"سيقتلوننا يا دانيل، أليس كذلك؟"

"ربما تكون لدينا فرصة للبقاء، فبعد اكتشاف الجيش سيقومون...".

نظرت تارا إليه، وقالت "سيقتلوننا يا دانيل، أليس كذلك؟"

سكت دانيل لوهلة، ثم نظر إلى الأرض، وقال "نعم، أعتقد أنهم سيفعلون ذلك على الأرجح".

خيّم الصمت لوهلة، قبل أن ينكمش دانيل في جلسته، ويضع ذراعيه حول قدميه وذقنه على ركبتيه، بينما نهضت تارا، وبسطت عضلات جسدها والألم يعتصر رأسها. ظل الحارس يحدق بهما دون حراك، وهو ما أغرى تارا بالتفكير في إمكانية التغلب عليه بمساعدة دانيل، ولكنها تجاهلت الفكرة على الفور، لأنهما لو فعلا ذلك فأين سيذهبان؟ إنهما وسط الصحراء، وبات واضحا أن هذا الحارس ليس شيئا مهمّا، فالحارس الحقيقي متمثل بالرمال والحرارة. أرادت تارا البكاء، ولكنّ عينيها افتقرتا إلى الدموع.

"أنا ظمآنة". همست تارا لدانيل.

رفع دانيل رأسه، ونادى على الحارس.

"نريد ماء".

حدّق بهما الحارس، ثم نادى على شخص ما دون أن يرفع نظره عنهما. بعد بضع دقائق، جاء رجل وبيده جرة بها ماء أعطاها لهما. شربت تارا، وشعرت بسخونة الماء، ولكن ذلك لم يمنعها من تناول نصف الجرة قبل أن تعطيها لدانيل ليشرب هو الآخر، في غضون ذلك، صدر صوت مروحية وتلاعب الهواء المنبعث من مروحتها بالخيمة ومحتوياتها.

اشتدت الحرارة مع دخول وقت الظهيرة، حتى أن قطرات العرق على وجه ورقبة تارا كانت تجف على الفور، بينما كان الصوت لا يزال يشير إلى هبوط المزيد من المروحيات.

بعد ساعة، حلّ حارس آخر مكان الحارس الأول، وقدّم لهما شرابا وطعاما مؤلفا من بعض الخضار النيئة والجبن وقطع خبز جافة، جاهدت تارا لابتلاعها دون فائدة، وهو ما حدث مع دانيل أيضا. كان الحارس الجديد صامتا وبلا حراك كسابقه.

غالب النعاس تارا، وعندما استيقظت لم تجد الطعام، ولاحظت أن الحارس الأول قد عاد مرة أخرى. حاولت تارا النظر إلى الرجل علها تجد طريقة للتواصل معه، ولكن ذلك ذهب دون فائدة.

قال دانيل "ليس هناك فائدة من التواصل معهم، فهم يعتبروننا أقل من الحيوانات، إنهم ينظرون إلينا على أننا كفار".

استلقت تارا مرة أخرى، وظهرها للحارس، وحاولت التفكير في شقتها، وبيت الزواحف، وجيني، وليالي ديسمبر الباردة، وصديقة بروكويل، وفي أي شيء يبعدها عن الحاضر. لم تستطع تارا تخيّل هذه الأمور، لأنها كلها تتلاشى متى ظهر وجه درافيتش في مخيلتها. اعتدلت تارا جالسة، ووضعت يدها على وجهها واليأس يغمرها.

بعد قليل، عندما وصلت حرارة الشمس إلى ذروتها، ولفحها الهواء الساخن، وشعرت أنها لن تحتمل المزيد، عندها انفتح باب الخيمة، وظهر رأس رجل ما، طلب من الحارس اصطحابهما للخارج تحت تهديد السلاح، فنظر الاثنان إلى بعضهما، ثم نهضا، وخرجا تحت ضوء الشمس وأعينهما لا تحتمل هذه الأشعة المفاجئة. بعد أن خرجا من الخيمة، اكتشفا أنها جزء من مخيم كبير، وسط وادٍ محصور بين اثنين من الكثبان الرملية المرتفعة، أحدهما ينحدر بشدة بينما الآخر أقل انحدارا. كان المكان يعج بالبراميل وأكوام الحبال والقش والعربات الخشبية، وفي الجهة المقابلة مروحية تحمل مزيدا من البراميل والعربات، تنزلها إلى الوادي وحولها الكثير من الرجال يرتدون جلاليب سوداء ويفرغون حمولة المروحية.

لم تلحظ تارا كثيرا من هذه الأشياء، لأن أول ما وقع عليه نظرها كان صخرة كبيرة على شكل هرم تحجبها الخيام والعربات، ولم يظهر منها سوى الجزء العلوي فقط الذي يوضح مدى ضخامة هذه الصخرة الهرمية الشكل. كانت هذه الصخرة تثير في النفس إحساسا مخيفا، فهي كقطعة سوداء صامدة وسط الرمال جعلت القشعريرة تسري في بدن تارا، بل والغريب ان الرجال كانوا يتجنبون النظر إلى هذه الصخرة.

شق الاثنان طريقهما وسط المخيم يتقدمهما حارس ويتبعهما اثنان، حيث توجها جنوبا، وصعدا قمة أحد المنحدرات ليجدا نفسيهما أمام درافيتش الذي كان جالسا تحت إحدى المظلات، ومعتمرا قبعة من القش.

بادرهما درافيتش بابتسامة، وقال "أتمنى أن تكونا قد نمتما جيدا".

أجابه دانيل "عليك اللعنة يا درافيتش".

من مكانهما هذا، أمكنهما رؤية الوادي بأكمله ينحدر تدريجيا نحو الشمال، وكأنه حوض صغير وسط أمواج عاتية من الرمال. كانت الصخرة الكبيرة أمامهما مباشرة، يحجبها الكثيب الرملي على اليسار، وكأنها رأس إبرة يطل من هذه الصفحة الصفراء. بالأسفل تواجد حشد كبير من الرجال الذين كانوا يحفرون إلى جوار خمسة أنابيب تغوص في الرمال من ناحية، وتظهر رؤوسها في الناحية الأخرى من الكثيب الرملي حتى تختفي عند الجزء العلوي منه. كان صوت المولدات الكهربائية قوياً ويملأ المكان ضجيجا، وكأن آلاف الأجنحة ترفرف في المكان.

قال درافيتش "اعتقدت أنكما ستسعدان برؤية هذا، خصوصا أنه لن تكون لديكما فرصة لتخبرا به أي شخص".

كانت هذه النبرة المخيفة في صوته تثير رعب تارا، حتى أنها تراجعت خطوة وراء دانيل، مما جعل درافيتش يتراجع، وينظر إلى الوادي، ويخرج سيجارا من جيبه، ويضعه في فمه.

استأنف درافيتش حديثه "لقد عثرنا على المكان بسهولة كبيرة، فقد كنت متخوفا من عدم دقة القياسات في المقبرة، كما هي العادة في النصوص القديمة، ولكن صديقنا ديماكوس أشار إلى المكان في محيط لا يتعدى كيلومترات، وهو ما أدهشني، إذا أخذنا في الاعتبار عدم وجود أي أدوات تكنولوجية متطورة في ذلك الوقت". أشعل درافيتش السيجار، وراح ينفث الدخان، مثيرا صوت طقطقة كلما انطبقت شفتاه على السيجار. لقد أجرينا بحثا جويا على المنطقة في الصباح الباكر، وحدّدنا المكان في غضون ساعة. لقد كانت الأيام الأربعة الماضية خالية من الإثارة، وكنت أتوقع مزيدا من الأحداث الدرامية".

إلـــى اليمين كان هناك دراجتان ناريتان أسفل الكثيب الرملي تخترق إطاراتهما الرمال.

اســتطرد درافيــتش قائلا "كل شيء سار كما هو مخطط له". ثم ابتسم ابتسامة عريــضة متباهــيا بنجاحه "بل أفضل مما هو مخطط له، فقد أحضرنا معدات كافية، وهناك المزيد في الطريق، وقد عثرنا بالفعل على بعض النقوش على الصخرة، ولابد أن الجــيش بالقــرب من هنا. كل ما علينا فعله هو العثور عليه، وهو ما سيحدث في غضون بضع ساعات حسبما أعتقد".

أجـــاب دانيل "ربما الأمر ليس بهذه السهولة، فأنت تعرف أن هذه الكثبان تتغير دومـــا، والله وحـــده يعلم مقدار الرمال الموجودة فوق هذا الجيش بعد مرور أكثر من ألفـــين وخمسمائة عام عليه في هذه الصحراء، ربما يكون على عمق خمسين مترا أو أكثر، وهو ما قد يجعلك تحفر أسابيع طويلة دون أن تتمكن من العثور عليه".

قـــال درافيــتش "ربما تكون محقا إذا ما استخدمنا الطرق التقليدية، ولكننا نملك معـــدات حديثة هنا". وأشار إلى الأنابيب الخمسة الموجودة في الأسفل بجوار الصخرة الكبيرة. لاحظت تارا أن هناك رجلين يقفان عند طرفي كل أنبوب حيث يشفط الأنبوب الرمال من ناحية ويخرجها من الناحية الأخرى.

أوضح درافيتش "إن هذه الأنابيب هي شفاطات للرمال، ويستخدمونها في الخليج لتنظيف ممرات الطائرات وخطوط البترول، وهي تعمل كالمكنسة العادية تماما، حيث تـــشفط الـــرمال وتخرجها من الناحية الأخرى إلى الجانب الآخر من الكثيب الرملي. ويعمـــل الأنبوب الواحد بسعة مئة طن في الساعة، ولذا أعتقد أننا سنعثر على الجيش أسرع مما تعتقد يا دانيل".

"سنرى يا درافيتش، لن تتمكن من إخفاء عملية بهذا الحجم لفترة طويلة".

ضحك درافيتش، وعقد ذراعيه خلف ظهره، وقال "من عساه يرانا هنا؟ نحن في وســـط الصحراء، وتقع أقرب منطقة مأهولة على بعد مائتين وعشرين كيلومترا، ولا تـــوجد رحـــلات تجارية تمر من هنا. إن حججك واهية يا دانيل. أنت تناقض نفسك. فجـــزء مـــنك يتمنى لي الفشل في هذه المهمة، ولكن الجزء الآخر بداخلك كعالم آثار يريد لي النجاح".

"أنا لست مهتما بهذا الجيش اللعين".

"أنـــت تكذب يا دانيل، فأنت مهتم مثلي تماما بمعرفة ما يوجد أسفل هذه الرمال، فنحن نشبه بعضنا تماما".

"لا تخدع نفسك يا درافيتش".

"نعــم، يا دانيل نحن كذلك. فنحن نعيش للماضي، ونسعى كثيرا لكشف أسراره، وبالأسفل يوجد جيش مدفون. ولابد من العثور عليه، ليكون ملكنا لأننا لا نتحمل بقاء هــذه الأشياء مختفية. أنا أدرى منك بنفسك يا دانيل، فأنت مهتم بهذا الجيش أكثر من اهتمامك بحياتك وحياة صديقتك".

"ما هذا الهراء؟"

"أتعتقد ذلك يا دانيل؟ يمكنني قطع رقبتها أمامك الآن، وستجد أن جزءا بداخلك لا يــزال يــريد لــي النجاح في مهمتي. إنه إدمان يا دانيل، إدمان لا علاج منه، ونحن الاثنان نعاني منه".

أخــذ دانــيل يحــدق به لوهلة، حتى شعرت تارا أن درافيتش قد لمس جانبا في شخــصية دانــيل غالبا ما حاول كتمانه، ولكن سرعان ما أفاق دانيل من هذه الحالة، وقال "عليك اللعنة يا درافيتش".

ابتــسم درافيــتش، وقال "دعني أؤكد لك أن أي لعنة ستنزل هنا سأكون أنا من أنزلها".

اقتــرب درافيتش من تارا، ثم أشار للحراس باصطحابها ودانيل إلى الخيمة مرة أخرى.

نــادى علــيهما درافيتش بصوت مرتفع قائلا "لا تفكرا بالهروب، فلو لم تقتلكما الحــرارة فــستموتان غرقا في الرمال المتحركة المنتشرة في المكان، وربما هذه هي الطريقة التي أفضلها لموتكما، فهي أكثر إمتاعا من مجرد رصاصة تخترق رأسيكما".

اســتدار درافيتش مرة أخرى نحو مكان الحفر، حيث بدأ الرجال يسلون أنفسهم بالغناء أثناء عملهم.

32

الأقصر، تلال طيبة

كان هناك مكان يذهب إليه خليفة دائما عندما يريد التفكير، وهو مكان يقع في تلال طيبة، أسفل ظل مرتفع القرن، اكتشفه منذ سنوات عديدة عندما أتى إلى الأقصر للمرة الأولى، إنه عبارة عن مكان على شكل كرسي محفورة في الصخر في منحدر منخفض وسط الجبل يطل على وادي الملوك. غالبا ما كان يجلس هناك لساعات طويلة، يفكّر في سكون تام، حتى يتخلص مما يؤرقه، ويصفّي ذهنه، وترتفع روحه المعنوية، ولذا كان يطلق على هذا المكان اسم كرسي التفكير، وهو أكثر مكان في العالم كان يشعر فيه بالقرب من نفسه ومن الله.

كانت حدة أشعة حرارة الشمس قد خفّت عندما توجّه إلى هناك، فجلس وظهره إلى الحجر الجيري البارد ينظر إلى التلال المكسوة بأشعة الشمس الصفراء. بالأسفل كان يرى الأشخاص يتجولون في الوادي وهم أشبه بالنمل.

بعد لقائه حساني، شعر خليفة بضيق شديد، وقرر أن يرفض الترقية، ويستمر في عمله على القضية، حيث إن حياة شخصين في خطر، هذا إن كانا لا يزالان على قيد الحياة أصلا، فضلا عن عدم قدرته على نسيان مصرع الثلاثة الآخرين ناير وسليمان وإكبار بالإضافة إلى موضوع أخيه علي أيضا.

على الرغم من هذه الحقائق، إلا أن الشكوك وجدت طريقها إلى نفسه، فالأمر ليس فيلما سينمائيا سينتهي نهاية سعيدة، بل إنه حقيقة واقعة يراها ماثلة أمامه، ولا يتمالك نفسه من الشعور بالخوف حيالها.

لا شك أن مواجهة سيف الثأر هي خطر داهم في حدّ ذاتها، فما بالك بمزيد من الأعداء، لا يعرف من هم وماذا يريدون؟ ولكن من المؤكد أن لديهم نفوذا واسعا لدرجة أرعبت حساني نفسه.

لقد قال حساني ليس لديّ ما أفعله لحمايتك يا خليفة، وبالطبع لم يكن يقصد حماية مستقبله المهني، وإنما يقصد حياته وحياة أسرته على الأرجح. هل سيكون أمرا صحيحا تعريض حياة أحبائه للخطر؟ فهو لا يدين بشيء لناير أو إكبار أو سليمان أو تارا أو دانيل، ولكن ماذا عن علي؟ بالطبع، كان ذلك مؤلما له، ولكن هل يستحق عناء ذلك؟ ربما يتعين عليه التخلي عن القضية، وقبول الترقية، والذهاب إلى الإسماعيلية. بالتأكيد سيكره نفسه إن فعل ذلك، ولكنه على الأقل سينقذ حياته وحياة أسرته. ألقى خليفة بسيجارته بعيدا، ثم أخذ ينظر إلى بعض الرموز الهيروغليفية المنقوشة على جانب المنحدر بجوار الكرسي. كانت هناك ثلاثة أشكال واحد لحورمحب وآخر لرمسيس الأول وثالث لسيتي الأول، وأسفلها مباشرة نقش لشخص ما يدعو نفسه كاتب آمون، ابن إبو، وهو على الأرجح أحد العاملين في المقابر القديمة الذي جلس في نفس هذا المكان منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام مستمتعا بهذا المنظر - مثل خليفة تماما - وهذا الهدوء الكامل، وربما كان يشعر بنفس الأحاسيس. انحنى خليفة للأمام قليلا، ولمس النقش قائلا "أخبرني أين الحقيقة أخبرني يا ابن إبو أعطني علامة لأنني...".

توقف خليفة عن الحديث، عندما سمع وقع أقدام على الصخور، فاستدار ونظر، وإذا برجل رث الثياب والهيئة يُحدّق به من فوق صخرة على بعد عدة أمتار.

"آسف، آسف". قال الرجل بالعربية وهو يضرب رأسه. كان الرجل يربط طرف جلبابه على شكل أنشوطة عند حصره، ويحرك قدميه الرفيعتين على حافة الصخرة في طريقه نحو خليفة فوق الصخور الصغيرة المهشمة.

قال الرجل "أتتحدث إلى الأشباح؟ أنا أتحدث إليها أيضا، فالتلال مليئة بالأشباح. آلاف الأشباح بل ملايين الأشباح، بعضها طيب وبعضها شرير وبعضها مثير للمتاعب كما رأيت".

جثا الرجل على الأرض، وأخذ يتقدم حتى وصل تحت قدمي خليفة، وقال "أنا أعيش مع الأشباح، وأعرفها جيدا، فهي منتشرة في كل مكان". وأشار خلف رأس خليفة قائلا "فهنا واحد، وهناك آخر، وذاك ثالث". وأخذ يشير في كل الاتجاهات، ثم أشار بيده قائلا "مرحبا أيتها الأشباح، إنها تعرفني وهي جائعة مثلي، جائعة للغاية". فتش الرجل في طيات ملابسه، ثم أخرج شيئا ملفوفا في ورق، وقال "أتريد جعلا ذا جودة عالية؟"

"ليس اليوم يا صديقي".

"انظر، انظر، إنه الأفضل في مصر، انظر أرجوك".

كرر خليفة نفس الجملة مرة أخرى" ليس اليوم يا صديقي".

نظـــر الرجل حوله، ثم اقترب من خليفة، وتحدث بصوت خافت "أتحب الآثار؟ لدي آثار جيدة للغاية".

قال خليفة "انتبه لما تقوله يا رجل، فأنا شرطي".

تلاشت ابتسامة الرجل، وقال "إنها مزيفة، لقد صنعتها بنفسي".

أومأ خليفة برأسه، ثم أخرج سيجارة، وأشعلها. أخذ الرجل يحدق به، وكأنه كلب ينتظر طعامه. شعر خليفة بالأسى لحال الرجل، فأعطاه علبة السجائر.

"خذها، وارحل فأنا أريد الإختلاء بنفسي".

أخذ الرجل السجائر، وشكر خليفة قائلا "أنت رجل طيب، إن الأشباح تحبك، لقد أخبرتنـــي بذلك، إنها تحبك جدا". ووضع يده عند أذنه، وكأنه يستمع إلى الأشباح "إنها تقول إنه يمكنك المجيء إليها عندما تواجه أي مشكلة، وستعطيك حلولا لها، وستحميك أيضا". وضع الرجل السجائر في جيبه، ثم نهض قائلا "أتريد مرشدا سياحيا؟"

"لا، أريدك أن تتركني وحدي".

سكت الرجل، ثم انصرف نحو المنحدر غير مكترث للصخور الحادة أسفل قدميه العاريتين.

"أتـــريد رؤية وادي الملوك، وحتشبسوت، ومقابر النبلاء أنا أعرف كل الأماكن هنا، وسأرشدك إليها بثمن رخيص للغاية".

"ربما مرة أخرى يا صديقي، ليس اليوم".

"سأريك أماكن لم يرَها أحد من قبل، أماكن رائعة وذات خصوصية".

أشـــاح خلـــيفة بـــوجهه نحو التلال الخاوية، بينما مضى الرجل المجنون في طـــريقه، حتـــى انـــزوى خلف صخرة مرتفعة، وهو يردد "يمكنني اصطحابك إلى أماكن سرية".

لم يعره خليفة اهتماما.

"مقبرة جديدة لم يرَها أحد، إنها رائعة".

اختفى الرجل خلف الصخرة المرتفعة.

خـــيّم الـــصمت لوهلة، قبل أن ينهض خليفة فجأة، وينادي على الرجل "انتظر".

تردد دوي الصوت في المكان الهادئ، "انتظر، انتظر!"

هرول خليفة وراء الرجل الذي توقف عند سماع النداء.

"هل قلت مقبرة جديدة لم يرَها أحد من قبل؟"

صفق الرجل بيديه قائلا "أنا من اكتشفها، إنها سرّ، وقد اصطحبتني الأشباح إليها. أتريد رؤيتها؟"

قال خليفة، ونبضات قلبه تتسابق "نعم أودّ ذلك، اصطحبني إليها".

ربت خليفة على كتف الرجل، ومضيا في طريقهما عبر التلال.

في بادئ الأمر، لم يكن خليفة متأكدا مما إذا كانت هذه المقبرة هي نفسها التي اكتشفها ناير أو لا، فكما أوضح البروفيسور المصري فهذه التلال مليئة بحفريات قديمة وربما يكون الرجل المجنون قد رأى مقبرة أخرى مختلفة تماما عما يريده خليفة.

بعد تفكير طويل، أقنع خليفة الرجل بأن يريه القطع الأثرية التي بحوزته، وعندها تلاشت كل الشكوك. لقد كانت ثلاثة تماثيل طبق الأصل عن تلك التي وجدها خليفة في محل إكبار، بالإضافة إلى وعاء من التراكوتا، يحمل وجه إيبيس ومطابقا تماما لما وجده في المحل. أرجع خليفة القطع الأثرية للرجل، وأخذ يبحث عن علبة السجائر حتى تذكر أنه أعطاها له قبل قليل.

"هل لي بسيجارة؟"

"لا، إنها لي".

استغرقهما الأمر ساعة للوصول إلى أعلى الأخدود، وثلاثين دقيقة أخرى للوصول إلى مدخل المقبرة، وكان الجزء الأخير الذي نزله ... على بعد ستة أمتار من الصخرة المقابلة لمدخل المقبرة هو الأصعب عليه لأنه دوما ما كان يكره المرتفعات على عكس الرجل المجنون الذي هبط دون أدنى خوف، أما خليفة فقد استغرقه الأمر خمس دقائق حتى يستجمع شجاعته، ويبدأ في الهبوط ببطء شديد متحركا كالسلحفاة.

أخذ خليفة يقول وهو يهبط "اللهم احمني، اللهم ارحمني".

"هيا، هيا". ردّد الرجل المجنون، وهو يضحك، ويهبط بسرعة شديدة "ها هي المقبرة ألا تريد رؤيتها؟"

أخيرا، وصل خليفة إلى مدخل المقبرة عبر حائط الممر، وهو بالكاد يلتقط أنفاسه.

"أعطِني سيجارة، ولا تجادلني، وإلا ألقيت القبض عليك بتهمة حيازة آثار مسروقة".

لم يتردد الرجل في إعطائه السيجارة، فأشعلها خليفة، وأخذ منها نفسا عميقا، وهو يغمض عينيه لدقيقتين، ثم فتحهما ثانية.

كـــان شعاع ضئيل من الشمس يشق المقبرة عبر المدخل منيرا المدخل غير أن الظلام كسا غرفة الدفن بالأسفل.

سأل خليفة، وهو ينظر حوله "كيف عثرت عليها؟"

"لقــد أرشدتني الأشباح إليها منذ سبعة أو عشرة أيام فقط، وأخبرتني أن بها شيئا خاصـــا، ولـــذا أتـــيت إلـــى هنا لأجد هذه المقبرة الرائعة التي هي في غاية السرية والخصوصية".

قفز الرجل المجنون إلى المدخل، وأشار إلى الفتحة التي دخلا منها، وقال "انظر هـــنا، عندما أتيت للمرة الأولى، كان هناك حائط كبير، يغطي الباب حتى أنك لم تكن لترى ما بالداخل، ولكنني حفرت أسفل الجدار، وتمكنت من الدخول تماما كما أخبرتني الأشباح. إنها مقبرة سرية ورائعة، ولكنني لم أتمالك نفسي من الدخول أكثر وأكثر".

أصـــبح الرجل المجنون يتحدث بوتيرة أسرع حينئذ، وسار عبر الممر، وخليفة يتبعه.

"هناك غرفة مظلمة كالليل البهيم بالأسفل، قمت بإشعال عود ثقاب، ورأيت الكثير من الأشياء بالداخل، مئات الأشياء الرائعة والساحرة، إنها مسكن للأشباح؟"

في تلك الأثناء، كان الاثنان يقفان عند باب غرفة الدفن، واستطاع خليفة بعد أن اعـــتادت عيـــناه علـــى الظلام في المقبرة رؤية بعض الألوان والأشكال على الجدار المقابل.

"إنهـــا مليئة بالكنوز، وقد مكثت هنا ليلة كاملة، ونمت مع هذه الكنوز، وشعرت وكأننـــي ملك متوج تنتابني الكثير من الأحلام وتتلاعب الأفكار برأسي، وكأنني فوق العـــالم بأســـره، وأرى كل شيء". قفز الرجل إلى الغرفة، وقال "أخبرت صديقي بهذه الأشياء بعد ذلك".

"أخبرت صديقك؟"

"نعم، أحيانا يأتي إلى هنا، عندما يكون متعبا، ونمشي معا، ويعطيني سجائر. هذه هي صورته".

أشـــار الـــرجل المجنون إلى معصمه الأيسر، فوجد خليفة نفس الوشم الذي كان على معصم ناير، وحينها بدأ خليفة يدرك الأمور.

"لقد أخبرت صديقي عما أخبرتني به الأشباح، فطلب مني اصطحابه إلى المقبرة، فـــضحك كثيـــرا، وقـــال سنصبح أنا وأنت من الأغنياء، وسنعيش كالملوك. أخبرني صديقي أنه سيأخذ منها بعض الأشياء ليريها لرفاقه، وسيشتري لي تلفازا، ولكنني لابد

أن أتوقف عن المجيء إلى هنا وأن لا أنبس ببنت شفة عن هذه المقبرة، ولكن صديقي لم يعد مرة أخرى، ثم أتى آخرون ليلا، وأنا وحدي أنتظره ليحضر لي التلفاز، وأشعر بجوع شديد، وليس لي مؤنس إلا الأشباح".

دخـل الرجل المجنون إلى الغرفة، وأخذ يضع يده على الجدران، ثم تبعه خليفة ملاحظا الدمار الذي أصاب الجدار الأيسر من الباب وانحنى ليلتقط بقايا الأحجار، وهو يشعر بالأسى على هذا التخريب الوحشي.

الآن اتـضحت الصورة لخليفة تماما، فقد عثر الرجل المجنون على المقبرة، ثم أخبـر نايـر بالأمر، الذي أخذ منها بعض القطع، ومن بينها على الأرجح قطعة من الجدار المُهدّم، ثم علم سيف الثأر بالأمر، وقتل ناير والبقية لا تخفى على أحد.

بعـد أن اعتادت عيناه على الظلمة، أصبح خليفة قادرا على رؤية النقوش بوضوح الآن، علـى الرغم من الظلام الذي يغطي جانبي الغرفة، وكأنهما مكسوان بستائر سوداء. جلس الرجل المجنون على الأرض، وهو ينظر إلى خليفة، ويتمتم ببعض الكلمات.

سأله خليفة "هل عدت إلى هنا مرة أخرى بعد أن عثرت على المقبرة؟"

هـزّ الرجل رأسه وقال "لقد كنت مختبئا وسط الصخور، وكأنني صخرة تماما، ورأيت كل شيء، فقد أتوا ليلا، وأخذوا أشياء كثيرة من المقبرة، كل ليلة كانوا يأخذون منها شيئا".

"وماذا عن ليلة أمس؟"

"لقـد حضروا بالأمس، ثم ذهبوا، وحضر شخصان آخران. رجل وسيدة بيضاء البشرة كنت قد رأيتهما من قبل، دخلا إلى المقبرة ثم اختفيا".

"أتقصد أنهما لقيا مصرعهما؟"

هزّ الرجل كتفيه.

كرر خليفة السؤال مرة أخرى.

"لا أدري، ربما هما على قيد الحياة، أو لا، الرجل الذي رأيته...".

"ماذا؟"

لم يكمل الرجل جملته، وأخذ يرسم أشكالا على الأرض بإصبعه.

اسـتدار خلـيفة، ونظر إلى الجدران مرة أخرى مستخدما القداحة ليرى النقوش التي تصعب رؤيتها في ضوء الشمس. أمضى خليفة وقتا طويلا ينظر إلى اللوحة التي أعجبت دانيل، ثم نظر إلى حاويات الأعضاء وإلى أشكال الرجلين الفارسيين واليوناني الواقف أمام منضدة الفاكهة، بينما أنوبيس يزن قلب الميت.

ظــلّ خليفة يتفحص كل بوصة على الجدار، حتى بدأت القداحة تخفت وما لبث ضوؤها أن تلاشى تماما مع انتهائه من فحص النقوش. وضع خليفة القداحة في جيبه، ثم عاد مرة أخرى إلى الجزء الذي تضيئه أشعة الشمس.

همس خليفة "إنها رائعة، رائعة للغاية".

نظر إليه الرجل المجنون، وقال "لقد كان هناك جيش غرق في الرمال".

أجــاب خليفة، وهو يربت على كتف الرجل "أعرف ذلك يا صديقي، والآن أريد معرفة مكانه".

كــان مقــر جامعة شيكاغو للبعثات الأثرية يقع وسط ثلاثة فدادين من الحدائق الزاهرة على كورنيش النيل بين معبدي الأقصر والكرنك. كان المبنى يشبه المزرعة المليئة بالساحات والممرات وصفوف الأشجار حيث يتم فتح المقر ستة أشهر في العام لاستــضافة علمــاء المــصريات والفنانين والدارسين والباحثين. كان بعضهم يجري دراســات خاصــة، بينما الأغلبية يعملون في بهو معبد جينيت حابو، حيث تمّ تسجيل النقوش والرسوم على مدار أكثر من 75 عاما.

كــان الــوقت يــشير إلى الظهيرة، عندما وصل خليفة إلى البوابة الأمامية، وأظهر للحارس بطاقته، فقام الحارس بإجراء مكالمة هاتفية، وما هي إلا بضع دقائق حتى جاءت فتاة أمريكية، وقابلت خليفة الذي أوضح لها أنه يرغب في رؤية البروفيسور الزهير.

دخل خليفة إلى المقر، وقالت له الفتاة الأمريكية "إن البروفيسور الزهير شخص عزيــز علينا جميعا يأتي إلى هنا كل عام، ويحب الجلوس في المكتبة حتى أننا نعتبره جزءا منها".

"لقد سمعت أنه مرّ بأزمة صحية".

"إنه يعاني صحيا في بعض الأوقات، ولكنه بخير الآن".

مــرّ خليفة وبجواره الفتاة عبر ممر مليء بالأشجار عند مقدمة المبنى، والهواء تفــوح منه رائحة نبات الخباري والياسمين والعشب المجزوز حديثا. على الرغم من وجه الشبه بين المقر والطريق المرصوفة إلا أن المقر كان أكثر هدوءا. فلم يكن هناك من صوت سوى تغريد الطيور وصوت رشاشات المياه التي تروي العشب.

اصــطحبت الفــتاة خلــيفة عبــر صفوف الأشجار إلى ساحة كبيرة تطل على مجموعة من الحدائق في مؤخر المقر.

أشــارت الفــتاة إلــى رجل يجلس في ظل شجرة سنط طويلة، وقالت "إنه وقت قيلولته، ولكن لا بأس إن أيقظته فهو يحب الزوار، سأحضر لكما بعض الشاي".

استدارت الفتاة، وعادت مرة أخرى إلى المقر، بينما توجَّه خليفة إلى الرجل الذي كان غارقا في كرسيه، وذقنه يلامس صدره. كان الرجل صغير الحجم، أقرع، ومجعد الـــوجه، وعلـــى يده وفروة رأسه بقع حمراء، ولديه أذنان كبيرتان تلمعان بشدة تحت أشعة الظهيرة. على الرغم من الحرارة، إلا أن الرجل كان يرتدي حلة صوفية. جلس خليفة إلى جواره، وهزّ ذراعه برفق قائلا "بروفيسور الزهير؟"

همس البروفيسور ببعض الكلمات، ثم سعل، وبعد ذلك فتح عينيه ببطء واحدة تلو الأخرى، واستدار نحو خليفة ببطء، وكأنه سلحفاة.

قال البروفيسور بصوت ضعيف "أهذا وقت الشاي؟"

"سيحضرونه الآن يا سيدي".

"ماذا؟"

كرر خليفة نفس الجملة، ولكن بصوت أعلى هذه المرة.

رفع الزهير معصمه الأيمن، ونظر إلى الساعة قائلا "ما زال الوقت مبكرا على الشاي".

"لقد أتيت للتحدث معك في أمر ما، وأنا صديق للبروفيسور الحبيب".

قـــال الرجل "إنه يعتقد أنني عجوز خرف، وهو محق". بسط الرجل يده المهتزة وقال "أنا البروفيسور الزهير".

بـــسط خليفة يده أيضا، وقال "أنا يوسف خليفة، وقد درست على يد البروفيسور الحبيب، وأعمل محققا الآن".

استدار الزهير في كرسيه قليلا ويده اليسرى فوق قدمه لا تتحرك؛ مما لفت انتباه خليفة.

لاحظ الرجل نظرة خليفة، فقال له "إنها من أثر السكتة الدماغية التي تعرضت لها".

"آسف، لم أقصد أن...".

"لا علـــيك فهـــناك أمـــور أسوأ، كأن تتعلم على يد الحبيب مثلا". ابتسم الرجل ابتسامة عريضة حتى ظهر فمه الخالي من الأسنان. "كيف حال الحبيب؟"

"بخير، ويبعث لك بتحياته".

"أشك في ذلك".

أتـــى رجـــل يحمـــل كوبين من الشاي، وضعهما على منضدة بين الرجلين، ولم يستطع البروفيسور بسط يده لأخذ كوبه، فناوله خليفة إياه. أخذ الرجل العجوز يرتشف الشاي بصوت مرتفع ومن خلفهما يصدر صوت مباراة كرة مضرب.

"ما اسمك مرة أخرى؟"

"يوسف خليفة، وأود التحدث معك عن جيش قمبيز".

رشف الرجل رشفة أخرى بصوت مرتفع، وقال "جيش قمبيز؟"

"لقد أخبرني البروفيسور الحبيب أنك أقدر شخص على إخباري بذلك".

"بالطبع، أنا أعرفه أكثر منه، ولكن ليس لهذه الدرجة".

أنهى البروفيسور الشاي، وأعطى الكوب لخليفة ليضعه على المنضدة. جلس الاثنان في صمت لوهلة، ثم بدأ النعاس يبدو على الرجل مرة أخرى، وكأنه مصنوع من الشمع الذي يذوب تحت حرارة الشمس. فجأة عطس الرجل، واستقر جالسا، وأخرج منديلا من جيبه، ونظف أنفه، ثم قال "ما الذي تريد معرفته عن جيش قمبيز؟"

أخرج خليفة علبة السجائر التي اشتراها من الضفة الغربية في طريقه للمقر، وأشعل سيجارة، وقال "أريد معرفة ما لديك، إنه مفقود في بحر الرمال الأعظم، أليس كذلك؟"

أومأ البروفيسور إيجابا.

"هل يمكن أن نكون أكثر تحديدا".

"طبقا لما أورده هيرودوس، فالجيش المفقود في مكان ما بين الواحة وأرض أتباع آمون". عطس الرجل مرة أخرى، ثم استطرد قائلا "والواحة هذه تشير إلى واحة الخارجة على الرغم من أن البعض يؤكدون أنها الفرافرة، في الحقيقة، إنني لا أعرف أيهما الصواب. بالنسبة لأرض أتباع آمون فهي واحة سيوة في بقعة ما بين المكانين، هذا على حدّ قول هيرودوس".

"هل هيرودوس هو مصدر المعلومات الوحيد؟"

"للأسف نعم، ويردد البعض أن هذا الأمر من بنات أفكاره".

أخذ الرجل يحاول وضع المنديل في جيب السترة مرة أخرى دون فائدة حتى نفد صبره، فوضعه في كم السترة الأيسر. كان هناك وقع أقدام خلفهما، حيث أنهى اللاعبان مباراة كرة المضرب، وتوجها عائدين إلى المقر. قال البروفيسور "لعبة سخيفة، ما الفائدة من ضرب الكرة جيئة وذهابا فوق شبكة؟ هذه هي طبيعة الأشياء التي يخترعها الإنكليز".

أخذ البروفيسور يهز رأسه المتجعد، وخيّم الصمت لوهلة.

أخيرا قال البروفيسور "لا أمانع بأخذ سيجارة منك".

"متأسف، كان يتعين عليّ تقديمها لك منذ البداية".

أعطاه خليفة السيجارة، وأشعلها له، وأخذ الرجل العجوز نفسا عميقا.

"رائع، لقد منعني الأطباء عنها بعد السكتة الدماغية، ولكنني أعتقد أن واحدة لن تضر".

في البداية، أخذ الرجل نفسا تلو الآخر في صمت تام وعلى وجهه علامات التركيز التام، ولم يتحدث إلا بعد أن أوشكت السيجارة على الانتهاء.

"على الأرجح أن رياح الخماسين هي التي قضت على هذا الجيش، أو ما يدعونها رياح الصحراء، فهي عاتية وخاصة في فصل الربيع. حاول الكثيرون العثور على هذا الجيش منذ لحظة فقدانه، بدءا من قمبيز نفسه ووصولا إلى الاسكندر الأكبر والرومان ولكن الأمر كان أشبه بالإلدورادو المفقودة".

"وهل بحثت أنت عنه يا بروفيسور؟"

نظر الرجل إلى خليفة، وقال "كم تعتقد أنني أبلغ من العمر؟"

شعر خليفة بالحرج، ولم ينبس بكلمة.

"هيا، قلها".

"سبعون؟"

"أنت تجاملني، أنا أبلغ ثلاثة وثمانين عاما، قضيت منها خمسة وستين عاما في الصحراء الغربية، أبحث عن هذا الجيش اللعين، وهل تعرف ماذا وجدت طوال هذه السنين؟"

لم ينبس خليفة بكلمة.

"رمال! هذا هو ما وجدته، آلاف الأطنان من الرمال، لقد عثرت على رمال أكثر من أي عالم آثار في التاريخ، ولذا أصبحت خبيرا بها".

أخذ الرجل النفس الأخير من السيجارة، ثم أطفأها في يد الكرسي قبل أن يلقي بها في كوب الشاي.

"ينبغي ألا تترك بقايا السجائر على الأرض فستضر بالمنظر الجميل للحديقة، أليس كذلك؟"

"بالطبع يا سيدي".

"إن الوقت الذي أقضيه هنا رائع. إن المكتبة رائعة، ولكنني أحب الحديقة فهي هادئة للغاية، وأتمنى الموت بها إن أمكن".

"أنا متأكد...".

قاطعه البروفيسور قائلا "اسمعني أيها الشاب، إنني رجل عجوز ومريض، وأتمنى أن أموت هنا على هذا الكرسي في ظل هذه الشجرة الجميلة".

أخذ البروفيسور يسعل، بينما عاد الرجل الذي أحضر لهما الشاي قبل قليل وأخذ الكوبين مرة أخرى.

سأل خليفة "لم يتم العثور على أثر لهذا الجيش، وليست هناك أي علامة تشير إلى مكانه، أليس كذلك؟"

بدا البروفيسور غير مكترث بما يقوله خليفة فقد كان مشغولا بحك ذراعه بيد الكرسي وهو يهمس بشيء ما.

"بروفيسور الزهير؟"

"نعم".

"لم يتم العثور على أثر لهذا الجيش، أليس كذلك؟"

"هناك كثيرون يقولون إنهم يعرفون مكانه، وكانت هناك بعثة منذ عدة سنوات اعتقد أفرادها أنهم عثروا عليه، ولكن الأمر لا يعدو عن كونه محض قيل وقال، مجرد نظريات بالية متى أخضعتها للأدلة العملية ثبت فشلها". أدخل البروفيسور إصبعه في إذنه عابثا بها، وقال "لم يكن هناك سوى هذا الأمريكي".

"الأمريكي؟"

"إنه رجل لطيف تغمره روح المغامرة، ظل يعمل هناك بمفرده، حتى وضع نظرية تفيد بوجود هرم بجوار الجيش".

"هرم؟"

"ليس هرما بالمعنى الحرفي، وإنما مجرد بروز مرتفع لصخرة على شكل هرم، هذا هو ما قاله وأكد كلامه بعثوره على بعض النقوش على هذه الصخرة، وكان مقتنعا تماما بأن هذه النقوش رسمها جنود الجيش المفقود. لقد اتصل بي من سيوة، وأخبرني أنه اكتشف بعض الآثار، وأنه أرسل لي بعض الصور، ولكنها لم تصلني قطّ. بعد ذلك بشهرين، عثروا على سيارته الجيب محترقة وهو بداخلها. كان اسمه جون كادي، رجل لطيف تسيطر عليه روح المغامرة".

"هل تتذكر أين كان يحفر هذا الرجل؟"

"في مكان ما في الصحراء". بدت علامات التعب على البروفيسور، ولكنه استمر في الحديث، "إنه مكان فسيح هناك، وقد أمضيت هناك وقتا كافيا. لقد أكد أن الجيش مدفون بجوار الهرم، وقد اعتقدت لوهلة أنه اكتشف شيئا ذا قيمة، ولكن للأسف تعرض الرجل لهذه الحادثة المفجعة. ياله من أمر مؤسف، لن يتم اكتشاف هذا الجيش أبدا، إنه حلم زائف وخيال زائل".

أخـذ صوت الرجل يخفت أكثر وأكثر حتى تلاشى تماما، وغطّ الرجل في نوم عميق. ظل خليفة ينظر إليه لوهلة، ثم نهض وعاد إلى المقر مرة أخرى.

تعتبـر مكتـبة مقر جامعة شيكاغو أفضل مكتبة لعلم المصريات خارج القاهرة حـيث تتكون من حجرتين مطليتين باللون الأبيض، تقعان في الطابق الأرضي. وهي ذات سـقف مـرتفع، ورفوف معدنية، وتسود بها رائحة طلاء وأوراق قديمة. أظهر خليفة بطاقته للمسؤول عن المكتبة، وأخبره بسبب قدومه.

كـان المسؤول عن المكتبة شابا أمريكيا كث اللحية، يضع نظارة ذات عدستين مـستديرتين، أخبره خليفة عمّا يبحث عنه، فأخذ يحك لحيته، وهو يفكر بعمق، ثم قال "بالتأكيد لدينا هنا أشياء مفيدة لك، هل تجيد الألمانية؟"

نطق الرجل اسم كتاب بالألمانية، وقال لخليفة "هذا الكتاب من أفضل الكتب عن الصحراء الغربية على الرغم من أنه يعود إلى مئة سنة مضت، ولكن لم تتم ترجمته، ولـذا لن يكون ذا فائدة. هناك بعض المؤلفات بالعربية والإنكليزية ولدينا كذلك بعض الخرائط الرائعة والمسوحات الجوية، دعني أرى ما يمكنني تقديمه لك".

دخل الرجل إلى غرفة جانبية، بينما خليفة يقف إلى جوار رف مليء بالمجلدات التي تتـناول علـم المـصريات مـنذ أيامه الأولى؛ أبحاث بيلزوني في مصر والنوبة وكتاب روزالـيك عـن الآثار في مصر والنوبة، والمجلدات الاثنا عشر ليبسوس وينكمالار عن مصر وأثيوبيا. مرر خليفة أصابعه وسط هذه المجلدات، وأخرج نسخة من كتاب درافيتش عـن الرسوم المصرية القديمة، ووضعه على مقدمة الرف، وفتحه برفق، وظل يقرأ فيه لمدة عشرين دقيقة، حتى عاد المسؤول عن المكتبة، وربت على كتف خليفة برفق.

"لقـد وضعت بعض الكتب لك في غرفة القراءة على المنضدة المجاورة للنافذة، وهي بالتأكيد لا تغطي الموضوع برمته، ولكنها كافية للبدء في البحث، رجاء استدعني إذا احتجت لشيء، ولكنني أُفضل أن تهمس لي على اعتبار أننا في مكتبة".

ابتـسم الـرجل، وعاد إلى مكتبه مرة أخرى، بينما وضع خليفة كتاب درافيتش، وتـوجَّه إلى الغرفة المجاورة، حيث توجد رفوف على الجانبين، ومناضد في الوسط، ونظر إلى المنضدة التي خصصها الرجل له، وإذ بها تعج بصفين من الكتب، فما كان منه إلا أن جلس وأخذ المجلد الأول الموجود في أعلى الصف الأقرب.

مـضت ثلاث ساعات قبل أن يصل خليفة إلى مراده في كتاب صغير تحت اسم رحلـة عبـر بحر الكثبان الرملية الأعظم يرجع إلى العام 1902 لمستكشف إنكليزي يُدعى جون دوفيلر.

ســـار دوفيلـــر على عكس آثار الرحلة الاستكشافية التي قام بها رولف في العام 1874 حيث بدأ من سيوة بمساعدة مرشدين محليين وقافلة تضم خمسين جملا متوجها لـــواحة الداخلة على بعد 600 كيلومتر إلى الجنوب الشرقي. بعد مضي عشرين يوماء تمكـــن الإعـــياء ونقص المؤن منهم، مما دفعهم إلى التحول إلى واحة الفرافرة وإنهاء الـــرحلة عـــند هذا الحدّ. لم تلفت انتباه خليفة كيفية انتهاء الرحلة، وإنما ما حدث بعد مرور ثمانية أيام على بدئها في الصحراء.

في صباح اليوم الثامن من الرحلة، أشار الشاب الذي كنت أتحدث معه إلى منظر غريب وسط الكثبان الرملية إلى الشرق قليلا من خط سيرنا.

للـــوهلة الأولـــى، تخـــيلت أن هذا الشكل الهرمي ما هو إلا ميراج أور اوبتيكل الوشن....

توقـــف خلـــيفة يفكـــر في معنى الكلمات غير المعروفة بالنسبة له، وذهب إلى المـــسؤول عـــن المكتبة باحثا عن قاموس إنكليزي- عربي. أرشده الرجل إلى مكان القامـــوس، فأخـــذه خلـــيفة، وعـــاد به إلى المنضدة، وبحث عن معنى كلمتي *ميراج* و*اوبتيكل الوشن* وكانتا تعنيان: سراب وتوهم بصري.

اســـتأنف خليفة القراءة مرة أخرى، وترك القاموس بجواره، وقد لجأ إليه مرارا وتكرارا.

بالتأكـــيد هـــذا الـــشكل ليس طبيعيا، ويرجع ذلك لسببين. أولهما مقدار الدقة في نحته، والثاني عدم وجود أي أشكال مشابهة له في المكان بأكمله. بعد أن اقتربنا قليلا مـــن المكـــان، تغير تقديري الأول لهذا الشكل حيث اتضح أنه شكل طبيعي وحقيقي، ولكـــن لا يمكنني تحديد كيف وأين نشأ، لأن خبرتـــي لا تمتد لتشمل الجانب الجيولوجي أيـــضا. كـــل ما يمكنني قوله هو أن هذا الشكل مميز وسط المكان بأكمله، وبارز بين الكثـــبان الـــرملية وكأنه رأس رمح أو على نحو أكثر دقة يشبه الرمح ثلاثي الأسنان كالـــشوكة تماما التي كان يمسكها بوسايدن إله البحر عند اليونانيين (لقد كنا في وسط بحر الرمال في هذا المكان!).

اعتقد خليفة أنها مزحة من الكاتب.

استغرقنا معظم اليوم حتى وصلنا إلى هذا المكان الرائع، مما تسبب في انحرافنا عـــن مـــسارنا بمسافة كبيرة، وكانت معظم الظروف تقف عائقا أمام المسير إلى هذا المكـــان، لاعـــتقادنا أنـــه فأل حسن، ونذير شؤم، ومجرد هراء مما كان يشغل رأس المصريين (نعم فهم إلى حدٍّ بعيد يشبهون أمة من الأطفال الصغار كما قال كرومر).

هزّ خليفة رأسه متعجبا من هذا التعليق الذي يثير الضيق، ثم قال في نفسه "ياله من إنكليزي متعجرف!"

استمعت إلى مخاوف الرجال، وبذلت قصارى جهدي للتغلب عليها، مقنعا إياهم أن هذه الصخور الكبيرة قد تكون مخيفة، ولكن ذلك يحدث للنساء والأطفال فقط، ولا يليق بمئة رجل مثلهم أن يخافوا من هذه الصخرة. اقتنع الرجال على مضض، وسرنا في طريقنا نحو هذه الصخرة الهرمية حتى وصلنا إليها في وقت متأخر من الظهيرة، فنصبنا الخيام عند قاعدة الصخرة.

بالتأكيد سيسأل الكثيرون عمّا يمكن أن يقال عن صخرة حتى وإن كانت بهذه الضخامة، وأعتقد أنني بالغت كثيرا في هذا الأمر في الفقرات القليلة السابقة، ولكنني الآن سأتحدث عن جانب واحد من هذه الظاهرة الطبيعية؛ وهو على وجه التحديد بعض النقوش المحفورة في الجزء السفلي من الصخرة إلى الجنوب قليلا والذي اتضح بعد الفحص أنها رموز هيروغليفية بدائية. كان إلمامي باللغة المصرية القديمة ضعيفا تماما كإلمامي بالجيولوجيا، ولكنني تمكنت من فهم بعض العلامات التي تشير إلى أن هذه النقوش هي اسم نت- نبو وهو بلا شك أحد المسافرين ممن مروا بجوار هذا المكان منذ عدة آلاف من السنين.

في وقت لاحق من نفس الليلة، وبعد أن أعد لنا الطباخ أزاب طعام العشاء، وكنت أتناول الشاي، نظرت إلى النقش، وتمنيت أن يكون نت- نبو قد وصل سالما إلى جهته وهو في صحة جيدة. فعل الرجال مثلي تماما على الرغم من عدم فهمهم لكلمة واحدة مما قلته، ولكن بدا الأمر وكأنه يرفع من روحهم المعنوية، ثم غطّينا جميعا في نوم هادئ.

قرأ خليفة النص مرتين ليتأكد من فهمه بشكل صحيح، ثم دوّن ملاحظة سريعة، واطلع على ملحق في آخر الكتاب حيث توجد مقتطفات من يوميات أفراد هذه الرحلة فيها تفاصيل توضح المسافات التي قطعوها كل يوم وما هي الطريق التي سلكوها. ومن خلال مقارنة هذه القياسات على خريطة لغرب مصر، تكونت لديه فكرة عن موقع هذه الصخرة الهرمية بشكل تقريبي. طلب خليفة من المسؤول عن المكتبة مزيدا من الخرائط الأكثر دقة ليتأكد من القياسات التي أخذها.

استغرق الأمر وقتا أكثر مما توقع خليفة، ولكن ذلك لم يمنعه من استخدام خريطة مقاس 1/150.000 دون فائدة في العثور على الصخرة الهرمية. كانت هناك خريطة مأخوذة بالقمر الاصطناعي لبحر الكثبان الرملية، ولكنها لم تكن واضحة.

بعــدها عثــر على خريطة مسحية للقوات المسلحة المصرية بمقاس 1/50.000، وأخذ يبحث إلى الغرب من المكان الذي يريده، وبدأ اليأس يتسرب إلى نفسه.

فــي النهاية عثر على مخطط أولي يرجع إلى أيام الحرب العالمية الثانية، وكان لــذلك مفعــول السحر. فقد كانت المكتبة تعج بالمؤلفات التاريخية، ولكن هذا المخطط كــان يحــتوي علــى معلومات جغرافية في شكل صورة طبوغرافية مفصلة للمنطقة الــواقعة بــين 26 و30 درجة طولا وعرضا في مكان وسط بين سيوة والفرافرة وفي الجانــب الفــارغ منها يوجد مثلث صغير على شكل صخرة هرمية. هوى خليفة بيده علــى المنــضدة فرحا بنفسه، وصدر دوي الصوت في المكان وكأنه رصاصة. نظر المسؤول عن المكتبة ليرى ما يحدث، فاعتذر له خليفة عمّا فعله.

ظــلّ خلــيفة يــدوّن القياسات الجغرافية، ويراجعها مرة تلو الأخرى للتأكد من صحتها، ثم فكّر فيما إذا كان صديقه عبد الله لا يزال ينظّم رحلات صحراوية أم لا.

نهــض خلــيفة، وتمطى، ولاحظ عندما نظر من النافذة أن الظلام قد حلّ، فنظر إلــى ساعته، ووجدها بعد الثامنة مساء بقليل، وتذكر أنه وعد زوجته والأولاد بالقدوم إلى المنزل عند الرابعة عصرا، ليحضر الاحتفال معهم. هرول خليفة يجمّع ملاحظاته الورقية قائلا "اللعنة، لن تكون زينب سعيدة بذلك".

33

الصحراء الغربية

خيّم الظلام على المكان دون أي ظهور للجيش، ونفد صبر درافيتش حينذاك.

ظلّ درافيتش طوال اليوم يحدق بمكان الحفر، منتظرا صيحة بين الحين والآخر تنبـىء بالعثور على الجيش. ساعة تلو ساعة، والشمس تنال منه، والحشرات تتطاير حـول وجهـه، والصخرة الضخمة ماثلة أمامه. لم تتوقف الشفاطات عن العمل حتى وصـلوا بالحفر إلى عمق عشرة أمتار دون العثور على شيء باستثناء آلاف الأطنان من الرمال، وكأن الصحراء تتلاعب بدرافيتش.

نـزل درافيتش مرتين إلى موقع الحفر بنفسه مستكشفا المكان بمالجه، وصابّا جـام غضبه على من يراه. قضى درافيتش معظم الوقت أسفل المظلة ينفث دخان سـيجاره، ويـزيل العـرق عن عينيه، ويزداد حيرة وإحباطا. مع غروب الشمس وحلـول الظـلام، أصبح الهواء لطيفا، وأشعل العاملون مصابيح ضخمة في مكان الحفـر حتـى امـتلأ الـوادي بالضوء، وبالتأكيد ازدادت فرصة اكتشاف أمرهم. ولكنه أمر لابد منه، إذا كانوا يريدون العثور على الجيش. أصبح الجميع يحفرون الآن، حتـى بدا الأمر وكأنك ترى جيشا يبحث عن جيش، ولكن دون العثور على أثر له.

بـدأ القلـق يتسرب إلى نفس درافيتش، وشعر أن دانيل ربما يكون محقا، وأن الجـيش قـد يكـون علـى عمق خمسين مترا على الرغم من أن تقديرات درافيتش أوضحت أن الجيش على بعد يتراوح بين أربعة إلى سبعة أمتار، بل وبحدّ أقصى يبلغ عشرة أمتار، كما سبق له وأخبر سيف الثأر، وقد وصلوا الآن إلى عمق عشرة أمتار بالفعل دون أن يعثروا على شيء.

لم يكن لدى درافيتش شك في العثور على الجيش، ولكن الوقت يمضي سريعا، ولا يمكنهم المكوث في الصحراء للأبد دون أن يشعر بهم أحد، فعلى الرغم من أن الصحراء نائية، إلا أنها ليست بعيدة لدرجة تسمح لهم بالاختفاء التام. والآن، أدرك درافيتش أن أمامهم أسبوعا على أقصى تقدير، ولو أن الجيش على عمق خمسين مترا فلن يتمكنوا من اكتشافه في هذه الفترة.

أخذ درافيتش يهمس لنفسه "أين هو؟ أين هذا الجيش اللعين؟" ثم ثنى قبضته ووضع مفاصل أصابعه عند جبهته لأنه كان يعاني من صداع فظيع بعد أن أمضى اثنتي عشرة ساعة واقفا يتابع أعمال الحفر، ولا شك أنه بحاجة إلى الراحة الآن، وتهدئة عقله قليلا من التفكير، لذا صاح بأحد الرجال بالأسفل، وأخبره أنه ذاهب ليستريح قليلا في خيمته، وإذا عثروا على شيء فليخبروه على الفور، ثم استدار، وتوجَّه إلى المخيم، وبحوزته زجاجة من شرابه المفضل. ظل درافيتش يفكر *بضع رشفات فقط من شرابي المفضل، وسأخلد للنوم لساعتين، وأستيقظ في أفضل حال.*

أثناء سيره نحو خيمته راودته فكرة أخرى جعلته يبتسم ابتسامة عريضة حيث فكّر في الاستحمام وتناول شرابه وطعامه ثم...

وصل درافيتش إلى المخيم، وشق طريقه وسط المعدات، وتوقف أمام الخيمة، ثم أدخل رأسه، ونظر إلى تارا ودانيل اللذين نهضا فور قدومه؟ نظر الرجل بشغف إلى تارا، ثم تحدث بالعربية إلى الحارس.

هبّ دانيل صارخا "عليك اللعنة، سأقتلك يوما ما يا درافيتش".

انفجر درافيتش في الضحك، وقال "عندئذ يتعين عليك العودة إلى الحياة من بين الأموات". ثم تحدث بالعربية مع الحارس، ومضى في طريقه.

سألت تارا "ماذا هناك يا دانيل".

لم يجب دانيل، وظل يحدق بحذائه، وكأنه يرفض الإجابة.

"ماذا قال يا دانيل؟"

"لقد همس بشيء ورحل".

"ما هو هذا الشيء؟"

"لقد أخبره بأن يأخذك إلى خيمته في غضون ساعتين".

نظرت تارا إلى ساعتها، وإذا بها تشير إلى الثامنة وخمسين دقيقة، وبدا الرعب واضحا على وجهها.

كمـــا توقـــع خليفة لم تكن زينب سعيدة بتأخره، حيث كانت جالسة تشاهد التلفاز بصحبة علي وبطة. وما إن رأته حتى رمقته بنظرة حادة.

ما إن رأى علي والده حتى قال "لم تحضر لمشاهدتي يا أبي، لقد كنت في موكب توت عنخ آمون أحمل إحدى مراوح الريش فوق رأسه".

قال خليفة "متأسف يا عزيزي". ثم انحنى نحوه، وربت على رأسه قائلا "لقد كان لدي عمل مهم، وتمنيت لو أنني تمكنت من الحضور لمشاهدتك أنت وبطة، انظر، لقد أحضرت لكما شيئا".

أخرج خليفة كيسا بلاستيكيا من جيبه به عقد من الصدف لبطة وبوق لعلي.

صـــاح علي "شكرا يا أبي". وأخذ ينفخ في البوق، بينما توجهت بطة إلى المرآة، لترى العقد على رقبتها.

قالت زينب "بالله عليك يا خليفة إنها مرة واحدة في العام بأكمله، وقد كان الولدان بحاجة إليك وأنت خذلتهما".

تأســف لها خليفة محاولا الإمساك بيدها، ولكنها رفضت، ونهضت نحو الباب، وأغلقته، ثم قالت وهي تستدير "لقد تلقيت مكالمة هاتفية اليوم من حساني".

لم ينطق خليفة بكلمة، واكتفى بإخراج علبة السجائر.

"لقــد عبّر لي عن مدى سعادته بحصولك على الترقية، وكيف ستزيد من دخلنا، وتسهّل حصولنا على شقة مدعمة والتحاق الأولاد بمدرسة جديدة، وأضاف أيضا أنك ســتكون فـــي البيت مبكرا لتخبرني بذلك، وأن هذه الخطوة خطوة رائعة على مسار مستقبلك المهني ستتلوها خطوات أفضل".

"هذا اللعين!"

"ماذا تقول يا خليفة؟"

"إنه يحاول الإيقاع بي يا زينب من خلالك، إنه يريد إقناعك بأهمية هذه الترقية، حتى تقنعيني أنت بقبولها".

"ألن تقبلها؟"

"الأمر معقد يا زينب".

"لا تتلاعب بي يا خليفة، لن يحدث ذلك هذه المرة، هيا أخبرني ماذا هناك؟"

بدأ عليّ يطرق الباب وهو يريد مشاهدة التلفاز.

"أنا أتحدث مع والدك، اذهب الآن يا علي، والعب مع بطة".

"لا أريد اللعب معها".

"قلت اذهب، والعب معها، وكفّ عن هذا الضجيج حتى لا توقظ الطفل".

أطلق الولد نفير البوق اعتراضا على الأمر، ثم عاد إلى الغرفة الأخرى مغلقا الباب وراءه.

أشعل خليفة السيجارة قائلا "لابد أن أعود إلى القاهرة الليلة".

لم تتحرك زينب مندهشة من الأمر، ثم تقدمت، وجلست عند قدميه، وقالت "ماذا هناك يا خليفة؟ أرجوك أخبرني فمن حقي معرفة ماذا هناك وبخاصة إذا كان يؤثر على حياتنا جميعا. لماذا لا تريد الحصول على الترقية؟"

"لا تظنّي أنني لا أريد إخبارك يا زينب، وإنما أنا خائف من تورطك في هذا الأمر، إنه خطير للغاية".

"هذا يجعلني أكثر إصرارا على معرفته، فأنا زوجتك وما يضرّك يضرّني، ويضرّ أطفالنا".

"أنا لا أفهم الأمر برمته يا زينب، كل ما أعرفه أن حياة أشخاص أبرياء تتوقف على تدخلي، وأنا الوحيد القادرة على إنقاذهم".

خيّم الصمت لوهلة، ثم نظرت زينب إلى عينيه، وقالت "ولكن، هناك شيء آخر، أليس كذلك؟"

لم ينطق خليفة.

"ماذا هناك يا خليفة".

"الأمر ليس...".

"تكلم يا خليفة".

همس خليفة "إنه يتعلق بسيف الثأر".

نزلت الكلمة عليها كالصاعقة، وقالت "يا الله لقد كان ذلك ماضيا وانتهى".

"لم ينتهِ قطّ يا زينب، وهذا ما اكتشفته في هذه القضية، إنه دوما هنا بداخلي على الرغم من محاولتي نسيان الأمر مرارا وتكرارا حتى أمضي قدما في حياتي. ولكن كان عليّ إيقافه، وكان عليّ مساعدة أخي".

"لقد نسينا هذا الأمر يا خليفة، ولم يكن بمقدورك فعل شيء آنذاك".

"كانت تكفيني مجرد المحاولة، لكنني لم أحاول. لقد تركته يستحوذ على أخي".

في هذه اللحظة شعر خليفة بالدموع في عينيه، ولكنه قاوم لإخفائها.

"تعجــز الكلمات عن وصف ما أشعر به يا زينب، وكأنني أحمل عبئا ثقيلا على ظهري، فدوما ما أفكر في علي وما حدث له. فماذا كان سيحصل لو أنني بذلت مزيدا مــن الجهــد! والآن مع ظهور هذه القضية لدي فرصة لتصحيح الأوضاع، لن أعيد علي، وإنما سأكبح بعض الشرور، وإلى حين قيامي بذلك لن أستريح أبدا، فجزء مني سيظل هائما في الماضي".

"إنني أفضل نصف زوج بدلا من زوج ميت".

"أرجــوك حاولــي تفهم الأمر يا عزيزتي، لابد من تسوية هذه القضية لأنها في غاية الأهمية بالنسبة لي".

"أهم مني ومن الأولاد يا خليفة؟ نحن بحاجة إليك". أمسكت زينب بيده وقالت "لا تهمنــي الترقية ولا نحتاج مزيدا من المال أو شقة فخمة، فحياتنا رائعة هكذا، ولكن ما يهمنــي هــو أنت يا عزيزي. لا أريدك أن تلقى حتفك. ولا شك أنك ستلقى حتفك إن مــضيت قــدما في هذه القضية". أخذت زينب تبكي، وتقول "هذا ما أشعر به يا خليفة أريدك معنا هنا في أمان، أريد أن تساعدني في تنشئة هذه العائلة".

"لا يــوجد في العالم ما هو أهم منك ومن الأولاد، لا شيء، لا الماضي ولا أخي ولا حياتي نفسها، فحبك أغلى عندي من كل شيء، وسأفعل أي شيء من أجلك".

رفــع خلــيفة رأسه، ونظر في عيني زينب، وقال "اطلبي مني التخلي عن هذه القضية، وسأفعل على الفور دون لحظة تردد واحدة".

ظــلّ الاثـــنان على هذا الوضع لوهلة قبل أن تنهض زينب قائلة "ما هو موعد قطارك؟"

"يغادر آخر قطار عند الساعة العاشرة تماما".

"حسنا، بالكاد ستتناول العشاء معنا ثم تغادر".

لملمت زينب شعرها، ثم توجهت إلى المطبخ.

غــادر خلــيفة المنزل في تمام الساعة التاسعة وخمس عشرة دقيقة، وبيده حقيبة الــسفر، وبهــا بعــض الملابس والطعام ومسدسه و840 جنيها كان يحتفظ بها لأداء فريــضة الحــج، وشــعر بأسى عميق لأخذها حيث كانت هذه الأموال كل ما يملكانه بالمنــزل. مــضى خليفة عازما على إرجاع كل الأمور السيئة التي حدثت على مدار الأيام القليلة الماضية إلى نصابها الصحيح مرة أخرى.

تــوجَّه خليفة إلى يسار منزله، وبدأ يسير نحو المحطة، التي تبعد عن بيته نحو خمس عشرة دقيقة، وصدى الألعاب النارية يدوي في الهواء من حوله احتفالا بعيد أبو

الحجـــاج. فكّر خليفة في الذهاب إلى المكتب للحصول على مزيد من الذخيرة، ولكنه تراجع عن الفكرة حتى لا يراه أحد من رفاقه. إذ يتعين عليه مغادرة الأقصر دون أن يشعر به أحد. نظر إلى ساعته، وإذا بها تشير إلى التاسعة وعشرين دقيقة.

ازداد الازدحام مع اقترابه من وسط المدينة حيث كانت الشوارع المحيطة بمعبد الأقــصر مكــتظة بالمـــارة، وأطفال يعتمرون قبعات الاحتفال وسط الألعاب النارية الصاخبة، وباعة الحلوى الذين كانوا بالكاد قادرين على تلبية طلبات زبائنهم مع دوي صوت قرع الطبول والمزامير.

فـــي حديقـــة صغيرة بجوار معبد الأقصر، وقفت جماعة من الذاكرين يتمايلون على صوت المنشد وحولهم جمع كبير من الناس يشاهدونهم حتى أن خليفة أبطأ قليلا حـــال مـــروره بهـــم، لا لرؤيتهم وإنما ليتأكد من أن أحدا لا يتبعه. بالتأكيد كان هناك أربعـــة أشخاص على الأقل يتبعونه، لاحظ واحدا منهم عندما توقف لشراء السجائر، وآخـــر عـــندما انحنى قليلا لإشعال السيجارة وسط موكب من الفرسان. كانت نظراته عليهم خاطفة مجرد لحظة ثم يختفون وسط الازدحام فهم على درجة كبيرة من المهارة والـــتدريب، ولعلهـــم من المخابرات، وكان ما يشغل فكره هو أنهم ربما تبعوه طوال اليوم.

وقف خليفة في الحديقة، ونظر نظرة خاطفة إلى الحشد، فرأى رجلا متكئا على بعـــض الحواجز وعيناه مركّزتان على خليفة الذي بدأ يعتقد أنه أحد مراقبيه، قبل أن تأتي زوجته ويمضيان في طريقهما. نظر خليفة إلى ساعته فوجدها التاسعة والنصف، فأشعل سيجارة وهرول في طريقه.

كـــان يتعين عليه الفرار منهم قبل الوصول إلى المحطة لأنهم إن أدركوا وجهته فسيمنعونه لا محالة، وهذه هي فرصته الأخيرة، لذا يتعين عليه الفرار منهم.

التاسعة وإحدى وثلاثون دقيقة توجَّه خليفة عبر شارع ضيق وسط مجموعة من الأطفـــال الذين يشاهدون التلفاز على الرصيف حيث أسرع الخطى، وتوجَّه يمينا في الـــشارع التالي مارا برجلين يلعبان السيجا، ثم انحرف إلى اليسار إلى حارة متعرجة حيث توجد دراجة نارية في يسار الحارة، فنظر في مرآتها الجانبية فلم يجد من يتبعه.

ظلّ خليفة ينحرف يمينا ويسارا على مدار عشر دقائق، وهو ينظر خلفه بين الحين والآخـــر، قـــبل أن يصل إلى ميدان المحطة ذي المسلة الحمراء والنافورة المعطلة على الـــدوام. تنفس خليفة الصعداء، ومضى في طريقه ناظرا إلى اليمين حتى يتفادى العربات القادمة، وإذا به يلاحظ رجلا يرتدي حلة يقف في الجهة المقابلة، وينظر إليه مباشرة.

همس خليفة "اللعنة!"

كـــان القطار المتوجه إلى القاهرة منتظرا عند الرصيف، والركاب يتدفقون إليه، وحملة الحقائب يهرولون هنا وهناك. لم يكن هناك مجال لدخول المحطة دون أن يراه الرجل، ولم يعد يتبقى أمامه سوى سبع دقائق.

وقف خليفة دون حراك لوهلة يفكر بما سيفعله. وفجأة جاءته فكرة مجنونة، ولكن لــم يكن أمامه خيار آخر حيث غادر شارع المحطة متوجها بعيدا عن القطار بخطى سريعة.

سار خليفة في أقصر الطرق المؤدية إلى منزله، حيث وصل في غضون دقائق، وصعد السلم مهرولا حتى فتح باب شقته.

هرولت زينب من غرفة المعيشة إلى الباب قائلة "لماذا عدت يا خليفة؟"

"ليس هناك وقت للشرح". ثم توجه إلى المطبخ، وهي تتبعه والساعة قاربت على التاسعة وثلاث وخمسين دقيقة، والوقت يمضي سريعا.

فــتح خلــيفة نافــذة المطبخ، ونظر إلى الأسفل فوجد رجلين ينتظران كما توقع تمامـــا، ويغطـــيان المخرج الخلفي للمنزل، وأفزعته مسافة العشرين مترا التي تفصله عن الأرض. نظر خليفة إلى سطح المنزل المقابل الذي لا يبعد كثيرا عن حافة النافذة، فهـــو على بعد ثلاثة أمتار فقط، وكان المنزل ذا أرضية مستقيمة وفي نهايته باب يقود إلى الأسفل. كان خليفة يسأل نفسه دوما "أيمكنني القفز من بناية إلى أخرى؟" والآن لم يكن أمامه خيار آخر إلا معرفة الإجابة عن هذا السؤال.

نظـــر خلـــيفة للأســـفل مرة أخرى، ثم أخرج حقيبة سفره، وقذف بها إلى سطح البناية المقابلة مثيرا مجموعة من الحمام.

سألت زينب، وهي تمسك بذراع خليفة "ماذا ستفعل لماذا ألقيت بالحقيبة إلى هناك".

"لا تسألي، لأنني لو فكّرت في الأمر فلن أفعله".

وقف خليفة على عتبة النافذة، وأمسك بالإطار المعدني، واستدار نحو زينب وقال "أريـــدك أن تغلقي الأبواب الليلة، وإذا اتصل بي أحد فقولي له إنني نمت مبكرا حتى أسافر إلى الإسماعيلية غدا".

"أنا لا...".

"أرجوك يا زينب، ليس لدي وقت لذلك، إذا اتصل بي أي شخص فقولي إنني لا أريد أي إزعاج، ثم توجهي أنت والأولاد في الصباح إلى منزل حسني وسماء، وابقي هناك حتى أتصل بك، أتفهمين؟"

"نعم".

"أحبك يا زينب".

استدار خليفة مرة أخرى ناحية السطح المقابل، وبدت المسافة بعيدة للغاية.

همس لها خليفة "أغلقي النافذة ورائي". لم يكن هناك وقت، ولذا أسرّ بدعاء في نفسه، ثم قفز بكل قوته إلى السطح كابحا صراخه.

لوهلة بدا الزمان متوقفا عند هذه اللحظة قبل أن يرتطم بأرضية السطح حيث جُرح حاجبه إثر الاحتكاك بالطبقة الخرسانية.

ظلّ خليفة راقدا لوهلة قبل أن ينهض على قدميه، ويستدير لينظر إلى زينب التي علت وجهها دهشة واضحة.

أشار خليفة إليها بقبلة، ثم حمل حقيبته، وتوجَّه إلى الباب المؤدي إلى أسفل البناية، والساعة توشك على التاسعة وأربع وخمسين دقيقة، لذا أخذ يهرول على السلالم ليلحق بالقطار.

كان مدخل هذه البناية يطل على الجهة الخلفية لبنايته، واعتقد أنه لن يكون هناك سبب لمراقبة هذه الجهة أيضا طالما أنهم يراقبون منزله من الأمام والخلف، ومن ثم يمكنه الخروج دون أن يراه أحد، وتمنى لو أن لديه بضع دقائق ليتفحص الشارع قبل الخروج، ولكن الوقت كان يمضي سريعا. لذا، هرول فور نزوله السلم إلى الشارع، ومنه إلى وسط المدينة. كان أمامه ميل ليقطعه في خمس دقائق، ومن ثم أخذ الدم يتدفق في عروقه.

بعد دقيقتين، بدأت خاصرته اليمنى تؤلمه، وبعد ثلاث دقائق لم يستطع التنفس، وعلى الرغم من ذلك، استمر في الهرولة بآخر ذرة في قواه حتى وصل أخيرا إلى عدة شوارع ضيقة تؤدي إلى مفترق طرق، وقبل أن يصل إلى المحطة بنحو مئتي متر بدأ القطار في التحرك رويدا رويدا.

"اللعنة، هذه هي المرة الأولى التي يغادر فيها القطار في موعده".

ظلّ خليفة في مكانه يلتقط أنفاسه حتى اقترب منه القطار. وإذا بخليفة يمر أسفل حاجز مفترق الطرق، ويبدأ في الجري بجوار القطار، وعلى يساره حائط خرساني، وعلى يمينه عجلات القطار بمستوى صدره. حاول خليفة الإمساك بالمقبض الجانبي للباب، ولكنه فشل. أصبحت الفجوة بين القطار والجدار أضيق وعلى بعد خمسين مترا لن يكون هناك مجال للجري. ومن ثم أمسك بمقبض باب آخر، وتمكن من التعلق به، ثم وثب إلى موطئ القدم، ودفع الباب بكل ما تبقى له من قوة، ودخل عربة القطار، وأغلق الباب وراءه، ثم هوى على الكرسي المجاور له وهو بالكاد يلتقط أنفاسه.

سأله الرجل الجالس أمامه "أأنت بخير؟"

قال خليفة "نعم، ورئته تنقبض وتنبسط بسرعة كبيرة".

"أنا بحاجة إلى...".

"بعض الماء".

"لا، سيجارة".

فــي الخارج بدأت مدينة الأقصر تختفي في الظلام الدامس، والقطار في طريقه إلى القاهرة.

34

الصحراء الغربية

"لن أسمح له بإيذائي يا دانيل".

أوشكت الساعتان على الانتهاء، وكأنهما نقاط من الماء تتساقط واحدة تلو الأخرى على رأس تارا، والوقت يمضي سريعا بحيث اقترب موعد لقائها مع درافيتش. كانت هاتان الساعتان هما الأسوأ في حياتها، وشعرت وكأنها في نهر، وتعوم نحو شلال وليس بمقدورها المقاومة. في هاتين الساعتين شعرت تارا بما يمر به من ينتظر تنفيذ حكم الإعدام به.

كررت تارا نفس الجملة مرة أخرى "لن أسمح له بإيذائي". وظلت واقفة غير قادرة على الجلوس بسبب العصبية التي تشعر بها "أفضّل الموت على أن يمسني درافيتش".

لم ينطق دانيل بكلمة، وإنما ظل محدقا بها في ضوء مصباح الكيروسين، يود لو يستطيع النطق، ولكنه لا يجد الكلمات المناسبة. بدأت تارا تجوب الخيمة جيئة وذهابا بينما الحارس ينظر إليها نظرات عميقة، وهي تعاني آلاما في معدتها، وتشعر بالأسى لعجزها، وتنظر إلى ساعتها بين الفينة والأخرى، وهي ترتعش من البرد الذي حل ليلا على المكان.

قال دانيل محاولا تهدئتها "نحن لا نعرف ماذا سيحدث يا تارا".

أجابت تارا متهكمة "ربما يريد التحدث معي في علم الآثار".

كان صوتها مليئا بالضجر والسخرية مما جعل دانيل يصمت ويخفض رأسه.

بعد دقيقة، تأسفت تارا على سخريتها، وقالت "أنا خائفة للغاية".

نهض دانيل، وضمها بين ذراعيه، وأخذت الدموع تترقرق في عينيها.

"كل شيء سيكون على ما يرام يا تارا".

"لا يا دانيل لن يكون كل شيء على ما يرام، لن أتحمل ذلك، سأشعر بالذل لبقية حياتي".

كـــان دانيل على وشك قول إن هذا لن يمثل فارقا لأنهما سيقتلان على أي حال، ولكـــنه توقـــف قـــبل أن ينطق بهذه الكلمات، وضمها إلى صدره، وهي ترتعش من الخوف.

ظـــلّ الاثـــنان متعانقـــين حتـــى سمعا صوت وقع أقدام تقترب، حيث أتى أحد الأشخاص، وفتح الخيمة، وتحدث إلى الحارس، الذي أشار بالبندقية إلى تارا، وأمرها بالخـــروج، ولكن دانيل دفع البندقية، ووقف أمام تارا لحمايتها، ورفع يده يوشك على ضـــربه، وإذا بالـــرجل ينادي، ويدخل رجلان آخران. هجم دانيل على أحدهما، بينما هوى الآخر بكعب البندقية على رأس دانيل، فطرحه أرضا، ووضع قدمه عليه، بينما اصطحب الثالث تارا عنوة إلى الخارج.

صاح دانيل "متأسف يا تارا".

أجابت تارا بصوت مرتعش "أحبك يا دانيل، وسأظل أحبك دوما".

كـــان أحـــد الرجلين يمسك ذراعها، بينما الآخر يصوب فوهة بندقيته باتجاهها، حتـــى وصلا إلى خيمة أكبر من الخيمة التي كانت بها مع دانيل. وما إن دخلت حتى أُغلق الباب وراءها محدثا صوتا خفيفا نتيجة احتكاك القماش ببعضه، غير أنها شعرت وكأن باب خزانة قد أُغلق خلفها.

بادرها درافيتش بالقول "مساء الخير، يسعدني مجيئك إلى هنا يا تارا".

كـــان درافيـــتش يجلس على كرسي قماشية بجوار منضدة خشبية، وبإحدى يديه نـــصف ســـيجار، وبالـــيد الأخرى كوب به بقية من شرابه المفضل. لاحظت تارا أن وجنـــته الشاحبة قد اكتست باللون الأحمر، فقد كان أنفه يغطي هذا الجانب من وجهه. كانت الخيمة تعبق بدخان السيجار ورائحة العرق مما جعل جسدها يقشعر اشمئزازا.

صاح درافيتش فغادر الرجلان من أمام الخيمة.

"أتشربين شيئا؟"

هزت تارا رأسها، وكأن صدرها سينشق، بينما جلس درافيتش ينفث دخان سيجاره.

"يالـــك مـــن مسكينة يا تارا، لابد أنك تتمنين لو أنك لم تتورطي في هذا الأمر، أليس كذلك؟ وحتى إذا لم تكوني كذلك، فإن ما سيحدث لك الآن سيجعلك تودين ذلك لا محالة، ثم ضحك ملء شدقيه".

تحدثت تارا بصوت مرتعش "لماذا أحضرتني إلى هنا يا درافيتش؟"

شـــعر درافيتش برعب تارا، لذا تضاعفت ضحكته، وقال "لن أتحدث عن سبب الإتيان بك إلى هنا حتى لا أفسد الأمر!"

بـــدأت تارا تدور ببصرها هنا وهناك تبحث عن شيء لتستخدمه كسلاح، فرأت سترة درافيتش، تظهر منها حافة المالج، ولكن لدهشتها ازداد الرجل ضحكا وقال "هيا التقطيه، وحاولي قتلي به، بالتأكيد سيكون الأمر ممتعا وأنت تقاومين".

تقدمت تارا ناحية السترة، والتقطت المالج، وصوبته تجاهه قائلة "لو اقتربت مني فسأقتلك".

وضع درافيتش الكوب، ونهض وهو يترنح قليلا، وينفث دخان سيجاره.

لوّحت تارا بالمالج وقالت "سأقتلك!"

فـــي هذه اللحظة كان درافيتش واقفا أمامها تماما، ورأسها بمحاذاة صدره، وهي تلوّح بالمالج بعشوائية.

"ابتعد عني".

"سأؤذيك يا تارا، سأؤذيك بشدة".

أمـــسك درافيـــتش بـــذراعها، وأسقط المالج، ثم دفعها إلى ركن الخيمة، وهوى بقبـــضته عليها، حتى استسلمت. وما كاد يوشك على الفتك بها حتى صدر صوت من الخارج يوضح أنهم اكتشفوا شيئا ما.

خـــرج درافيـــتش مهـــرولا، بيـــنما تارا تعاني جراء الحروق التي أصابها بها درافيتش في كتفها بسيجاره.

دخل أحد الحراس، ونظر إلى تارا شاعرا بالأسى عليها، وكأنه غير راضٍ عما حدث، ولكنه لا يستطيع القيام بشيء فهو يعمل لدى درافيتش، فأشار إليها بالعودة إلى خيمتها مرة أخرى.

لـــم يكن درافيتش موجودا عند خروجها من الخيمة، بل كان المخيم كله فارغا، وكأنـــه مديـــنة للأشـــباح. اصطحبها الحارس إلى أعلى الهضبة. وما إن وصلت إلى أعلاهـــا، حتـــى شـــاهدت دانيل الذي هرول إليها، واحتضنها قائلا "ماذا فعل بك هذا اللعين؟"

"أنا بخير، لم يصبني سوء يا دانيل".

"هل قام...؟"

"لا، لم يسعفه الوقت".

"لقـد سمعتك تصرخين، وحاولت إنقاذك، ولكنهم كانوا يصوبون بنادقهم نحوي، أنا متأسف يا تارا".

"لا عليك يا دانيل".

"سأقتله وسأقتلهم جميعا!"

"أنا بخير يا دانيل، ولكن ماذا هناك؟ لقد كان هناك صياح".

كـان دانـيل ينظر بأسى وغضب إلى الحروق على جسدها، ثم قال "أعتقد أنهم اكتشفوا شيئا في خندق الحفر".

أمسكت تارا بيده، وذهب الاثنان إلى مقدمة الهضبة.

لاحـظ الاثـنان أن الكثيـر مـن الرمال قد اختفت عما كان عليه الوضع عند الظهيـرة، حتى انكشفت قاعدة الصخرة الهرمية وكأنها جذر سن كبيرة. كان درافيتش فـي الأسـفل جاثـيا على قدميه، يبحث بالمالج في الأرض، والجميع ينظر في توقع وحماسة، والشعاع الأبيض للمصابيح يجعل من المنظر دربا من الأحلام.

سألت تارا "ماذا اكتشفوا؟"

"لا أعرف، فنحن بعيدون جدا عن خندق الحفر".

صاح درافيتش بأحد الرجال، فناوله فرشاة نظف بها الشيء الذي يبحث عنه، ثم اسـتخدم المـالج مـرة أخرى قبل أن يستخدمه بالتبادل كاشفا شيئا ما، إلا أن تارا لم تستطع رؤيته لبعد المسافة.

بعد مرور عدة دقائق، انكشف مزيد من الشيء الذي ينظفه درافيتش، واتضح أنه شـيء شـبه دائري، وكأنه جزء علوي من عجلة. توقف درافيتش، ووضع الأدوات جانبا، ثم جذب الشيء بكلتا يديه. ولكنه ظلّ عالقا في الأرض، مما دفعه إلى استخدام الفرشاة والمالج مرة أخرى، وإزالة مزيد من الرمال. على الرغم مما فعله بها للتو إلا أن تـارا وجدت نفسها منجذبة لما يفعله درافيتش، بينما نسي دانيل كل الغضب الذي شعر به منذ قليل.

مرة أخرى، وضع درافيتش الأدوات جانبا، وأمسك بالشيء، وجذبه، ولكنه كان لا يزال عالقا في الرمال، فتراجع قليلا إلى الوراء حتى يعطي لنفسه مساحة أكبر في التحـرك، وجذبـه بكـل ما أوتي من قوة حتى أن عروق رقبته انتفخت من ثقل هذا الشيء. لوهلة بدا العالم ساكنا، وكأن تارا تنظر إلى صورة فوتوغرافية بدلا من حدث ماثل أمام عينيها. بوصة تلو الأخرى، بدأ الشيء يخرج من الرمال، مقاوما كل رمال الصحراء التي تأبى البوح بكنوزها، حتى خرج كاملا وسط بعض الرمال المتصاعدة.

درع ضخمة مستديرة وثقيلة، تتلألأ تحت شعاع المصابيح. رفعها درافيتش عاليا، وبدأ الرجال يهللون فرحا "لقد عثرت على الجيش اللعين، جيش قمبيز".

رفع درافيتش الدرع لوهلة فرحا بنصره قبل أن يصدر أوامره للرجال بالنزول إلى الخندق، وعادت الشفاطات للعمل مرة أخرى وهي تشفط الرمال بغزارة، بعد أن نقل الرجال الدرع إلى أعلى.

صرخ درافيتش "أزيلوا الرمال، أزيلوها تماما، هيا إلى العمل بكل قوة".

في بادئ الأمر، لم يظهر جديد، وبدا الأمر وكأنه بئر عميقة من الرمال الصفراء، وشكّ الجميع في أن الدرع مجرد قطعة أخرجتها الصحراء من بطنها لتشوقهم وتعذبهم.

ما هي إلا لحظات، حتى بدأت الأشياء تظهر الواحدة تلو الأخرى، وكان يصعب تمييزها وسط رمال الصحراء. بعد إزالة مزيد من الرمال، بدأت صورة هذه الأشياء تتضح، حيث عشرات الجثث بل مئات الجثث تصلبت تحت الرمال لأكثر من ألفين وخمسمائة عام، مما جعلها تبدو كجثث لرجال مسنين وليست مجرد جثث، إنما جيش من الرجال المسنين القدماء كقدم التاريخ، والذين يبدون أحياء شاحبين وسط الرمال، وهم ممسكون أسلحتهم بإحكام؛ حتى أن الشعر كان لا يزال يغطي رؤوسهم، والدروع تكسو جذوعهم. والأكثر إثارة للدهشة من ذلك كله أن وجوههم كانت لا تزال تحمل نفس تعابير الرعب، والألم، والخوف، والغضب. فأحدهم يظهر صارخا، والآخر يبكي، والثالث يضحك بجنون وفمه مفتوح نحو السماء وحلقه مملوء بالرمال.

همست تارا "يا الله، يا...".

قاطعها دانيل قائلا في دهشة "روعة".

استطردت تارا مستكملة جملتها "يا للفظاعة!"

كانت معظم جثث الجنود ملقاة على ظهورها بفعل العاصفة العاتية التي دفنتها. كان القليل من الجنود في وضع الركوع، بينما البقية في وضع التمدد شاهرين أسلحتهم أمامهم دفاعا عن أنفسهم وكأن العاصفة لم تمهلهم حتى يقفوا.

كلما ظهرت مومياء جديدة، انقض عليها الرجال كالطيور الجارحة، يأخذون منها الدرع والمعدات الأخرى ويمررونها لأعلى حتى يتم تخزينها في عربات مجهزة لهذا الغرض. وبين الحين والآخر كان الرجال يكسرون ذراعا أو قدما حال أخذهم للدروع والمعدات الملتصقة بالمومياوات.

نادى درافيتش بأعلى صوته قائلا "اخلعوا عنهم الدروع والمعدات بحرص شديد، أريد الحصول على كل شيء، كل شيء!"

مضت ساعة وأعمال الحفر تدور في كافة الأرجاء، وتكشف عن مزيد من أفراد الجـيش، بينما درافيتش ينتقل هنا وهناك مصدرا أوامره، ومتفحصا الأشياء المكتشفة، وهو يوجه القائمين على الشفاطات قبل أن يصعد من الخندق، وينظر مبتسما إلى تارا ودانيل.

"لقد أخبرتك أنني سأعثر على الجيش يا دانيل". قالها بفخر واعتزاز.

لـم ينبس دانيل ببنت شفة وعيناه مملوءتان بالكراهية، ولاحظت تارا أيضا شيئا من الحقد في نظراته.

استطرد درافيتش قائلا "لم أكن لأقتلك دون أن ترى هذا، فلست غليظ القلب إلى هذه الدرجة".

ضحك درافيتش، وأشار للرجال باصطحابهما إلى خيمتهما مرة أخرى.

صـاح درافيـتش قـائلا "لم تنتهِ حفلتنا بعد يا آنسة مولراي، إنما تأجلت قليلا، وسأرسـل فـي طلـبك مرة أخرى بعد الانتهاء من هذا العمل الشاق، لأنني بالتأكيد سأحتاج بعض الترفيه".

شمال السودان

هرول الصبي إلى سيده الواقف على كثيب رملي وينظر شرقا في الظلام.

اقتـرب مـنه الـصبي قائلا "لقد عثروا عليه يا سيدي، أرسل الدكتور درافيتش رسالة الآن تفيد بعثورهم على الجيش".

ظـلّ سـيف الثأر ينظر في الظلام والكثبان الرملية تلمع بلون الفضة في ضوء القمر، وكأنها بحر من الزئبق، وعندما تحدث كان صوته مكتوما.

"إنهـا بدايـة ونهايـة يا محمد فمن الآن فصاعدا سيتغير الكثير، وأحيانا أشعر بالخوف من ذلك".

"بالخوف يا سيدي؟"

"نعم يا محمد، حتى وأنا أقاتل في سبيل الله يتسرب إلى نفسي الخوف. خوف من جراء المسؤولية الملقاة على عاتقي، فهناك الكثير لأفعله. أحيانا أشعر بأن ما أريده هو الـنوم، فلـم أنعـم بنوم هادئ منذ سنوات يا محمد منذ أن كنت طفلا صغيرا على ما أعتقد".

عقد سيف الثأر يده خلف ظهره وسط الرياح التي بدأت في الهبوب.

"أخبر الدكتور درافيتش أننا سنعبر الحدود غدا".

"حسنا، يا سيدي".

استدار الصبي ونزل، قبل أن ينظر خلفه، وهو في منتصف الكثيب الرملي ويقول "سيف الثأر أنت بمثابة الأب بالنسبة لي".

أجاب سيف الثأر، وهو لا يزال ينظر في الظلام أمامه "وأنت بمثابة الإبن بالنسبة لي". قالها بصوت خافت تلاشى وسط الصحراء حتى أن الصبي لم يسمعه على الإطلاق.

35

القاهرة

كانـــت القاهرة هي نقطة البداية المنطقية للرحلة التي ينوي خليفة القيام بها حيث إن الـــبديل هو التوجه إلى الأقصر، ثم عزبة الحاج عبر الطريق الصحراوية السريعة التـــي تـــربط بين واحتي الخارجة والداخلة وصولا إلى مفترق طرق يؤدي إلى واحة الفرافرة؛ رحلة طويلة فوق طرق غير معبدة تعج برجال الشرطة، فضلا عن استحالة المـــرور في معظمها نظرا لغزارة الرمال فيها، وبناء على ما تقدم كانت القاهرة هي البداية الأفضل ناهيك عن تواجد صديقه عبد الله بها.

اقتـــرب القطار من محطة رمسيس قرابة الساعة الثامنة صباحا، فقفز منه خليفة قـــبل الوصـــول إلى المحطة، ثم أسرع فوق الأرض المبلطة مناديا على سيارة أجرة ومتوجها إلى ميدان التحرير. على مدار عشر ساعات هي مدّة الرحلة من الأقصر إلى القاهـــرة، فكّر خليفة في ما سيفعله، على الرغم من تسرب الشكوك إلى نفسه أكثر من مرة، ولكنه طرحها جانبا، وعزم على المضي قدما في رحلته، متمنيا أن يكون عبد الله لا يزال ينظم رحلات صحراوية.

عبـــر خليفة الميدان، ومرّ عبر الازدحام المروري الصباحي إلى شارع طلعت حـــرب متوقفا أمام محل ذي واجهة زجاجية تحت عنوان عبد الله الوسامي للرحلات، الأفـــضل فـــي مـــصر، وعلى الجانب قائمة بأسعار الرحلات المختلفة تضم: مغامرة صـــحراوية لخمـــسة أيام في مخيم تحت النجوم، وعربة ذات دفع رباعي، ورقصات شـــرقية. اســـتراح خليفة فور رؤيته لهذا العرض متذكرا كيف كان عبد الله ولا يزال قادرا على ترويج منتجه.

فتح خليفة الباب، ودخل المحل.

كـــان عبد الله الوسامي أو عبد الله السمين وهو الاسم المعروف به صديقا لخليفة منذ أن كان مقيما في الجيزة، حيث كبرا مع بعضهما في بيتين متلاصقين، وذهبا إلى نفس المدرسة غير أن عبد الله ظهرت عليه أمارات النبوغ التجاري منذ نعومة أظافره حـــيث كان يبيع دواء مقويا يصنعه من مزيج الكوكاكولا ودواء السعال، وكان يحصل على عشرة قروش مقدما من أخته الكبرى غريبة الأطوار وذلك مقابل إعطاءها الدواء (على عكس أخته الصغرى فاطمة التي كانت تتمتع بقوام رشيق وجميلة للغاية).

مرّ عبد الله بفترة من انعدام الوزن في مراهقته، ولكنها لم تؤثر قطّ على نبوغه. وبعـــد أن قضى فترة تولى فيها تصدير التمر من ليبيا إلى الاتحاد السوفياتي، استطاع تكـــوين شـــركة ســـفريات أدارها بنفسه. على الرغم من انقطاع الصلة بينهما، إلا أن صـــداقتهما لـــم تتأثـــر، وما إن دخل إلى المحل حتى هلل عبد الله فرحا قائلا "خليفة مرحبا بك يا صديقي، هيا يا فتيات رحبن بخليفة أحد أكبر وأنحف أصدقائي".

كان هناك ثلاث فتيات صغيرات جميلات يجلسن خلف أجهزة الحاسوب. نظرن إلى خليفة وابتسمن بينما هرول عبد الله نحوه معانقا.

طلـــب عـــبد الله مـــن إحـــدى الفتيات إعداد الشاي لهما، واصطحب خليفة إلى مجموعة من الكراسي حيث جلسا بجوار بعضهما، وسأله "كيف حال زينب؟"

"بخير، وماذا عن جميلة؟"

"تقـــضي معظـــم وقتها عند أمها على حدّ علمي لا تتوقف عن الأكل حتى أنني أشعر وكأني في مجاعة. أتعرف أنني سأفتح مكتبا في نيويورك؟"

ابتسم خليفة، لأن عبد الله كان يقول ذلك منذ سنين طويلة.

أشعل خليفة سيجارة، بينما أحضرت الفتاة الشاي ووضعته أمامهما، وعادت إلى مكتبها مرة أخرى.

"أريد منك معروفا يا عبد الله".

"بالتأكيد يا خليفة اطلب ما تشاء".

"أريد استعارة سيارة رباعية الدفع".

"تستعير؟"

"نعم، أستعير بمعنى الاستئجار أو الاقتراض".

"أتريدها مجانا؟"

"بالـــضبط، أريـــدها لأربعـــة أو خمسة أيام على أن تكون ذات قدرة كبيرة على تحمل الأراضي الصحراوية الوعرة".

لم يكن عبد الله مرتاحا لفكرة الاقتراض مجانا.

"ومتى تريد هذه السيارة؟"

"الآن".

ضحك عبد الله قائلا "الآن! أتمنى أن أُسدي لك هذا المعروف يا خليفة، ولكن هذا مستحيل، فكل السيارات رباعية الدفع موجودة في منطقة البحرية الآن، وسيتطلب الأمر يوما على الأقل حتى تعود إلى القاهرة. بل وأكثر من ذلك إن كانت العربة في جولة صحراوية، وأنا أعتقد أن كل السيارات في جولات الآن. نحن صديقان قبل كل شيء ولكن هذا الأمر مستحيل".

انحنى عبد الله للأمام قليلا، وأخذ رشفة من الشاي، وخيّم الصمت لوهلة.

قالت رانيا "هناك سيارة في المرآب".

توقف عبد الله عن تناول الشاي فجأة.

أضافت رانيا "إنها السيارة الجديدة التي أرسلوها يوم الاثنين وهي جاهزة تماما".

أجاب عبد الله "نعم، ولكنها ليست جيدة، فضلا عن أنها محجوزة".

صاحت رانيا "لا، إنها ليست محجوزة".

حدّق بها عبد الله، وقال "أنا متأكد من أنها محجوزة للمجموعة الإيطالية".

تحدث عبد الله ببطء وثقة مؤكدا على هذه النقطة، وكأنه يلقن ممثلا نسي دوره.

قالت رانيا "لا أعتقد ذلك يا سيدي، دعني أتأكد من الأمر على الحاسوب".

"إنها ليست محجوزة". قالت رانيا بنبرة من النصر "ليست محجوزة على مدار الخمسة أيام القادمة أي لنفس المدة التي يريدها صديقك، يا للحظ!"

ابتسمت رانيا ابتسامة عريضة، وكذلك فعل عبد الله، ولكنه تصنّع الابتسام.

"بالطبع يا عزيزتي، إنه محظوظ". ثم وضع يده على وجهه، وقال "يا لكِ من تعيسة".

كانت سيارة التويوتا رباعية الدفع موجودة بمرآب في الشارع المجاور، سيارة بيضاء اللون جاهزة وبها بعض القضبان المعدنية في مقدمتها، وإطاران احتياطيان في الخلف، وثماني عبوات وقود فوق السقف الصلب، أي أنها تماما تفي بما يريده خليفة. أحضرها عبد الله إلى حافة الطريق.

"ستكون حريصا عليها يا خليفة، أليس كذلك؟" قال عبد الله ذلك وهو يتشبث بالمقود. "إنها جديدة، ولم يمضِ عليها سوى يومين، أرجوك أرفق بها".

"بالطبع سأفعل".

"لقد كلفتني أربعين ألف دولار، ولابد أنني مجنون لأسمح لك بقيادتها".

نـــزل عبد الله من السيارة، وأخذ يجول حولها، يوضح له مزاياها الكثيرة مؤكدا على ضرورة ردّها كما هي دون أي أضرار.

"إنها رباعية الدفع، وبها كوابح يدوية، ومُبرد للمحرك يعمل على الماء، ومضخة وقـــود إلكتـــرونية". ردد عبد الله هذه الكلمات، وكأنه تاجر سيارات. ثم أضاف "وهي مـــزودة بعـــبوات وقـــود، وحاويات مياه، وصندوق أدوات، وحبل سحب، وصندوق إســـعافات أولـــية، وبوصـــلة. أي أن بهـــا كل ما تحتاج إليه بالإضافة إلى الأغطية والوســـادات وبعض الأطعمة وإشارات ضوئية وتلسكوب و....- توجه إلى الخزانة، وأخرج ما يبدو وكأنه هاتف محمول كبير الحجم مزود بهوائي وواجهة من الكريستال الســائل - جهاز تحديد عالمي للموقع يعمل عبر الأقمار الاصطناعية يخبرك بالضبط مـــا هـــو موقعك الحالي في أي وقت، وإذا ما أشرت إلى إحداثيات المكان الذي تريده سيوضـــح لك على الفور ما هي المسافة المتبقية، وطبيعة الأرض الموصلة إليه. وبه أيضا دليل تعليمات، ولا شك أن كل هذه التجهيزات بسيطة وسهلة الاستخدام".

انتهى عبد الله من الشرح، وأعطى المفاتيح لخليفة على مضض.

"لن أدفع ثمن الوقود!"

"لم أتوقع منك أن تدفع ثمنه يا عبد الله". قال خليفة ذلك وهو يركب السيارة.

"إذا كانـــت هـــذه هـــي الحالة، فيمكنك استخدام ما شئت من الوقود، وإليك ذلك أيضا".

أخرج عبد الله هاتفا محمولا من جيبه وأعطاه لخليفة.

"إذا مـــا واجهت أي مشكلة أو أي أصوات غريبة، فلتتوقف على الفور، وتطفئ المحرك وتتصل بي على الفور، أفهمت؟"

"هل سيعمل هذه الهاتف في الصحراء؟"

"يمكنني القول إنه يعمل في كل مكان باستثناء القاهرة، والآن أكد لي مرة أخرى أنك ستكون حريصا على السيارة".

"بالطبع يا صديقي، سأكون حريصا". أجاب خليفة وهو يشغّل المحرك.

"وستعود في خلال خمسة أيام؟"

"أعتقد في أقل من ذلك، أشكرك مرة أخرى، إنك رجل طيب يا عبد الله".

"يالي من مجنون، لأعطيك سيارة بأربعين ألف دولار!"

بدأت السيارة في التحرك، وعبد الله يسير إلى جانبها.

"لم أسألك إلى أي صحراء ستذهب؟"

"الصحراء الغربية".

"الواحات؟"

"ما بعد الواحات، سأذهب إلى بحر الرمال الأعظم".

"توقف يا خليفة، أنت لم تذكر لي ذلك، إن بحر الرمال مقبرة للسيارات، لن تذهب بسيارتي إلى هناك، يا الله!"

"أشكرك مرة أخرى يا عبد الله، أنت نعم الصديق".

مضى خليفة في طريقه، وعبد الله يجري وراء السيارة، ولكنه كان سمينا للغاية، ومن ثم توقف بعد بضع خطوات. عبر المرآة الخلفية، رآه خليفة يقف وسط الطريق وهو يلوّح بيديه. أطلق خليفة آلة التنبيه مرتين، ثم انحرف إلى الجانب مختفيا عن الأنظار.

36

الصحراء الغربية

حلّقــت المــروحية فوق المخيم، وهبطت فوق قطعة أرض مستوية تبعد خمسين مترا عن المخيم. وفور هبوطها نزل منها شخصان، رجل وصبي، وقف الرجل لوهلة ينظـــر حـــوله، ثم جثى على ركبتيه، وقبّل الرمال قائلا "مصر، أرضي ومنزلي، لقد عدت إليك".

ظــلّ الرجل جاثيا لعدة ثوان، ثم نهض، ومضى في طريقه إلى المخيم والصبي إلى جواره.

كـــان المكان يعج بالحركة وسط الكثير من العربات أعلى الوادي بينما الحاويات المعــبأة بالآثار في طريقها إلى المخيم، والرجال الذين يرتدون ثيابا سوداء منتشرون في كل مكان.

كـــان الجميع منشغلا بعمله، حتى أنهم لم يلحظوا قدوم هذين الشخصين إلا بعد اقترابهما من المخيم، حيث كان هناك ثلاثة رجال يديرون مضخة للزيت صاحوا فور رؤيتهم للشخصين "سيف الثأر هنا، لقد حضر سيف الثأر".

انتــشر الخبر سريعا، وبدأ الرجال في جميع الأنحاء يتركون عملهم، ويتوجهون للترحيب بسيف الثأر.

"سيف الثأر، لقد عاد سيف الثأر". هذا هو الهتاف الذي تردد في المكان.

ظلّ سيف الثأر ماضيا في طريقه، غير مكترث بهم، والحشد يسير وراءه وعلى جانبــيه، وكأنـــه نجم ذو ذنب. سمع العاملون في الخندق بقدوم سيف الثأر، فشرعوا جمــيعا فـــي الخروج للترحيب به، بينما الحراس على رؤوس الكثبان الرملية يطلقون الرصاص ابتهاجا بقدومه.

وصـــل سيف الثأر إلى الهضبة الصغيرة في آخر المخيم، فصعدها والصبي إلى جواره، ونظر إلى المشهد بالأسفل. وإذا بالوادي يبدو وكأنه جرح عميق، حيث واصل الـــرجال الحفر ليلا ونهارا. وعلى حافته العليا، كانت الحاويات مكتظة بالقطع الأثرية ما بين دروع وسيوف ورماح وخوذ وأسلحة أخرى، بينما الأرض أسفل الخندق منشقة تـــبوح بكنوزها الدفينة، وبها جثث الجنود مختلطة بالمطايا التي كانوا يركبونها، حيث الجلـــود بنية اللون ومتجعدة، وكأنها أوراق تغليف. شعر سيف الثأر بإحساس غريب بعثه هذا المنظر، فرفع يديه معبرا عن نشوة الانتصار وقال "الله أكبر". وصوته يدوي فـــي المكـــان، والـــرجال يردّدون العبارة خلفه مصحوبة بطلقات الرصاص من أعلى الكثبان الرملية، حتى أشار إليهم سيف الثأر باستكمال عملهم، فانصرف الجميع ملبين على الفور.

وقـــف الـــرجل يشاهدهم وهم ينزعون الأسلحة، ويعبئونها، ويحملونها إلى أعلى الخـــندق، ثم أرسل محمد إلى المخيم بالأسفل، بينما نزل هو إلى مكان الحفر، وتوجه إلى درافيتش الذي كان واقفا تحت مظلة يراقب عملية تخزين الآثار.

ما إن رآه درافيتش حتى قال "آسف، لم يكن لدي وقت للترحيب بقدومك".

لم يهتم سيف الثأر بنبرة السخرية في صوت درافيتش، ثم ظل واقفا بالقرب من المظلة تحت أشعة الشمس ينظر إلى المومياوات المكدسة أمامه، والتي رأى أن الكثير مـــنها قـــد انتـــزعت أذرعهـــا أو أقدامها أثناء عملية تجميع الآثار، فضلا عن بعض الرؤوس المهشمة والجلود الممزقة.

سأل سيف الثأر "أكان من الضروري تدمير الجثث على هذا النحو".

"لا، بالطـــبع، ولكـــن كان يمكننا القيام بذلك على النحو الأمثل، فنقضي أسبوعا كـــاملا ونحـــن نستخرج جثة تلو الأخرى، وبالتأكيد كنا سنخرج من المكان وبصحبتنا سيف ورمحان!"

مـــرة أخرى لم يهتم سيف الثأر إلى نبرة التهكم والسخرية في صوت درافيتش، وانحنـــى قلـــيلا ممـــسكا بأحد السيوف معجبا بحده ومقبضه المصممين بدقة مدهشة. بالطبع لم يكن الرجل ليمسك بهذا السيف في حياته إذ إن أقصى أمانيه كانت رؤيته من خلـــف الحاجـــز الزجاجي بالمتحف، أما الآن فهو يمسكه بيده، وأمامه مئات بل آلاف الـــسيوف الأخرى؛ وكل هذه الأشياء لا تمثل سوى قطرة من بحر مما لا يزال مختفيا بالأســـفل. لقد كانت كثرة الآثار المكتشفة أكبر من الإلمام بها، لقد فاقت أقصى أمانيه وغاية أحلامه، إنها بالفعل استجابة للدعاء الذي طالما ردده.

"أتعرف إلى متى ستدوم هذه العملية؟"

نفث درافيتش دخان سيجاره، وقال "لقد أرسلت الرجال ليحفروا خنادق أخرى لمعرفة محيط الجيش، وقد عثروا بالفعل على المقدمة التي تمتد لمسافة كيلومتر في أعلى الوادي، ولكنهم لم يعثروا بعد على مؤخر الجيش، يا الله إنه ضخم للغاية!" مسح درافيتش العرق عن جبينه بكمه، وسأل متى ستصل قافلة الجمال.

"بعد يومين أو ربما أقل".

"ما زلت أعتقد أن علينا نقل بعض هذه الآثار الآن".

هزّ سيف الثأر رأسه مستهجنا الفكرة، ثم قال "لا يمكننا المخاطرة بالتحليق فوق الحدود ذهابا وإيابا. فذلك سيلفت إلينا الأنظار دون شك".

"حسنا، سننقل الرجال والمعدات فقط بالمروحيات، أعرف أن هذا ما تريده".

"لقد كنا محظوظين لأننا أردنا العمل سريعا، وقد وفقنا الله لذلك، وربما لن يتكرر ذلك ثانية. ولذا سننتظر حتى تحضر قافلة الجمال، ونحمّل عليها الآثار لأن ذلك أكثر أمانا. هل هناك من يجوب هذه المنطقة؟"

"ماذا ترى؟ نحن هنا وسط هذه الصحراء اللعينة، وبالتأكيد لن يكون هناك شخص يتنزه بالجوار".

خيّم الصمت لوهلة، بينما التقط سيف الثأر تعويذة خضراء بحجم ظفر إصبع الإبهام تقريبا، ولكنها منحوتة بعناية شديدة على شكل أوزيريس إله العالم الآخر، حيث أخذ سيف الثأر يمسحها برفق بين إصبعيه.

"لدينا خمسة أو ستة أيام كحدٍّ أقصى يا درافيتش. ما هو مقدار الأشياء التي يمكن أن نستخرجها في هذه الفترة؟"

أخذ درافيتش نفسا عميقا من السيجار، وقال "مسحة منه، مجرد مسحة، فنحن نعمل على مدار الساعة ولم نكشف سوى عن هذا الجزء الصغير حتى الآن، ويبدو الأمر أسهل كلما توجهنا يسارا حيث إن المومياوات قريبة من السطح في ذلك الاتجاه، ولكن مع ذلك لن نكتشف سوى جزء بسيط منه. أعتقد أننا لن نكون بحاجة للمزيد حيث إن هذه الأشياء تساوي ملايين الدولارات، وسنحكم قبضتنا على سوق الآثار على مدار المائة عام القادمة".

"ماذا عن بقية الجيش؟ هل أعددت خطة لذلك؟"

"نحن نعمل من الأمام للخلف، لا تقلق فكل شيء تحت السيطرة. والآن إذا لم يكن لديك مانع أريد متابعة عملي".

وضـــع درافيـــتش السيجار في فمه، ثم مضى في طريقه نحو شفاطات الرمال، بيـــنما ســـيف الثأر يحدق به في غيظ وحنق، ثم مضى في طريقه حتى جلس في ظل الصخرة الهرمية.

كـــان الرجل حزينا للغاية لما سيفعلونه بالجيش، وتمنى لو كان هناك خيار آخر، ولكن ما من خيار أمامه، حيث كانت هناك خطورة كبيرة في إمكانية اكتشاف شخص آخـــر للجيش، ولذا تعين عليهم كتمان الأمر على الرغم من أن جزءا بداخله يعارض هذه الفكرة، ولكن لم يكن أمامه خيار آخر تماما كعمليات القتل التي ينفذها، ليس أمامه خيار آخر سواها.

جلـــس سيف الثأر مسندا ظهره إلى الصخرة، يمسح التعويذة بين إصبعيه، وهو يـــتفحص بحيـــرة المومـــياوات أمامه، فلقد كانت إحداها مدفونة حتى خصرها وتبدو محملقة به. أشاح سيف الثأر بنظره بعيدا عن هذه المومياء، ثم نظر إليها مرة أخرى، وإذا بهـــا لا تـــزال محملقـــة به وشفتاها تكشفان عن أسنانها، وكأنها تتحدث بغضب وسخط، وشعر الرجل أنها تقصده هو بهذه التعابير، فظل ينظر إليها لوهلة، ثم نهض واقفا، وابتعد عنها ناظرا إلى التعويذة في يده، فوجدها قد انقسمت إلى شطرين، فألقى بها ساخطا في الخندق.

37

القاهرة

ظـلّ سكويرز ينظر عبر الزجاج الرمادي لنافذة سيارة الليموزين إلى الممرين الآخرين للازدحام المروري المتكرر، وإلى جوار الليموزين سيارة بيجو مكتظة بتسعة أشخاص على ما يبدو أنهم يمثلون عائلة واحدة، وبعدها سيارة مملوءة بالقنبيط. أحيانا، كانـت الـسيارة تتحـرك إلى الأمام قليلا فتظهر إلى جوارها سيارات أخرى، ولكن سـرعان مـا يعـود الوضع إلى ما كان عليه بجوار سيارة البيجو والسيارة الأخرى المملـوءة بالقنبـيط، وكأنها أسطوانات في آلة تقطيع الفاكهة. ما إن تعمل الآلة حتى تدور هذه الاسطوانات، وتعود كل واحدة إلى مكانها مرة أخرى.

كان سكويرز يتحدث عبر الهاتف المحمول "ومتى كان ذلك؟"

ظهر صوت غير واضح من الجهة الأخرى.

"ليست لديك أي فكرة كيف حدث ذلك أو متى؟"

مرة أخرى ظهر صوت غير واضح من الجهة الأخرى.

فـي هـذه الأثـناء أتى صبي يحمل عبوات مناديل معطرة، وطرق على زجاج النافذة، ولكن سرعان ما مضى في طريقه بعد أن صرخ فيه السائق.

"ماذا عن عائلته؟"

أجاب الشخص على الجهة الأخرى.

خيّم الصمت لفترة طويلة، قبل أن يقول سكويرز "حسنا، لا فائدة من البكاء على الحليب المراق، افعل ما بوسعك للعثور عليه، وأطلعني على آخر المستجدات".

أغلـق سكويرز الهاتف، ووضعه في جيبه، وعلى الرغم من أنه بدا هادئا إلا أن نظرة عينيه، أوضحت غير ذلك.

أخيرا، تحدث سكويرز مع رفاقه في السيارة "يبدو أن المحقق قد اختفى".

هوى ماساي بيده السمينة على الكرسي الجلدية في الفراغ بينه وبين سكويرز، وقال "لقد اعتقدت أن جمال يراقبه".

"من الواضح أن المحقق خدعهم. وقد طلبت منذ البداية التخلص منه، أليس كذلك؟"

"أعتقد أنك محق أيها العجوز".

"اللعنة، اللعنة، اللعنة!"

ظلّ ماساي يضرب بيده على الكرسي مخلفا آثارا على جلد الكرسي حتى توقف أخيرا، وأرجع ظهره إلى الوراء، وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة.

"متى كان ذلك؟"

أجاب سكويرز "ليسوا متأكدين، ولكن زوجته وأولاده نزلوا من المنزل هذا الصباح عند الساعة السابعة صباحا، ولم يظهر المحقق حتى العاشرة، فصعدوا وطرقوا الباب، ولكن لم يجب عليهم أحد".

"اللعنة، يالهم من مجموعة من الهواة!"

"يبدو أنه ذهب إلى مكتبة بالأمس، وأخذ يبحث في خرائط عن الصحراء الغربية".

"يا الله، إذا لابد أنه يعرف بأمر الجيش".

"يبدو ذلك صحيحا".

"هل أخبر أي شخص؟ الصحافة أو هيئة الآثار؟"

"يمكنني القول إنه لم يفعل لأننا لم نسمع بذلك حتى الآن".

سأل ماساي "وماذا سنفعل؟"

"لا يمكنني تحديد ذلك، ولكن بخروجه إلى الصحراء وحده يتعين علينا أن نسرع في خطتنا".

سأل سكويرز "هل المعدات جاهزة؟"

"لا تقلق بالنسبة لما يتعلق بي. ولكن الأمر يتوقف على ما سيقوم به جمال، حيث إن هذا المحقق ماهر للغاية. سيفعل جمال ما نتوقعه منه طالما أننا نفعل ما علينا".

أجاب ماساي "لن يكون ذلك سهلا، حيث سيكون هناك رجال كثيرون حول سيف الثأر".

"على الرغم من ذلك، أنا واثق من نجاحنا. هل ستخبر أصدقاءك في أمريكا؟"

أومأ ماساي برأسه، وقال "إنها سلسلة متشابكة مع بعضها البعض".

قال سكويرز "حسنا، يبدو أننا على الطريق الصحيحة".

تحركت الليموزين للأمام قليلا.

أجاب ماساي "نعم، سنكون على الطريق الصحيحة، إذا ما تخلصنا من هذا الازدحام المروري اللعين". ثم انحنى نحو السائق وسأله "ماذا هناك؟"

أجاب السائق "هناك حادثة لقاطرة على الطريق".

أخرج سكويرز قطعة حلوى مغلفة من جيبه، وأخذ ينزع الغلاف، وهو يحدق شارد الذهن في سيارة البيجو المجاورة.

كانت الطريق الواضحة والمباشر أمام خليفة هي أن يتوجَّه إلى الجنوب غرب الواحات البحرية، ثم إلى الغرب عبر الصحراء.

لكنه لم يفعل ذلك، لأن الأشخاص الذين كانوا يتبعونه سيعرفون على الفور أنه توجَّه إلى قطار العاشرة مساء المتوجّه إلى القاهرة، ولن يكون من الصعب عليهم معرفة أنه متوجِّه إلى الصحراء، وبالتالي قد يعيقونه. ولا شك أن الطريق التي سيتوقعون أنه سيسلكها هي الطريق الأقصر.

بدلا من التوجّه إلى الجنوب الغربي، قرر الذهاب في الاتجاه العكسي- الشمال الغربي - إلى الإسكندرية عبر الطريق الساحلية السريعة لمرسى مطروح، ثم التوجه جنوبا إلى واحة سيوة. على الرغم من أن هذه الطريق أطول، إلا أنها كانت أفضل، حيث كانت في حالة أفضل، وبها مساحات صحراوية أقل للعبور مما هي حال طريق البحرية، والأهم من ذلك، أنها آخر طريق قد يفكر فيها متتبعوه. ملأ خليفة السيارة بالوقود، ثم خرج من القاهرة سالكا الطريق السريعة رقم 11 نحو ساحل البحر المتوسط.

قطع خليفة الطريق سريعا، وعلى جانبيه مسافات صحراوية تتخللها مساحات خضراء. كانت السيارة مزودة بمسجل، ولكن لم يكن هناك سوى شريط واحد لكاظم الساهر بعنوان حبيبتي والمطر، وبعد أن استمع إليه أربع مرات، أخرجه وأخذ يقود في سكون.

وصل خليفة إلى الإسكندرية في ساعتين، وإلى مرسى مطروح في خمس ساعات، ولم يتوقف سوى مرتين، مرة ليتزود بالوقود، والأخرى لينظر إلى بحر الإسكندرية، لأنها المرة الأولى التي يراه فيها.

عندما وصل إلى مرسى مطروح، تزود بالوقود مرة أخرى، واستمر في السير غربا لمسافة عشرين كيلومترا أخرى قبل أن يتوجَّه جنوبا إلى طريق سيوة وسط

شـــريط أسفلتي خاوٍ من أي شيء. كانت الشمس تميل للغروب الآن، ولذا أسرع أكثر وأكثـــر وسط مجموعة من العلامات القديمة التي توضح وجود خط أنابيب مدفون في هذه المنطقة. باستثناء ذلك لم يكن هناك شيء آخر سوى بعض الأشجار المنتشرة هنا وهناك، وقطيع من الجمال العربية ذات جلود بنية شعثاء.

في وسط الطريق إلى سيوة، وجد خليفة مقهى على شكل كوخ، يحمل اسم مطعم الإســكندر، حيث توقف لتناول كوب من الشاي، قبل أن يمضي قدما في طريقه. حل الظـــلام، وأصبحت الصحراء عبارة عن ظلام دامس، وبين الحين والآخر، كان يرى بعــض الأضـــواء وســـط الـــصحراء التي ربما تعكس وجود مخيم عسكري أو قرية بالإضـــافة إلى بعض آبار البترول. باستثناء ما تقدم، لم يكن هناك سوى خليفة يجوب هذه الصحراء الشاسعة مستمعا إلى صوت كاظم الساهر.

بحلـــول الـــسابعة مساء، شعر خليفة أن الصحراء بدأت تتناقص من الأطراف، حـــيث ظهـــرت مجمـــوعة من الوديان والقمم الجبلية والمنحدرات. بدأت الطريق في الانخفـــاض الآن وســـط مجمـــوعة من المنحدرات والنتوءات الجبلية قبل أن تنبسط الأرض مـــرة أخرى ليرى فجأة ما يبدو سجادة من الأضواء المتلألئة وكأنها مجموعة مـــن القـــوارب وسط بحر ساكن. قال خليفة "واحة سيوة!" ثم أبطأ قليلا ليستمتع بهذا المنظر الرائع قبل أن يمضي قدما في طريقه.

استغرقت الرحلة قرابة التسع ساعات، شرب خلالها خليفة علبتين من السجائر.

38

الصحراء الغربية

بـــدا ســـيف الـــثأر وكأنه مخلوق من الظلام نفسه. ففي لحظة كان دانيل وتارا يجلـــسان بجوار بعضهما ينظران إلى ضوء مصباح الكيروسين، وفي اللحظة التالية، وجـــدا الرجل ماثلا أمامهما من وسط الظلام عند مدخل الخيمة والعصابة على رأسه ووجهه. أومأ سيف الثأر للحارس بإصبعه، فهب واقفا ورحل.

قال دانيل "أنت سيف الثأر أليس كذلك؟"

لم ينبس الرجل ببنت شفة، وإنما ظل يحدّق بهما، وخيّم الصمت لوهلة.

سأل دانيل "لماذا أتيت إلى هنا؟ هل حضرت لتنظر إلينا قبل أن تقتلنا، أم لتبتهج بنـــصرك؟" قال دانيل ذلك وهو ينظر إلى الندب على وجه تارا وملابسها الممزقة، ثم أضاف "لابد أن الله سعيد بك الآن!"

"لا تـــنطق بلفظ الجلالة" قال سيف الثأر بصوت هادئ، وهو يتقدم خطوة للأمام، ولكن يعكس جدية لا مراء فيها، ثم أضاف "أنت لست أهلا لنطق لفظ الجلالة".

نظـــر سيف الثأر إلى وجنة تارا المنتفخة، وآثار الحروق على رقبتها وصدرها وذراعها، ثم تجهم وجهه، وقال "هل درافيتش هو من فعل بك ذلك؟"

أومأت تارا إيجابا.

"لن يحدث ذلك ثانية، لقد كانت حادثة".

قال دانيل "لا، سيحدث ذلك مرة أخرى. لقد كان شيئا متوقعا من أشخاص أمثالك أنت ودرافيتش".

تجهـــم وجـــه سيف الثأر مرة أخرى، وقال "لا تضعني أنا ودرافيتش في بوتقة واحدة يا دانيل. فهو مجرد أداة، أما أنا فأخدم الله سبحانه وتعالى".

هـزّ دانيل رأسه ساخرا، وقال "إنكم تثيرون ضحكي، فأنتم تذبحون النساء والأطفال، وتقنعون أنفسكم أن ذلك ابتغاء مرضاة الله".

"لقد قلت لك لا تنطق لفظ الجلالة، إن لسانك يلوثه".

"لا، إن لسانك أنت يلوثه في كل مرة تستخدمه فيها لتبرير فاجعة من الفواجع التي ترتكبها، هل تتوقع فعلا أن الله يتقبل...".

فجأة وبحركة خاطفة، أمسك سيف الثأر برقبة دانيل، وضغط بإصبعه على حنجرته، وجعله ينهض على قدميه. حاول دانيل التخلص منه، ولكن قبضة الرجل كانت محكمة.

صرخت تارا "توقف أرجوك".

لم ينتبه إليها سيف الثأر، وقال "إنكم جميعا متشابهون يا أهل الغرب، إن نفاقكم لا مثيل له، فمئات الأطفال يموتون يوميا في العراق بسبب العقوبات التي تفرضها حكوماتكم عليهم، وعلى الرغم من ذلك ما تزال لديكم الجرأة لتخبرونا بالصواب والخطأ".

تحول لون وجه دانيل إلى اللون الأحمر.

"هل ترى هذه؟" رفع سيف الثأر يده الأخرى، وأشار إلى الندبة على جبينه، وقال "لقد تعرضت لها على يد رجال الشرطة في أحد الأقسام (مخافر الشرطة)، لقد ضربوني بشدة حتى أنني فقدت البصر لثلاثة أيام، وما هي جريمتي؟ جريمتي أنني تحدثت باسم الملايين من أبناء هذا الشعب المقهور. هل تهتم بذلك؟ هل تهتم بأن نصف العالم يعيش في فقر مدقع لأجل حفنة يريدون السيطرة على مقدرات العالم ليعيشوا في ترف لا حدود له؟ بالطبع لا، فأنت كبقية أبناء جنسك تصدرون أحكامكم جزافا، وتلقون باللوم طبقا لما تمليه عليكم أهواؤكم، أما بقية مشاكل العالم فتغضون عنها الطرف".

ظلّ سيف الثأر محكما قبضته على حنجرة دانيل لوهلة أخرى، قبل أن يتركه ليسقط على الأرض قائلا بصوت مختنق "يالك من متعصب أحمق".

لم يبدُ على سيف الثأر أي تغيير على الرغم من الجهد الذي بذله وهو ممسك برقبة دانيل.

وقف سيف الثأر أمام دانيل مباشرة، وجلبابه الأسود يتدلى فوقه وكأن الرجل مخلوق من الظلام باستثناء وجهه فقط، ثم قال "ربما أكون متعصبا مجنونا، ولكن السؤال هو لماذا أنا كذلك؟ أنت تدعوني أنا وأتباعي بأننا متعصبون ومتطرفون، ولكنك لم تفكر لحظة في ما وراء هذه الكلمات، ولم تحاول قطّ معرفة ما دفعنا إلى

ذلك. لقد تعرضت لأنواع شتى من الخوف والرعب يا دانيل". قال سيف الثأر بصوت خافت، ثم أضاف "لقد رأيت رجالا يتعرضون لألوان من العذاب في السجون، وأناسا جوعى لدرجة تدفعهم إلى التقاط فتات الطعام من القمامة، وأطفالا يتعرضون لأشد أنواع الإيذاء، لا لشيء، إلا لأنهم أقرباء لبعض الأشخاص ممن لا يتفقون مع آراء الساسة. هذه هي الأشياء التي تصنع رجالا مثلي، وهذه هي الأشياء التي ينبغي إلقاء اللوم عليها".

سأل دانيل بصوت مختنق "وهل ترى الحل في قتل السواح".

ابتسم سيف الثأر ابتسامة باهتة، وقال "لا بالطبع، إننا نحاول فقط لفت الانتباه عندما نفعل ذلك".

"ما هي هذه النقطة التي تستحق قتل الأبرياء من أجلها؟"

رفع سيف الثأر يده، وإذا بأصابعه رفيعة للغاية، وكأنها لهيكل عظمي، وقال "هذه النقطة هي أننا لم نعد نحتمل تدخلكم في شؤوننا... فأنتم ترتعون في بلادنا بينما نحن نتضور جوعا ونتعرض للقهر والإيذاء". أخذ سيف الثأر يحدق بدانيل والندبة على جبينه تزداد احمرارا في ضوء مصباح الكيروسين.

"دوما ما أفكر في ما ستفعلونه أنتم في الغرب لو كان الأمر معكوسا، بحيث تكونون أنتم من يجوبون الشوارع لتستجدوا لقمة العيش، بينما نحن نستبيح ثرواتكم وننتهك تقاليدكم. ماذا كنتم لتفعلوا لو أن نصف كنوزكم سلبت منكم ليتم وضعها في المتاحف؟ أو لو كنتم تعرضتم لحادثة كحادثة دنشواي؟ لابد أنها كانت لتكون تجربة مشوقة لكم، وكانت ستساعدكم على فهم مدى الغضب الذي نشعر به".

كان صوت الرجل هادئا وخافتا، وأخذت بعض الفقاعات تتكون على جانبي فمه.

استطرد سيف الثأر قائلا "هل تعلم أنه عندما اكتشف كارتر مقبرة توت عنخ آمون، وقع عقدا مع صحيفة التايمز اللندنية، يكون لها بموجبه الحق الحصري في تقديم تقارير عما تحتويه المقبرة؟ أي أننا نحن المصريون تعيّن علينا اللجوء إلى صحيفة أجنبية للكشف عن أسرار أحد ملوكنا".

قال دانيل بصوت مختنق "كان ذلك منذ ثمانين عاما". ثم أضاف "الوضع مختلف الآن".

"لا، ليس مختلفا! ما تزال مواقفكم كما هي، فأنتم تنظرون إلينا كعرب ومسلمين على أننا أقل تحضرا وأقل قدرة على ترتيب شؤوننا الداخلية، وبالتالي تعاملوننا كما يحلو لكم، وإذا ما اعترضنا نصبح متعصبين ومجانين".

نظر إليه دانيل دون أن ينطق بكلمة واحدة.

"أرأيت؟ ليس لديك إجابة على ذلك سوى طلب الغفران عما فعلتموه في هذه البلد وأهلهـا. لقد دنستم تراثنا، ونهبتم خيراتنا، وأخذتم دون عطاء، ولكن الآن حان الوقت لنعيد الأمور إلى نصابها".

كـان سيف الثأر غارقا وسط الظلام لا تكاد ترى منه شيئا، بينما تدوي أصوات الحفر في الخارج، وسط الهدوء والسكون في الخيمة، وكأنها جزء من عالم آخر. خيّم الصمت لوهلة، قبل أن تنهض تارا متحدثة إلى الرجل.

"أنـا لا أعرف الكثير عن مصر، ولكن أنا متأكدة أنّ والدي الذي لقي مصرعه علـى يد رجالك، كان يحب هذه البلد وأهلها وتراثها أكثر منك. انظر إلى ما تفعله هنا مـن دمـار لـم يكن أبي ليرضى به، لأنه كان دوما يسعى لحماية الماضي، أما أنت فترغب فقط في بيعه لمن يدفع أكثر، ولذلك أنت المنافق ولسنا نحن".

ظهـرت علامـات الغضب على وجه الرجل، ولوهلة ظنت تارا أنه سيضربها، ولكن يديه لم تتحركا من مكانهما، ثم تحدث بهدوء قائلا "لا أشعر بأي سعادة في تدمير الجـيش علـى هذا النحو يا آنسة مولراي. ولكن يتعين علينا في بعض الأحيان القيام بـبعض التضحيات لتحقيق هدف أسمى. وإذا كانت تتطلب التضحية بجزء من تراثنا، فليكن ما يكون طالما أنني أشعر براحة الضمير".

ظـلّ سيف الثأر ينظر إليها لوهلة، ثم انحنى أمام المصباح، وقال "أنا أنفذ إرادة الله، ودوما ما يوفقني إلى ما فيه الخير".

تقـدم سيف الثأر خطوة للأمام، ووضع يده على الجزء المعدني في المصباح، دون أن تبدو عليه أي آثار ألم، ورائحة الجلد المحترق تسري إلى أنف تارا وتدفعها للتقيؤ.

"لا تـشككوا فـي قوة إيماننا أبدا، فالندبة على جبين كل أتباعي هي علامة على عمق اقتناعهم وإيمانهم الذي لا يتزعزع ولا يتسرب إليه أدنى شك".

ظـلّ الـرجل علـى هذه الوضعية لمدة طويلة، وهو ينظر إلى تارا، ويده على الجزء المعدني في المصباح، دون أي أمارات ألم، ثم نهض وراحة يده حمراء كالدم.

"لقـد سألتني عن سبب قدومي إليكما يا دانيل، وأنني أتيت لرؤية سجينيّ، ولكن هذا ليس صحيحا، لقد أتيت إليكما لنتفاهم". ثم توجّه نحو مدخل الخيمة مغادرا.

نـادى علـيه دانيل قائلا "أنت تعلم جيدا أن هذا الأمر لن ينجح، فلن تتمكن من اكتـشاف سوى جزء بسيط من الجيش، وسيأتي آخرون ويكتشفون الباقي، وبالتالي لن تكون هناك قيمة لما معك، فالأمر لن ينجح إلا بعد اقتناء محتويات الجيش بأكمله".

استدار سيف الثأر مبتسما، وقال "لدينا خططنا يا دانيل، فالله أرشدنا إلى هذا الجيش، وسيضمن لنا حصاد كل ما فيه".

أومأ سيف الثأر إليهما، ثم اختفى وسط الظلام.

واحة سيوة

ما إن دخل خليفة إلى ساحة محطة الوقود الوحيدة في سيوة، حتى انقطعت الكهرباء فجأة، وتحول المكان بأسره إلى ظلام دامس.

قال عامل المحطة "إذا كنت تريد التزود بالوقود فعليك الانتظار حتى تعود الكهرباء لأن المضخات لن تعمل بدونها".

"هل سأنتظر طويلا؟"

"ربما خمس دقائق وربما خمس ساعات، أتدري أننا ذات مرة انتظرنا يومين".

"آمل ألا ننتظر هذه المدة".

أجاب الرجل "إن شاء الله".

انتظر خليفة عند حافة المحطة، ثم نزل من السيارة لأن الهواء كان حارا للغاية.

في هذه الأثناء، مرت عربة تجرها الحمير، وعلى متنها مجموعة من النساء يضعن ما يشبه الخمار على وجوههن، وكأنهن مصنوعات من الشمع.

ظلّ خليفة يتمشى جيئة وذهابا ليريح قدميه، ثم أشعل سيجارة، وتوجَّه إلى أحد الأكشاك في الساحة الرئيسية، واشترى كوب شاي، وجلس على مقعد خشبي، وأخرج الهاتف المحمول الذي أعطاه إياه عبد الله، وطلب رقم حسني الذي أجاب عند الرنة الرابعة.

"حسني، معك خليفة".

اندهش حسني، وقال "بالله عليك ماذا يجري يا خليفة؟ لقد حضر رجال المخابرات بحثا عنك، أين أنت؟"

كذب خليفة عليه، وقال " في واحة البحرية".

"البحرية؟ وماذا تفعل هناك؟"

"شيئا ما يتعلق بعملي، ولا يمكنني الإدلاء بتفاصيل عنه".

"لقد حضروا إلى مكتبي يا خليفة هل تفهم ماذا يعني ذلك؟ إن عالم تجارة زيوت الطعام صغير للغاية، وتنتشر فيه الشائعات كالنار في الهشيم".

"آسف يا حسني".

"أنـــا متأسف أن أخبرك أنهم إن أتوا مرة أخرى فسأخبرهم بمكانك، فأنا في مـــرحلة حرجة في مشروع زيت السمسم الجديد، ولن أسمح لأي شيء بالإضرار بتجارتي".

"أفهم الوضع يا حسني، ولو أتوا إليك مرة أخرى أخبرهم عن مكاني. هل زينب بجوارك؟"

"نعـــم إنها هنا. لقد حضرت هذا الصباح. نحن بحاجة للتحدث مع بعضنا عندما تعود يا خليفة، من رجل إلى رجل فهناك أمور لابد من تسويتها".

"حسنا، حسنا سنفعل ذلك عندما أعود، هل يمكنني التحدث مع زينب؟"

كانـــت هـــناك أصوات صياح، ثم وقع أقدام تقترب، وبعدها سمع صوت زينب وهي تقول لحسني "أغلق الباب من فضلك".

"يالك من رجل فضولي" قالتها زينب ما إن أغلق حسني الباب.

ابتسم خليفة وبادرها قائلا "كيف حالك؟"

"بخير، وأنت؟"

"بخير أيضا".

"لن أسألك أين أنت يا خليفة".

"نعم، من الأفضل ألا تفعلي. كيف حال الأولاد؟"

"يفتقدونك بشدة، لقد قال علي إنه لن يلعب بالبوق حتى تعود، وأنا أتمنى ألا تعود قريبا لأن صوت البوق يزعجني".

ضحك الاثنان غير أن الضحكة بدت مصطنعة.

"إنهمـــا بالخارج مع سماء في الاحتفال، وسأخبرهما عندما يعودان أنك اتصلت بهما".

"أرسلي لهما أرق تحياتي".

"بالطبع سأفعل".

لقـــد كـــان خلـــيفة يُفكّـــر في زوجته معظم فترات اليوم، والآن وهي معه على الهاتـــف، لا يجد ما يقوله لها، غير أنه تمنى لو بقيت معه لساعات على الهاتف يسمع فقط تردد أنفاسها دون كلمة منها.

أخيرا، قال خليفة "حسنا، لقد أردت الاطمئنان عليكم وأن حسني لا يزعجكم".

"لا يجـــرؤ على ذلك يا خليفة". خيّم الصمت مرة أخرى، ثم قالت زينب "هؤلاء الرجال...".

"رجـــاء لا تسألي يا زينب، ستكونين بخير طالما أنك لا تعرفين شيئا، وهذا هو كل ما يعنيني، أن تكوني والأولاد بخير".

"نحن بخير يا خليفة".

"حسنا".

أخـــذ خلـــيفة يُفكّر في شيء آخر يقوله ليطمئنها فلم يجد سوى إخبارها برؤيته للبحر، "قد أصطحبك أنت والأولاد إليه ذات يوم".

"أحبك يا خليفة".

"أنـــا أيـــضا أحـــبك أكثر من أي شيء في العالم، رجاء قبّلي الأولاد بالنيابة عني".

"بالطبع، اعتنِ بنفسك".

خيّم الصمت لمرة أخيرة قبل أن يغلقا الهاتف معا.

أنهـــى خليفة كوب الشاي، ونهض واقفا في الساحة المظلمة وأمامه مسجد كبير تظهـــر ســـجادته البيضاء كالثلج في هذا الظلام الدامس. توجَّه خليفة لشراء شيء ما يأكله، ولكنه غيّر رأيه، وتوجَّه إلى المسجد، وخلع حذاءه وتوضأ.

كان المدخل مظلما وساكنا وسط ضوء الشموع القليلة المتناثرة هنا وهناك، حتى أن خلـــيفة اعتقد أنه الوحيد في المسجد، ولكن سرعان ما رأى شخصا آخر ساجدا في مقدمة المسجد.

وقـــف خليفة لوهلة، ثم رفع يديه مكبرا، ودخل في الصلاة قارئا الفاتحة وسائلا المولـــى عز وجل أن يحميه وأسرته. سرعان ما شعر خليفة أن كل همومه ومخاوفه تتلاشـــى تدريجيا تماما كما يحدث في كل مرة يلجأ فيها إلى الله. بدا العالم في الخارج هادئـــا، وكـــأن الهـــدوء والسكينة قد اتسع لهما باب المسجد فامتزجتا معا ليعمّا العالم بأســـره فبدا الأمر وكأن سيف الثأر ودرافيتش وحساني وجيش قمبيز ما هم إلا ذرات من التراب تدور في فلك العزيز القهار مما أشعره براحة غامرة.

ظلّ خليفة يصلي لعشرين دقيقة، ثم انتهى بعد أن أتم عشر ركعات. فور انتهائه من الصلاة عاد التيار الكهربائي مضيئا مدخل المسجد، فابتسم خليفة شاعرا أن الله قد استجاب دعاءه.

بالخـــارج كـــان الضوء يغمر الساحة، وعادت الحياة مرة أخرى إلى المضخات فتزود خليفة بالوقود، وملأ كذلك الحاويات الثماني فوق السيارة بالوقود بالإضافة إلى ثلاث حاويات مياه من صنبور المسجد. بعد أن دفع ثمن الوقود، واشترى ثلاث علب

سجائر نفدت منه النقود تقريبا. استقل خليفة السيارة مرة أخرى، وتوجَّه عبر المدينة نحو الكثبان الرملية المنخفضة في الحافة الجنوبية.

لم يسر خليفة في الصحراء سوى لمسافة كيلومترين، ثم سار بجوار منطقة مستوية من الرمال على جانبيها حشائش خضراء، وخلفه أنوار واحة سيوة. في الاتجاه المقابل، لم يكن هناك شيء سوى الفراغ تحت ضوء القمر وصوت نباح كلب ضال في البرية. تناول خليفة بعضا من الطعام الذي أعطته إياه زينب في الصباح، حيث إنه لم يأكل طوال النهار، ثم أخرج غطاءين من الصندوق الخلفي، وأراح الكرسي للوراء، وهو ينظر من النافذة إلى النجوم المتناثرة في السماء. فجأة طرأت على باله الفكرة التالية، لقد قطعت كل هذه المسافة دون أن أفكر في ما سأفعله عندما أعثر على الجيش. حاول خليفة التفكير في ما سيفعله، ولكنه كان مجهدا للغاية، ولذا كان كلما حاول التفكير، تلاشت صورة الجيش ودرافيتش وسيف الثأر من أمام عينيه حتى تحولوا أخيرا إلى ما يشبه نافورة كبيرة من المياه تروي الصحراء، وتحولت الرمال إلى خضرة على مدّ البصر، حيث كان قد غط في نوم عميق، وإلى جواره المسدس على الكرسي المجاورة بعد أن أغلق أبواب السيارة بإحكام.

الصحراء الغربية

استيقظت تارا مفزوعة من نومها ورأسها على قدمي دانيل وهو ينظر إليها.

"لقد كنت تمسك بمالج وتحفر في قلبي".

"إنه مجرد حلم يا تارا كل شيء على ما يرام يا عزيزتي".

"لقد كنت على وشك دفني في تابوت".

انحنى دانيل، وقبَّل رأسها.

"اخلدي للنوم يا عزيزتي، كل شيء سيكون على ما يرام".

نظرت إليه تارا لوهلة، ثم غطّت في نوم عميق بوجهها الشاحب وجسدها الضعيف. نظر إليها دانيل لوهلة، ثم وضع رأسها برفق على الأرض، ونهض يجوب الخيمة ذهابا وإيابا، وعيناه على المدخل بين الحين والآخر، وملامحه تنعكس في ضوء المصباح وكأنه يرتدي قناعا ينسلخ تدريجيا.

همس دانيل "هيا تعال، أين أنت؟ هيا تعال".

نظر إليه الحارس بوجهه الجامد وإصبعه على زناد البندقية.

الصحراء الغربية - بالقرب من واحة سيوة

استيقظ خليفة، ويد زينب تداعب وجهه أو هكذا خُيِّل إليه، حيث كانت أشعة الشمس هي من يداعب وجهه عبر نافذة السيارة مع بزوغ خيوط الصباح. رفع الغطاءين عنه، ثم فتح الباب وخرج، فارتعش من البرد لأن الشمس لم تكن قد زادت من حرارة الجو بعد. تلا خليفة أدعية الصباح، ثم أشعل سيجارة، وصعد مرتفعا صغيرا بجوار المنطقة التي بات ليلته فيها. إلى الشمال كان الهلال الأخضر لواحة سيوة يمتد إلى اليسار واليمين بينما البحيرات المالحة تلمع أسفل أشعة الشمس وأعمدة من الدخان تتصاعد من بين أشجار الزيتون والنخيل. باستثناء ذلك، كانت الصحراء المترامية على مدّ البصر عبارة عن سفوح من الرمال والحصى والنتوءات الصخرية. ظل خليفة يحدّق بها لوهلة والخوف يتسرب إلى قلبه جراء هذا الفراغ الذي لا نهاية له، ثم ألقى بسيجارته، وعاد إلى السيارة. أخرج جهاز تحديد المواقع، وبدا كما قال عبد الله بسيطا وسهل الاستخدام، حيث أدخل خليفة إحداثيات الصخرة الهرمية، وضغط على زر اعثر على، وإذا بالجهاز يوضح أنها على بعد 79 كيلومترا على ارتفاع 133 درجة. بعد ذلك بحث خليفة عن موقعه الحالي، فاتضح أنه في واحة الفرافرة، وضع الجهاز في حقيبته إلى جوار الهاتف المحمول والمسدس.

أفرغ خليفة بعض الهواء من الإطارات حتى يزيد من سرعة السحب في السيارة، وتحرك ببطء مخلفا آثارا للإطارات على صفحة الرمال.

لم يسبق لخليفة القيادة على مثل هذه الأرض الرملية، لذا توخى الحذر، وسار ببطء نوعا ما. فعلى الرغم من صلابة أرضية الصحراء، إلا أن المنحدرات كانت تظهر بين الحين والآخر، وفجأة يجد نفسه أمام أعلى كثيب رملي ينحدر لمسافة عشرين مترا، حتى أنه بالكاد استطاع الحفاظ على سيطرته على مقود السيارة في إحدى المرات التي كان سيسقط فيها من أعلى أحد الكثبان مخلفا آثارا عميقة في الرمال. كل هذه الأشياء دفعته إلى تخفيف سرعته أكثر وأكثر.

كانت هناك آثار لإطارات سيارات أخرى في الكيلومترات الأولى وهي في الغالب ترجع إلى السيارات التي تصطحب السواح في رحلات السفاري من واحة سيوة. بشكل تدريجي، اختفت هذه الآثار، وبدأت الصحراء تحيط به من كل الجوانب، ورأى خليفة هيكلين عظميين نصفهما مدفون في الرمال يرجعان غالبا لحيواني ابن آوى. وباستثناء هذين الهيكلين العظميين اللذين اكتسيا باللون الأبيض، لم تكن هناك

علامـــات علـــى وجود حياة في هذه الصحراء؛ فقط رمال وحصى والسماء الزرقاء، حتى أن الهلال الأخضر لواحة سيوة اختفى في الأفق البعيد.

بعد فترة، اكتشف خليفة أن الوصول إلى الصخرة الهرمية سيستغرق وقتا أطول مما أوضحه الجهاز، وذلك لأن الجهاز أوضح المسافة طبقا للسير في خط مستقيم وهو ما استحال القيام به بسبب الكثبان الرملية المرتفعة، والمنحدرات التي تعين على خليفة تجنـــبها إلى اليمين تارة وإلى اليسار تارة أخرى، كما أن بعض الممرات جعلته يسلك طـــرقا جانبـــية تمـــتد لمئات الأمتار فقط، وأخرى جعلته يقطع ما يزيد عن الثلاثة أو الأربعـــة كيلومترات. وبعد ساعتين من القيادة المستمرة، توقع خليفة أن يكون قد قطع سبعين كيلومترا من المسافة المقررة، ثم استعان بالجهاز فإذا به يوضح أنه اقترب من الصخرة الهرمية أربعين كيلومترا مما جعله يشك في إمكانية الوصول إليها أصلا.

مـــرت ســـاعات الـــصباح بـــبطء دون أن يتوقف عن القيادة سوى لمرة واحدة ليـــسترخي لبضع دقائق، ويتمشى قليلا وسط هذا السكون القاتل الذي لم يشهد له مثيلا قبل ذلك.

وســـط هذا السكون، تأكد خليفة أن صوت هذا المحرك سيبدو واضحا وسط هذه الـــصحراء، حتى أن رجال سيف الثأر الذين يراقبون المكان سيسمعونه لا محالة من على بعد عدة كيلومترات.

قال خليفة متهكما وهو يعود لقيادة السيارة شاعرا بأنه مكشوف للغاية "لا ينقصهم سوى أن أرسل رسالة بالراديو أخبرهم أنني في طريقي إليهم".

اســـتمرت التـــضاريس كمـــا هي على مدار الساعتين التاليتين قبل أن ينتصف الـــنهار، ويجـــد خليفة نفسه أمام ما يشبه سلسلة من التلال التي تعانق السحاب. كانت الحرارة شديدة وأشعة الشمس متوهجة لدرجة عجز معها خليفة على تحديد ماهية هذا الـــشيء، ولكن ما إن اقترب حتى اتضح أنها ليست سلسلة من التلال، وإنما هو كثيب رملي ضخم يمتد عبر منحنى مستقيم على مد البصر أمام مجموعة أخرى من الكثبان الـــرملية المتناثـــرة خلفـــه، وكأنها مجموعة من الأمواج المتلاحقة ترتطم بالشاطئ، وبالفعل كانت هذه الكثبان هي الحدود الخارجية لبحر الرمال الأعظم.

لـــم يـــستطع خلـــيفة سوى النطق بلفظ الجلالة قائلا "الله أكبر". تعبيرا عن مدى دهشته.

ظـــلّ خليفة يقود حتى وصل إلى قاعدة الكثيب الرملي المرتبطة بالكثيب الرملي الـــذي يليها وكأنها حاجز كبير. خرج خليفة من السيارة، وصعد أعلى الكثيب الرملي،

وسط رمال ناعمة أنهكته، وجعلته يعرق عرقا شديدا حتى وصل إلى القمة ليرى مجموعة لا متناهية من الكثبان الرملية التي تعانق السماء في صمت وسكون ونظام عجيب على عكس كل ما مرّ به في الصحراء. في هذه اللحظة، تذكر خليفة قصة كان يحكيها له والده توضح أن الصحراء ما هي إلا أسد نائم في عرينه، ولكنها ستصحو يوما ما وتلتهم العالم بأسره. والآن، وهو ينظر إلى كل هذه الكثبان الرملية، لم يكن أمامه إلا تصديق قصة والده، لأن الصحراء ذات الرمال الصفراء المائلة إلى اللون البرتقالي تشبه الفروة، وتمثل حوافها نتوءات تجعلها تبدو وكأنها وحش كاسر من قديم الأزل، حتى أنه لم يشأ أن يطفئ السيجارة في الأرض لأنه شعر أنه سيحرق بها لحم هذا الوحش الحي.

أخذ خليفة ينظر إلى هذا المشهد لوهلة قبل أن يهبط إلى السيارة مرة أخرى، وقدماه تغرسان في الرمال حتى ركبتيه وفكرة أن هناك رمالا متحركة وبالأخص عند قاعدة الكثيب الرملي تسيطر عليه، ولكنه قال لنفسه "لا، لن تنتهي هذه المغامرة على هذا النحو البائس". ثم مضى في طريقه بالسيارة.

بعد أن أفرغ مجدداً بعض الهواء من الإطارات، أعاد ملء الخزان بثلاث حاويات من تلك الثماني الموجودة في أعلى السيارة. شغّل المحرك على معدل السرعة الأول، وسار بها على حافة الكثيب الرملي. طبقا للجهاز كان لا يزال أمامه قرابة المئة كيلومتر حتى يصل إلى الصخرة الهرمية.

كانت سيارة التويوتا البيضاء التي يستقلها خليفة تبدو كالقزم بجوار الكثبان الرملية العملاقة، وكأنها قارب تتلاعب به الأمواج وسط محيط هائج. ظل خليفة يقود بسرعة بطيئة متفحصا كل كثيب رملي يصعده ليتأكد من أنه لا ينتهي بمنخفض مفاجئ. وكانت الكثبان الرملية متقاربة في بعض الأماكن، ومتباعدة في أماكن أخرى تباعد بينها سهول تصل إلى مئات الأمتار. وخلفه آثار الإطارات في الرمال وكأنها غرز جراحية في جسد شخص ما.

في بادئ الأمر كانت الكثبان منخفضة الارتفاع. ولكن سرعان ما وجد نفسه أمام كثبان تنتهي بمنخفضات مخيفة تجبره على السير بعرض قمتها حتى يصل إلى منطقة سهلة النزول أو يعود أدراجه، ويبحث عن طريق مجاورة لكثيب رملي قد يمتد لعشرات الكيلومترات بعيدا عن المسار الذي يريد أن يسلكه. على الرغم من أن النوافذ مغلقة والتكييف تام داخل السيارة، إلا أن خليفة كان يشعر بالحرارة الشديدة المنبعثة من هذه الصحراء القاسية.

كلما تقدم خليفة في طريقه، شعر بمدى الغموض المحيط بهذه الصحراء، وكأن الكثبان الرملية تتشكل كيفما تشاء، فبعضها أصفر وبعضها برتقالي حتى أنه توقف ليتناول جرعة من الماء وإذا بنسمة هواء عليلة تهب وكأن الكثبان الرملية تتنفس. في بعض الأحيان، شعر أنه يريد الصراخ، ليعلم الصحراء أنه ما أتى ليصيبها بضرر، وأنه مجرد عابر سبيل سيرحل بمجرد انتهائه من عمله، ولن يرجع مرة أخرى. لم يشعر خليفة في حياته بمثل هذه الوحدة أو الصغر. حاول الرجل الاستماع إلى شريط كاظم الساهر، ولكن كلماته بدت غير مناسبة للوضع القائم، وقد استغرق خليفة في المكان حوله حتى أنه نسي التدخين.

بحلول الخامسة مساء، بدأت الشمس في الغروب، وأخذ خليفة يتفحص المكان من فوق أحد الكثبان الرملية الضخمة، وإذا به يلاحظ شيئا إلى اليسار، فأطفأ المحرك، وخرج من السيارة.

كان من الصعب تحديد ماهية هذا الشيء بالعين المجردة بسبب الحرارة والرياح. بدا هذا الشيء، وكأنه مثلث عائم فوق الكثبان الرملية التي تعانق السماء. أخرج خليفة المنظار المكبر ليرى هذا الشيء بوضوح، وإذا به بروز ضخم لصخرة هرمية تقبع فوق الرمال، وكأنها قمة جليدية سوداء. توقع أن تكون المسافة خمسة وعشرين كيلومترا، وطبقا للجهاز كانت المسافة ثمانية وعشرين كيلومترا. حاول خليفة رؤية قمم الكثبان الرملية ولكنه لم يلحظ أي نشاط بشري باستثناء شكلين أسودين غامضين ربما يكونان نقطتي مراقبة؛ وربما لا. وضع خليفة المنظار المكبر جانبا، وأغلق عينيه محاولا الاستماع إلى أي شيء، وبالفعل سمع صوت دوران محرك على مسافة بعيدة، ولكن بشكل متقطع، وفي كل مرة يكون الصوت أقوى من سابقه. بدت الصحراء وكأنها تتسع وتكبر لدرجة يصعب معها تحديد مكان المحرك. بعد أن استمع لدقيقة كاملة اكتشف أن الصوت لا يصدر من الصخرة الهرمية وإنما من ورائها من الطريق التي أتى منها، فاستدار، وركّز بالمنظار المكبر على قمة الكثيب الرملي الرابع على بعد قرابة كيلومترين من موقعه الحالي.

بالنظر إلى الكثيب الرملي، وجده خليفة شديد الانحدار، ويستحيل صعوده بالسيارة، فاستقل السيارة، وشغّل المحرك، وانطلق بأقصى سرعة ناحية الكثيب الرملي والإطارات تمتلئ بالرمال بعنف بينما هو متشبث بالمقبض، وواضع قدمه على دواسة السرعة، ولكن ما هي إلا بضعة أمتار حتى علقت الإطارات وسط الرمال.

"اللعنة!"

حاول خليفة العودة للخلف وهو ينظر إلى قمة الكثيب الرملي في الجهة المقابلة. لوهلة ظن أن السيارة تحررت من الرمال، ولكن سرعان ما علقت الإطارات الأخرى أعمق وأعمق حتى محور الإطار.

قفز خليفة من السيارة، وإذا بالإطارات شبه مختفية في الرمال، ولم يكن أمامه فرصة لإخراجها من الرمال لذا عاد إلى السيارة مرة أخرى والتقط جهاز تحديد المواقع وحاوية مياه ووضعهما في حقيبته، وهرول عبر المنحدر الذي هبط منه للتو وقدماه تغوصان في الرمال.

ما إن وصل خليفة إلى منتصف الكثيب الرملي، حتى بدأت الرمال تنساب من تحت قدميه حتى توقف عن الحركة تماما. حاول جاهدا الصعود أكثر نحو القمة، ولكنه لم يتمكن. حيث كانت حاوية المياه تعيقه عن المضي قدما، فألقى بها على مضض حتى يفرغ يديه ويستطيع إحداث توازن لقدميه الغائرتين في الرمال. كان هناك صوت دراجات نارية تدوي في الجانب الآخر من الكثيب الرملي، ولو رآه أحد من اتباع سيف الثأر فسيقتله على الفور.

همس خليفة مشجعا نفسه قائلا "هيا، هيا".

لوهلة ظل خليفة لا يستطيع الحراك، ولكن ما إن تأكد أنه في وضع مكشوف، حتى تمكن من المضي قدما للأمام وعيناه يظهر عليهما الإرهاق الشديد. وصل خليفة إلى القمة، ثم هبط فجأة نحو سيارته، وظل مستلقيا يلتقط أنفاسه، ثم أخرج مسدسه، وتأكد من وجود ذخيرة به، وصعد إلى القمة مرة أخرى، وأخذ ينظر بحرص شديد إلى الوادي بالأسفل.

في هذه اللحظة، وصلت دراجتان ناريتان إلى السيارة، ونزل منهما رجلان يحملان بنادق آلية، فتح أحدهما الباب، ونظر إلى داخل السيارة إلى سترة خليفة التي نسيها عندما انشغل بالهروب، أما الآخر فأخذ يصعد الكثيب الرملي متتبعا آثار أقدام خليفة، وآثار إطارات السيارة. وقف الرجل لوهلة بجوار حاوية المياه، التي ألقاها خليفة، وأطلق الرصاص عليها، ثم استمر في الصعود وسط دوي طلقات الرصاص في الصحراء الساكنة.

لم تكن فكرة الجري أسفل الكثيب الرملي صائبة لأن الرجل كان ليصطاده كالأرنب، ولا شك أن خليفة يمكنه الانتظار وإطلاق الرصاص عليه متى رآه، ولكن ماذا عن الرجل الآخر بالأسفل؟

نظر خليفة حوله بسرعة، فلاحظ أن هذا الجزء من الكثيب مجوف إلى حدّ ما، ومخلف فجوة طويلة أسفل القمة تحتها لسان ملتوٍ من الرمال؛ وكأنها موجة تعود

أدراجها مرة أخرى، ولو أنه اختبأ في هذا المكان فلن يراه أحد من أعلى. على الرغم من أن هذا المكان لم يكن مخبأ جيدا، إلا أن خليفة لم يكن أمامه حل آخر، وبالتالي أمسك بحقيبة السفر، ونزل إلى هذا المكان مستلقيا على ظهره والمسدس جاهز ليستعمله عند الحاجة.

لوهلة، ظل الوضع كما هو، ثم سرعان ما سمع صوت وقع أقدام، وشعر أن الرجل يتقدم نحو قمة الكثيب ينظر هنا وهناك، ويسير للأمام حتى أصبح فوقه مباشرة؛ حتى أن بعض الرمال تساقطت من حافة الكثيب لتؤكد أن الرجل فوقه مباشرة. حاول خليفة كتمان أنفاسه وهو يحرك إصبعه على زناد المسدس.

خيّم صمت رهيب على المكان، وشعر خليفة بالرجل يفكر أين عساه اختبأ. ازدادت الرمال المتساقطة، وبدا وكأن الرجل على وشك النزول إليه، فانكمش خليفة نحو الداخل، ومرّت بضع ثوان دون حدوث شيء. توقفت الرمال عن التساقط تدريجيا، والرجل واقف مكانه، والصمت يخيّم على المكان، ثم صاح الرجل "يبدو أنه كان هنا، ولكنه نزل إلى الأسفل مرة أخرى، لابد أننا فقدنا أثره في طريقنا إلى هنا".

ساد الصمت مرة أخرى، ثم سمع صوت وقع أقدام ترحل بعيدا، فتنفس خليفة الصعداء.

"الحمد لله". همس خليفة وهو يسترخي.

فجأة رن جرس الهاتف الذي أعطاه إياه عبد الله، واستغرق الأمر بعض الوقت حتى وصل خليفة إلى الحقيبة، وأخرج الهاتف، وأسكته، ولكن تأخر الوقت كثيرا على كتمان الصوت حيث سمع صوت الرجل يصرخ، ثم سمع وقع أقدام تهرول نحوه، فخرج من مخبئه، وسارع بإطلاق ثلاث رصاصات من مسدسه بشكل متتابع كانت الأولى عالية للغاية والثانية بعيدة للغاية والثالثة أصابت جبهة الرجل مباشرة فألقته صريعا، فسقط عبر الجانب الآخر من الكثيب الرملي.

أسرع خليفة يهرول فوق قمة الكثيب، ولكن سرعان ما استقبله وابل من الرصاص جعله ينبطح أرضا، ثم خيّم الصمت لوهلة، قبل انطلاق وابل آخر من الرصاص. على الرغم من أن الرصاص لم يكن موجه إلى أعلى الكثيب الرملي، إلا أن خليفة أخذ ساترا، ورأى الرجل بالأسفل يطلق الرصاص على إطاري الدراجة الأخرى، فرفع خليفة مسدسه، وأطلق الرصاص، ولكنه لم يصب الرجل، استدار الرجل، وأمطر قمة التل بوابل آخر من الرصاص مجبرا خليفة على التراجع نحو الخلف. ساد الصمت مرة أخرى، قبل أن يسمع خليفة صوت محرك الدراجة النارية.

عـدّ خلـيفة حتى الرقم ثلاثة، ثم رفع رأسه مرة أخرى، وشاهد الدراجة تبتعد فارتكز على ركبتيه، وصوب الرصاصات المتبقية على سائق الدراجة فأصابه، ولكنه لـم يـسقط. والآن لم يعد لدى خليفة أي رصاصات، وبالتالي لم يكن لديه خيار سوى مشاهدة الرجل وهو يهرب أسفل الوادي. بعد بضع مئات من الأمتار، استدار الرجل، وأطلق الرصاص على سيارة خليفة لخمس ثوان متواصلة، وفجأة دوى صوت انفجار الـسيارة فـي أنحاء الوادي مثيرا دخانا أسود في الهواء، ثم مضى الرجل في طريقه على دراجته النارية.

لـوهلة ظـل خليفة ينظر إلى السيارة المشتعلة بالأسفل وهو بالكاد يلتقط أنفاسه ويداه ترتعشان. ثم نهض واقفا، وبعد أن التقط أنفاسه وعاد إلى الوراء ممسكا بحقيبته حيث كان الهاتف المحمول لا يزال يرن، ضغط على زر وإذا بصوت عبد الله "خليفة أيها اللعين، ما الذي أخرك هكذا؟ أنا أتصل لأطمئن أن سيارتي بخير".

نظـر خليفة إلى أعمدة الدخان الأسود المتصاعدة من السيارة، وتزايدت نبضات قلبه.

كذب عليه خليفة، وقال "السيارة بخير".

39

الصحراء الغربية

ظلّ سيف الثأر على قمة الكثيب الرملي منذ الفجر يشاهد الرجال وهم يستخرجون مزيدا من جثث الجيش بالتدريج. أشرقت الشمس وغابت، والرجال يملؤون العربات المنتشرة في كل مكان وكأنها فم كبير يلتهم كل ما في طريقه. بحلول الظهيرة، تمّ اكتشاف مزيد من المومياوات، حتى أن العربات لم تعد كافية، وعلى الرغم من أن المزيد من العربات ستأتي بصحبة قافلة الجمال الليلية، إلا أنها أيضا لن تكون كافية لاحتواء آلاف القطع الأثرية المكدسة بالوادي حتى أنه بدا وكأنه مستودع للأسلحة الأثرية والمومياوات.

بعد فترة، صرف سيف الثأر بصره عن الجيش، وأخذ ينظر إلى عمود الدخان المتصاعد من بعيد. منذ ساعة تقريبا أوردت الدوريات أنهم عثروا على آثار لسيارة في الصحراء، وربما يكون هذا الدخان مؤشرا على أنهم عثروا عليها ودمروها. كان من المفترض أن يشعر سيف الثأر بالارتياح لرؤية هذا المنظر. ولكن على العكس من ذلك انتابه إحساس بسوء طالع.

صعد الصبي محمد الكثيب الرملي حتى وصل إلى جوار سيف الثأر.

"ماذا هناك يا محمد؟"

"لقد عثروا على سيارة يا سيدي ودمروها".

"ماذا عن السائق؟"

"لقد هرب بعد أن قتل أحد رجالنا، والرجل الآخر في طريقه إلى هنا".

ظلّ سيف الثأر صامتا، وعمود الدخان يتصاعد أكثر وأكثر. كان الدخان الأسود يتصاعد من صدع في سطح الصحراء والريح تنشره في أرجاء المكان.

أخيـــرا، نطق سيف الثأر قائلا "أخبرني عند وصول رجل الدورية، واطلب منهم التحليق بالمروحية في أرجاء المكان فلن يبتعد السائق كثيرا".

"حسنا، يا سيدي".

اســـتدار الـــصبي، وأخذ يعدو عائدا إلى المخيم، بينما سيف الثأر يجوب المكان ويداه خلف ظهره وقطعة من القماش تحيط بخصره.

ســـأل سيف الثأر "ترى من هذا المتطفل! وماذا يفعل هنا وسط الصحراء، وهل هو وحده أم معه آخرون؟"

كلمـــا زاد تفكيره في هذا الأمر، ازداد قلقا. ليس خوفا من اكتشاف أمر الجيش، وإنما لشعوره بأن يدا من الماضي تمتد لتمسك به. نظر سيف الثأر إلى عمود الدخان، وتخـــيل أنه أخذ شكل إنسان يحلق فوق الصحراء كجني برأس وكتفين وذراع وعينين تنظـــران إلـــيه بغـــضب. أشاح الرجل بوجهه منكرا على نفسه التفكير في مثل هذه الأشـــياء، ولكن على الرغم من ذلك كان هذا الشكل الأسود لا يزال يلوح خلفه. أغلق سيف الثأر عينيه، وبدأ بأداء صلاته.

"صوتك غير مستقر يا عبد الله... لا يمكنني... أنت...".

وضـــع خلـــيفة فمـــه بالقـــرب من سماعة الهاتف، وأصدر صوتا غريبا، وكأن الاتصال غير مستقر، ثم أغلق الهاتف. لوهلة أخذ يفكّر في طلب المساعدة، ولكنه على الفـــور تخلـــى عن الفكرة. من يمكنه المساعدة؟ حساني أم سارية أم حسني؟ حتى لو صـــدقوه فمـــاذا ســـيفعلون؟ لذا لم يرَ بُدّاً من الاعتماد على نفسه، فوضع الهاتف في الحقيـــبة، وعـــاد إلـــى أعلى الكثيب الرملي والهواء ممتلئ برائحة البنزين والمطاط المحترق.

كانـــت ألـــسنة اللهـــب لا تزال تتصاعد من نوافذ السيارة وبالأسفل مباشرة جثة الـــرجل مـــسجا على وجهه وذراعه ملتوية تحت رقبته بزاوية حادة. نظر إليه خليفة لـــوهلة، ثم توجَّه إلى حاوية المياه المثقوبة، وشرب ما تبقى فيها قبل أن يمضي قدما نحو الأسفل.

كـــان خلـــيط من الرمال والدماء يلوث وجه الرجل، وجبهته مفتوحة يظهر من عظمها المهشم بقايا من المخ. أخذ خليفة البندقية الآلية، وهو يتفادى رؤية هذا المنظر، وبدأ ينزع عن الرجل ثيابه، لأنها الوسيلة الوحيدة التي ستضمن له دخول مخيم سيف الثأر دون أن يلفت الانتباه. بعد أن أخذ الثياب والبندقية، وشرع في الصعود إلى أعلى الكثيب الرملي مرة أخرى. توقف بعد عدة أمتار، وأنبه ضميره لتركه الجثة على هذا

الـــنحو تفترســـها الحـــيوانات، فعاد مرة أخرى، وحفر حفرة، ووضع فيها الجثة قائلا لنفسه: عدو أو صديق، هو على الأقل يستحق لمسة من الاحترام.

هـــذه اللمـــسة كلفت خليفة غاليا، فبمجرد صعوده إلى أعلى الكثيب الرملي سمع صـــوت المـــروحية، ومـــا هي إلا ثوان وسيرونه، فما كان منه إلا أن أمسك بحقيبته واختـــبأ في الفجوة، وما هي إلا لحظات حتى مرت المروحية من فوقه مثيرة الرمال علـــى حافة الكثيب الرملي، وظلت لدقيقة تحوم فوق المكان قبل أن ترتفع وتتوجّه إلى الشمال الغربي.

كانـــت خطـــته الأولـــية هي الهروب من هذا المكان بأسرع ما يمكن، ولكن مع وجـــود هـــذه المروحية لن يكون في آمان بالخارج، ولذا قرر المكوث في هذه الفجوة حتى حلول الظلام. قام خليفة بحشو البندقية، ووضع الثياب في الحقيبة، واسترخى في الفجوة الرملية وهو يدخن سيجارة، وينظر إلى سحر الرمال وهي تغوص وسط الظلام في غضون ساعة أو أقل. تمنى خليفة ألا يكون القمر بدرا في هذه الليلة حتى لا يراه أحد.

مـــع غروب الشمس، وظهور بعض النجوم في السماء، دخل رجل الدورية إلى المخيم فوق دراجته النارية، ونزل من فوقها ممسكا بكتفه، ثم هوى على الأرض وسط حشد من الرجال بينهم الصبي محمد الذي انحنى قليلا، وأخذ شيئا من الرجل، وأسرع به إلى سيده في أعلى الكثيب الرملي.

"ماذا هناك يا محمد؟"

"لقـــد عثـــروا على هذه الأشياء في السيارة". وأعطاه حافظة نقود خليفة، وشارة الشرطة.

"ماذا عن المروحية؟"

"لم تعثر على أثر".

هـــزّ ســـيف الـــثأر رأسه، وقال "لابد أنه في مكان ما هنا، يمكنني الشعور به، فلتـــستمر المروحية في البحث حتى حلول الظلام، ولنضاعف الحراسة حول الجيش. فلابد أن هذا المتطفل سيأتي إلى هنا فليس أمامه خيار آخر، وليكن الرجال على حذر".

"حسنا، يا سيدي".

"أرسل درافيتش إلى هنا على الفور".

"حسنا، يا سيدي".

استدار الصبي، وهرول إلى أسفل المنحدر.

لوهلة ظل سيف الثأر ينظر إلى عمود الدخان المتصاعد في ضوء مغيب الشمس، ثم نظر إلى شارة الشرطة التي تحمل الاسم والصورة. لم تظهر على وجهه أي أمارات تعجب، على الرغم من اتساع عينيه، وتحرك حنجرته وكأن شيئا ما يزحف أسفل حلقه.

ظلّ الرجل يحدق بالشارة لدقيقة، ثم وضعها في جيبه، وأخذ يبحث في بقية محتويات الحافظة، حيث أخرج صورة لزوجة خليفة، وأخرى لأطفاله الثلاثة، وثالثة لوالديه إلى جوار بعضهما أمام الأهرامات بالإضافة إلى بطاقة هاتف عام وعشرين جنيها مصريا، ونسخة من القرآن الكريم.

اعتقد سيف الثأر أن هذا كل شيء، ولكن فجأة اكتشف صورة أخرى شبه مطموسة المعالم، ولكن لا تزال واضحة إلى حدٍّ ما لشاب وسيم يشبه الرجل في شارة الشرطة، ولكن ملامحه أكثر حدة، وبعض خصلات الشعر الأسود تنزل على جبهته العريضة التي تعكس ذكاءه، وهو ينظر إلى الكاميرا مباشرة، وإحدى ذراعيه على تمثال حجري صغير لأبي الهول وعلى ظهر الصورة مكتوب: علي أمام متحف القاهرة.

بدأت يد سيف الثأر ترتعش.

أتى درافيتش بينما سيف الثأر لا يزال يحدق بالصورة.

"ماذا هناك؟"

أجاب سيف الثأر "سنبدأ في نقل الآثار بالمروحية غدا".

"ماذا؟"

"أريد المروحيات هنا مع بزوغ خيوط النهار الأولى".

"أعتقد أنك قلت إننا لن نستخدم المروحية".

"لقد تغيرت الخطة، سننقل ما نستطيع بالمروحية، والبقية ستنقلها الجمال. فأنا أريد مغادرة هذا المكان في غضون أربع وعشرين ساعة".

"بالله عليك لا يمكننا...".

"افعل ما أطلبه منك".

نظر إليه درافيتش بغضب، ثم أخرج منديلا من جيبه، ومسح جبهته.

"لا يمكن استخراج الجيش بأكمله بحلول الغد، لقد عثرنا على مؤخر الجيش فقط والذي يمتد لمسافة ثلاثة كيلومترات، وأعتقد أننا بحاجة إلى يومين على الأقل لاستخراج الجيش بأكمله".

"فلنزد عدد الرجال، ولنتوقف عن الحفر الآن، ونركز في تجهيز ما أخرجناه لننقله".

"ما هي مشكلتك يا سيف الثأر؟"

نظر سيف الثأر إلى الصورة، وأشار بيده، وقال "شخص ما يعرف بوجودنا هنا، رجل شرطة هنا في الصحراء بالقرب منا".

لوهلة نظر إليه درافيتش دون ردّ، ثم فجأة انفجر في الضحك.

"هل هذا ما تخشاه؟ رجل شرطة بمفرده؟ أعتقد أنه لا يوجد مكان يختبئ به، سنرسل دورية ليقتلوه وينتهي الأمر".

"سنغادر غدا يا درافيتش".

"وأنا أقول إننا بحاجة إلى يومين على الأقل لإتمام الأمر، ولو تركنا بقية الجيش فإن ما استخرجناه لن يساوي شيئا، هل تفهم ذلك؟"

نظر إليه سيف الثأر، وقال "سنغادر غدا ولا مزيد من الجدل في هذا الأمر".

كان درافيتش على وشك الاعتراض، ولكنه لاحظ أن ذلك عديم الفائدة، فقام بالبصق على بعد سنتمترات من قدم سيف الثأر، ثم مضى في طريقه أسفل المنحدر.

مع حلول الظلام، أضاءت المولدات موقع الحفر غير أن سيف الثأر لم يلحظ ذلك، وانشغل بالنظر إلى الصورة التي بيده.

همس سيف الثأر لنفسه "علي". ممتعضا وكأن الكلمات مذاقها مر "علي خليفة".

ظلّ الرجل على هذه الوضعية لوهلة، قبل أن يقوم فجأة بتقطيع الصورة إلى قطع صغيرة تطايرت في الهواء على سفح الكثيب الرملي، وكأنها أجزاء مرآة مهشمة.

لم يخرج خليفة من مخبئه، إلا بعد حلول الظلام أو على الأقل ظلام الصحراء. إذ إنها أبدا لا تغرق في ظلام دامس بفضل القمر والنجوم. ظل خليفة ينظر هنا وهناك لوهلة، ولم يكن القمر بدرا كما تمنى، ثم بدأ رحلته الطويلة على منحدر رملي يبلغ ثلاثين مترا. بحث الرجل عن جزء يسهل النزول عليه دون فائدة ولذا دعا الله، ووضع حقيبته على ظهره والبندقية الآلية عند صدره، وانزلق.

هبط خليفة بسرعة جنونية، ولم تفلح محاولاته في التوقف. وكانت الرياح تدوي في أذنيه وجزء من ظهره المكشوف يرتطم بالرمال. في منتصف طريقه وهو ينزلق اصطدم بكتلة متحجرة من الرمال جعلته ينقلب رأسا على عقب والبندقية تصطدم بعنف بصدره، حتى استقر به المطاف جاثيا على وجهه وفمه مملوء بالرمال.

"اللعنة".

ظــلّ خلــيفة مــستلقيا لدقيقة وهو يزيل الرمال، ونهض ناظرا إلى المنحدر من الأســفل، والــذي بدا أصعب عمّا كان عليه من الأعلى، حيث ظهر وكأنه حائط شبه رأســي مــن الــرمال، وعلــيه مسار يوضح آثار نزول خليفة. بعد أن حمد الله على ســلامته، نفــض خلــيفة الــرمال عن رأسه، وأخذ حقيبته، ومضى في طريقه وسط الصحراء.

مــشى خلــيفة وسط الظلام في صمت رهيب، باستثناء وقع قدميه على الرمال، وتــردد أنفاسه. وكان يدرك تماما أن آثار قدميه على الرمال واضحة تماما، ولكن لم يكــن لديــه خــيار آخر سوى المضي في طريقه، وهو يمسك بجهاز تحديد المواقع، وينظر إليه بين الحين والآخر لمعرفة المسافة المتبقية على الرغم من عدم احتياجه إليه الآن لأن الصخرة الهرمية كانت واضحة أمامه تلمع وسط الظلام مما جعله متأكدا أن هناك أضواء عند قاعدتها.

بالــتدريج، اعتادت قدماه على السير وسط الرمال صعودا وهبوطا فوق الكثبان الرملية. بطيء في الصعود، وسريع في الهبوط حتى يصل إلى الصحراء الملساء قبل أن يصعد كثيبا آخر وينزل منه وهلم جرا.

كان أمامه ثمانية وعشرون كيلومترا، وخلال النصف الأول منها، أطرق السمع، وفــتح عينيه ليرى إذا ما كان أحد يتبعه أم لا، ولكن بمضي الساعات بدأ ذهنه يشرد، فــوجد نفسه يفكّر في زينب والمرة الأولى التي قابلها فيها في رحلة لحديقة الحيوانات بالجيزة حيث كانت صديقة لصديقة صديقه. حين وقعت عيناه عليها، خجل من التحدث إلــيها، حتــى وقفــا معــا أمام قفص الدب القطبي وهو يسبح بحزن في بحيرة المياه البيضاء.

قال خليفة "ياللك من مسكين لابد أنك تريد العودة إلى موطنك الأساسي في القطب الجنوبي".

أجابت زينب "القطب الشمالي على ما أعتقد، فالدب القطبي ينتمي إلى هذا المكان أما البطريق فيأتي من القطب الجنوبي".

ظــلّ خليفة شارد الذهن، وناظرا إلى شعرها الطويل وعينيها الواسعتين، وكان كل ما أسعفه به لسانه هو "أنت محقة".

لــم يــتحدث إليها طوال فترة الظهيرة فقد كان لسانه معقودا من الخجل. ابتسم خليفة عند استعادته لهذه الذكرى وقال "من كان يعتقد أن الأمر سيجري على هذا النحو بعد هذه البداية غير المبشرة؟"

الآن، بـــدأت الأفكار تراوده عن أولاده بطة وعلي ويوسف حيث تذكر مولد كل مـــنهم، وكأنـــه حدث ماثل أمام عينيه. استغرقت ولادة بطة قرابة التسع عشرة ساعة، بعدها أصرت زينب على أن ذلك لن يحدث ثانية، ولكن ذلك حدث مرتين مع علي ثم مع يوسف ومن يدري؟ لعلها تكرر الأمر مرة أخرى في المستقبل، وهو ما كان يتمناه مـــن صـــميم قلبه. حيث تخيل حشدا كبيرا من الأطفال يلعبون حول النافورة في بهو الصالة، ويضعون ألعابهم في مياهها، وصدى صوت ضحكهم يعم المكان.

هـــبت نـــسمة من الهواء جعلت الكثبان الرملية تهمس وكأنها تحدثه وهو يصعد ويهبط فوقها.

فـــي هـــذه اللحظـــة، بـــدأ يفكـــر في والديه، وكيف كان والده يحمله على يديه ويؤرجحه، وكيف كانت والدته تجلس فوق سطح المنزل تقشر حبات الفول، ثم ما هي إلا لحظـــات وحملـــته الأفكـــار إلى البروفيسور الحبيب، وعبد الله، ومتحف القاهرة، وحظيرة الجمال، والقضايا التي تعامل معها؛ صورة تلو الأخرى تطرق مخيلته وكأنه يجلس في السينما يشاهد فيلما وثائقيا عن حياته.

لـــم يـــتمالك خليفة نفسه، وقادته أفكاره إلى أخيه، فحضرته الأشياء الجيدة أولا، وكـــيف كانا يلعبان معا، والمغامرات التي مرا بها، وسباحتهما في النهر، ثم كيف بدأ علـــي يتغيـــر، ويـــصبح أكثر حدة وبعدا عنه، وكيف انخرط في أشياء سيئة أدت في النهاية إلى ما أدت إليه، وهو اليوم الذي انقلبت فيه حياة خليفة رأسا على عقب، حيث حضر الإرهابيون إلى قريتهم بحثا عن أجانب ليقتلوهم، وتبادلوا إطلاق الرصاص مـــع الشرطة، ولقي سبعة منهم مصرعهم بينهم ثلاثة إرهابيين. سمع خليفة الخبر من المذياع، وهو في جامعته، فعاد مسرعا، ليجد والدته جالسة على الكرسي تحدق بالجدار.

"لقد مات أخوك، مات علي". قالت والدته ذلك وقلبها يعتصر من الألم.

خـــرج خلـــيفة علـــى الفور هائما في الشوارع، وجثث الارهابيين لم ترفع عن الأرض بعد، بل كانت موضوعة في صف على الرصيف، ومكسوة ببعض الأغطية، ورجال الشرطة إلى جوارها يتحدثون ويدخنون. حدّق بالجثث محاولا العثورعلى جثة أخـــيه الذي يحبّه، ثم مضى خليفة في طريقه حتى وصل إلى الأهرامات، وظل يصعد هـــرم خوفو حتى قمته، وهناك جلس يبكي من فوق ما يشبه قمة العالم شاعرا بالعار والرعب، وغير مصدق لما حدث. وحرارة الشمس تنعكس على رأسه التي بدت ككتلة من الأفكار مملوءة بالنيران والألم والحيرة.

لقد مات أخوه، بل ومن اعتبره والده أيضا، الذي يرشده في كل شيء، ويمده بالقوة والخبرة. لقد مضى على ذلك أربعة عشر عاما الآن، ولا تزال الذكرى تثقل كاهله، وستظل كذلك حتى يقف وجها لوجه أمام الرجل المسؤول عن ذلك، أمام سيف الثأر ولهذا السبب حضر إلى هنا حتى ينظر في عيني هذا الرجل، وليحدث ما يحدث بعد ذلك، فكل ما يشغل باله هو مواجهة هذا الرجل الذي دمر عائلته.

تصلبت قدما خليفة فوق الكثيب الرملي مندهشا، حيث وجد نفسه قد وصل إلى وجهته، وعلى بعد كيلومترين تقبع الصخرة الهرمية ضخمة ومرعبة وتشع بالنور، وعلى قمتها مجموعة من النقاط السوداء هي على الأرجح مخابئ. انبطح خليفة على الأرض فورا حتى لا يراه أحد، ونظر إلى ساعته فوجد أنه لا تزال أمامه نصف ساعة على الفجر.

هبط خليفة من قمة الكثيب الرملي حتى وصل نحو الأسفل، ووضع البندقية جانبا، وأخرج ملابس رجل الدورية القتيل، وارتدى الجلباب الأسود والعصابة السوداء على رأسه ووجهه، ثم وضع الهاتف المحمول وجهاز تحديد المواقع في جيبيه، وألقى بالحقيبة، وحمل البندقية مرة أخرى، وصعد إلى قمة الكثيب الرملي ينظر إلى الجانب الآخر، ثم توجه ناحية أعدائه قائلا "لأجلك يا علي".

شقت تارا طريقها وسط الخيم وإلى جوارها الحارس يصوب بندقيته إليها. كان البرد قارسا، فعقدت تارا ذراعيها علها تحصل على بعض الدفء، وجسدها لا يزال يؤلمها مما فعله درافيتش. كان المكان يعج بالصراخ، وصوت المطارق إلى اليمين وكأنه سيمفونية عشوائية تتنافر فيها أصوات الأبواق، بينما شعور بالسعادة يسري إلى نفسها بعد خروجها من الخيمة الضيقة إلى هذا المكان الفسيح والهواء الطلق.

"كما مضى علينا في الأسر؟" سؤال طرحته تارا على نفسها "يومان، ثلاثة". ظلت تحاول استرجاع الأحداث المهمة التي مرت بهما، حتى يمكنها حساب المدة الماضية. استكمل الاثنان السير وسط الخيام، بجوار مجموعة من العربات، حتى وصلا إلى الحد الجنوبي. وإلى اليمين كان هناك قطيع من الجمال حوله حشد كبير من الرجال يملؤون ويفرغون العربات.

بعد أن ابتعدا لخمسين مترا تقريبا توقفا، وتوجهت تارا لقضاء حاجتها وهو ما كانت ترفض فعله أمام أي شخص، ولكن الآن وبعد مرور عدة أيام لم يعد أمامها بديل.

فجأة تحدث حارسها، وهو صبي لم تره تارا على مدار الأيام الثلاثة الماضية، وقال "هل تشجعين مانشستر يونايتد؟"

كانت هذه هي المرة الأولى التي يتحدث إليها أحد حراسها.

أضاف الصبي "إنه فريق لكرة القدم".

ضحكت تارا حتى وصلت لدرجة الهيستيريا، فالموقف كان فوق قدرتها على كتمان ذلك، فهي وسط الصحراء تقضي حاجتها وأمامها حارسها المتعصب يصوب بندقيته إليها وفي نفس الوقت يريد التحدث في أمور تتعلق بكرة القدم!

استدار إليها الحارس، وقال "ما المضحك في ذلك؟"

"الموقف يدعو إلى الضحك".

"ألا تحبين مانشستر يونايتد؟"

توجهت تارا إليه، ووقفت على بعد سنتمترات منه، وقالت "أنا لا أكترث لمانشستر يونايتد، اللعنة على مانشستر يونايتد، لقد تعرضت للاختطاف والتعذيب، وسألقى حتفي قريبا، اللعنة على مانشستر يونايتد، وعليك أنت أيضا".

بدا الحارس خائفا، على الرغم من أنه هو من يحمل البندقية، ثم همس قائلا "ولكنه فريق جيد".

كان وجه الحارس صبيانيا للغاية، حتى أن تارا تسألت هل هو في الرابعة عشرة أم الخامسة عشرة من عمره! وشعرت بالرثاء لحاله.

"ما اسمك؟" سألته تارا بصوت حنون.

همس الصبي باسمه بصوت غير مسموع.

"ماذا؟"

"محمد".

"وماذا تفعل هنا يا محمد؟"

بدا السؤال محيرا للصبي، ثم أجاب "أنا هنا بأمر من سيف الثأر".

"لو أمر سيف الثأر بقتلي هل ستفعل ذلك؟"

نظر الصبي إلى الأرض شاعرا بخجل شديد.

"انظر إلي". كررتها تارا مرتين.

رفع الصبي عينيه بخجل.

"لو أمر سيف الثأر بقتلي هل ستقتلني؟"

"سيف الثأر رجل طيب وهو يهتم بي".

"لكن هل ستقتلني لو أمرك بذلك؟"

ظهرت الحيرة في عيني الصبي، ثم قال "هيا بنا، لنعد إلى الخيمة".

"لا، ليس قبل أن تجيب عن سؤالي".

"نعم، سأقتلك". أشهر البندقية في وجهها، وقال "نعم، سأقتلك لو أمرني سيف الثأر، أتريدين أن أقتلك الآن؟"

تسارعت أنفاس الصبي حينئذٍ، وأخذت يده ترتعش. في هذه اللحظة أيقنت تارا أنه ليس من المناسب إثارة حفيظته أكثر من ذلك.

قالت تارا "حسنا، فلنعد الآن". ثم استدارت، ومضت في طريقها، وبعد عدة ثوان سمعت تارا صوت وقع قدمي الصبي خلفها حيث مضيا في طريقهما إلى أن وصلا إلى الخيام.

"أنا آسف، آسف للغاية". قال الصبي ذلك بشيء من الأسى.

أبطأت تارا، واستدارت، ولكن ماذا عساها تقول؟ فهو صبي صغير، بل كلهم صغار وأبرياء على الرغم من الأشياء التي يرتكبونها. إنهم صبيان وجدوا أنفسهم أقوى من الرجال.

"تشيلسي، أنا أشجع تشيلسي". قالت تارا بابتسامة رقيقة.

ابتسم الصبي ابتسامة عريضة، ثم قال "أنا لا أحب تشيلسي، مانشستر أقوى منه". ثم مضى الاثنان في طريقهما إلى داخل المخيم.

انبطح خليفة ينظر إلى الرجال في الجلاليب السوداء أمامه، وأسفل منه الوادي. حيث لم يعد يفصله عن الجيش سوى حافة بسيطة، وصدى صوت المولدات والمطارق يدوي في الهواء.

لم يكن بمقدوره السير خطوة أخرى دون أن يراه الحراس الواقفون أعلى الصخرة. وبالأسفل في الوادي، كانوا يقفون في صفوف متراصة يصعب اختراقها دون أن يروه، وذلك على الرغم من إمكانية الدوران حولهم، ولكن ذلك سيستغرق منه وقتا أطول، وقد أوشكت خطوط الضوء الأولى للنهار على الظهور، وتعين عليه أن يكون بالداخل قبل شروق الشمس، وإلا سيكتشفه رجال الدورية في المروحية التي ستبدأ عملها بعد قليل. نزل خليفة من قمة الكثيب الرملي ثم استلقى على ظهره، وأشعل سيجارة وهو يفكر في ما سيفعله.

كان علي هو نقطة البداية، أو بالأحرى فكرة كان علي قد طرحها عليه في المرة الأولى التي ذهبا فيها إلى متحف القاهرة معا. فعندما وصلا إلى البوابة الأمامية استوقفه علي ليخبره كيف سيدخلان دون دفع ثمن التذاكر.

سنتظاهر أننا تلاميذ رحلة مدرسية، وسنتوجه مباشرة إلى البوابة الأمامية.

سأله خليفة "أليس من الأفضل التسلل من مدخل جانبي؟"

"لا، فلو رأوك وأنت تتسلل من المدخل الجانبي فسيوقفونك على الفور. ولذا لابد من الدخول من البوابة الأمامية، التحلي بالثقة وكأنك تنتمي إلى هذا المكان وسينجح الأمر على الفور".

بالفعل لم يخفق الأمر قطّ. ولكن هذه المرة الوضع مختلف غير أنه لم يكن أمامه بديل. أنهى خليفة سيجارته، ثم أحكم العصابة على رأسه ووجهه، ثم نهض، وصعد قمة الكثيب الرملي، ونزل إلى الجانب الآخر ملوحا للحراس بالأسفل.

"سلام، هل كل شيء على ما يرام؟"

اختلفت الأصوات، وهرول ثلاثة رجال نحوه يحملون بنادقهم.

تذكر خليفة قول أخيه علي "تحلَّ بالثقة دوما".

ضحك خليفة، وقال لهم "ماذا هناك يا رجال؟ أنا معكم!"

ظلّ الرجال مصوبين أسلحتهم تجاهه، وسأله أحدهم "من أين أتيت؟"

"بالله عليك ماذا تعتقد؟"

"لقد كنت في دورية بالخارج".

"دورية؟"

"إنها مضيعة للوقت، فقد ظللت أمشي طيلة الليل دون العثور على شيء. هل مع أحدكم سيجارة؟"

خيّم الصمت لوهلة، قبل أن يخرج أحدهم علبة سجائر ليعطيها لخليفة، ولكن الرجل الذي استوقف خليفة، أشار إليه، فتراجع بعلبة السجائر على الفور.

استطرد الحارس قائلا "لم نرسل دوريات إلى الخارج الليلة فالأوامر التي جاءتنا هي أن نبقى حول المخيم، وألا نخرج في دوريات".

أجاب خليفة "وددت لو أن أحدا أخبرني بذلك بدلا من المشي ثلاثين كيلومترا على قدمي". حاول خليفة التحلي بضبط النفس والثقة.

حدّق الحارس بخليفة وأشار إليه بخلع العصابة عن الجزء السفلي من وجهه.

تذكر خليفة ما قاله علي في ذلك اليوم، بأن يتظاهر بالغضب إذا ما بدؤوا في طرح الأسئلة.

"بالله عليك ماذا تقول؟ لقد قضيت الليلة في الخارج، وأشعر ببرد قارس".

"اخلع العصابة".

بامتعاض ملحوظ، رفع خليفة العصابة عن أسفل وجهه، وهو حريص تماما على ألا تظهر جبهته.

اقترب الحارس منه، وقال "أنا لا أعرفك".

"أنا أيضا لا أعرفك، ولا أعرف نصف الموجودين هنا، ولكنني في نفس الوقت لا أصوب بندقيتي نحوهم. هذا جنون يا رجل، جنون".

انتظر خليفة لوهلة، ثم قرر خوض المخاطرة.

"إذا لم تكن تصدقني فلتسأل درافيتش، إنه يعرفني منذ أن كنت معه عندما قتلنا هذا العجوز في القاهرة، وأطاح درافيتش بنصف وجهه بمالجه الصغير، هذا الحيوان اللعين".

خيّم الصمت لوهلة، ثم نظر الرجال إلى بعضهم البعض، وأنزلوا أسلحتهم، وتقدم الرجل إلى الأمام، وأعطاه سيجارة، فأخذها خليفة داعيا الله ألا يروا مدى ارتعاش يديه.

"حسنا، فلتذهب إلى المخيم، وتخبرهم بإرسال مجموعة من الرجال حتى نحصل على الراحة".

أومأ خليفة إيجابا، وقال "حسنا، ولكن هلاّ تسديني معروفا؟ لا تخبر درافيتش بما قلته عنه الآن".

ضحك الرجال، وقالوا "لا تقلق فنحن لدينا نفس الإحساس".

ابتسم خليفة، ولوّح بيديه مودعا إياهم. بعد خطوات قليلة، نادى عليه أحد الحراس.

"ألم تنسَ شيئا ما؟"

تجمد خليفة في مكانه.

"ما هي كلمة السر؟ لابد من معرفتها حتى تمر".

استدار خليفة، وإذا بالرجال الثلاثة ينظرون إليه ممسكين بأسلحتهم.

سأله الرجل الذي أعطاه السيجارة "ما هي كلمة السر؟"

لم يدرِ خليفة ماذا يقول في الوقت الذي تسابقت فيه دقات قلبه، وإصبعه يتحسس موضع زناد البندقية، وهو ينظر إلى الرجال الثلاثة الواحد تلو الآخر ليتحين الفرصة المناسبة. خيّم صمت رهيب لوهلة، وكأنه الصمت الذي يسبق العاصفة، ثم فجأة انفجر الرجال في الضحك.

"السيجارة أيها الأبله، ألا تريد قداحة لإشعال السيجارة؟"

استغرق خليفة بضع ثوان قبل أن يفهم ما يعنيه الرجال ثم تنفس الصعداء، ورفع يديه يتحسس السيجارة في فمه.

قال خليفة "هذا ما تشعر به بعد قضاء ليلة في الصحراء". ثم ضحك، وقال "يذهب عقلك".

أشعل الحارس القداحة، واقترب خليفة منه، وأشعل السيجارة قائلا "كلما أسرعنا في الخروج من هذا المكان كان أفضل".

همس الرجل إيجابا.

وقف خليفة لوهلة، قبل أن يشير إليهما مودعا، ومضى في طريقه دون أن ينادي عليه أحد هذه المرة.

كانت خيوط النهار الأولى قد ظهرت في الأفق، في الوقت الذي صعد فيه خليفة الكثيب الرملي التالي والصخرة الهرمية إلى يساره صامتة ومرعبة. مرّ خليفة بنقطتي مراقبة دون أن يستوقفه أحد، ثم نظر إلى الأسفل وإذا بالعربات والخيام والجمال والصناديق مملوءة بالآثار وسط حشود كبيرة من الرجال في الجلاليب السوداء يمشون جيئة وذهابا وهم يملؤون العربات، ومجموعة صغيرة أخرى ملتفة حول المومياوات يمسكون بأسلاك ويظهر بينهم رجل ضخم الجثة يرتدي قميصا أبيض يشرف على عملهم. خمَّن خليفة على الفور أن هذا الرجل هو درافيتش.

ظلّ خليفة ينظر إليهم لبضع دقائق، قبل أن ينظر إلى المخيم مرة أخرى، ليرى امرأة مكشوفة الشعر، تدخل إحدى الخيام إلى اليمين من وسط المخيم في مكان مميز وسط صفين من براميل الوقود، ثم بدأ في النزول إلى أسفل المنحدر في الوقت الذي ارتفع فيه صوت من أعلى: الله أكبر، الله أكبر إيذانا بدخول وقت صلاة الفجر. فأسرع خليفة الخطى، وهو يستر وجهه بالعصابة.

خرج حشد كبير من الرجال إلى مكان فسيح خارج المخيم، حيث وقفوا في صفوف، وقبلتهم إلى الشرق. كان سيف الثأر بصحبتهم، ولكنه دخل إلى خيمة عليها جهاز إرسال، وقف الرجل في الداخل فور رؤيته لسيف الثأر، ولكنه أعاده مرة أخرى للجلوس على كرسيه أمام جهاز الراديو.

"ماذا عن المروحيات؟"

أعطاه الرجل قطعة من الورق، وقال لقد أقلعت للتو.

"أهناك أي مشاكل؟"

"لا، ستكون هنا في أقل من ساعة".

"ماذا عن الحراس؟"

"لم يرد منهم شيء".

"حسنا، أخبرني بأي شيء قد يستجد". غادر سيف الثأر الخيمة متوجها إلى مكان الصلاة.

توجَّه معظم الرجال إلى مكان الصلاة، بينما كان من تبقى منهم في طريقهم إليهم تاركين المخيم مهجورا. ظل الرجال في نقاط المراقبة في أماكنهم، ولكنهم توجهوا إلى الشرق أيضا ليشرعوا في الصلاة. نظر سيف الثأر إلى نقاط المراقبة السوداء المتناثرة فوق قمة الكثيب الرملي كصف من الطيور الجارحة. استدار سيف الثأر، وشق طريقه عبر المخيم وسط صوت الرجال وهم يرددون صلاتهم.

وصل سيف الثأر إلى خيمته، وعندما هم بالدخول، رجع على الفور، وكأنه نسي شيئا، ثم استدار وعيناه تدوران إلى اليسار واليمين، وتقدم خطوة للأمام يتفحص ظلال المعدات والخيام، ولكنه لم يعثر على شيء. بعد دقيقة، هزّ رأسه، واستدار، ودخل خيمته.

قرب الحدود الليبية

حلقت المروحيات على ارتفاع منخفض فوق الصحراء في سرب يتكون من عشرين مروحية تشبه الطيور الجارحة التي تحلق فوق الرمال. كانت هناك مروحية تتقدم السرب تتبعها كافة المروحيات الأخرى في كل حركاتها صعودا وهبوطا، يمينا ويسارا في حركات راقصة بديعة المنظر. كانت المروحيات كبيرة الحجم على نحو يجعل تحركها بهذه الخفة مثار دهشة. في ركن الطيار يمكنك بالكاد رؤية أشكال آدمية تقود هذه المروحيات العملاقة التي تشق صمت الصحراء قبيل الفجر مع بزوغ الشفق.

40

الصحراء الغربية

ظــلّ خليفة مختبئا وسط مجموعة من براميل الوقود، حتى خلا المخيم تماما، ثم شقّ طريقه عبر الأشياء التي يكتظ بها المكان باحثا عن الخيمة التي رأى الفتاة تدخل إليها، وكان يدرك تماما أن أمامه خمس عشرة دقيقة أو عشرين على الأكثر.

مــن الأعلــى، بدا المخيم خاليا تماما، ولكن ما إن دخل إليه حتى وجده مكتظا بالمعــدات والأشــياء الأخرى التي تعيق الحركة. كل الأشياء تبدو متشابهة، ولم يعد قــادرا على تمييز العلامات التي رآها من أعلى كصفي براميل الوقود مثلا أو كومة القش. دخل الرجل إلى خيمتين معتقدا أن الفتاة هناك ولكنه لم يعثر عليها، وبدأ اليأس يتــسرب إلــى نفسه قبل أن يرفع بصره، وإذا بكومة القش ماثلة أمامه وإلى جوارها الخــيمة التــي كــان يبحث عنها. تنفس خليفة الصعداء، وهرول إلى الخيمة، واضعا العصابة على وجهه والبندقية الآلية جاهزة في يده.

لــم تكن هذه الاستعدادات ضرورية، لأن الحارس لم يكن أمام الخيمة، ولدهشته لم تكــن الفــتاة أيضا بالداخل. بل كان هناك رجل ساجد، وظهره لباب الخيمة، يرتدي ثوبا أســود، فتراجع خليفة على الفور، ولكن شيئا ما أوقفه. لم يرَ خليفة وجه الرجل أو أجزاء مــن جــسده نظــرا للثياب السوداء التي يرتديها. ولكن بغريزته فقط أدرك خليفة أن هذا الرجل هو سيف الثأر، فرفع البندقية، ووضع يده على الزناد وهم بإطلاق الرصاص.

شعر سيف الثأر بخليفة وراءه، ولكنه لم يكترث لأمره، وظل خاشعا في صلاته بيــنما جــذب خليفة الزناد للوراء بحيث لم يعد عليه سوى ضغط الزناد ليمطر سيف الثأر بوابل من الرصاص الذي سيصيبه لا محالة من هذه المسافة القريبة. بدت دقات قلب خليفة كصدى صوت يدوّي في مدخل الخيمة.

وقف سيف الثأر، وأخذ يقرأ، ثم ركع ثم سجد. ضغطة أخرى وستنتهي أسطورة سيف الثأر هذا ما كان يجول بخاطر خليفة. وما إن تراءى شكل علي أمام خليفة، حتى صوب البندقية إلى مؤخرة رأس الرجل تماما، ثم أخذ نفسا عميقا، وعضّ على شفتيه، ثم فجأة أنزل البندقية، ورفع يده من على الزناد، وتراجع نحو الخلف خارجا من الخيمة.

أخذ خليفة ينظر إلى الخيمة وفي نفسه إحساس عميق بالضيق، وفجأة وجد أن الفجر تلاشى، والسماء أصبحت أكثر إشراقا على الرغم من أنه لم يبقَ بالخيمة سوى عدة ثوان. انطلق خليفة مهرولا عبر المخيم لأن الرجال كانوا على وشك الانتهاء من صلاتهم.

همست تارا "ترى كيف حال جوي!"

كانت تارا جالسة في الخيمة، تضم ركبتيها إلى صدرها، وتتحرك جيئة وذهابا بينما دانيل مستلقٍ إلى جوارها يطرق بأطراف أصابعه على الأرض، وينظر إلى ساعته بين الحين والآخر.

"من جوي؟"

"إنها الأفعى سوداء الرأس في الحديقة في بريطانيا، لم تكن بخير عندما غادرت".

"أعتقد أنك عشت مع هذه الزواحف لفترة تكفيك بقية عمرك".

"أتدري أنني لم أكن أحب هذه الأفعى؟ ولكن عندما تشعر أنك لن ترى شيئا ما ثانية...، أتمنى أن تكون إلكسندرا قد حافظت على مواعيد المضادات الحيوية الخاصة بها، على تنظيف جلدها جيدا، لأن الأفعى كانت تعاني من مرض جلدي، وتحك جسدها لدرجة تؤذيه".

كانت تارا تتحدث لا لشيء، إلا لقتل الوقت حتى تحين الدقيقة التي سيأخذونهما فيها للخارج، ويطلقون عليهما الرصاص، أو يقطعون رقبتيهما، أو يطعنونهما. نظرت تارا إلى الحارس الممسك ببندقيته. لم يكن الصبي محمد هذه المرة، بل كان رجلا أكبر سنا، وتخيلته يصوب البندقية نحو رأسها، ويطلق الرصاص والدماء تتناثر في كل مكان، مما جعلها تشعر برعب شديد.

نهض دانيل، وجلس قائلا "ما علاقتك بهذه الثعابين بالله عليك؟ أنا لم أفهم قطّ سبب انجذابك إليها".

ابتسمت تارا، وقالت "أبي هو من دفعني إلى ذلك، فقد كان يكرهها، وهذا ما جعلني أتعلق بها، لأنها كانت تعطيني شيئا من القوة عليه. أتذكر ذات مرة أن أحد

الطلـبة كـان معه ثعبان صغير في حقيبته، ثم..." توقفت تارا عن سرد القصة، لأنها كانت تعلم أن أيا منهما لن يضحك في النهاية. خيّم الصمت على المكان لفترة طويلة.

أخيرا، سألت تارا "وماذا عنك، لم تخبرني قطّ لماذا أصبحت عالما للآثار".

"الله أعلم، أنا لم أفكر في هذا السؤال مطلقا". كان دانيل يعبث في حذائه، ثم قال "ولكنني كـنت أحـب الحفر جدا، وأتذكر أنه قبل وفاة والدي ووالدتي عندما كنا في بـاريس، كانت لدينا حديقة، وأنني كنت كثيرا ما أحفر فيها باحثا عن الكنز المدفون. هذه كانت بداية المشوار، وبعدها حصلت على كتيب صغير يحتوي على صور لكنوز توت عنخ آمون، ثم توجهت للحفر في مصر...".

انفـتح بـاب الخيمة، ودخل أحد الحراس واضعا العصابة على وجهه مع بزوغ ضوء النهار. نهض الحارس الجالس أمام الخيمة واقفا، غير أن الحارس الأول عاجله بـضربة فـي جانب رأسه بالعقب المعدني للبندقية الآلية فأفقده الوعي. انتفض دانيل وتارا واقفين إلى جوار بعضهما، بينما أظهر خليفة وجهه لهما.

"ليس أمامنا وقت طويل". قال خليفة وهو ينتزع البندقية من الحارس، ويلقي بها إلى دانيل قائلا "هل تستطيع استعمال هذه؟"

"نعم، أعتقد ذلك".

"كيف وصلت إلى هنا؟ وكم عدد رجال الشرطة معك؟"

"لا يـوجد سـواي، ولـيس لدي وقت للشرح، ففي غضون دقائق سينتهون من الصلاة، وسيمتلئ المخيم بالرجال مرة أخرى. لابد أن تهربا الآن فالفرصة سانحة".

أخرج خليفة رأسه من باب الخيمة ناظرا يمينا ويسارا، ثم استدار نحوهما وقال "تـوجّها شمال الوادي خلف الحفريات، وابقيا عند القاعدة القريبة من الكثيب الرملي، لأن هذا المكان بعيد عن نقاط المراقبة. هيا اذهبا بأقصى سرعة".

سألته تارا "وماذا عنك؟

تجاهل خليفة السؤال، وأخرج جهاز تحديد المواقع والهاتف المحمول من جيبه.

"خذا هذا، ومتى خرجتما من المخيم، اطلبا النجدة، ستوضح لكما الإحداثيات أين موقعكما، فقط اضغط على...".

قاطعه دانيل "أعرف كيف أستخدمه". أخذ دانيل الجهاز، وأعطى الهاتف لتارا.

"وماذا عنك؟" قالت تارا بصوت أعلى هذه المرة.

"لدي أمور أسويها هنا، ولكن الأمر لا يعنيكما".

"لا، لن نتركك".

قال خليفة "هيا اذهبا". وهو يدفعهما تجاه الباب. هيا اذهبا شمالا، ثم إلى قاعدة الكثيب الرملي على اليسار.

قال دانيل "أنا لا أعرفك، ولكنني أشكرك من كل قلبي، وأتمنى أن نلتقي ذات يوم".

"إن شاء الله، والآن اذهبا".

خرج الاثنان من الخيمة، ولكن سرعان ما خطت تارا خطوة للخلف، وقبّلت خليفة على وجنتيه شاكرة إياه.

أومأ إليها خليفة، ودفعها نحو الخارج لتلحق بدانيل قائلا "متأسف لما حدث لوالدك، لقد حضرت إحدى محاضراته ذات مرة، لقد كان رجلا رائعا. والآن اذهبي أرجوك".

خرج دانيل وتارا، بينما خليفة ينظر خلفهما حتى اختفيا عن الأنظار، ثم أسرع إلى الجهة المقابلة.

توجّه خليفة إلى الحد الجنوبي للمخيم، وهو يتوقف بين الفينة والأخرى ليستمع إلى الصلاة، وأدرك أنه لم يعد هناك سوى دقيقتين ويفرغون من صلاتهم. كانت أشعة الشمس قد ظهرت من الشرق تدريجيا، وأخذت تطغى على أضواء المصابيح في المخيم.

ظلّ خليفة يهرول حتى وصل إلى آخر المخيم، وأصبح أمام مجموعة من المعدات. وعلى بعد خمسين مترا، كانت هناك صفوف من الرجال الساجدين الذين كانوا يصلون. اختبأ الرجل خلف كومة من الأقفاص وهو يفكّر في تغيير وجهته.

كان هناك العديد من الأقفاص وإلى جوارها برميل من الوقود. نظر خليفة إلى الصناديق الخشبية خلفه، فوجد أن كل واحد منها يحتوي على مومياء. وصل خليفة إلى البرميل، وفتح غطاءه، فشم رائحة البنزين، فأماله قليلا وسكب محتوياته على أقرب كومة قش، حتى تشبعت تماما، وكرر نفس الشيء مرتين أو ثلاث مرات. في هذه الأثناء، ابتلت قدماه وثيابه، وبينما هو في طريقه لتكرار العملية مرة أخرى، سمع ضجيجا، وأيقن أن الرجال انتهوا من صلاتهم، وفي نفس الوقت كان هناك صياح من أعلى الكثيب الرملي فاستدار خليفة يصوب بندقيته معتقدا أنهم رأوه، ولكنه سمع صوت رصاصات في الجهة الأخرى، فأدرك أنهم رأوا دانيل وتارا.

"اللعنة".

استدار خليفة نحو أكوام القش المشبعة بالوقود، وأخرج قداحته، وفي نفس اللحظة تزايد صوت الرصاص في الجانب الآخر، مع خروج صفوف من الرجال من

صلاتهم وتوجههم إلى المخيم. انحنى خليفة، ووضع القداحة أسفل إحدى كومات القش، وهمّ بإشعالها.

"لن أفعل ذلك لو كنت مكانك".

جاء الصوت من وراء خليفة. "ألقِ القداحة، وانهض دون أي حركات مفاجئة".

لــوهلة لــم يتحــرك خليفة، وشعر أن العالم ينكمش من حوله، ثم أغلق عينيه، وضــغط علــى القداحــة، ولكنها لم تشتعل، وإذا بوابل من الرصاص يخترق الرمال حوله. "قلت ألقِ القداحة. لن أكرر قولي مرة أخرى".

ألقــى خليفة بالقداحة، في الوقت الذي لعلعت فيه طلقات الرصاص على الجانب الآخر من المخيم.

"الآن، انهض، واستدر برفق وبطء وارفع يديك".

فعل خليفة ما طُلِب منه تماما، واستدار ليجد درافيتش خلفه على بعد عشرة أمتار ممسكا ببندقية آلية.

"أيها الأحمق اللعين، ماذا تظن نفسك فاعلا؟" قال درافيتش متهكما، ثم نادى على الرجال المنتشرين في كل مكان. وإذا بثلاثة منهم يمسكون بخليفة ويجعلونه يجثو على ركبتيه.

تقدم درافيتش وهو يقول" أنت رجل الشرطة الشجاع، النسخة المصغرة من عمر الشريف؟"

رفع درافيتش يده، وصفع خليفة صفعة قوية، سالت من جرائها الدماء من فمه.

"أنت أغبى مما كنت أتصور، أتعتقد أنك كنت ستلقي القبض علينا جميعا بمفردك؟"

لــم يــنطق خليفة بكلمة، وإنما ظل ينظر إليه والدماء تنزف من فمه على ذقنه. تزايد صوت إطلاق النار في الجهة المقابلة، واقترب أحد الرجال من درافيتش وهمس له بشيء، فنظر درافيتش إلى خليفة وقال له "ستدفع ثمن ذلك لا محالة".

أشار درافيتش إلى أحد الرجال، فالتقط القداحة، وألقى بها نحوه.

انحنى درافيتش نحو خليفة والهواء يخرج من أنفه بوتيرة متسارعة وقال "ما هذه الرائحة الجميلة التي أشمها على ثيابك؟ أهي رائحة بنزين؟"

نظر الرجل إلى خليفة نظرة سادية والرجال حوله يضحكون.

"لقد كنا مهملين في عملنا، أليس كذلك؟"

تــراجع درافيــتش نحــو الوراء قليلا، ثم ضغط على القداحة أمام صدر خليفة مباشرة فظهر لسان لهب أصفر.

أخذ درافيتش يبعد اللهب ويقربه من ثياب خليفة حتى أوشك أن يلامسها.

"توقَّف عن ذلك، توقَّف الآن".

صدر صوت حاد وثابت من خلف الحشد، جعل درافيتش يطفئ القداحة، ويتراجع إلى الوراء، وانفتحت الحلقة التي يقف فيها الرجال، ودخل سيف الثأر، حيث أخذ يحدق بخليفة لدقيقة، ثم تقدم للأمام، ووقف أمامه وقال "أهلا بك يا خليفة".

سأل درافيتش مندهشا "أتعرفه".

هرول دانيل وتارا عبر المخيم من خيمة إلى أخرى ومن زاوية إلى الأخرى تجاه قاعدة الكثيب الرملي الشمالي كما أخبرهما خليفة. دانيل في المقدمة تتبعه تارا متناسية الألم الذي يعتصر جسدها.

توقف الاثنان عند الحد الشمالي للمخيم أمام سلسلة من الحفريات تمتد لمسافة طويلة وسط صمت رهيب، فيما تلمع أكوام من الآثار تحت أشعة الشمس وكأنها بقايا تحطم طائرة. لاحظ دانيل مجموعة من الرجال فوق قمة الكثيب الرملي ولكنهم كانوا ينظرون شرقا، ومن ثم لم يروا دانيل أو تارا.

قال دانيل "حسنا، حسنا".

استمر الاثنان في طريقهما أسفل المنحدر والصخرة الهرمية قابعة فوقهما، ومع كل خطوة بعيدا عن المخيم، كانت تارا تشعر أن فرصة النجاة تزداد، ووجدت نفسها تدعو بكل ما أوتيت من قوة للنجاة من هذا الموقف، على الرغم من أنها لم تدعُ منذ أن كانت طفلة صغيرة.

لم يرَهما أحد كما تمنت تارا، ولكن ذلك لم يدم طويلا فما هي إلا خمسون مترا، وإذا بصيحة من أعلى الصخرة الهرمية أعقبها إطلاق نار كثيف.

صرخ دانيل "اللعنة".

دوَّت الصيحة في المكان، والآن أصبح حوالى أربعين رجلا يطلقون الرصاص عليهما.

"لا بد أن نرجع مرة أخرى!"

قالت تارا "لا، فالمكان مكشوف".

جذبها دانيل من ذراعها، وعاد بها من حيث أتيا، والرجال يهرولون إلى أسفل الصخرة الهرمية، ويطلقون الرصاص بعشوائية. فاستدار دانيل، وبادلهم إطلاق الرصاص قبل أن يهرول مرة أخرى، لقد انحرف الرصاص عن رأس تارا سنتمترات، واستقر في أجساد المومياوات والأسلحة المتراكمة في المخيم.

استدار دانيل، وأطلق عدة رصاصات قبل أن يصلا إلى المخيم مرة أخرى، ويغيبا عن أنظار الرجال لوهلة.

سألت تارا "ماذا سنفعل الآن".

أسرع الاثنان عبر الخيم والأصوات تتوالى من الخلف والأمام فهما الآن بين فكي كماشة، فليس هناك مخبأ لهما، والخوف قد تملكهما وأصبحا عاجزين عن التفكير.

نظر الاثنان من جانب الخيمة، وإذا بدراجة نارية بالجوار، وبها المفتاح. دون كلمة واحدة، ناول دانيل البندقية إلى تارا، وهرول إلى الدراجة النارية يشغلها.

لم تستجب الدراجة النارية.

"اللعنة، هيا أيتها اللعينة".

في هذه اللحظة، لم تعد الأصوات تبتعد عنهما سوى مسافة خيمتين.

لم تتمالك تارا نفسها، فاستدارت، وأطلقت الرصاص حتى أفرغت مخزن البندقية، وبسرعة وضعت المخزن الآخر، واستمرت في إطلاق الرصاص، وفجأة اشتغل محرك الدراجة النارية.

"هيا يا تارا".

قفزت تارا خلف دانيل، الذي انطلق قبل أن تستقر في جلستها، مثيرا الرمال أسفل عجلتي الدراجة.

ما إن انطلق دانيل بالدراجة حتى ظهر أمامه أحد الرجال، فركله بقدمه، ولكن ظهر آخرون عن اليمين واليسار، وإذا بتارا تحيط بخصر دانيل بإحدى يديها، بينما الأخرى على زناد البندقية تطلق الرصاص، وهي تغمض عينا وتفتح أخرى، وكأن ذلك سيحميها. لم تكن تارا واثقة أنها أصابت أيا من الرجال. وقع بالقرب منهما انفجار، وظهر أمامها رجل تشتعل النيران بثيابه.

كان دانيل يسير بالدراجة بطريقة متعرجة وسط الخيم، حتى خرجا من الحدّ الشمالي من المخيم، وأصبحا على المنحدر الذي وقفا عليه ليلة اكتشاف الجيش.

انهال عليهما الرجال من كل حدب وصوب، فأبطأ دانيل قليلا، ونظر يمينا ويسارا قبل أن يضع يده على دواسة البنزين قائلا لتارا "تمسكي جيدا".

انطلق دانيل صوب الرجال مباشرة، وإذا بهم واقفون كما هم، ولكن مع اقترابه أكثر فأكثر تفرق الرجال عن الجانبين.

عندما أدركت تارا ما سيفعله دانيل، ألقت البندقية، وأمسكت به بكلتا يديها.

صرخت تارا "مستحيل يا دانيل".

نزل دانيل إلى أسفل المنحدر، وصعد الجانب الآخر تاركا المنحدر فاصلا بينهما وبـــين الـــرجال خلفهما، ولكن فجأة انغرست العجلة الخلفية للدراجة في الرمال نتيجة احـــتكاكها بالأرض فتباطأت الدراجة، وبدأ الرجال يقتربون منهما، ولكن دانيل استمر فـــي طريقه مسرعا عبر الوادي والرصاص يتوالى من خلفهما دون أدنى مضايقة من المخابـــئ أعلى المنحدر حيث ترك الرجال مواقعهم، ونزلوا إلى المخيم فور سماعهم للصيحات.

قال دانيل أثناء مرورهما بمكان الحفريات "يا الله انظري إلى هذا".

أحكمت تارا ذراعيها حول خصره، وقالت "لا تنظر، فقط ركِز في قيادتك".

41

الصحراء الغربية

حدّق خليفة بالرجل الواقف أمامه، وقال "أنت لست أخي، لقد مات أخي. مات في اليوم الذي أتى فيه ورفاقه الإرهابيون إلى قريتنا، وقتلوا أربعة سواح أبرياء. مات أخي في اليوم الذي سمّى نفسه فيه سيف الثأر".

الآن، وهما إلى جوار بعضهما البعض ظهر الشبه واضحا، نفس عظام الوجنتين البارزة والفم الصغير والأنف المعقوف، فقط العينان هما وجه الاختلاف، فهما زرقاوان صافيتان لدى خليفة وخضراوان لامعتان لدى سيف الثأر.

وقف الاثنان ينظران لبعضهما البعض دون حراك، والهواء يمر بينهما ساخنا. نظر سيف الثأر إلى درافيتش، وقال "أعطِني البندقية".

تقدم درافيتش للأمام خطوة، وأعطاه إياها، فأخذها سيف الثأر، وصوب مقدمتها إلى رأس خليفة.

"خذ الرجال، وعودوا إلى العمل، ومُرْ الرجال في نقاط المراقبة بالنزول لمساعدتكم، فستصل المروحيات في غضون ثلاثين دقيقة، ومازال هناك الكثير للقيام به".

"وماذا عن تارا ودانيل؟"

"فليهربا، لسنا بحاجة إليهما".

"وماذا عن هذا؟"

"أنا سأهتم بأمره".

"ولكننا...".

"قلت سأهتم بأمره".

تمتم درافيتش ببضع كلمات، ثم مضى في طريقه، يتبعه الرجال، فيما بقي خليفة وسيف الثأر بمفردهما. أشار سيف الثأر لخليفة بالنهوض، وسارا وجها لوجه، وهو يمسك بالبندقية، ويبدو أطول قليلا من خليفة.

"كان يتعين عليك قتلي عندما سنحت لك الفرصة في الخيمة بينما كنت أصلّي، ألم تكن أنت من دخل الخيمة؟ لقد شعرت بك خلفي، ولكن لماذا لم تضغط على الزناد؟ أعرف أنك أردت ذلك".

أجاب خليفة "حاولت التفكير في ما سيفعله أخي علي لو كان مكاني، وبالتأكيد ما كان ليقتل رجلا في ظهره وهو يصلي".

"أنت تتحدث وكأني لست أخاك".

"نعم أنت لست أخي، فأخي كان رجلا طيبا. أما أنت فسفاح".

فجأة، توقفت المحركات، وانطفأت المصابيح تاركة الخيوط الأولى للنهار تضيء المخيم بينما عمود من الدخان الأسود يتصاعد في الشمال.

"لماذا أتيت إلى هنا يا يوسف؟"

صمت يوسف لبرهة

"لا، ليس لقتلك، على الرغم من أنني وددت لو فعلت ذلك منذ أربعة عشر عاما".

أخرج خليفة سيجارة من طيات ملابسه، ولكنه نسي أن درافيتش أخذ القداحة منه، ومن ثم أمسك بالسيجارة في يده دون أن يشعلها.

"لقد أتيت إلى هنا، لأنظر إلى وجهك، وأفهم ماذا حدث على مدار السنوات الماضية؟ ولماذا مات علي في داخلك، وأفسح المجال لكل هذه الشرور؟"

لمعت عينا سيف الثأر، وأحكم قبضته على البندقية، ولكن سرعان ما استرخى مرة أخرى، وابتسم ابتسامة باهتة.

"لقد فتحت عينيّ يا يوسف، ورأيت العالم على حقيقته مليئا بالشرور والفساد ونسيان الشريعة وسيادة الكفر. رأيت كل ذلك، وأقسمت أن أفعل شيئا. لم يمت أخوك يا يوسف كل ما حدث أنه نضج".

"نضج وتحول إلى وحش".

"لا، تحول إلى عبد حقيقي لله". نظر سيف الثأر إلى عيني أخيه، وقال "لقد كان الأمر سهلا عليك يا يوسف فأنت الأخ الأصغر، أما أنا فتعين عليّ العمل عشرين ساعة يوميا لإطعامك أنت وأمي، وشعرت بأن حياتي تؤخذ مني، بينما مجموعة من الأجانب الأغنياء يقيمون في فنادق فخمة، وينفقون على وجبة واحدة ما أكسبه أنا في

شـــهر كامـــل. هذه هي الأشياء التي تغيّر الرجال يا أخي، وتوضح له هذا العالم على حقيقته".

"كنت لأساعدك، وتوسلت إليك أن تتركني أساعدك بدلا من تركك تتحمل العبء وحدك".

"لقد كنت أنا الابن الأكبر، وكان ذلك واجبي".

"كان واجبك كما هو واجبك الآن أن تقتل الأبرياء!"

لقد قال الله في كتابه العزيز ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ﴾

ولكنه قال أيضا ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا.﴾

فأجاب سيف الثأر "قال الله أيضا

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ﴾ - ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ - هل تريدنا أن نستعين بالآيات يا يوسف لا تقلق سأهزمك لا محالة.

همس خليفة "بالطبع يمكنك التلاوة من طلوع الفجر حتى غروب الشمس، ولكن أبدا لن تبرر ما تفعله من جرائم".

نظـــر خلـــيفة إلى أخيه مباشرة، ثم قال "أنا لا أعرفك- أنفك وعيناك وفمك هي لعلي، ولكن مازلت لا أعرفك، فأنت مختلف من هنا- أشار إلى قلبه- هنا أنت غريب بل أكثر من غريب".

"سأظل أخاك مهما قلت فدماؤنا واحدة".

"لا، لقـــد مات علي. أتدري أنني حفرت له قبرا بيدي على الرغم من عدم وجود جثة لأضعها فيه؟"

رفع خليفة كمه، ومسح الدم من على فمه.

"عندما أفكر في علي، أشعر بالفخر والإعجاب والحب، ولهذا أسميت ابني الأكبر بهذا الاسم علي، حتى يذكّرني دوما بالسعادة والدفء، ولكن معك أنت لا أشعر سوى بالعـــار، أربعـــة عشر عاما من الخزي والعار، أخاف أن أنظر إلى الجريدة فيطالعني خبر لإحدى الجرائم التي ترتكبها. أربعة عشر عاما أختبئ من الماضي. أربعة عشر عاما أتظاهر بأنني لست أخا لهذا الوحش".

مـــرة أخرى، لمعت عينا سيف الثأر "وأحكم قبضته على البندقية، لقد كنت دوما ضعيفا يا يوسف".

"أنت من تخلط الضعف بالإنسانية".

"لا أنت من يخلط الإنسانية بالفقر".

أجاب سيف الثأر "حتى تتحرر، لابد أن تتخذ قرارات صعبة في بعض الأحيان. ولكن لماذا تريد الفهم بعد كل ذلك؟ الفهم وليد المعاناة، وأنا حاولت دوما أن أحميك من المعانـــاة، ويبدو أنني كنت مخطئا، فأنت تتحدث عن الخزي والعار، ولكن هل فكّرت يـــوما في مدى الخزي والعار اللذين أشعر بهما؟ أخي الذي اهتممت به، وعملت ليلا ونهـــارا لإطعامه وكسوته وإرساله إلى الجامعة ليتعلم، أصبح الآن رجل شرطة يخدم من فعلوا ذلك بأخيه الذي من لحمه ودمه".

كشف سيف الثأر عن جبهته، فظهرت الندبة البارزة.

"هل هذا هو الذي سهرت الليل لأجله، وضحيت بحياتي حتى يسعد؟ لست وحدك مـــن يشعر بخيبة الأمل يا أخي، ولست وحدك من تشعر أنك فقدت أخا. أتدري أنه لم يمر عليّ يوم بل دقيقة في يوم دون أن أفكر فيك؟ ولكن سرعان ما تتشوه هذه الأفكار بالأسى والغضب والمرارة".

كان صوت سيف الثأر منخفضا وكأنه يهمس.

"عـــندما اكتـــشفت أنـــك أنـــت من في الصحراء يسعى ورائي، فكّرت ربما... للحظة... بعد كل هذا الوقت...".

ترقرقت عيناه بالدموع للحظة، ولكن سرعان ما جمد فيهما الدمع ثانية.

"لكـــن لا، لـــن أفعـــل ذلـــك، فقد خنتني وخنت الله ولهذا السبب ستحصل على جزائك".

رفع سيف الثأر البندقية، وصوبها إلى رأس أخيه مباشرة، ووضع يده على الزناد.

نظـــر خلـــيفة إليه وقال "الله أكبر وأعظم من أن تقتل الناس لتثبت ذلك، هذا ما علمني إياه أخي علي".

ظـــلّ الاثنان ينظران إلى بعضهما لخمس ثوان، عشر ثم ضغط سيف الثأر على الزناد، ولكنه رفع يده فتطايرت الطلقات في السماء دون أن تؤذي أخاه.

خيّم الصمت لوهلة، ثم حضر الصبي محمد مهرولا نحو سيف الثأر.

"اصطحبه واحرسه ولا تتحدث معه". ثم استدار، ومضى في طريقه.

نـــادى علـــيه خليفة قائلا "ستدمر بقية الجيش، أليس كذلك؟" ثم أشار خليفة إلى الصناديق خلفه، وقال "لهذا السبب أحضرت هذه المتفجرات".

توقف سيف الثأر، واستدار، وقال "لن يكون لما أخذناه فائدة إن اكتشف أحد بقية الجيش، للأسف ليس هناك حل آخر".

لم ينطق خليفة بكلمة، وإنما ظل يحدق به، وقال "يالك من مسكين يا علي".

ظـلّ الاثنان على الدراجة النارية لمدة عشر دقائق ينطلقان بسرعة فائقة، بينما تنظر تارا خلفهما لترى إن كان هناك من يتبعهما أم لا.

عـندما تأكـدت تارا أن أحدا لا يتبعهما، أخبرت دانيل، فأبطأ قليلا، ثم استدار، وصـعد قمـة الكثـيب الرملي، وخلفهما المخيم على مسافة بعيدة يتصاعد من وسطه عمـود مـن الـدخان الأسـود بينما الصخرة الهرمية تعكس لونا برتقاليا تحت أشعة الشمس. أخذ الاثنان ينظران في صمت.

أخيرا، قالت تارا "لا يمكننا تركه هكذا".

هزّ دانيل كتفيه دون أن ينطق بكلمة.

"يمكننا طلب المساعدة". وأخرجت تارا الهاتف المحمول، وقالت "يمكننا الاتصال بالشرطة أو الجيش، أو أي شخص ليساعدنا".

"سيكون ذلك مضيعة للوقت، لأنهم سيستغرقون ساعات حتى يصلوا إلى هنا. هذا إن صدقونا أصلا".

توقف دانيل قليلا، واضعا يده على مفتاح المحرك، ثم قال "سأعود إليه".

قالت تارا "سنعود إليه معا".

ابتسم دانيل، وقال "أشعر أننا خضنا هذا الجدال سابقا".

قالت تارا" حسنا، من الأفضل ألا نكرره ثانية، ولنمضِ في طريقنا إليه".

"ماذا بعد؟"

هزّت تارا كتفيها، وقالت "دعنا نفكّر في ذلك عندما نصل إلى هناك".

سخر منها دانيل قائلا "يالها من خطة محكمة يا تارا". ثم شغّل المحرك، وانطلق إلى أسفل الكثيب الرملي.

"على الأقل يبدو اليوم مشرقا للقيام بذلك".

سألت تارا "وما هو الذي سنقوم به؟"

في البداية، توجّه دانيل شرقا لمسافة كيلومتر بحيث لم يفصلهما عن الجيش سوى كثيبين رمليين، ثم توجّه جنوبا نحو الصخرة الهرمية على يمينهما.

"سنـسير بمحـاذاة الـوادي حتى نصبح قبالة المخيم مباشرة، لأن ذلك سيعطينا الفرصـة للاقتراب قدر المستطاع دون أن يرانا أحد، فلو سرنا في نفس الطريق التي أتيـنا مـنها، فسيروننا على بعد ميل كامل". أضاف دانيل "من العار ألا نعيش طالما نمتلك الفرصة لذلك".

ظلّ الاثنان يتلفتان هنا وهناك للتأكد من أن أحدا لا يراهما. وتوقف دانيل للحظة، وأطفأ المحرك، وأغلق عينيه، واستمع إلى أي أصوات قد تكون هنا أو هناك، ولكن الصمت كان يخيّم على المكان، فشغّل المحرك، ومضى في طريقه.

قالت تارا "يبدو أننا في حلم يا دانيل".

تقدم دانيل لخمس دقائق أخرى، حتى ضمن أنهما بمحاذاة المخيم، ثم انحرف بالدراجة تجاه قمة الكثيب الرملي إلى اليمين حيث كان المنحدر عميقا للغاية، لدرجة جعلت المحرك على وشك الانفجار، وهما في طريقهما للصعود. نظر دانيل أمامه، وإذا بالصخرة الهرمية ماثلة أمامهما إلى اليسار قليلا على بعد كثيبين رمليين، وبالأسفل يقبع الجيش والحفريات دون أدنى علامة على وجود حراس في المكان.

سألت تارا "أين ذهبوا بحق الله".

"ليست لدي أدنى فكرة، ولكن لابد أنهم جميعا بالأسفل في المخيم".

أبطأ دانيل قليلا، ثم هبط من الكثيب الرملي، ليصعد الكثيب التالي، الآن لم يعد يفصلهما عن الجيش سوى كثيب رملي واحد. وصارت أصوات المطارق والصيحات أكثر وضوحا الآن غير أن المكان كان لا يزال خاويا.

قالت تارا "ما هذا؟ أشعر وكأن الصحراء مليئة بالأشباح".

أوقف دانيل المحرك، وتفحص المكان، ثم ترك الكوابح لتهبط بهما الدراجة مسافة خمسين مترا قبل أن تقف. نزل الاثنان، ووضع دانيل الدراجة على الرمال.

"سنذهب مشيا على الأقدام من هنا، لأنني لا أريد المخاطرة بتشغيل محرك الدراجة الآن، ولو رآنا أحد فلن يكون هناك الكثير لنفعله".

مضى الاثنان في طريقهما حتى وصلا إلى قاعدة المنحدر، ثم إلى أعلى قمته، وأعينهما مرتكزة على المخابئ بالأعلى خوفا من أن يراهما أحد. وصل دانيل وتارا إلى أعلى المنحدر دون أن يراهما أحد، ثم انبطحا أرضا، وزحفا ببطء فوق الرمال الباردة حتى تمكنا من رؤية الوادي بالأسفل.

في هذا الموقع، كان الاثنان فوق مكان الحفريات تماما، والصخرة الهرمية قابعة في الاتجاه المقابل، والمخيم إلى يسارهما، في الوقت الذي يسرع فيه الرجال جيئة وذهابا، يملؤون الصناديق بالآثار- سيوف ودروع ورماح ومعدات حربية- ثم يرفعون هذه الصناديق على ظهور الجمال.

قال دانيل "يبدو أنهم على وشك الرحيل". ونظر بحسرة إلى طريقة تعبئة الآثار في الصناديق، حيث لم يكترث الرجال بوضع شيء من القش لحماية هذه الآثار.

ظلّ الاثنان يراقبان ما يحدث بالأسفل، بينما كان هناك شخص ضخم الجثة يسير وسط الرجال، ويصيح بهم، فقالت تارا "هذا درافيتش". ولكنها سرعان ما أشاحت بنظرها بعيدا عنه، لما شعرت به من امتعاض وضيق".

أشارت تارا إلى أحد الرجال بجوار مكان الحفر، وبيده صندوق رمادي صغير، ومجموعة أسلاك، وقالت "ما هذا؟"

نظر دانيل بدقة، ثم قال "يا الله".

"ماذا يا دانيل؟"

"متفجرات".

خيّم الصمت لوهلة، ثم قالت تارا "أتقصد أنهم سوف...".

"سيفجرون المكان، هذا ما قصده سيف الثأر بالأمس فهذه هي الطريقة الوحيدة التي ستحفظ لهم قيمة ما حصلوا عليه من آثار. يالهم من حمقى! سيدمرون أعظم اكتشاف أثري في التاريخ".

"حسنا، ماذا سنفعل يا دانيل؟"

هزّ دانيل رأسه، وقال "لا أدري يا تارا، فلو حاولنا النزول إلى الأسفل فسيروننا على الفور".

نظر دانيل إلى اليسار، وقال "يمكننا الاقتراب من المخيم من هذه الناحية، ولكن ذلك خطر للغاية، فلو رفع أحدهم بصره نحو الأعلى سيرانا".

قالت تارا "لقد قطعنا كل هذه المسافة، وتعرضنا لكل هذه الأخطار، وأعتقد أنه إذا ما كانت لدينا فرصة للنزول نحو الأسفل فلابد من انتهازها".

"ولكن ماذا سنفعل بعد ذلك؟ هناك مئات الخيم بالأسفل وقد يكون الشرطي في أي منها".

قالت تارا "دعنا فقط ننزل إلى هناك".

ابتسم دانيل، وقال "هذا ما أحبه في تارا، إنها أبدا لا تفعل شيئا اليوم قد تفعله غدا".

تراجع دانيل للخلف قليلا، ثم نهض على قدميه، ومضى إلى الجهة اليسرى، تتبعه تارا، ولكنهما لم يمشيا سوى بضعة أمتار، حتى سمعا صوتا يقترب منهما وكأنه صوت طبول. توقف الاثنان، واستدارا وهما يستمعان إلى مصدر الصوت الذي ازدادت حدته حينئذ.

سألت تارا "ما هذا؟"

"لا أدري، ولكنه يبدو كصوت...".

استمع دانيل بانتباه، ثم قال "اللعنة".

جذب دانيل يد تارا، وانبطحا على الرمال.

"إنها مروحيات".

انـــبطح الاثنان على الرمال والصوت يزداد، وما هي إلا لحظات حتى أصبحت المـــروحيات فـــوقهما مباشـــرة تثير الرمال حتى غطتهما تماما حيث مرت المروحية الأولـــى على ارتفاع عشرة أمتار على الأكثر تعقبها الثانية فالثالثة فالرابعة ثم الكثير مـــنها، وكأنها سرب من الجراد الكبير الذي حجب ضوء الشمس، حتى حطت جميعها على الأرض، وهدأ الجو مرة أخرى.

ظـــلّ الاثـــنان علـــى هذه الوضعية لدقيقة قبل أن يزحفا للأمام لرؤية ما يجري بالأسفل.

كانـــت ثلاث مروحيات لا تزال تحلق فوق المخيم، أما الأخرى فقد حطت على الأرض بالفعـــل نصفها إلى الجنوب ونصفها إلى الشمال وهرع إليها الرجال ليضعوا فيها الصناديق.

خـــيّم الـــصمت لوهلة، ثم انفتح باب تعبئة الحمولات في المروحية، وانحنى الرجال بالملابس السوداء لرفع الحمولات، وفجأة انهال عليهم الرصاص من داخل المروحية.

"ماذا يحدث؟"

تـــراجع رجـــال سيف الثأر، والآثار تتطاير تحت هذا السيل من الرصاص، في الوقت الذي تزايدت فيه حدة إطلاق النار، واشتركت المروحيات الثلاث التي لا تزال تحلّـــق في الهواء في تصيد الرجال، وقد حاول بعض رجال سيف الثأر تبادل إطلاق الـــنار، ولكـــن على الفور اقتنصهم الرجال من المروحيات بينما الجمال تعدو في كل مكان، وتدهس من يأتي في طريقها.

قالت تارا "يا الله! إنها مذبحة".

الآن، هـــبط الرجال من المروحيات وهم يرتدون زيا عسكريا، ويمطرون رجال سيف الثأر بالنيران فيردونهم قتلى على الأرض، وكأنهم بقع من الحبر الأسود.

نهض دانيل على قدميه، وقال "سأنزل للأسفل".

بدأت تارا تنهض أيضا، ولكنه وضع يده على كتفها ليبقيها مكانها.

"ستبقين هنا يا تارا، وسأذهب أنا، لأحضر الشرطي بينما تراقبين الطريق لنا".

قبل أن تنطق تارا، كان دانيل قد مضى في طريقه ناحية المخيم، حيث صادفه أحد رجال سيف الثأر، فرفع بندقيته، ولكن سرعان ما هوى على الأرض إثر مجموعة من الرصاصات اخترقت جسده، وتناثرت دماؤه على الأرض، بينما تقدم دانيل خطوة للأمام، وانتزع بندقية الرجل، وهرول إلى داخل المخيم مختفيا وراء سحابة من الدخان. حاولت تارا النظر بدقة لرؤية إلى أين ذهب دانيل، ولكنها تفاجأت بضربة على رأسها قلبتها على ظهرها، فأصبحت تنظر إلى السماء.

"أعتقد أن لدينا عملا لم ينتهِ بعد يا آنسة مولراي، وآمل أنك لن تستمتعي به".

"أعتقد أنك تحبه، أليس كذلك؟"

كان الصبي جالسا القرفصاء على بعد عدة خطوات من خليفة، والبندقية في يده وعيناه على خليفة.

"لقد أحببته ذات مرة أنا أيضا، ربما أكثر من أي شخص في الدنيا".

لم ينبس الصبي بكلمة.

"لقد كنت مثلك تماما، أتمنى أن أفديه بروحي، ولكن... لم يتبقَ لي الآن سوى الألم، وأتمنى ألا تشعر بذلك في يوم من الأيام لأن الشعور بحب شخص ما ثم كرهك إياه إحساس قاتل".

جلس الاثنان بلا حراك ينظر خليفة إلى يديه بينما الصبي محمد ينظر إليه.

صدر صوت مروحية تدنو من الخيمة، فنهض الصبي وخرج من الخيمة ينظر نحو الأعلى، وهو يصوب البندقية نحو خليفة.

قال خليفة "يبدو أنك ستغادر قريبا".

كان الرجال يهرولون بالخارج مع تصاعد صوت المروحية حتى أصبح يدوي في المكان بأسره، فخرج الصبي لرؤية ما يحدث وهو يشعر بدفء الشمس والهواء العليل.

كان خليفة محقا، فقريبا سيرحل الصبي، وسيف الثأر، والآخرون، وسترحل معهم كل الأشياء السيئة في العالم.

قال الصبي "نعم، لقد أتينا إلى هنا لنزرع جنة الله على الأرض، ولنحقق إرادة الله". كان الصبي مفعما بالأمل والسعادة.

"لن أكره سيف الثأر أبدا". قال الصبي ذلك وهو يستدير نحو خليفة، وهو لا يتمالك نفسه من الحديث على عكس ما أمره به سيده، "لن أكرهه أبدا مهما قلت فهو

رجل طيب فلم يعتنِ بي أي شخص كما فعل هو". ابتسم الصبي، وتابع قائلا "سأحبه دائما، وسأقف إلى جواره، ولن أخذله أبدا".

اتسعت عينا الصبي بالحب والبراءة، وفجأة اخترق شيء ما سقف الخيمة، وإذا بالصبي جاثيا على ركبتيه بعد أن تطاير نصف رأسه والدماء تسيل على كتفه، وخليفة ينظر إلى مخه ككتاب مفتوح. ظلّ الصبي على هذه الحالة لثوان، والابتسامة لا تزال مرسومة على فمه الذي تسيل منه الدماء، ثم هوى بجسده فوق خليفة طارحا إياه على الأرض، في الوقت الذي هوت فيه مئات الرصاصات من الأعلى، واخترقت جسد الصبي الذي اهتزّ كدمية متحركة.

مضى بعض الوقت قبل أن توجِّه المروحيات رصاصاتها إلى مكان آخر، بينما الصبي لا يزال راقدا فوق خليفة الذي منعته الصدمة من الحركة، ثم تمالك نفسه، وأبعد الجثة، ونهض على قدميه، وسقف الخيمة عبارة عن مجموعة من الثقوب، وأدرك أنه لو لم يقع الصبي فوقه، لكان قد لقي مصرعه لا محالة. انحنى خليفة ليتحسس نبض الصبي دون فائدة فرفع أطراف أصابعه وأغمض عيني الصبي.

همس خليفة قائلا "لم يكن سيف الثأر ليستحق هذه التضحية".

اشتعلت النيران في مؤخرة الخيمة، وانتشر الدخان، وأخذ خليفة يسعل، فما كان منه إلاّ أن انتزع بندقية الصبي، وهرول نحو الخارج، ثم نظر نظرة أخيرة إلى الجثة، قبل أن يمضي في طريقه عبر المخيم.

نظر خليفة إلى المخيم، وإذا به عبارة عن جحيم متقد، والرجال يهرولون هنا وهناك، والجثث تملأ الأرض. وفي الأعلى كان هناك ثلاث مروحيات تمطر رجال سيف الثأر بالنيران، في الوقت الذي انفجر فيه أحد براميل الوقود مصدرا صوتا يصم الآذان.

جال خليفة ببصره في المكان، قبل أن يبدأ بالعدو، ثم توقف بعد ثلاثين مترا، إثر رشق من الرصاص استهدفه، فانبطح مختبئا خلف إحدى العربات، ثم نهض مرة أخرى، قبل أن يختبئ مرة أخرى، حيث وجد أمامه اثنين من الجنود يرتديان أقنعة دخان، وشعر أنه مقتول لا محالة. ولكن إذا بأحدهما يشير للآخر، ثم ذهبا في الاتجاه المقابل. عد خليفة حتى الرقم ثلاثة، ثم نهض يعدو عبر المخيم.

مرّ خليفة بجوار مجموعة من البراميل المشتعلة، يقفز فوق الجثث الملقاة على الأرض، وهو ينظر نحو الأعلى مستكشفا مواقع المروحيات، وإذا بأحد رجال سيف الثأر يظهر أمامه ممسكا ببطنه، والدماء تسيل من بين أصابعه، فانحنى خليفة تجاهه، وسأله "أين سيف الثأر؟"

نظر الرجل إليه والدماء تسيل من جانبي فمه دون أن ينطق بكلمة.

"أرجوك أين سيف الثأر؟"

تحـــرك فــم الرجل، ولكن دون صوت، وإذا بالرجل يحرك يده ممسكا بقميص خليفة الذي رفع يده هو الآخر ممسكا بيد الرجل.

"أخبرني أين هو؟"

لوهلة ظلّ الرجل يحدق به وكأنه لا يفهم ما يقوله، ثم حرك يده بعد جهد جهيد، وأشـــار نحـــو موقع الحفر، ثم قال بصوت مختنق "عند الصخرة، الصخرة". ثم هوى على الأرض صريعا.

نهــض خلـــيفة على قدميه غير مكترث بما يدور حوله، ومتوجها إلى الصخرة، حتـــى وصل إلى موقع الحفر، واختبأ خلف كتلة من القش، يتفحص المكان حوله قائلا "أين أنت يا أخي، أين أنت؟"

في البداية لم يعثر له على أثر، نظرا للفوضى العارمة التي تجوب المكان، وبعد أن بـــدأ اليأس يتسرب إلى نفسه إذا بسحابة من الدخان تتقشع ليرى من خلالها رجلا مختبـــئا أسفل الصخرة، وأسفل قدميه سلك أسود غليظ يتدلى إلى موقع الحفر، وعلى الرغم من أن المسافة بين الرجلين أكثر من مئة متر إلا أن خليفة لم يكن ليخطئ أخاه، ولا ما يفعله هناك.

صاح خليفة "وجدتك يا أخي".

بـــدأ خلـــيفة العدو وسط هذه الفوضى، ولاحظ حركة غريبة إلى يساره، فاستدار وأطلـــق الرصاص، وإذا بأحد رجال سيف الثأر يخر صريعا، ثم استدار خليفة للجهة الأخرى ليردي رجلا آخر قتيلا في غضون ثوان.

انطلـــق خلـــيفة مرة أخرى وسط سحابة من الدخان، وهو يناضل للمضي قدما، وبالكاد يلتقط أنفاسه، ولا يدري ما إذا كان يسير في الاتجاه الصحيح أم لا، في الوقت الذي تزايد فيه الدخان أكثر وأكثر، وسأل خليفة هل من نهاية لهذا الأمر؟ وما هي إلا بضعة أمتار، حتى انقشع الدخان، ووجد خليفة أخاه أمامه وأصابعه على المفجر وهو يستعد لتدمير بقايا جيش قمبيز، فقفز خليفة طارحا أخاه نحو الصخرة.

لـــوهلة ظـــل ســـيف الـــثأر ملقى على الأرض والدماء تسيل على جبهته جراء اصـــطدامه بالصخرة، ثم نهض مرة أخرى، وهو ينظر إلى خليفة بغيظ شديد، ثم قال "سأقتلك!" ثم أمسك برأس خليفة يهوي به تجاه الصخرة مرة تلو الأخرى.

"لقد خذلتني يا يوسف خذلتني يا أخي".

نهـض سيف الثأر، وضرب خليفة على فمه قائلا "لا يمكنك منازلتي، فأنا أقوى منك دوما، أقوى منك لأن الله معي".

ثـم ضـربه مـرة، ومـرة أخرى قبل أن يلقي به على الأرض، ويعود ليمسك بالمفجـر، ولكـن خليفة تمكن من الإمساك به من أسفل قدميه، وطرحه أرضا، وجثا فـوقه محكما قبضته عليه قائلا "أنا أحبك يا أخي". وأخذت الدموع تترقرق في عينيه "فأنت أخي من لحمي ودمي، لماذا أصبحت شريرا هكذا؟"

أجاب سيف الثأر "لأنهم أشرار، كلهم أشرار".

"إنهم نساء وأطفال لم يفعلوا شيئا لك".

"لا، لقد فعلوا، لقد قتلوا والدنا!" نجح سيف الثأر في تحرير إحدى يديه، وضرب خليفة على عينيه، وقال "ألا ترى ذلك؟ لقد قتلوا والدنا ودمروا حياتنا".

"لقد كانت حادثة يا علي، لم يكن خطأهم".

"لا، لقد كان خطأهم لقد دمرّوا عائلتنا. إنهم أشرار، كلهم أشرار". ثم ضرب أخاه بكل ما أوتي من قوة، ونهض واقفا، وضربه على جنبه قائلا "سأقتلهم جميعا، سأبيدهم عن بكرة أبيهم".

أخـذ سـيف الثأر يضرب خليفة مرة تلو الأخرى حتى أوشك على السقوط في موقـع المحفـر، بينما أخذ خليفة ينظر إلى أي شيء حوله ليستعمله كسلاح، فلم يجد سوى خنجر أثري قديم. ولكن فجأة قفز فوقه سيف الثأر ممسكا بمعصمه وهو يضغط بشدة على الخنجر باتجاه رقبة خليفة، بينما ركبتاه مرتكزتان على صدره.

قـال سـيف الثأر "يعتقدون أنه يمكنهم معاملتنا كحيوانات، وأنهم فوق القانون، ولكنهم ليسوا فوق إرادة الله، فالله يعرف مكرهم، وأمرنا بالانتقام".

أخذ سيف الثأر يضغط على الخنجر، ويده ترتعش من مقاومة خليفة له، ولكنه كان قـويا، حتـى أن الخنجر أصبح يحتك بحنجرة أخيه قبل أن تخور قواه شيئا فشيئا، ونظر خليفة إلى عيني أخيه في الوقت الذي هدأ فيه وطيس المعركة حولهما، ولم يبقَ سواهما.

قال خليفة "افعلها، هيا اقتلني".

علـى الـرغم من أن سيف الثأر وحده هو من يمسك بالخنجر، إلا أن يده كانت ترتعش، وكأنه يناضل ضد قوة خفية.

"هـيا افعلهـا، أريـد التخلص منك، والعودة مرة أخرى إلى أخي الحبيب، هيا اقتلني، اقتلني".

أغمض خليفة عينيه، بينما انغرس الخنجر شعرة أخرى في حلقه، مسببًا سيلا من الـدماء علـى رقبته، قبل أن يتوقف فجأة، وتنسحب شفرة الخنجر من حلقه، ويصدر

صوت طلقات بجوار رأس خليفة قبل أن يرفع سيف الثأر ركبتيه من على صدر خليفة.

فتح خليفة عينيه، فوجد أخاه واقفا أمامه، حيث نظرا لبعضهما البعض لوهلة، يبحثان عن شيء مشترك بينهما، قبل أن يستدير سيف الثأر، ويتوجه ناحية موقع الحفر، وقبل أن تخترق جسده مجموعة من الرصاصات ألقت به نحو الصخرة، حيث سال الدم من فمه وهو يمسك بالرمال بقبضته. ولكن سرعان ما اخترقت مجموعة أخرى من الرصاصات صدره فتدحرج حتى سقط في موقع الحفر إلى جوار بعض الأسلحة وبقايا مومياوات، وكأن جيش قمبيز نادى عليه ليكون أحد أفراده.

نظر خليفة إلى المشهد والرعب يسيطر عليه، وإذا بدانيل يقف على بعد عشرة أمتار ممسكا ببندقية في يده، ثم تقدم قليلا للأمام، ونزع السلك من المفجر، بينما خليفة ملقى على الأرض ينظر إلى السماء وعيناه تترقرق فيهما الدموع.

"يا الله! مات أخي، يا الله".

جذب درافيتش تارا بعيدا عن الحافة، فأخذت تلوّح بيديها محاولة الإمساك بوجهه، ولكنه كان قويا للغاية، حيث كانت في يده كدمية صغيرة يتلاعب بها. لم تكترث تارا بالصراخ لأن أحدا لم يكن يسمعها وسط هذه الفوضى بالأسفل بين الطلقات والانفجارات.

قال درافيتش "سأعطيك درسا لن تنسيه طوال حياتك، فقد دمرت كل شيء، وستدفعين ثمن ذلك".

ظلّ الرجل يجذبها نحو الأسفل حتى أصبحا بعيدين عن قمة المنحدر، وألقى بها على وجهها واضعا إحدى ركبتيه على الرمال، وهوى بالأخرى على ظهرها، فحاولت ضربه على بطنه، ولكنه كان ضخم الجثة، لدرجة أن يدها بالكاد أصابت فخذه.

أمسك درافيتش ببضع خصلات من شعرها، وجذبها نحو الأعلى، فظهر جزء من رقبتها، وشمّت رائحة عرقه كالأمونيا.

"عندما أنتهي منك ستدركين أن القتل كان أرحم لك".

قالت تارا بصوت مكتوم "يالك من رجل شجاع يا درافيتش تقتل الأطفال والنساء، يالك من بطل لعين".

ضحك درافيتش وهو يجذب رقبتها أكثر وأكثر وعظامها تطقطق من الألم "لن أقتلك يا عزيزتي، فذلك سيكون بمثابة رأفة بك، سأصيبك فقط ببضع ندبات".

أخـــرج درافيتش المالج من جيبه، ولوّح به أمام عينيها، فظهرت شفرته الحادة، وقال "لكم يسعدني التفكير في أنك كلما نظرت في المرآة بعد اليوم ستتذكرينني. هذا إن تركت لك إحدى عينيك لتبصري بها".

"عليك اللعنة يا درافيتش".

حاولت تارا أن تبصق عليه، ولكن حلقها كان جافا للغاية.

انحنـــى درافيتش نحوها حتى أن وجهها لامس وجهه وقال "بماذا نبدأ؟ بالأذن أم بالعين؟"

رفـــع درافيتش المالج عاليا، ووضعه في فمه، حيث لعق شفرته، ثم مرره برفق على جسدها متراجعا قليلا للوراء ليتفادى يديها وهي تحاول ضربه على عينيه.

شـــعرت تـــارا بالشفرة تسري فوق جسدها، وأدركت أنها ستنال منها لا محال، ومـــن ثـــم وفـــي محاولة يائسة أخيرة، أمسكت بحفنة من الرمال، وألقت بها في وجه درافيتش.

صـــرخ درافيـــتش "أيـــتها اللعينة". وتركها واضعا يديه على عينيه، وكان في وضعية بين الوقوف والجلوس، فرفعت تارا ركبتيها، وضربته بكل ما أوتيت من قوة، فوقع على الأرض وهو يصرخ كالنساء، ويسعل بشدة.

"سأمزق وجهك أيتها اللعينة، سأمزقك إربا إربا".

حـــاول درافيتش تسديد ضربة إليها بالمالج، ولكنها تفادتها، وهرولت مسرعة بجوار المـــنحدر، وهو يعدو وراءها، ويحاول الإمساك بها مرة تلو الأخرى، حتى أحكم قبضته على طرف قميصها، فجذبها أرضا، وهو فوقها ينحدران نحو الأسفل، وسط الرمال.

انتهـــى المطـــاف بهمـــا أسفل المنحدر تارا ملقاة في الرمال بعيدا عن المنحدر ورأســـها يدور بها حتى وقفت على قدميها، بينما درافيتش ملقى إلى الأسفل في الجزء المنخفض من المنحدر، وهو يحاول الوقوف على قدميه ممسكا بالمالج في يده، وخيط من الدم يسيل من أنفه.

"أيتها اللعينة".

بدأ درافيتش يسير نحوها، وقدماه تغرسان في الرمال، وعلى الرغم من ذلك كان الاثـــنان أمـــام بعـــضهما الـــبعض مرة أخرى، حيث تراجعت للوراء تستعد للجري، ودرافيـــتش يخطـــو نحـــوها، ولكنه غاص أعمق من قبل، حيث وصلت الرمال إلى ركبتـــيه، وحينـــئذ لم يعد يكترث لتارا وإنما صار ينظر إلى قدميه محاولا إخراجهما، ولكن شيئا ما كان يمسك بهما من الأسفل.

قال درافيتش بصوت يملؤه الخوف "لا، لا". ونظر إلى وجه تارا "لا، ليس هذا".

ظلّ الرجل دون حراك لوهلة، وعيناه الدامعتان بهما شيء من براءة الأطفال، ثم فجأة بدأ يناضل بقوة لإخراج قدميه، ولكنه كلما ناضل أكثر غاص أكثر في الرمال المتحركة التي وصلت إلى فخذيه، ثم إلى خصره، وإذا به يضع إحدى يديه على الرمال ليرتكز عليها، ويخرج قدميه، ولكن يده غاصت في الرمال أيضا فجذبها وبها المالج، وبدأ يبكي.

نادى درافيتش على تارا قائلا "ساعديني أرجوك! ساعديني بالله عليك! وهو يشير بيده إليها مستجديا إياها".

كانت الدموع تجري على وجنتيه، ويداه تلوّحان في الهواء كالطاحونة، وبدأ يصرخ عاليا، ويداه تضربان على الرمال، ونصفه الأعلى يغوص في الرمال مرتجفا، وكأنه جالس على كرسي كهربائي. أبت الصحراء أن تترك هذا المجرم يفلت من بين أحشائها، ووصلت الرمال إلى أسفل إبطيه ثم كتفيه. حتى لم يعد يظهر منه سوى رأسه الضخم ويده الممسكة بالمالج. عند هذه اللحظة لم تستطع تارا رؤية المزيد، فاستدارت ومضت في طريقها.

"لا، لا عودي إلى هنا لا تتركيني وحدي، ساعديني".

لم تكترث تارا لصراخه، ومضت في طريقها إلى أعلى المنحدر.

صرخ درافيتش قائلا "آسف على ما فعلته بك، أرجوك لا تتركيني وحدي، عودي إلى هنا! عودي إلى هنا أيتها اللعينة! سأقتلك! أرجوك ساعديني".

استمر الرجل في الصراخ حتى وصلت تارا إلى منتصف المنحدر تقريبا، وعندها انقطع الصوت فجأة. وعندما وصلت إلى القمة، استدارت لتنظر خلفها، فلم ترَ سوى الجزء العلوي من رأسه، وإلى جواره المالج، فاستدارت، ومضت في طريقها إلى القمة.

في الوقت الذي وصلت فيه تارا إلى قمة المنحدر، كانت المعركة قد انتهت تقريبا، حيث كانت النيران المشتعلة في كل مكان، والهواء مملوءا بدخان كثيف، ولم يعد هناك صوت رصاص أو مروحيات تحلق في الهواء. كانت مجموعة من الجنود تسير بشكل نظامي وسط الركام، وتطلق بعض الرصاص بين الحين والآخر على رجال سيف الثأر الملقين على الأرض بينما الجمال تهرول جيئة وذهابا هنا وهناك، ولم ترَ تارا أيا من رجال سيف الثأر واقفا على قدميه.

تفحصت تارا المكان لوهلة، قبل أن تلحظ رجلين أسفل قاعدة الصخرة الهرمية، أحدهما يرتدي قميصا أبيض هو بلا شك دانيل، فرفعت قميصها ووضعته على وجهها

لتحتمي من ألسنة اللهب، وهي تتحرك في المكان. كان الجنود في كل مكان، فحاولت تارا الاستفسار من أحدهم عما يجري، ولكنه مضى بجوارها غير مكترث لسؤالها، فحاولت مرة أخرى ولكن دون فائدة. فما كان منها إلا أن مضت في طريقها نحو الصخرة الهرمية حتى وصلت إلى الشخصين اللذين رأتهما من أعلى. كان دانيل وهو الأقرب إليها جالسا فوق الرمال محدّقا بالخندق، وعلى كتفه بندقية آلية، وخلفه خليفة متكئا إلى الصخرة وفي فمه سيجارة، ووجهه متورم وقميصه ملطخ بالدماء، حيث نظر الاثنان إليها ما إن اقتربت منهما ولكنّ أيا منهما لم ينطق بكلمة.

توجهت تارا نحو دانيل فجلست بجواره، وشدت على يده، ولكنه لم ينطق بكلمة أيضا بينما خليفة ينظر إليها.

سألها خليفة "هل أنت بخير؟"

"نعم أشكرك، وماذا عنك؟"

هزّ خليفة رأسه، وأخذ نفسا عميقا من سيجارته. أرادت تارا أن تسأل عما يدور ومن هؤلاء الجنود، ولكنها شعرت أنه لا يريد الحديث، فآثرت الصمت.

بالقرب منهما كان أحد الجمال يأكل بعضا من القش، وخلفه عربة بها ثقوب رصاص في الوقت الذي توسطت فيه الشمس السماء، وازداد الهواء سخونة.

مرت خمس دقائق، ثم عشر دقائق ولم يسمعوا شيئا سوى صوت مروحية تقترب قبل أن تصل إلى قمة المنحدر المقابل لهم حيث حطت على الأرض فوق الوادي على بعد خمسين مترا منهم مثيرة الرمال نحوهم، فاستداروا بينما لاذ الجمل بالفرار.

ما إن حطت المروحية على الأرض، حتى أطفأ الطيار المحرك، وتوقفت المروحية تماما، ونزل بعض الجنود من المروحية.

نزلوا مسرعين، وصوت باب يفتح في الناحية الأخرى منها، وسمعوا صوت أربعة أشخاص سرعان ما أتوا إلى أمام المروحية، ومن بينهم سكويرز وجمال وأوتيس، أما الرابع فرجل لا تعرفه تارا؛ أصلع ويحمل منديلا. ثم مضوا في الرمال، وهم يرتدون حللا وربطات عنق، ووقفوا على بعد عدة أمتار منهم.

نهض دانيل وتارا واقفين.

صاح سكويرز "صباح الخير جميعا، لقد كانت مغامرة رائعة، أليس كذلك؟"

42

الصحراء الغربية

لبضع ثوان لم ينبس أحد ببنت شفة حتى تحدث الرجل البدين "سأتركهم لك يا سكويرز فلدي أمور أخرى لابد من تسويتها".

قال سكويرز "على الأقل عرفهم بنفسك أيها العجوز البدين".

أجاب الرجل البدين "بالله عليك، إنها ليست نزهة". ثم بصق على الأرض، ومضى في طريقه، وهو يمسح رقبته بمنديله، بينما سكويرز يراقبه وهو يبتعد.

قال أوتيس "ألتمس لصديقنا الأمريكي العذر، فهو يفتقر إلى آداب الحديث".

ابتسم سكويرز، وأخرج حلوى مغلفة من جيبه، ثم مد أصابعه البيضاء الطويلة ينزع عنها الغلاف، وكأنها أرجل عنكبوت كبيرة. خيّم الصمت طويلا قبل أن يتحدث خليفة قائلا "لقد كان الأمر مدبرا، أليس كذلك؟" ثم ألقى السيجارة في الخندق. وأضاف قائلا "المقبرة والنص الأثري وكل هذه الأشياء، فقط لإغراء سيف الثأر بالعودة إلى مصر للحصول على هذه الأشياء".

رفع سكويرز حاجبيه قليلا دون أن يجيب، وإنما اكتفى فقط بوضع الحلوى في فمه بعد أن أزال الغلاف عنها.

على الرغم من حرارة الجو، إلا أن تارا شعرت ببرودة تسري في جسدها ثم قالت "أتقصد..."، ولكنها لم تقدر على استجماع أفكارها.

قال خليفة "لقد كانت المقبرة مزيفة، أما الآثار فكانت أصلية على عكس الزخارف والنصوص الأثرية لأنها كانت مجرد طعم للإيقاع بسيف الثأر".

حدقت تارا بسكويرز بنظرة تعكس الصدمة والاندهاش أما وجه دانيل فكان شاحبا وجسده مشدودا وكأن أحدا سيضربه.

سأل خليفة "من أنتم بالضبط؟ شرطة؟ مخابرات؟"

امــتص ســكويرز الحلــوى بعمــق وقال "مزيج منهما معا. ومن الأفضل عدم الخــوض في التفاصيل، يكفيك أن تعرف أن كل واحد منا يمثل حكومته الموقرة وهو مــا يمكن أن نطلق عليه بشكل عام اسم مخابرات". ثم نفض بعض الرمال عن كمه، وقال "كيف عرفت أنها غير حقيقية؟"

قال خليفة "أتقصد المقبرة؟"

"نعم".

"لقد كانت التماثيل في محل إكبار أصلية فعلا، ولكنها تعود إلى حقبة أقدم من المقبــرة نفــسها، أما الآثار الأخرى فكلها ترجع إلى الحقبة الفارسية الأولى، ولو كانــت تــرجع إلــى الحقــبة الثانية لقلت إنها سرقت من المقبرة القديمة، ثم أعيد استخدامها. وبما أنها أقدم فهذا يعني أن هناك خللا ما، فكيف سيوجد أثر من القرن الــرابع قــبل الميلاد في مقبرة مختومة قبله بمائة وخمسين عاما؟ لقد كانت هناك العديد من التخمينات، ولكنني شعرت أن هناك خطأ ما، ولكنني تأكدت من التلاعب فور مشاهدة المقبرة".

قال سكويرز "إنك ذكي للغاية، لقد تخيلنا أن هذا الأمر لن يدركه أحد".

"بالفعــل لقد قمتم به على النحو الصحيح، ولكن أستاذي هو من أوضح لي أنه لا توجد قطعة أثرية مصرية خالية من العيب، فلابد من عيب واحد فيها على الأقل، وقد فحصت كل بوصة من هذه المقبرة، ولم أعثر فيها على خطأ واحد. فلا توجد بقع حبر أو حــروف مطموســة أو علامات تصحيحية، لقد كانت رائعة تماما لدرجة تؤكد أنها غير أصلية".

ســحب دانيل يده من يد تارا، وتحرك خطوتين للأمام وهو يهز رأسه، وترتسم على وجهه ابتسامة باهتة. أرادت تارا الذهاب إليه وإخباره أن الأمر كان أصعب من أن يدركه، ولكنها شعرت أنه لا يريدها بجواره.

اســتطرد خلــيفة قائلا "حتى عندما ذهبت إلى المقبرة، لم أستطع بلورة الأمر، فلمــاذا يــرهق شــخص مــا نفسه إلى هذه الدرجة في مقبرة كهذه؟ ولذا اعتقدت أن للمخابرات يدا في ذلك، وقد تبين لي ذلك عندما راقبني رجال المخابرات في الأقصر، وأيــضا عندما أدركت أن السفارة البريطانية متورطة في الأمر، ولكنني عجزت عن ربــط هــذه الخيوط ببعضها. ولكن الأمر تغير منذ نصف ساعة تقريبا عندما وصلت المروحيات واتضح كل شيء".

ابتسم خليفة ضاحكا وقال "أتدري، إن المال الذي أنفقتموه على هذا الأمر كان يكفي للحيلولة دون ظهور العديد من أشباه سيف الثأر. كم من المال أنفقت على دفن هذه الآثار هنا؟ ملايين؟ عشرات الملايين؟ يا الله لابد أنكم استوليتم على كل مخزون الآثار في متاحف مصر".

لم ينبس سكويرز ببنت شفة، وإنما ظل يمتص الحلوى، ثم بدأ فجأة يضحك ضحكة باهتة.

"عزيزي المحقق، لابد أنك أمسكت بطرف الخيط الخاطئ. لقد كانت المقبرة مزيفة بالفعل، وكان الغرض منها إغراء من يعثر عليها بالقدوم إلى هنا في الصحراء، ولكننا لم ندفن أي شيء، لقد كانت الآثار موجودة هنا بالفعل".

لاحظ سكويرز الدهشة على وجه خليفة، وتضاعفت ضحكته.

"نعم يا عزيزي هذا هو جيش قمبيز المفقود تماما كما كسته الرمال منذ أكثر من ألفين وخمسمائة عام، وكل ما فعلنا أننا أحطناه".

"ولكنني أعتقد أن...".

"أننا قمنا بدفن كل هذه الآثار هنا، أخشى أنك بالغت في تقديراتك لما يمكننا أن نفعله. أتدري، حتى أننا لو نجحنا في تجميع الجهود المصرية والأمريكية والبريطانية، لما تمكنا من القيام بشيء بهذا الحجم؟"

أخذ خليفة ينظر بدهشة إلى الخندق وهو لا يكاد يصدق ما يسمع، بينما بقايا الآثار التي أخرجوها من الخندق تمتد أمامه على مرمى البصر؛ أرجل وأذرع وجماجم وأوصال كلها تشير إلى إنسانية مشردة.

همس خليفة متسائلا "متى تم الكشف عنه".

منذ ما يقارب اثني عشر شهرا تقريبا، بواسطة عالم آثار أمريكي شاب يدعى جون كادي، أمضى عاما كاملا يبحث هنا وحده، لدرجة أن الناس اعتقدوا أنه مجنون، ولكنه في الحقيقة كان متأكدا من أن الجيش هنا - أحد أهم الاكتشافات في تاريخ الآثار - ياللعار إنه ليس بيننا الآن ليحتفل معنا بهذا النصر المؤزر".

بدأ جمال يحرك المسبحة في يده وصوتها يتردد في المكان الصامت ويملأ الهواء.

سأل أوتيس "كم تبقى لنا من الوقت؟"

"أعتقد أن أقل ما يمكننا القيام به هو التوضيح لأصدقائنا ما حدث هنا، أليس كذلك؟"

أدخل أوتيس يده في جيبه، ومضى بضع خطوات للأمام، حتى وصل إلى حافة الخندق، وأمامه بالأسفل سيف الثأر ممدد وسط مجموعة من الأسلحة وعظام المومياوات.

"لقد بدأ الأمر بشاب صغير يدعى علي خليفة". قالها وهو يحدق بجثة سيف الثأر، ثم استدار، وقال "نعم أيها المحقق نحن نعرف طبيعة علاقتكما. والفارق كبير بين رجل قانون ورجل يصبح أخا لأخطر مجرم في مصر، ليس الأمر سهلا على الإطلاق".

لم ينبس خليفة بكلمة، إذ اكتفى بالنظر إلى سكويرز في الوقت الذي دوّى فيه صوت انفجار أحد براميل الوقود في الجانب الآخر من المخيم.

استطرد سكويرز قائلا "لقد بدأ الأمر في منتصف الثمانينيات، فقبل ذلك كان سيف الثأر مجرد عضو نشط في بعض الجماعات المتعصبة دون أي مساس بنا. في العام 1987 انفصل عن هذه الجماعات، وأنشأ جماعته الخاصة وشرع في اغتيال الأجانب، وهو ما اقتصر في بادئ الأمر على كونه شأنا داخليا، ولكن الأمور انقلبت رأسا على عقب، عندما أصبح الأمر يمثل خطرا دوليا، وعملت أنا نيابة عن جلالة ملكة بريطانيا، بينما عمل ماساي بالنيابة عن الأمريكيين".

في هذا الوقت، بدأت جماعة من الجنود تجمع جثث رجال سيف الثأر على حافة الخندق، بينما تارا تنظر إليهم في دهشة، وبطرف عينيها رأت دانيل يحدق ببقايا الجيش بلا أي تعابير على وجهه وما تزال البندقية الآلية في يده.

تابع سكويرز قائلا "لقد بذلنا قصارى جهدنا للقبض عليه، ولكنه كان ماهرا للغاية. ودوما كان يسبقنا بخطوة على الرغم من أننا أوشكنا على الإيقاع به في العام 1996 بأحد الكمائن في أسيوط، ولكنه تمكن من الهرب إلى السودان، وهو ما يعني استحالة القبض عليه. لقد قبضنا على الكثير من أتباعه، ولكن كل ذلك لا يعني شيئا طالما أنه حر طليق، وتأكدنا من استحالة القبض عليه طالما أنه خارج الحدود المصرية".

قال خليفة "ولذلك نصبتم له هذا الفخ؟"

ابتسم سكويرز وقال "لقد كان الفخ معدا بالفعل، كل ما قمنا به أننا أضفنا بعض التفاصيل".

أخرج سكويرز منديلا، وأخذ يمسح عدستي نظارته، بينما جمال يسرع في تحريك يده على حبات المسبحة.

قـــال سكويرز، "وقعت الطامة الكبرى منذ عام تقريبا، عندما أوشك سيف الثأر على اغتيال السفير الأمريكي، وتعرضنا لضغط كبير للقبض عليه. وكانت هناك الكثير من الخطط حتى أن إحداها كانت توجيه ضربة نووية محددة في شمال السودان. ولكن فجأة اكتشف كادي هذا الجيش، وأخذ الأمر منحى مختلفا تماما".

فـــي هـــذا الـــوقت صدرت صرخة من الجانب الآخر من المخيم تبعتها طلقات نارية.

قـــال جمـــال "لقد كنا نراقب كادي للتأكد من أن الأمور تحت السيطرة، وأنه لا يفعل أي شيء يمس بالأمن القومي. ذات يوم اعترضنا طردا مسجلا أرسله كادي من سيوة، وبه صور فوتوغرافية وجثة وبعض الأسلحة والملابس وعليه ملاحظة: الجيش المفقود لم يعد مفقودا".

قـــال سكويرز "في البداية، لم ندرك مدى أهمية الأمر حتى لفت أوتيس انتباهنا. هيا أوضح أنت البقية يا أوتيس".

ابتـــسم أوتيس، وقال "لقد كان الجيش اكتشافا رائعا، وسيجعله غنيا لدرجة تمكنه من إعداد جيشه الخاص.

كانـــت هذه هي الشرارة التي أضاءت الطريق، وبدأنا نفكر ماذا لو اكتشفه سيف الـــثأر؟ لابـــد أن اكتـــشافا كهذا سيسيل له لعابه، وسيكفل له تمويلا مستقلا لعملياته، وتنتهي كل مشاكله التمويلية، لا شك أنه سينظر إلى الأمر على انه منحة إلهية، ولابد أنـــه ســـيرغب في الإشراف على هذا الاكتشاف بنفسه لأن رجلا يعشق التاريخ لهذه الدرجة لن يتمالك نفسه من الذهاب لرؤية الجيش المفقود، وعندما يفعل ذلك...".

رفع سكويرز نظارته، ونفخ عليها، وأخذ يمسح عدستيها بمنديله في الوقت الذي تضاعفت فيه أعداد الجثث على حافة الخندق.

اســـتطرد الـــرجل قائلا "حاولنا التعاون مع كادي، ولكنه رفض، ومن ثم لم يكن أمامنا خيار آخر سوى أن نزيحه عن طريقنا، فمن غير المعقول أن نترك رجلا واحدا ليعيق العملية بأسرها".

نظـــرت تـــارا إلى سكويرز بدهشة وخوف، بينما تجاهلها هو تماما، وإنما ظل ينظر إلى عدستي نظارته، واستكمل مسحهما.

أضـــاف سكويرز "ظهرت المشكلة عندما فكرنا في كيفية إرشاد سيف الثأر إلى الجـــيش دون أن يشعر بذلك. والحل كان أن يعتقد هو أنه صاحب الاكتشاف، لأنه لو فكّر للحظة أن الأمر معد مسبقا، فلن يتحرك من مكانه، ويأتي إلى مصر".

سأل خليفة "ولكن لماذا تكبدتم كل هذه الجهود في إعداد المقبرة؟ لماذا لم تزرعوا شخصا ما داخل جماعته يدعيّ أنه يعرف مكان الجيش".

"لأنه لن يصدق ذلك أبدا، فهذه الأرض ليست كوادي الملوك، بحيث يمكنك أن تعثر في كل خطوة تخطوها على مقبرة. إنها هنا في وسط الصحراء، وليس من المعقول أن يعثر شخص ما على الجيش صدفة".

"ولكن كادي فعل ذلك".

"كادي كان عالم آثار محنكا، أما أتباع سيف الثأر فهم جماعة من الفلاحين، ليس لديهم شأن بما يجري هنا، وعلى أي حال، لم يكن الأمر ليجذبه على هذا النحو".

"اعتقدتم أن وجود مقبرة لشخص نجا من الجيش ستفي بهذا الغرض".

"نعم، إلى حدٍّ ما. لقد بدت الفكرة بعيدة عن الواقع، وبالطبع كانت ستثير شكوك سيف الثأر، ولكن ليس بنفس درجة ظهور شخص من أتباعه ليدعي اكتشافه الجيش بين عشية وضحاها".

مسح سكويرز نظارته مرة أخيرة، قبل أن يضع المنديل في جيبه، بينما أخرج خليفة سيجارة من جيبه، ومشى بضع خطوات إلى إحدى العربات المحترقة، ووضع مقدمة السيجارة على إحدى قطع الأخشاب ليشعلها.

قال سكويرز "أنا لا أتحمل رؤيتك تشعل السيجارة على هذا النحو".

"ياله من غبي". قال سكويرز وهو يستدير إلى جمال قائلا "هلاّ مددته ببعض أعواد الثقاب".

أخرج جمال علبة أعواد ثقاب من جيبه، وألقاها لخليفة.

سأل سكويرز "بالمناسبة، هل رأى أي منكم صديقنا درافيتش؟ فلم يظهر في الصورة مؤخرا؟"

ظلت تارا تنظر إلى أكوام الجثث، وقالت "لقد لقي مصرعه في الجانب الآخر من المنحدر عند الرمال المتحركة. لم يظهر صوتها أنها متأثرة أو مكترثة لموته بأي حال".

خيّم الصمت لوهلة، قبل أن يبتسم سكويرز قائلا "ها هي مشكلة أخرى قد انتهينا منها". ثم أخرج حبة حلوى أخرى من جيبه، وبدأ يزيل عنها الغلاف وقال "أين توقفت؟"

أجاب خليفة "عند المقبرة".

"حسنا، لم يكن هناك أمل في بناء مقبرة من الصفر، ولحسن الحظ كانت هناك مقبرة جاهزة بالفعل ترجع لنفس الفترة، وعلى نفس التصميم الذي نبحث عنه؛ والأهم

مـــن ذلك أنها لم تكن معروفة للكثيرين، بل يقتصر أمرها على بضعة متخصصين في مقابـــر تـــلال طيـــبة، وبالتأكيد لم يكن رجال سيف الثأر يعرفون شيئا عنها، وهو ما اعتبرته أحد أهم أركان حبكة القصة على سيف الثأر.

أتـــدري أنـــنا وفـــي ظل وجود مقبرة جاهزة استغرق الأمر عاما كاملا لإتمام المهمـــة، بعـــد أن بذلنا فيها جهدا جهيدا في أعمال الزخرفة وإضافة المواد الكيميائية حتـــى تبدو وكأنها ترجع إلى أكثر من ألفين وخمسمائة عام، فضلا عن السرية التامة التي اكتنفت الأمر برمته؟ صدقني لقد كانت العملية ضخمة للغاية لدرجة تخيلت معها أنهـــا لـــن تنتهي أبدا، ولكن في نهاية الأمر أنجزنا المهمة، ووضعنا بعض الآثار في المقبرة من مخزون متحفي القاهرة والأقصر وبعض الآثار من الجيش نفسه، وكل ما تبقى هو أن يبتلع أحد أتباع سيف الثأر الطعم ويخبره بذلك".

قال خليفة "ولكن شخصا ما وصل إلى المقبرة أولا".

"نعـــم، هذا هو الشيء الوحيد الذي لم نتوقعه، لم نتوقعه على الإطلاق، ولكن لم يكن ليثير هذه الأزمة. فلقد كان بإمكانهم أخذ بعض الآثار وينتهى الأمر، ولكنهم أخذوا جزءا من النص الذي هو الطعم لسيف الثأر، إذ إن هذه القطعة تشير إلى موقع الجيش هنا، وبدونها لن يكون للأمر برمته فائدة".

قال خليفة "ولكنها دفعتكم للقضاء على ناير وإكبار".

"لا، لقد ندمنا كثيرا على مصرعهما، وكذلك أيضا مصرع والدك يا آنسة مولراي".

نظرت تارا وعيناها كلهما كراهية وحقد، ثم قالت "لقد استخدمتمونا غير مكترثين بأرواحنا أو بمقتل والدي، أنتم أشر من سيف الثأر".

ابتـــسم سكويرز، وقال "أنت تبالغين بعض الشيء يا آنسة مولراي خاصة إذا ما أدركنا أن موت والدك كان خارجا عن إرادتنا. ولكن نعم نحن قمنا باستخدامكم لإنجاز مخطّطنا. لقد علمنا أن درافيتش اكتشف المقبرة، ولكنه لسبب ما لم يبتلع الطعم، وتأكد ذلك عندما أدركنا أن قطعة من النص اختفت. لم يكن بوسعنا إجهاض العملية في هذه المرحلة، ولذا تعين علينا ترك الأمور تأخذ مجراها".

فـــي هـــذا الـــوقت، هـــبت رياح أقوى هذه المرة، جعلت الكثيب الرملي يهمس ويهمـــس، وغطـــى صوت الرياح على صوت طقطقة مسبحة جمال، بينما دانيل يقف وحيدا وهو يعض على شفتيه.

اســـتطرد ســـكويرز قائلا "لقد أدى حضورك يا آنسة مولراي إلى تعقيد الأمور، ولكـــن في نفس الوقت كان مخرجا لنا من هذه المعضلة، فقد كنت متشككة في طريقة

موت والدك، وكنا خائفين من الفوضى التي قد تثيرينها، ولكن في نفس الوقت، أدركنا أننا لو أحسنّا التعامل مع الأمر، فستكونين إلى جانبنا، وتساعديننا في العثور على القطعة المفقودة، ويحصل عليها سيف الثأر دون أن يشعر بضلوعنا في الأمر، وهو ما حصل بالفعل. لقد لعبت دورك بامتياز يا آنسة مولراي".

كانت تارا مستاءة للغاية، وتشعر أنها تعرضت للاستغلال، وشعر دانيل بذلك، فنظر إليها، ولكن سرعان ما عاد بنظره إلى الخندق مرة أخرى.

"في الحقيقة، خططنا للأمر على أن يكون محدودا للغاية، وينحصر في عثورك على القطعة في سقارة، وتسليمها لهم، وينتهي الأمر، ولكنك أصريت على المضي قدما في الأمر، وهو ما جعلنا في موقف لا نحسد عليه، فلو أنك ذهبت إلى الشرطة أو إلينا في السفارة لكان سيف الثأر تراجع على الفور، لذا تعين علينا تركك لتكملي الأمر بمساعدة عميلنا إسماعيل".

"يا الله".

ارتجفت كتفا تارا من الصدمة، حتى أن خليفة أراد التربيت على كتفيها لطمأنتها، ولكنه شعر أن الوقت غير مناسب فتراجع عن الفكرة.

استطرد سكويرز "حتى عند هذه النقطة كان الفشل ما زال قائما، فضلا عن ضلوع خليفة في الأمر، وأصبح من العسير علينا الإمساك بكافة الخيوط، وخاصة في ما يتعلق بك أنت يا آنسة مولراي. وعلى الرغم من ذلك، كان من حسن حظنا أن شخصا منا تسلل إليك، وسارت الأمور كما هو متوقع".

في هذا الوقت، انتهى الجنود من صف جثث رجال سيف الثأر على حافة الخندق، وخيّم صمت رهيب على المكان، وعمّ الهدوء، غير أنه كان الهدوء الذي يسبق العاصفة حيث أخذت كلمات سكويرز تتردد في رأس تارا (شخص منا) ثم رفعت وجهها بهدوء وكأن حالة من الرعب تسيطر عليها.

همست تارا "لا، بالله عليك، لا تقل ذلك". وهي تنظر إلى دانيل "لقد كنت أنت يا دانيل، أليس كذلك؟"

ظلّ دانيل ينظر إلى الخندق دون أي تعابير على وجهه.

"لقد كنت على دراية بالأمر منذ اللحظة الأولى".

لم يحرك دانيل ساكنا، ثم استدار نحوها بهدوء، وعيناه مليئتان بالندم والألم، ولكن خلف هذه المشاعر شيء أكثر قسوة ووحشية لدرجة أنها شعرت للحظة أنها لا تعرفه.

"آسـف يـا تـارا، ولكن الأمر تعلق بتصريح الحفر الخاص بي، لقد قالوا إنهم سيعطونني إياه ثانية إن ساعدتهم".

نظـرت إليه تارا بدهشة تحول دون تحركها، فعلى الرغم من شعورها بكل من حـولها بمـن فيهم خليفة الذي خطا خطوة للأمام ليهدئ من روعها، إلا أنها لم تشعر بدانـيل على الإطلاق، وكأنها تقف في نفق، ودانيل يقف في الطرف الآخر منه، حتى أنهـا فتحت فمها لتتحدث، ولكن الكلمات أبت الخروج، بينما ظل دانيل ينظر إليها، ثم استدار، وأخذ ينظر إلى الجثث في الخندق مرة أخرى.

بالكاد همست تارا "منذ متى؟ منذ متى وأنت متورط في هذا الأمر؟"

هـزّ دانـيل كتفيه، وقال "منذ عام تقريبا. حضروا إليّ، وأخبروني عن الجيش وسيف الثأر، وطلبوا مساعدتي مقابل أن يعطوني تصريحا بالحفر في وادي الملوك".

بـدت ملامح دانيل مختلفة للغاية، وكأنها تعترض على ما ينطق به لسانه. وقف دانيل وهو يمسك خنجرا بيده، وهو نفس الخنجر الذي استعمله خليفة قبل قليل.

"لقد كنت من فكّر في قصة الجندي الذي نجا من العاصفة الرملية، حيث تذكرت مـا قـيل عن ديماكوس، واختلقت قصة على هذا الأساس، وكنت على دراية بوجود مقبرة لم يمسها أحد هناك في تلال طيبة، وقمت بإنجاز الزخارف بنفسي، حتى امتلأت بها الجدران". كانت ابتسامة زهو تكسو وجه دانيل وهو يروي هذه القصة.

"لقـد كـنت سـعيدا إلـى حدٍّ ما، فقد زينت المقبرة بنفسي، وكتبت النصوص، واخـتلقت القـصة بأكملها، وكانت النهاية مدهشة لي. فبعد انتهائي من المقبرة جلست هناك أنظر إليها مرارا وتكرارا، وأردد في نفسي يا لها من تحفة. ولكن الآن أرى أن ثمة خطأ قمت به حيث كانت التماثيل من حقبة تاريخية أخرى، يا لغبائي!" ثم نظر إلى خليفة الذي بادله نظرة جافة.

قال خليفة "لقد كان هناك خنجر".

"نعـم، لقـد رأيته، أليس كذلك؟ لقد كتبت عليه هذه العبارة ديماكوس ابن منديز بحـروف يونانـية لا لشيء إلا لإضفاء مزيد من التأصيل على التحف التي اختلقتها بيدي".

أخـذ خلـيفة نفـسا من سيجارته، وهو يهز رأسه ممتعضا، وأعقب ذلك صمت طويل.

استطرد دانيل "لقد كان هذا كل ما تعين عليّ فعله، إعداد المقبرة، واسترجاع القطعـة المفقودة، ولكنك ظهرت في الصورة يا تارا، وأدركوا مدى عمق العلاقة

بينـــنا، وطلبوا مني مراقبتك، وبالطبع لم أكن سعيدا بذلك، ولكن الأمر كان يتعلق بتــصريحي، بالإضافة إلى أنني أردت معرفة ما حل بالقطعة الأثرية، لأن المقبرة كانـــت مـــن صنعي، وفجأة وجدت نفسي متورطا في الأمر من أعلى رأسي حتى أخمـــص قدمي، ولذا تركت لك ملاحظة في شقة والدك، وأنا متأكد أنك ستتعرفين على خط يدي".

انهمرت الدموع على وجنتي تارا، وشعرت وكان ملابسها خلعت عنها، والبشر جميعا ينظرون إليها، فما كان منها إلا أن لفت ذراعيها حول جسدها.

قـــال دانيل "كان الأمر سينتهي بالنسبة لنا لو تركتهم يأخذون القطعة الأثرية في سقارة يا تارا، وحاولت أن أخبرك بذلك لكنك لم تصغي".

سألته تارا بصوت مرتعش "أكنت تعرف بأمر إسماعيل؟"

أومأ دانيل برأسه إيجابا، وقال "منذ عرفت بمصير القطعة اتصلت بسكويرز من الهاتـــف العمومي بالحديقة عندما أوهمتك أنني أتصل بالفندق، وأخبرني سكويرز بما يتعين عليّ فعله".

"بعـــد ذلـــك ذهبنا إلى الأقصر، وصعدنا التلال، وكنت تعلم أن درافيتش هناك، وأننا في طريقنا إلى المصيدة، أليس كذلك؟"

"مـــاذا كان عليّ أن أفعل؟ كان يتعين عليّ إرجاع القطعة لهم، كان هذا هو الحل الوحيد".

في هذه اللحظة، استمعت تارا إلى صوت والدها يتردد في أذنها، "أتدرين أنه قد يقطع يده بل ويد أي شخص إذا ما شعر أن ذلك سيزيد من معرفته، إنه مجنون".

قالت تارا بصوت مختنق "لماذا لم تخبرني بالأمر وحسب؟"

انحنـــى دانيل قليلا، ووضع الخنجر بحرص شديد، وقال "لقد حاولت عندما كنا فوق قمة القرن، ولكنني لم أستطع، لأني كنت غارقا حتى أذنيّ في هذا الأمر".

نظر إليها دانيل، وللحظة شعرت تارا بشيء من الأسى والحزن في عينيه.

"لم أقصد إيذاءك يا تارا، حتى عندما رأينا درافيتش فوق التلال، حاولت أن أثنيك عن الأمر، وطلبت منك الذهاب حتى أكون بمفردي، ولكنك لم تنصتي إليّ".

وسط رعشة شديدة قالت تارا "أبعد كل هذا تدعي أنك تهتم لأمري".

"بالطبع يا تارا. لقد قصدت كل كلمة قلتها لك فوق التلال".

ظـــلّ دانـــيل ينظر إليها لوهلة، ثم أخفض وجهه نحو الأسفل وكأن الضوء الذي يشع من عينيه انطفأ وحل محله ظلام دامس.

"سؤالي الوحيد لك يا دانيل هو: لماذا فعلت ذلك؟"

هزّ دانيل كتفيه، وقال "بسبب تصريح الحفر".

لوهلة ظلت تارا تنظر إليه صامتة ومصدومة. ثم فجأة، وبصرخة هائلة، انقضت عليه تنهش وجهه بأظافرها.

"أي نوع من البشر أنت؟ أي نوع من البشر المتوحشين أنت لتفعل ذلك بي؟ لقد كنت على وشك أن أتعرض للاغتصاب والقتل ولأجل ماذا؟ لأجل بضع جثث؟ لأجل التصريح اللعين؟ ألهذا السبب كنت ستقف تشاهدني وأنا أتعرض للقتل، يالك من لعين مثير للشفقة".

جذب دانيل معصميها، وأبعدها عنه، ولكنها ظلت تقاوم حتى استسلمت أخيرا، واتكأت إلى الصخرة، تلتقط أنفاسها، بعد أن هدأت ثورتها وسط سيل من الدموع.

"أيها اللعين، كنت على وشك التعرض للقتل".

تقدم خليفة للأمام قليلا، وربت على كتفها، ولكنها أزاحت يده، بينما تبادل أوتيس وسكويرز نظرات خاطفة، ودانيل يمسح آثار الدماء عن وجهه وينظر إلى تارا بغيظ شديد.

لوهلة لم يتحدث أو يتحرك أحد حتى صدر صوت وقع أقدام وظهر ماساي.

"أتمنى أنه لم يفتني الكثير". قال وهو ينظر إلى تارا ودانيل.

أجاب سكويرز "لقد كان دانيل وتارا يناقشان ما حدث على مدار الأسبوع الماضي". لاحظ الأمريكي آثار الدماء على وجه دانيل، فانفجر في الضحك قائلا "يا الله! يبدو أنها أعطته درسا في عراك القطط! لابد من الاستفادة من قدراتها".

هبت الرياح مرة أخرى، وأثارت الرمال حتى أعقابهم، فنظر أوتيس إلى ساعته، وقال "يتعين علينا الذهاب الآن يا سيدي".

أومأ سكويرز إيجابا، وقال "تبقى فقط بعض التفاصيل الدقيقة، لماذا لا تنتظرونني أنتم الثلاثة في المروحية؟" توجَّه الثلاثة على الفور أوتيس وجمال وماساي إلى المروحية، بينما وقف سكويرز يسوي شعره بعد أن بعثرته الرياح.

قال سكويرز" ليس هناك الكثير لأخبركم به، فما إن وجد درافيتش موقع الجيش حتى أرسل إلى سيف الثأر الذي بدأ بإرسال المعدات من ليبيا، وسمحنا لهم بالمرور، لأننا نتابع كل شيء عبر الأقمار الاصطناعية. ثم وصل إلى علمنا أن سيف الثأر سيعبر الحدود في غضون يومين، وقررنا السفر مساء غد، ولكن الخطوة التي قام بها خليفة جعلتنا نسافر باكرا، وقد اعترضت القوات الجوية المصرية مروحيات سيف

الثأر، وانتهزنا نحن الفرصة، وحللنا محلهم بمروحياتنا، والبقية واضحة لكم. والآن سيف الثأر ميت، ونجحنا في القضاء على جماعته. وأصبح العالم أكثر أمنا الآن".

تنهد خليفة متهكما، وقال "هل تعتقد أن هذه نهاية المطاف؟ أتعتقد أن قتل سيف الثأر سيحل المشكلة؟ هناك عشرات بل مئات من أمثال سيف الثأر. وربما حان الوقت لتسألوا أنفسكم لماذا يظهر هؤلاء الأشخاص في الأساس؟"

ظلّ خليفة يحدث سكويرز لبعض الوقت، قبل أن يخطو بضع خطوات للأمام، وينظر إلى صف الجثث على حافة الخندق، وقال "ماذا سيحدث لهؤلاء؟"

أجاب سكويرز "سندفنهم في مكان ما في الصحراء، في مكان يستحيل العثور عليهم فيه".

"ماذا عن الجيش؟"

"سنتركه كما هو، ستكسوه رمال الصحراء مرة أخرى في غضون بضعة أشهر، وربما يأتي شخص آخر ويحقق أعظم اكتشاف أثري في التاريخ، أو بالأحرى يعيد اكتشافه".

نظر سكويرز إلى دانيل نظرة معبرة، ولكن دانيل بادله نظرة اشمئزاز.

انتهى خليفة من سيجارته، وحاول إشعال سيجارة أخرى، ولكن الرياح حالت دون ذلك مرة تلو الأخرى حتى توقف عن المحاولة.

"الآن لا أملك إلا أن أقول ما هو مألوف في هذه المواقف، لقد كانت طريقاً صعبة، ولكن الأمور سارت على ما يرام، وأود أن أوضح أن معضلة القطعة المفقودة ساهمت كثيرا في نجاح العملية، فقد كان سيف الثأر ليفعل أي شيء للحصول عليها، مما جعله يتيه عن فكرة كون المقبرة أصلية أم لا، ومن ثم فنحن ندين لك بالجميل يا دانيل".

ابتسم سكويرز ابتسامة عريضة، ثم قضم الحلوى في فمه، وقال "سأعود إلى المروحية الآن، وأترك لك إجراءات الوداع يا دانيل، فلا أريد أن أعيقك عما عليك فعله. آنسة مولراي، المحقق خليفة لقد كان من دواعي سروري لقاؤكما".

أومأ سكويرز إليهما برأسه، ثم لوّح بيده مودعا، وانطلق وسط الرمال، والرياح تعبث بشعره.

سألت تارا "ماذا سيحدث الآن".

قال خليفة "أعتقد أن دانيل سيقتلنا".

43

الصحراء الغربية

أنزل دانيل البندقية من على كتفه، وصوبها نحوهما.

قــال خليفة "ليس أمامهم حل آخر سوى قتلنا بعد أن أخبرونا بكل هذه التفاصيل، فنحن نعرف الكثير، ولن يخاطروا بإطلاق سراحنا".

قال دانيل "كما قال خليفة أنتما تعرفان الكثير".

كــان صــوته خشنا، وعيناه خاليتين من أي شفقة "ولن أسمح لشيء باعتراض طريقي بعد أن وصلت إلى هذه المرحلة".

أشار إليهما دانيل بالاقتراب من حافة الخندق.

"ربمــا كان من الأفضل أن أقول لا عندما طلبوا مساعدتي في بادئ الأمر، حتى لا أتورط في هذه الجريمة، ولولا ضياع القطعة الأثرية، لسارت الأمور على ما يرام. ومن يدري يا تارا لعلنا كنا سنلتقي في ظروف أخرى".

وصــل الاثــنان إلى حافة الخندق، وأشار إليهما بأن يستديرا بحيث ينظران إلى الخندق وظهرهما إليه، وأمامهما مجموعة من بقايا المومياوات في وضعيات مختلفة، وكأن تيارا غامضا قد بعثرها في مختلف الاتجاهات.

نظــرت تــارا إلى خليفة بجوارها وسمعته يدعو بشيء ما، ورغما عنها وجدت نفسها تمد يدها لتمسك بيده.

قــال دانيل "لا أتوقع منكما أن تفهما، فأنا شخصيا لا أفهم نفسي، وكل ما أفهمه هــو أنه من المستحيل أن أعيش دون تصريح الحفر الخاص بي، وأنا أشاهد الآخرين يمارســون ذلــك أمام عيني في الوادي- الوادي الذي كرست له حياتي- أشخاص لا يعــرفون مقــدار ما أعرفه عن علم الآثار، مجموعة من الأغنياء الجهلة، وأخشى ما

أخشاه أن ينجحوا في العثور على شيء، ولا يحسنوا استخدامه، ويسبقوني في مضمار الحفريات، وهذا ما لا أستطيع تحمله".

كانــت الــرياح تعــصف بشعر تارا، ولكنها لم تكن مكترثة لذلك، لأن تفكيرها ينصب على أنها ستلقى مصرعها.

قـــال دانـــيل مبتــسما ابتــسامة باهتة "أتدرين أنني حلمت بذلك يا تارا؟ حلمت باكتــشاف مقبــرة جديــدة، وكما قال درافيتش إنه لإدمان أن تتخيلي نفسك تنقبين في مـــدخل لإحدى المقابر المختومة لما يزيد عن خمسة قرون قبل الميلاد، يا الله! تخيلي مدى روعة هذا الإحساس، إنه إحساس لا يقاوم".

إلى اليمين صدر صوت مروحة المروحية، بالإضافة إلى العديد من المروحيات الأخرى، وبدأ الجنود في التدفق إلى داخلها.

صـــاح دانيل "إنه شيء ممتع". قال ذلك بصوت مرتفع ليُسمِع خليفة وتارا وسط ضـــجيج المـــروحيات وهسيس الرياح. "أتدرين عندما كنا في المقبرة، نقرأ النصوص علـــى الجـــدار، كنت مستمتعا بالأمر رغم معرفتي مسبقا أنها مزيفة وأنني من قمت باخـــتلاقها مـــن بـــنات أفكاري، ولكنني شعرت أنها جزء مني، وأنها أصلية، وكأنني اكتشفتها للتو. ياله من إحساس رائع، رائع! للغاية".

بدأ دانيل في الضحك بطريقة هيستيرية.

"هـــذا ما قاله كارتر عندما رأى مقبرة توت عنخ آمون للوهلة الأولى، فقد سأله كارندفـــون مـــا الذي تراه؟ فأجاب كارتر أرى أشياء رائعة. لهذا السبب، ظللت أحفر وأحفر لأن هناك الكثير من الأشياء الجميلة التي يمكن اكتشافها".

صدر صوت طقطقة يوضح أنه على وشك الضغط على زناد البندقية، ولذا أحكم خليفة قبضته على يد تارا، وقال "تحلي بالشجاعة يا آنسة مولراي فالله معنا يحمينا".

"هل تعتقد ذلك؟"

"ليس لدي بديل، فماذا عساي أفعل غير ذلك؟"

"يمكنك الشعور باليأس!"

نظـــر إلـــيها خليفة مبتسما، وقال "ثقي بالله يا آنسة مولراي، ثقي بأي شيء ولا تتركي نفسك ليتمكن منها اليأس".

بدأت المروحيات تحلق عاليا، بينما خليفة وتارا ينظران إلى بعضهما. والآن، لم تعد تارا تشعر بالخوف، وإنما بمجرّد ألم شديد لشعورها بدنو أجلها، وليس بيدها شيء سوى الاستسلام لمصيرها المحتوم.

قالت تارا "وداعا أيها المحقق، أشكرك على وقوفك إلى جانبي، ومحاولة مساعدتي".

هبت كومة من الرمال إلى وجهها، وبدأت الشمس في الغروب، فأدارت رأسها لتتجنب الرياح، وأغلقت عينيها منتظرة رصاصات الرحمة.

للصحراء قواها الخفية التي تقهر كل من يعبث بكنوزها الدفينة، فيمكنها إرسال حرارة تشوي الجلود وكأنها ورقة اشتعلت فيها النيران، وتغلي منها مُقل العيون، وتسيل العظام كالماء، أو أكثر من ذلك، قد تشهد فيها صمتا يصم الآذان، وفراغا يقتل الوقت والمكان حتى تفقد كل إحساس بالمكان والزمان بل وحتى بهويتك. ترى فيها جمالا خلابا يجذبك إليه جذبا، حتى إذا أتيته لم تجده شيئا، وتجد نفسك تهلوس جراء خيبة الأمل. وتارة أخرى، تجدها ترفع كثبانها الرملية لتعيق طريقك، وتتسع لدرجة تفقد معها الأمل في الوصول إلى مخرج منها، أو حتى تعتصرك بداخلها، ولكن من بين كل هذه القوى، لا يوجد ما هو أعتى ولا أقسى مما يطلقون عليه غضب الله أو العاصفة الرملية.

في هذه الأثناء هبت العاصفة الرملية من حيث لا يدرون، فكل ما شعروا به بعد دقيقة من هبوب الرياح، أن الصحراء نفضت عن نفسها ملايين الأطنان من الرمال، وحجبت الشمس، وجعلت الهواء سقيما. كانت العاصفة قوية قوة تفوق الخيال، تطيح بالعربات، وأكوام القش، وبراميل الوقود وكأنها أوراق أشجار في فصل الخريف، حتى أن مروحيتين اصطدمتا ببعضهما البعض، ونتج عن اصطدامهما حريق هائل سرعان ما أطفأته الرياح على الفور. كانت الرياح عاتية حتى أنها كانت تحرك الجثث على حافة الخندق، وتساقطت العربات أسفل الوادي، وتطايرت رؤوس المومياوات الملقاة على الأرض، وكأنها قطع رخام بنية اللون وسط ضوضاء تصم الآذان.

سقطت تارا في الخندق مصطدمة ببقايا الجثث، والعظام تتهشم أسفلها، وانخلعت الأسنان من أفواه المومياوات، وانسلخت عنها الجلود، بينما تلاعبت الرياح بتارا جيئة وذهابا، فاصطدمت بأرجل وأذرع ووجوه هنا وهناك حتى توقفت أخيرا بعد أن وجدت نفسها في كهف صغير في جانب الخندق وأحد أفواه المومياوات مطبق على رقبتها وكأنه يقبلها. لوهلة ظلت تارا بلا حراك من هول الموقف، ثم تمالكت نفسها، وحاولت النهوض، ولكن الرياح كانت أقوى منها، حيث طرحتها أرضا مرة أخرى، فحاولت الزحف على ركبتيها، وهي تجثو فوق صدور وظهور وأرجل المومياوات، وكأنها

تصعد سلما مصنوعا من العظام والجماجم بينما الرمال تغزو أنفها وفمها حتى شعرت وكأنها تغرق.

بعـد جهـد جهـيد، شقت تارا طريقها، حتى وصلت إلى حافة الخندق، ورفعت قميـصها قلـيلا لتغطـي فمها، وخلفها الجيش يتوارى أسفل أكوام الرمال، وفي نفس الـوقت تظهـر عشرات الجثث على الجانب الآخر من الخندق، وفجأة ظهرت يد جلدية من أسفل الرمال، أصابعها منفرجة وكأنها تحاول الإمساك بتارا، في الوقت الذي ظهر فيه حصان من الجانب الآخر يهرول نحو تارا، ولكن سرعان ما غطته الـرمال. كـان صوت الرياح يشبه صوت خمسين ألف جندي يصيحون في ميدان المعركة.

حاولـت تارا اكتشاف موقع دانيل وخليفة، ولكن الرمال أعمتها عن ذلك، وفجأة سـمعت صـوتا يقترب منها، وإذا بمروحية تحلق فوقها مباشرة حتى أنها رأت وجه سـكويرز وهـو مفـتوح الفم يصرخ، ولكن سرعان ما اختفت المروحية في الظلام مـصطدمة بجانـب الصخرة الهرمية وتطايرت قطعها المعدنية، وظهر بريق خاطف نتيجة اشتعالها، ولكن سرعان ما خفت وسط الرياح. بدأت تارا تزحف قدما، وحاولت الصياح، ولكن العاصفة كانت في أوجها حتى أنها لم تتمكن من سماع صوتها. زحفت تارا للأمام قليلا وإذا بها تلاحظ حركة فاستدارت إلى اليمين لتتبين الأمر.

كان الاثنان أقرب مما تصورت. دانيل ممدد على بعد عدة أمتار ممسكا بالبندقية وإلـى جواره مباشرة خليفة يمسك بماسورة البندقية بيد بينما يده الأخرى محكمة على عنق دانيل.

لـم يلحظ أي منهما دنو تارا، وهما يتصارعان، فاقتربت أكثر وأكثر، وأمسكت بـشعر دانيل وجذبته بقوة طارحة إياه أرضا. الآن أصبح الثلاثة ممددين على الأرض والـرمال تملأ أفواههم وأعينهم. لوهلة تمكن خليفة وتارا من التغلب على دانيل ولكن سرعان ما هبت رياح أطاحت بخليفة بعيدا.

أمـسك دانـيل بالبندقية بعد أن سقطت على بعد متر إلى يساره في الوقت الذي حاولـت فـيه تـارا الإسراع إليها، وإمساكها، ولكنه لطمها على وجهها طارحا إياها أرضـا، فـسقط رأسها على بعد سنتمترات من حد أحد السيوف الملقاة على الأرض. قاوم خليفة الرياح، وتقدم للأمام على ركبتيه، ولكن الرياح طرحته على ظهره مفسحة المجـال لدانـيل ليحكم قبضته على البندقية، وليهوي بمؤخرتها على رأس خليفة الذي سقط فوق تارا.

هــبت كــومة من الرمال أعمتهما عن رؤية دانيل لوهلة. وما إن تمكنا من النظــر ثانــية، حتى وجدا أن دانيل يحاول التقدم للأمام زحفا على ركبتيه مقاوما الــرياح، وهو يتمايل كالسكير، ويلوّح بالبندقية نحوهما. نظر خليفة حوله فلم يجد سوى ذراع هيكل عظمي ملقاة إلى جواره، فأمسك بالمعصم، وضرب دانيل ضربة ضــعيفة، ولكــن بفعل الرياح القوية صارت الضربة وكأنها مطرقة أصابت حلق دانــيل فأطاحت به الرياح للخلف مختفيا عن الأنظار، وانطلق خليفة يزحف تجاهه تتبعه تارا.

فــي البداية لم يعثرا عليه، ولكن بعد عشرة أمتار تقريبا، أشار خليفة بيده لتارا، فتتبعت الإشارة لتجد أمامها قدمي دانيل في الهواء وما تبقى من جسده من الخصر إلى أعلــى مختفــيا في الضباب. وقف الاثنان لوهلة غير متأكدين من المنظر، ولذا اقتربا أكثر وأكثر حتى تتضح الصورة.

همست تارا فور رؤيتهما للصورة كاملة "يا الله".

كــان دانيل ممددا على ظهره، وذراعاه ممدّدتان إلى جواره، وكان سيف صغير يحمــل رســم ثعبان مغروسا في صدره من الخلف وأنياب الثعبان مغروسة قرب حد السيف وكأنها تضيف ألما إلى الألم الناجم عن حدّ السيف.

قالت تارا "يا الله". وهي تشيح برأسها بعيدا عن هذا المنظر.

لوهلة جلست تارا على الأرض غير مكترثة للفوضى حولها، وكأن كل شيء في حياتها قد انهار، وتفتت. فقد ذهب والدها ودانيل، وبذلك أصبحت وحيدة في هذه الدنيا، فحــياتها كانــت ترتكز على علاقتها بهذين الرجلين، الأب والحبيب، والآن وقد رحلا عن حياتها، أصبحت بلا عائلة، وتشعر أنها لن تتمكن من لمّ شمل حياتها مرة أخرى.

صاح خليفة بالقرب من أذنها "آنسة مولراي لا يمكننا البقاء هنا فسندفن حيّيْن إن لم نرحل".

لم تنبس تارا بكلمة.

"أرجوك يا آنسة مولراي لابد أن نذهب، فهذه هي فرصتنا الوحيدة للنجاة من هذه العاصفة".

ظلت تارا تحدق بخليفة والرمال تتدفق على وجهها، وكأنها ستنتزع ملامحها، ثم أومأت إليه إيجابا، فأمسك خليفة بيدها، وزحفا معا ببطء. وبعد عدة أمتار نظرت مرة أخــرى لتجد فم دانيل المفتوح قد امتلأ بالرمال حتى اختفت جثته تماما في خضم هذه الفوضى، فمضت تارا تزحف نحو الأمام في أعقاب خليفة.

كانت العاصفة في ذروتها حينذاك، وكأنها لن تصبح أعنف من ذلك. ولكن فجأة ثـــارت الرياح ثورة عارمة، فأطاحت بكل ما في طريقها، وكأن كل ما حدث قبل ذلك لا يعدو عن كونه مقدمة للحدث الكبير. اشتدت الرياح لدرجة لا تحتمل، حتى أن تارا شعرت أن ملابسها ولحمها وعظامها ستنتزع عنها وتتهشم وتتحول إلى تراب. لم تكن تـــارا تـــدري إلى أين تذهب، حيث توقف عقلها عن التفكير تماما. وإنما ظلت تمضي قدما للأمام وكأنها آلة تسير فحسب.

وصل الاثنان إلى قاعدة الكثيب الرملي، وأخذا يصعدان نحو الأعلى زحفا، وهما يبذلان قصارى جهدهما، وسط الرمال العاصفة، حتى أنهما لا يستطيعان فتح أعينهما مقـــدار شـــعرة حتـــى لا تملؤها الرمال. ولذا أغمضا أعينهما، وتحسسا الأرض نحو الأعلى. كان كل منهما يضع يداً على الأرض لتساعده في الزحف، بينما اليد الأخرى تمـــسك بملابـــسه على فمه لتجنب الرمال، وهما يلهثان صعودا وسط الرياح العاصفة التي تعيقهما عن المضي قدما حتى وهما زاحفان.

لم تدرِ تارا إلى أي مدى مضت في طريقها، وإنما شعرت بإرهاق شديد مع كل بوصـــة تتقدمها للأمام، وكل ما ترجوه من الدنيا أن تجثو على وجهها، وتمدد جسدها في سكينة.

ظلـــت تـــارا تمـــضي قدما في طريقها نحو الأعلى حتى أوشكت أطرافها على التيـــبس، وفجـــأة شعرت أن الأرض أصبحت أكثر استواء فمضت خطوتين أخريين، ونظرت نحو الأعلى لتجد خليفة عند قمة المنحدر ينادي عليها من بعيد.

"أبقي رأسك منخفضا يا آنسة مولراي، وحاولي أن... كيف أقولها... حاولي أن تبقي جسدك في حركة مستمرة قدر ما تستطيعين لأن ذلك سيحول دون تراكم الرمال فوقك".

أمـــسكت تـــارا بـــيده، وضغطت عليها ليعرف أنها فهمت ما يقول، ثم وضعت جـــسدها عـــند أعلـــى ذراعه لتحتمي من الرمال المتدفقة من كل مكان وكأن ملايين الحشرات تلسعها.

ظلـــت تـــارا تذّكـــر نفـــسها: لابد أن أبقى في حالة حركة مستمرة، هيا يا تارا تحركي، تحركي!

حـــركت تارا قدميها بوهن، ورفعت فخذها لأعلى وأسفل مرتين أو ثلاثا. ولكن الإرهـــاق تمكن منها بعد بضع دقائق، فتوقفت عن الحركة، وبدأ جسدها يتيبس. فجأة شـــعرت تارا بالسكينة والهدوء، وكأنها تتقلب في سرير مخملي تتهافت عليها الصور؛

أبـــواها ودانـــيل وجيني والعقد الذي أهداها إياه والدها في عيد ميلادها الخامس عشر وكـــيف عثرت على الظرف المحتوي على لغز الكنز وتتبعت الخطوات تدريجيا حتى وصـــلت إلى السرداب العلوي لتفتح الصندوق الأثري وتجد العقد داخله. ضحكت تارا بـــصوت مـــرتفع للغاية وكأنه غطى على صوت العاصفة، وملأ العالم بأسره، وهي تشعر بالسكينة. وفجأة، سطع شعاع أبيض ولم تذكر شيئا آخر.

44

الخاتمة

كان خليفة راقدا إلى جوار زوجته وشعرها الأسود الناعم يتدلى على وجهه، وإذا به كما يفعل دائما يشم شعرها، وكأنه يستنشق العطر حتى يمتلئ به جسده.

هـذه المرة، بدلا من الشعور بالهدوء والسرور، إذا به يسعل بشدة، ويناضل لالتقاط أنفاسـه، ونهض على قدميه مترنحا ليرى أن الرمال تكسو كتفه وظهره، وليس هناك أثر لـزوجته أو للسرير، فقد كان واقفا على قمة الكثيب الرملي وسط الصحراء تحت حرارة الشمس المتقدة، وفمه ممتلئ بالرمال. وبدا أن العاصفة الرملية قد مرت بسلام عليه.

أخـذ خلـيفة يبصق ويسعل عدة مرات لينظف حنجرته، وفجأة تذكر تارا، فقد كانت إلى جواره عندما وصلا إلى قمة الكثيب الرملي، والآن ليس لها أثر فخر خليفة على ركبتيه ينبش في الرمال عله يعثر لها على أثر.

فـي الـبداية لم يعثر على شيء، ربما تكون الرياح قد قذفت بها بعيدا، أو إلى الأسـفل، فمـا كان منه إلا أن بذل قصارى جهده للعثور عليها دون فائدة، وفي هذه اللحظـة بـدأ اليأس يتسرب إلى نفسه، وفجأة اصطدمت يده بشيء صلب، فأخذ يحفر بـسرعة حتى أمسك بقدم منتعلة حذاء رياضيا، فأمسكها من العقب وجذبها، ولكن بقية الجسد كان عالقا في الرمال، فاستمر خليفة ينبش الرمال كالأرنب حتى كشف عن القدم اليمنى كاملة ثم القدم اليسرى.

أخـذ خليفة يشجع نفسه قائلا "هيا احفر أسرع". ثم أمسك بالعقبين معا، وجذبهما بـشدة، دون فائدة، فاستدار قليلا ليجذب من الأعلى بدلا من الجانب حتى ظهر كتفها فظهرها فمؤخرة رأسها وذراعها اليسرى حتى خرجت تارا كاملة، وبدأ يجس نبضها، ولكن لم يكن هناك نبض.

"يا الله". صرخ بها خليفة والصوت يدوي في الصحراء "هيا ابقي على قيد الحياة يا تارا".

نبش خليفة بقية الرمال، وأدارها على ظهرها، وعيناها مغلقتان، وشفتاها وفمها يابسان كحبات القمح وقطع البسكويت، ثم جس النبض مرة أخرى دون فائدة أيضا، فأدارها ووضع ذراعيه حول حجابها الحاجز، وضغط بشدة مصرا على بعث الحياة فيها مرة أخرى.

"هيا، تنفسي، تنفسي بالله عليك".

ثنى خليفة ركبتيه، وضغط مرة أخرى، في هذه المرة انتفض جسدها وكأن صدمة كهربائية لحقت به، ولكنها ظلت لوهلة كما هي متدلية بين ذراعيه بلا حراك، ثم فجأة بدأت تهتز وتسعل. ضغط خليفة مرة أخرى، وإذا بكومة من الرمال تخرج من فمها، وظلت تسعل وتهتز حتى أخذت نفسا عميقا، وكأنها تسترد حياتها مرة أخرى، فوضعها خليفة على الأرض برقة، وهمس قائلا "الحمد لله، الحمد لله".

ظلت تارا ممددة على الأرض تسعل، وتتقيأ، وتتنفس بصعوبة. أخيرا، مسحت فمها بكم قميصها، واعتدلت في جلستها، ونظرت إلى خليفة الواقف على بعد عدة أمتار منها، فابتسم لها وابتسمت له، ثم نظرا إلى الوادي بالأسفل.

اختفى الجيش، واختفى كل شيء. فليس هناك خيام، ولا مروحيات، ولا عربات، ولا جثث فكلها غاصت تحت طبقة جديدة وعميقة من الرمال، وكأن هذه الأشياء لم يكن لها وجود أساسا. فقط ضوء الصباح يحيط بالصحراء من كل مكان. إحساس غريب انتاب خليفة، وكأنه كان يشاهد فيلما دراميا، وخرج منه راضيا تماما بما آلت إليه النهاية.

جلس الاثنان في صمت ينظران إلى الصحراء الشاسعة، ويحاولان استيعاب ما حدث، ثم قال خليفة "الهاتف المحمول".

تحسست تارا جيوبها، ولكنها لم تعثر على شيء.

"لابد أنه سقط مني".

"وماذا عن جهاز تحديد المواقع؟"

"لقد كان مع دانيل".

هزّ خليفة رأسه، وقال "أعتقد أننا سنواجه مشكلة في العودة".

سألت تارا "كم تبعد المسافة".

قـــال خليفة متهكما "ليس كثيرا، فقط نحو مئة وعشرين كيلومترا حتى نصل إلى أقرب منطقة مأهولة، ولكن ليس لدينا اتجاه محدد، فلو انحرفنا قليلا سنجد أنفسنا نسير باتجاه السودان".

"ولكن ديماكوس فعل ذلك من قبل".

أجاب خليفة "نعم، ولكن طبقا لما تخيله دانيل".

ابتسمت تارا، وقالت "بالفعل، لقد نسيت ذلك".

أخـــرج خليفة علبة السجائر، وأخرج منها سيجارة، ثم أعطى العلبة لتارا فقالت "بالطبع ليس لديك مكعبات ثلج".

"مكعبات ثلج".

"نعم، فأنا أحاول الإقلاع عن التدخين، وعندما أتوق إلى سيجارة، أضع مكعبا من الثلج في فمي بدلا من التدخين".

"حسنا، فهمت الآن، ولكن للأسف ليس لدي مكعبات ثلج".

"في هذه الحالة ليس أمامي خيار سوى تدخين سيجارة".

تناولت تارا السيجارة، ووضعتها في فمها، واقترب منها خليفة يشعلها لها.

"أتـــدري أن ذلـــك ســـيكلفني مائة جنيه إسترليني لأنني راهنت صديقة لي على الإقلاع عن التدخين لمدة عام". ثم أغمضت عينيها، وأخذت نفسا عميقا، "وها أنا الآن بعد أحد عشر شهرا وأسبوعين أدخّن".

"أنـــا مندهش لذلك، فأنا أدخّن علبة كاملة يوميا، منذ أن كنت في الخامسة عشرة من عمري".

"يا الله! أنت تقتل نفسك بهذه الطريقة".

نظر الاثنان لبعضهما، ثم انفجرا في الضحك.

"لن يضرّني عدد السجائر التي سأشربها من الآن فصاعدا على كل حال".

"أتقصد أنه ليس لدينا فرصة في النجاة؟"

"نعم".

"أتذكر أنك قلت شيئا ما عن التمسك بالأمل دوما".

"نعم، لقد قلت ذلك، ولكن في حالتنا هذه ليس هناك حل آخر".

ابتسم الاثنان مرة أخرى ابتسامة من القلب، ثم أخذت تارا نفسا عميقا وهي تشعر بلذة لم تشعر بها في حياتها من قبل.

"أتدري أن الأمر مضحك، وأنا سعيدة لذلك؟ سأموت من العطش وسط الصحراء وكل ما أريد أن أفعله هو الضحك... كأن...".

قال خليفة "وكأن حملا أزيح عن كاهلك".

"بالضبط، أشعر أنني نقية، وكأني أمتلك حياتي مرة أخرى".

"أنا أتفهم، وأشعر بالمثل، فقد انتهى الماضي، ويمكننا الآن النظر إلى المستقبل".

"لكن ليس إلى المستقبل البعيد".

"نعم، ليس إلى المستقبل البعيد". ثم أخذ نفسا آخر من سيجارته، وقال "سأفتقد زوجتي وأولادي".

أخذ الاثنان ينظران إلى الصحراء، ويدخنان في صمت، بينما تتوسط الشمس كبد السماء. وأخذ الهواء يزداد حرارة، بينما تبرق كافة الكثبان الرملية تحت هذه الأشعة المتقدة. أصبح الأمر الآن مختلفا تماما عما كان عليه من اضطراب وفوضى، بحيث تحوّل إلى هدوء ونظام يوحي بجمال الصحراء وسط الألوان المتموجة فوق الرمال. بالطبع كانت تارا تنظر إلى الصحراء على أنها سجن فسيح، والآن ومع أنها ستموت هنا، إلا أنها شعرت ببعض الانجذاب إلى هذه الطبيعة الساحرة.

أنهت تارا سيجارتها، وألقت بعقبها جانبا ورأسها يدور من أثر التبغ، وكلما نظرت إلى الرمال، تخيلت أنها تهتز أو على الأقل جزء منها يهتز بالقرب من قاعدة الصخرة الهرمية. أخذت تارا تتنفس بعمق، وأغلقت عينيها، ثم نظرت ثانية، فوجدت أن الهزة لا تزال قائمة، وكأن الصحراء تستنشق الهواء هي الأخرى. لفتت تارا انتباه خليفة إلى هذه الظاهرة فتجهم وتقدم قليلا نحو الأمام تتبعه تارا.

سألت تارا "ما هذا؟"

"لا أدري، إنها ظاهرة غريبة وكأن الرمال تغلي".

"هل هي الحرارة؟"

"لا يبدو الأمر كذلك".

حدق خليفة بهذه الظاهرة لوهلة، ثم بدأ يخطو بحذر نحو الأسفل، تتبعه تارا في الوقت الذي زادت فيه الهزة، وكأن قدم عملاق تخطو أسفل الوادي. توقف الاهتزاز لوهلة، ثم عاد، قبل أن يتوقف مرة أخرى وسط صوت مرتفع للغاية، ثم انفتح سطح الصحراء، وخرج شكل غريب من أسفل الرمال وهو ينفض الرمال عن جسده.

هلل خليفة فرحا "جمل، جمل، الحمد لله".

وصل خليفة إلى أسفل المنحدر، وسار ببطء حتى لا يخيف الجمل الذي لم يبدُ منزعجا من اقترابه منه، وأمسك بلجامه.

"أهلا يا صديقي". قال خليفة وهو يمسح على أنفه قائلا "أنا سعيد للغاية لأنك ستنضم إلينا في هذه الرحلة".

استدار خليفة نحو تارا، وقال "يبدو أن تفاؤلي لم يكن مبالغا فيه يا آنسة مولراي، فصديقنا هذا يشم الماء على مسافة خمسمائة ميل ولا شك أنه سيتوجه بنا إلى أقرب واحة".

وقف خليفة على أطراف أصابعه، وهمس في أذن الجمل، فعطس الجمل وخر على ركبتيه، وأخذ خليفة ينزع الصناديق الموضوعة على ظهره.

قال خليفة "لقد عملت في أحد إسطبلات الجمال وأنا صغير ولدي بعض المهارات التي لم أنسَها قط".

نزع خليفة الصناديق من على ظهر الجمل، ثم أخذ يعدل وضعية اللجام والسرج، والجمل يشم أذنه برفق.

"إنها حيوانات جميلة ومخلصة، ولا تكل من العمل، ولكن مشكلته الوحيدة هي أن نفسه قصير. غير أن ذلك أمر طبيعي، فكلنا لدينا عيوب، أليس كذلك؟"

وجد خليفة حاوية مياه على ظهر الجمل، ولكن ليس بها الكثير لتروي ظمأهما في الطريق.

تراجع خليفة للوراء قليلا، وأشار إليها أن تصعد وهو يمد ذراعه لمساعدتها، فضحكت تارا وامتطت الجمل وراءه.

قالت تارا "لقد حذرتني صديقتي من امتطاء الجمال فأصحابها ليسوا أسوياء".

قال خليفة "أنا رجل متزوج يا آنسة مولراي".

ضحكت تارا، وقالت "أنا أمزح معك".

ضحك خليفة، وقال "نعم، إنها مزحة إنجليزية، ولكن طريقة الإلقاء تختلف وتعطي انطباعا إيجابيا أو سلبيا".

رفع خليفة يده، وضرب الجمل على ردفه، مصدرا صيحة عالية، فنهض الجمل، ومالت تارا إلى الأمام ثم إلى الخلف بينما خليفة يمسك باللجام وهو يحيط بها.

قال خليفة "سنقطع المسافة في غضون يومين إن سرنا دون توقف أو ثلاثة على الأكثر. إنهم يطلقون على الجمل اسم سفينة الصحراء، ولكن هذه الرحلة لن تكون غاية في الراحة".

"يمكنني تحمل عنائها".

"نعم، يا آنسة مولراي، أنا متأكد من ذلك، فأنت سيدة فريدة من نوعها، وكم أود أن تزوري زوجتي وأولادي".

ضرب خليفة الجمل على ردفه مرة أخرى، فنهض وبدأ في السير.

"هيا بسرعة، هيا بسرعة". أخذ خليفة يصيح في الجمل ليمضي في طريقه.

مـرّ الاثـنان أسـفل الصخرة الهرمية، وظلها يخيّم عليهما، شاهد على مختلف العـصور. بدت الصخرة وكأنها تنبض وسط هذه الحرارة الشديدة، لتخبرهما بإمكانية العبور على ألا يعودا إلى هذا المكان مرة أخرى، وبالفعل شقا طريقهما أسفل الوادي.

قـال خليفة "أتدرين أنني أبني نافورة في منزلي؟ فأنا أحب الاستماع إلى صوت المياه الجارية دوما".

ابتسمت تارا قائلة "هذا شيء جميل".

"سيكون الطلاء باللون الأزرق والأخضر، وسأضع صدفا ونباتات حول الحافة، وبالليل سيكون هناك أضواء حتى تلمع المياه وكأنها مملوءة بالألماس، يا الله! سيكون ذلك غاية في الجمال".

قالت تارا وهي تغلق عينيها "نعم، أعتقد ذلك".

جـذب خلـيفة اللجام، فأسرع الجمل والصخرة الهرمية تختفي خلفهما تدريجيا، وكـأن الـزمن يتـناقص بينما كل ما في الصحراء يلمع ويتوهج تحت أشعة الشمس وحرارة الصباح.

ظلّ خليفة يصيح بالجمل "هيا بسرعة، هيا بسرعة".

كلمة المؤلف

قمــت بكــتابة ومراجعة جيش قمبيز المفقود قبل فترة طويلة من أحداث الحادي عــشر من سبتمبر 2001، وعلى الرغم من أن موضوع الإرهاب مكون أساسي لحبكة هــذه الرواية، إلا أن هذا العمل من وحي خيالي، ولا يجوز تأويله على غير ذلك، ولم أقصد به التعبير عن أي أحداث فعلية.

مسرد

أبو الحجاج	شـيخ كبيـر في الأقصر (ولد في دمشق سنة 1150) ويقام له مولد سنوي بالأقصر قبل أسبوعين من شهر رمضان.
أبو صير	مجموعة من الأهرامات جنوب الجيزة ترجع إلى الأسرة الخامسة.
كتب الآخرة	مجمــوعة مــن النصوص المصرية القديمة تصف الحياة الآخرة. معظمهـا يــرجع إلــى المملكة الجديدة على الرغم من إمكانية تتبع أثــرها لنجدها ترجع إلى نصوص الأهرام للمملكة القديمة. وفي ما يلــي أســماء هــذه الكتب: كتاب الموتى، وكتاب البوابات، وكتاب الكهوف.
أخناتون	فــرعون مــن الأسرة الثامنة عشرة حكم في الفترة ما بين 1335-1353 وهو والد توت عنخ آمون.
أخيت	أحــد الفصول الثلاثة للسنة المصرية القديمة (الفصلان الآخران هما بيريت وشيمو). ويعدّ فصل أخيت فصل فيضان النيل ما بين يونيو وسبتمبر على وجه التقريب.
أخيتاتون	مديــنة بناها أخناتون على ضفاف النيل بين القاهرة حاليا والأقصر؛ ومعناها أفق أتين.
الأهرام	جريدة مصرية شهيرة.
العمارنة	الاسم الحديث لآثار أخيتاتون.
أمنحتب الأول	فــرعون مــن الأسرة الثامنة عشرة حكم في الفترة ما بين 1353-1391 قبل الميلاد، والد أخناتون وجد توت عنخ آمون.
أتباع آمون	هو الاسم القديم لسكان واحة سيوة والاسم مشتق من اسم الإله آمون الذي كان له معبد في سيوة.

أنوبيس	إلــه مــصري قــديم على شكل ابن آوى أو على شكل جسد إنسان ورأس ابن آوى وهو إله المقابر والتحنيط.
بسبوسة	حلوى مصنوعة من الدقيق والجوز والعسل.
بيلزوني (جيوفاني باتيستا) (1778-1823)	مستكشف عثر على مقبرة سيتي الأول بوادي الملوك.
بس دوارف	الإله الذي يحمي السيدات الحوامل.
قمبيز	ابن الإمبراطور الفارسي سيروس الأكبر. ولد عام 560 قبل الميلاد وخلــف والــده في الحكم كملك للفرس عام 529 قبل الميلاد. وقام بغــزو مصر عام 525 قبل الميلاد، وأصبح الفرعون الأول للأسرة الــسابعة والعــشرين. وتوفــي عام 522 قبل الميلاد في قباطنا في ســوريا علــى الأرجح منتحرا أو مقتولا. ويعرف لدى المؤرخين الجدد بالطاغية المجنون.
برطمانات الموتى	أربعة برطمانات تحتوي على أحشاء المومياء.
كاريا	مــنطقة فــي الــشرق الأدنى القديم تقع جنوب غرب تركيا حاليا. استعمرها اليونانيون وكانت معروفة بأن أهلها مرتزقة.
كارنا رفون	جــورج إدوارد ســتنهوب موليــنو هيربرت وهو الإيرل الخامس لكارنارفون (1866-1923). وهو جامع آثار وعالم مصريات وأستاذ هاورد كارتر.
هاورد كارتر (1874-1939)	عالم مصريات اكتشف مقبرة توت عنخ آمون (1922).
خرطوشة	إطــار مزخــرف بخــط أفقــي بالأسفل يحمل اسم الفرعون باللغة الهيروغليفية.
تمثال ممنون	زوجــان من التماثيل الضخمة على الضفة الغربية للنيل بالأقصر. كان جزءا من المعبد الجنائزي لأمنحتب الثالث.
كرومر إيفيلين بارنج	هــو الإيرل الأول لعائلة كرومر (1841-1917) القنصل البريطاني والحاكم الفعلي لمصر من 1883 إلى 1907.
الكتابة المسمارية	نظام للكتابة في بلاد الرافدين قديما.
دهشور	أرض منبــسطة من الأهرام جنوب سقارة. وهي موقع هرم سنفرو الشهير.

دنشواي قـرية في منطقة الدلتا شمال مصر، شهدت حادثا شهيرا عام 1906 تـم فـيه إعـدام مـصريين أبرياء في أعقاب مشاجرة مع الجنود البريطانيين.

عمود دجد رمـز مـصري قديم للاستقرار يرسم على شكل عمود على رأسه أربعة فروع أفقية، ويعتبر العمود الفقري للإله أوزيريس.

دافيس (نيناميزسون) (1965-1881) فنان أصدر العديد من المؤلفات عن رسوم المقابر المصرية القديمة.

الأسرة الثامنة عشرة الأسرة الأولى من الأسر الثلاثة في المملكة الجديدة (1550-1307) قبل الميلاد.

الخزف مادة مصنوعة من المرو المحروق عليها طبقة خارجية لامعة مستخدمة بكثرة في مصر القديمة في المجوهرات والأواني والتماثيل.

بوابة الموتى اسم مصري قديم لوادي الملوك.

حتشبسوت ملكـة مـن الأسرة الثامنة عشرة، وزوجة تحتمس الثاني الذي حكم مـصر في الفترة ما بين 1473-1458 قبل الميلاد. وهي شريكة في الحكـم مع ابنها من زوجها تحتمس الثالث. ويقع معبدها الجنائزي على الضفة الغربية للنيل في الأقصر، ويضم الكثير من أجمل الآثار المصرية.

هيرودوس (485-452) قبل الميلاد مـؤرخ يونانـي يعرف بأبي التاريخ ويشتهر بكتاب **التاريخ** حيث يتناول فيه أسباب وأحداث الحروب بين اليونانيين والفرس.

حور محب الفـرعون الأخيـر مـن الأسرة الثامنة عشرة (ويراه بعض علماء المصريات على أنه الفرعون الأول للأسرة التاسعة عشرة) وتقلد في السابق منصب قائد الجيش المصري إبان حكم توت عنخ آمون.

امحتب مهـندس وطبـيب مـصري قديم صمم الهرم المصري الأول (الهرم المـدرج) للفرعون (زوسر)؛ فرعون من الأسرة الثالثة (2630-2611) قـبل المـيلاد وعبده المصريون بعد موته على أنه إله، ولم يتم العثور على مقبرته حتى الآن.

إيزيس إلهـة مـصرية قديمة كانت زوجة أوزيريس ووالدة حورس وملقبة بحامية الموتى.

إيترو اسـم مـصري قديم للنيل بالإضافة إلى كونه وحدة قياس تعادل 2 كيلومتر تقريبا.

متحف جون سوان	متحف صغير وسط لندن في منزل المهندس جون سوان (1837-1753) يضم مجموعات مختلفة من الآثار مثل تابوت الفرعون سيتي الأول من الأسرة التاسعة عشرة.
الكركديه	الكركديه هو مشروب شائع في مصر.
الكرنك	مجمع كبير من المعابد شمال الأقصر، ويضم مباني ترجع إلى 2000 عام من التاريخ المصري.
الخماسين	رياح صحراوية شديدة.
خان الخليلي	مكان كبير في القاهرة يبيع كل ما يتعلق بالمجوهرات ومكونات الشيشة.
KV39	مقبرة تقع خارج وادي الملوك يعتبرها علماء المصريات أنها مقبرة الفرعون أمنحتب الأول من الأسرة الثامنة عشرة (حكم في الفترة بين 1525-1504).
KV55	مقبرة غامضة في وادي الملوك اكتشفت عام 1907 يدور حولها خلاف عمن دفن فيها. فالبعض يرى أنه أخناتون والبعض الآخر يقول سمنكرع.
الحقبة الأخيرة	فترة في التاريخ المصري (712-332) قبل الميلاد شهدت تعرض البلاد للغزو بواسطة الإسكندر الأكبر.
ليبسيوس (كارل ريتشارد) (1810-1884)	عالم مصريات ألماني الجنسية مدير متحف برلين. نشر دراسة في اثني عشر مجلدا عن الآثار المصرية.
الخط المستقيم	رموز لم يتم فكها حتى الآن كانت تستخدم في جزيرة كريت.
ليديا	مملكة قديمة في الشرق الأدنى، تركيا حاليا.
ماكيموس	محارب.
ملقطة	موقع القصر السابق لأمنحتب الثالث على الضفة الغربية للنيل في الأقصر.
ماربيت (أوجست ميزدناند) (1821-1881)	عالم مصريات فرنسي الجنسية، مؤسس لإدارة الآثار المصرية والمتحف المصري.
مصطبة	مقبرة مستطيلة مصنوعة من الأحجار والطين.
مدينة هبو	قرية في الضفة الغربية للنيل في الأقصر، وهي مقر المعبد الجنائزي لرمسيس الثالث.

ممفيس عاصـــمة المملكـــة القديمة، وأحد أهم المراكز المصرية على مدار تاريخها القديم.

ميدان التحرير وسط مدينة القاهرة حاليا.

منوان ثقافة سادت في العصر البرونزي القديم بجزيرة كريت.

المعبد الجنائزي معـــبد تقـــام فيه طقوس العبادة وتقديم القرابين ليحصل الفقيد على الراحة. وغالبا ما تؤدى للملك.

المقبرة حرفيا ترمز إلى مدينة الموتى؛ وهي مكان لدفن الموتى.

نفرتيتي ملكة عظيمة كانت زوجة أخناتون ويعتقد بعض العلماء أنها اتخذت اســـم سمنكرع بعد موت زوجها، وحكمت البلاد بنفسها. ولها تمثال نصفي شهير في متحف برلين.

المملكة القديمة ينقـــسم الـــتاريخ المـــصري القديم إلى ثلاث ممالك قديمة ووسطى وحديـــثة تفـــصلها فتـــرات متـــباعدة. وبالنسبة للمملكة القديمة فقد استمرت ما بين (2575-2134).

أوزيريس إله مصري قديم للعالم الآخر.

أوستراكا قطعـــة من الفخار أو الجير تحمل شكلا أو نصا وتشبه لوحة الرسم حاليا.

بندليري (جون دفيت سترنجفلو) -1941) 1904) عالم مصريات كان يحفر في تل العمارنة أطلق عليه الألمان النيران في جزيرة كريت أثناء الحرب العالمية الثانية.

بيريت أحـــد الفـــصول الثلاثة للسنة المصرية القديمة. وهو موسم الزراعة والنمو، ويمتد من أكتوبر حتى فبراير.

بيرسبولس العاصمة السابقة لبلاد الفرس؛ إيران حاليا.

بيتوسيرز اســـم عائلـــة مـــن النـــبلاء مدفونة في تونا الجبل. تشتهر مقبرتهم باشـــتمالها علـــى الأسلوبين المصري واليوناني لرسم أنشطة الحياة اليومية في مصر القديمة.

بيتري (ويليام ماثيو فلندرز (1853-1942) عالم آثار مصريات عمل كثيرا في مصر وفلسطين.

القرن مـــرتفع هرمي الشكل يطل على وادي الملوك كان يسمى دهينت في مصر القديمة.

رمسيس الأول الفرعون الأول للأسرة التاسعة عشرة حكم في الفترة ما بين (1306-1307)

رمسيس الثاني الفرعون الثالث للأسرة التاسعة عشرة حكم في الفترة ما بين (1290-1224) وهو أحد أعظم فراعنة مصر.

رمسيس الثالث فرعون من الأسرة العشرين حكم في الفترة ما بين (1194-1163) ويقع معبده الجنائزي في ميدنت حابو ويحوي أجمل الآثار المصرية.

رمسيس الثامن فرعون من الأسرة العشرين حكم في الفترة ما بين (1136-1131).

معبد رمسيس المعبد الجنائزي لرمسيس الثاني في الضفة الغربية للنيل في الأقصر.

رمسيسية لقب أطلق على الفترة التي حكمت فيها الأسرتان التاسعة عشرة والعشرون.

رع إله الشمس في مصر القديمة.

رع حركتي إله مصري قديم يتمتع بمزايا رع وحورس. وهو إله الدولة في المملكة الجديدة، ويشار إليه عادة على شكل رجل برأس صقر.

رخماير وزير تحتمس الثالث (حكم في الفترة ما بين 1479-1425) وأمنحتب الثاني (حكم في الفترة ما بين 1427-1401).

روالف (جيرارد) (1831-1896) مستكشف ألماني سافر بكثرة إلى الصحراء الغربية وعبر بحر الرمال الأعظم في 1874.

روزيليني (بنكولو فرانشسكو ايبولتو بالادسيري) (1800-1843) عالم مصريات إيطالي الجنسية ومؤسس علم المصريات في إيطاليا.

سقارة مقبرة العاصمة المصرية القديمة في ممفيس وهي مقبرة ضخمة تمتد لمسافة سبعة كيلومترات مربعة وتضم الهرم المدرج لـ زوسر أول هرم مصري.

الجعل خنفساء كانت مقدسة عند المصريين القدماء.

سرابيوم معبد يضم مجموعة من المعارض تحت سطح الأرض في سقارة حيث تم دفن الثور الذي كان يعبده المصريون القدماء.

شيث إله مصري أخ أوزيريس وقاتله، يرتبط اسمه بالصحاري والفوضى، ويرمز إليه حيوان مجهول الهوية.

سيتي الأول	فرعون من الأسرة التاسعة عشرة، ووالد رمسيس الثاني. حكم في الفترة ما بين (1306-1290).
تمثال الشبتي	شكل مومياوي صغير مصنوع من الخشب أو الخزف يوضع في المقبرة لأداء بعض المهام نيابة عن الفقيد في الحياة الآخرة.
شيبسكف	آخر فراعنة الأسرة الرابعة حكم في الفترة ما بين (2472-2467).
سيجا	لعبة يتم فيها تحريك قطع. وهي مأخوذة من لعبة مصرية قديمة على الأرجح.
سمنكرع	فرعون من الأسرة التاسعة عشرة حكم في الفترة ما بين 1333-1335 ويعتقد بعض العلماء أن هذا الفرعون هو في الحقيقة الملكة نفرتيتي التي حكمت بعد موت زوجها أخناتون.
سنفرو	الملك الأول للأسرة الرابعة حكم في الفترة ما بين 2575-2551.
أيقونة	قطعة حجرية أو خشبية عليها نقوش.
سوسة	عاصمة بلاد الفرس قديما؛ إيران حاليا.
التفتيش	مكتب التفتيش.
ترمس	نوع من البقوليات.
طيبة	اسم أطلقه اليونانيون على واسط القديمة؛ الأقصر حاليا.
تحوت	إله مصري قديم للكتابة والحساب عادة ما يرمز إليه بجسم إنسان ورأس طائر أبو منجل.
تورية	مجرفة.
تونة الجبل	موقع قديم في مصر الوسطى بالقرب من مدينة ملوي.
تحتمس الثالث	فرعون من الأسرة الثامنة عشرة حكم في الفترة ما بين (1479-1492).
واسط	الاسم المصري القديم للأقصر.
يويا وتجويو	زوجان من النبلاء عاشا في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وهما جدا توت عنخ آمون. وتقع مقبرتهما في وادي الملوك – KV46– وتم اكتشافها في العام 1905. وحتى تم الكشف عن مقبرة توت عنخ آمون كان اكتشاف مقبرتهما يعد أحد أهم الاكتشافات في تاريخ مصر.
الزمالك	منطقة في القاهرة تقع في الجزء الشمالي من الجزيرة.

شكر وعرفان

ساعدني

لقد حظيت بمساعدة الكثيرين في كتابة هذا المؤلف.

ساعدني الكثيرون في كتابة هذه الرواية التي لم تكن لترى النور وتغزو دور النشر لولا نصحهم وإرشادهم ودعمهم.

أود التوجه بشكر خاص إلى مساعدتي لورا سوسيسن التي ناصرتني عندما خذلني الآخرون، والشكر للمحرر سيمون تايلور خبير التنقيح الذي لم يكل أو يمل من مراجعة الرواية مرارا وتكرارا.

جدير بالذكر أن نيكولاس ريفيز، وإيان شو، وستيفن كواريك لم يألوا جهدا في تقديم النصح حول تاريخ ولغة مصر القديمة ولذا أدين لهم بالعرفان والاعتذار عن تطويعي للمعلومات التي أمدوني بها لخدمة هذه الرواية.

كما يسعدني تقديم الشكر والتقدير لستيفن ألف الذي أكمل لي ما ينقصني من معرفة باللغة العربية، وكذلك جيمس فريمان الذي أحاطني علما باللغة اليونانية القديمة، والشكر كذلك لأندرو سبلودج روجيرسون وتوم بلاك مور للتعليقات القيمة التي قدماها في كتابة المخطوطات.

ومن بين الأصدقاء الذين أمطروني بكلمات التشجيع أود أن أخص أربعة منهم بالذكر جون بانون، ونايجل توينج، وزان بروكس، وبروملي روبرمتس.

ختاما لا يسعني سوى التقدم بكل الشكر والعرفان إلى عمتي جوان التي غرست في قلبي حب مصر القديمة، وعززته بقصصها الممتعة وقت الظهيرة في المتحف البريطاني.

كما لا يفوتني توجيه أسمى الشكر والعرفان إلى أحق الناس بها وهم أصدقائي المصريون الذين أحاطوني بالدفء والود والكرم.

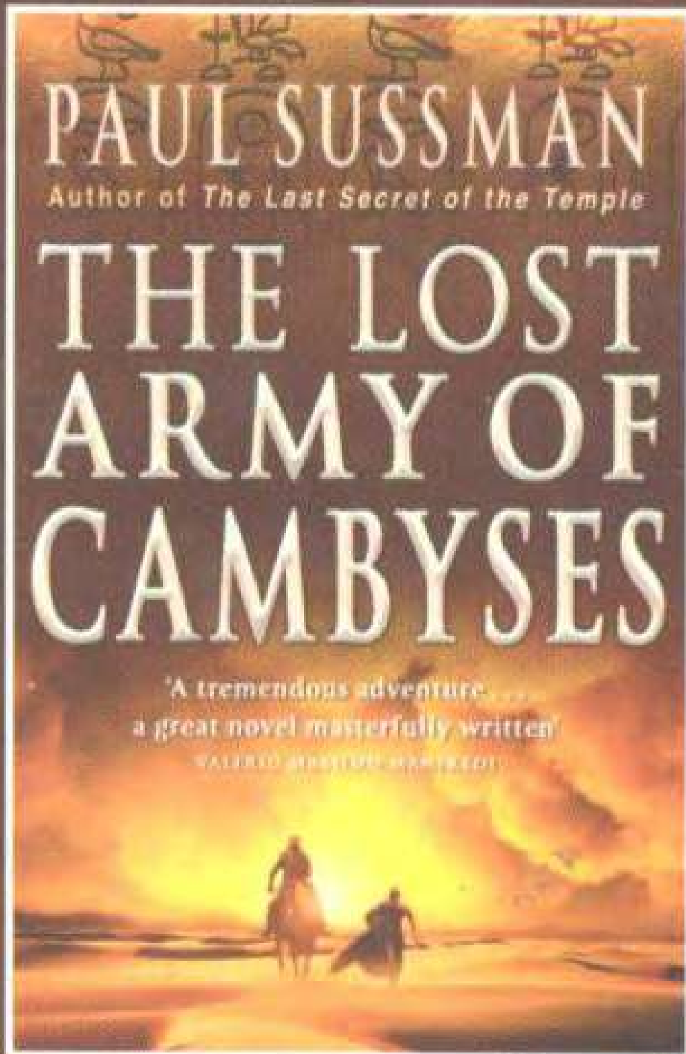
قيل عن رواية «جيش قمبيز المفقود»

«مغامرة هائلة تمثل إحدى أكثر قصص الماضي غموضاً، كُتبت بعناية فائقة».
– فاليري ماسيمو مانفردري مؤلف «الأسبارطي»

«مغامرة مروعة، وأحياناً مؤلمة، ولكنها تستحوذ دوماً على الفكر بطبيعتها المثيرة. وبالنظر إلى الرواية نجدها تعكس مدى معرفة سوسمان بحاضر مصر وماضيها وبراعته في اختلاق أبطال من الجنسين، إضافة إلى شخصيات غاية في الوضاعة».
– د. باربارا ميرتز – عالمة آثار

«في النهاية، هي رواية مثيرة تدور أحداثها بعيداً عن التكرار المبتذل كما كان الحال في القصص الشبيهة بلعنة توت عنخ آمون. ونظراً للحفريات التي قام بها پول في مصر بنفسه، فيمكننا الوثوق بالتفاصيل الواردة في خلفية القصة... كما أن تسارع وتيرة الحبكة يُعتبر من أفضل الأشياء الواردة في هذه الرواية. تجدر الإشارة أيضاً إلى الوصف الرائع لرياح الخماسين التي ذكرها سوسمان ومن واقع تجربته المروعة مع هذه الظاهرة».
– صحيفة «سكوتلاند أون صنداي»

«رواية مثيرة ترتعد لها الفرائص، متسارعة الوتيرة، وتحتوي على مقومات مغامرات جيمس بوند، فيها أماكن غريبة وآثار لا تقدر بثمن وأشرار متعصبون ذوو نفوذ واسع، إضافة إلى عمليات قتل وحشية ورجال شرطة فاسدين وبطولات إنسانية تجعلك تحبس أنفاسك حتى تصل إلى الفصل الأخير. من النادر أن تعثر على رواية كهذه تجعل ضربات قلبك تتسارع مع الانتقال بين صفحاتها خائفاً مما قد يظهر في الفقرة التالية. بالنسبة لأسلوب الرواية نجده يشبه أسلوب باتريشيا كورنويل في قصصها الأولى. ولا شك أن الإثارة المتلاحقة في هذه الرواية لن تجعلك تتوقف عن قراءتها».
– صحيفة «صنداي بزنس بوست»



«رواية غنية في نصها قائمة على بحث معمق وخبرة واسعة سريعة الإيضاح بحيث تتزاحم عمليات القتل والتشويق بشكل مبتكر».
– مجلة «ببليشرز ويكلي»

«مغامرة تاريخية رائعة ترتعد لها الفرائص، وتُمسرح بواقعية مثيرة للمساحات الصحراوية الشاسعة، خاصة في النهاية السينمائية الرائعة للرواية».
– مجلة «ويلدين تايمز»

ISBN 978-9953-87-349-7


مكتبة مدبولي
Madbouli Bookshop
6 ميدان طلعت حرب – القاهرة
ت: 756421


الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com
ص. ب. 5574-13 شوران 2050-1102 بيروت – لبنان
هاتف: 785107/8 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb